ايريس مردوخ

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع.ح

رواية

ترجمة : فؤاد كامل

حلم برونو

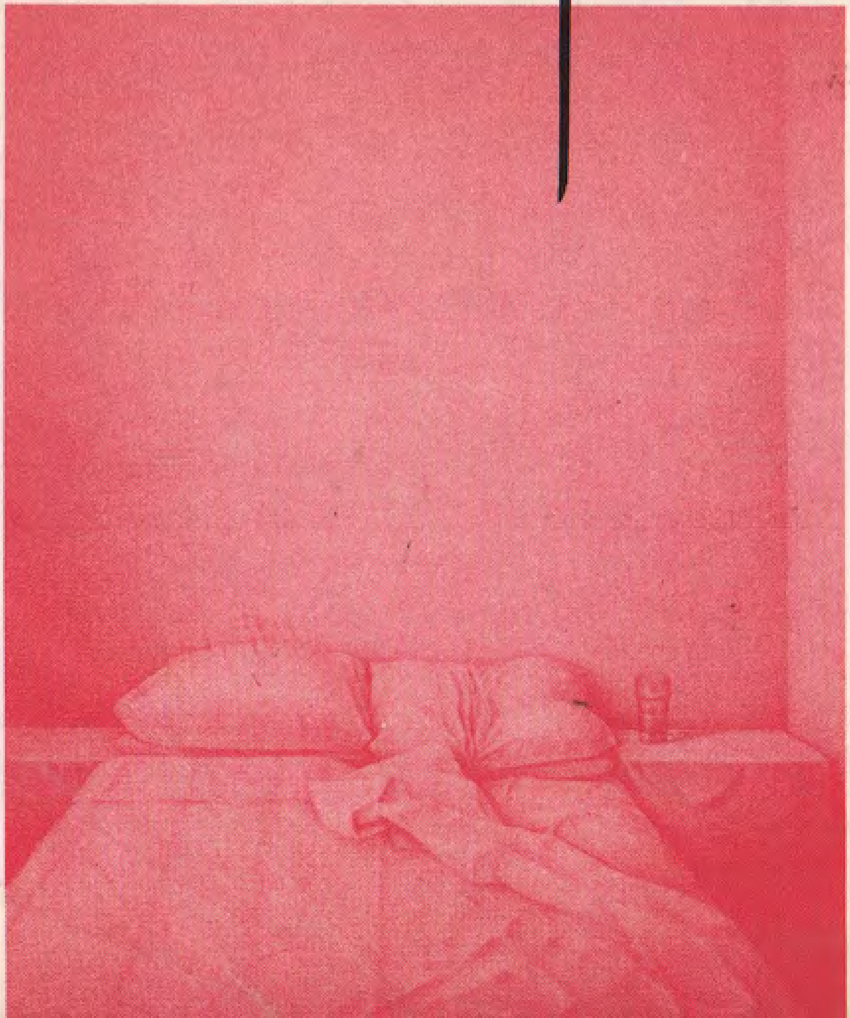

دار الآداب

آيريس مردوخ

حلم برونو

ترجمة

فؤاد كامل

دار الآداب - بيروت

twitter @baghdad_library

جميع الحقوق محفوظة

مكتبة بغداد
@BAGHDAD_LIBRARY
ج.ج.ع. ح

الطبعة الأولى
١٩٩١

(١)

كان برونو يعود إلى اليقظة والحجرة تبدو مظلمة، فأمسك عن التنفس، وهو يقيس مدى هذه الظلمة، متسائلاً أهي ظلمة الليل أو النهار، الصباح أو المساء. فلو كانت ظلمة الليل لكان الأمر سيئاً، بل لعله أن يكون بشعاً. وقد يكون العصر بشعاً أيضاً إن كان قد استيقظ مبكراً جداً. أصبحت دراما النوم واليقظة شغله الشاغل، شيئاً مخيفاً، الآن بعد أن استحال الوعي نفسه عبئاً ثقيلاً إلى أقصى حد. ولا مناص للمرء من أن يكون ماكراً. ولهذا لم يكن يسمح لنفسه أبداً أن تغفو في أوقات الصباح خوفاً من ألا يقدر على النوم بعد وجبة الغداء. وكان قد استبعد مشاهدة التلفزيون استبعاداً تاماً بما فيه من حزن زائف، ولما يقدمه من صور الحرب.

ربما غافله النعاس وهو يقرأ كتابه. وقد تراءى له ذلك الحلم مرة أخرى، ذلك الحلم عن جاني وموررين ودبوس القبعة(*). فأخذ يتحسس ما حوله، وشرع يتحامل على نفسه للنهوض قليلاً على وسائده، وقدماه المُجَوْربتان تعبثان من الداخل بالقفص المعدني، فتخلَّص بذلك من وطأة البطاطين عليهما. أغطية الفراش الضيقة سبب رئيسي في تشويه الأقدام. وإن لم تكن قدما برونو أمراً يعنينا كثيراً في هذه المرحلة.

حمداً لله، لم تكن هذه الظلمة ناشئة عن الليل!

(*) Hatpin دبوس طويل للزينة تشبك به المرأة شعرها والقبعة. (المترجم).

twitter @baghdad_library

كـان العقل والجسـد المنكمشان يتململان، وهما يكتشفان نفسيهما في الزمان. فتذكّر، أو لعله عَرَف إلى حد ما، أن الوقت كـان عصراً. وكانت الستائر مُسْدلةً بإحكام، غير أن وهجاً بـارداً ضاربـاً إلى الحمرة كـان يوشّي حـوافيها. لا بـد أن الشمس تسطع في الخـارج، شمس الربيـع التي تبعث القشعـريرة في الأجسـاد، وهي تلقي ضـوءاً كئيبـاً عـلى لنـدن الغـارقـة في الآثام، وعلى نهر التيمس بفيضـانه، وعـلى الأبراج المتجهمـة ذات الحلقات التي تعلو محـطة «لوتْس رود» Lots Road لتـوليد الـطاقـة، والتي يمكن أن يشاهدها المرء ظاهرة من النافذة، عندما تـأتي «أديليد» في السـاعة الخـامسة لإزاحة الستائر. وتناول نـظارته، وأمسـك بساعتـه ورفعها في اتجـاه الحافـة المعتمة للستار، وتبينَّ أنها تشير إلى الرابعة والربع. وتسـاءل إن كان لا بـد له من أن ينـادي عـلى «أديليـد»، ولكنـه قـرر العـدول عن هـذا النـداء. في استطاعته أن يقضي ثلاثة أرباع الساعة المتبقية دون تلك الفـظائع. وفضـلاً عن ذلك، كانت «أديليد» خادمة تسهل إثارتها إلى حـد ما، كـما أنها كانت تكـره تلك الاستدعـاءات التي قد تكـون في غير أوانها. أو لعلهـا لم تصبح سهلة الإثارة إلا في السنة الأخيرة فحسب. أكانت تحطِّم أفضل ما لديه من أواني لغرضٍ في نفسها؟ كما كانت هناك دائماً «فتافيت» على الصينيـة. لقد بلغ من الكِبَر عتيّاً، وطال به المـرض إلى درجة تبعث على الضجر الشديد.

لم تُحْمل إليه اليوم أيةُ رسـائل. وربمـا لن يحمل إليـه العصر شيئاً منهـا. ولكن، عندما حانت الساعة الخامسة كان اليوم في أدفأ فتراته، أفضل وقت حقاً، بشايه وفطائره الرقيقـة، وشطائـر الأنشوجـة، وذلك النـوع الجيد من المـربى، وصحيفة «الإيڤنـنـج استانـدارد»؛ ثم عودة «دينبي» إلى البيت قـادماً من المطبعة. وألطف من ذلك كله أن يكون الوقت شتاء حين تتـأجج نـيران الفحم في حجرته، بينـما يسود الـظلام في الخارج. أمـا شمس الربيـع الصافيـة فهي عدوه الألد، كما كانت أمسيات الصيف المضجرة عذاباً للعقـل أي عذاب!

وفي هذه اللحظة كان يود لو استمتع بشيء من نيران الفحم، غير أن هذه الأمنية تحتاج إلى كثير من العمل، وحتى «نايجل» الذي كان يفكر في معظم الأمور، لم تخطر له هذه الفكرة على بال. وكان برونو يطيب له أن يتناول الشاي بحيث يطيل فترة هذا التناول إلى أقصى ما في وسعه، ثم يقرأ صحيفة «الإيڤننج استاندارد»، بادئاً بمسلسلات الصور المتحركة (الكرتون)، ليستمع بعد ذلك من الإذاعة إلى أخبار الساعة السادسة، وبعدها يتحدث إلى «دينبي» حوالي نصف الساعة، لا عن العمل بالطبع، ولكن عن الأشياء المضحكة التي صادفت دينبي في يومه ذاك. وربما لعب بعد ذلك لعبة التليفون أو نظر إلى طوابع البريد، حتى الساعة السابعة، وحينئذ يستطيع أن يبدأ في احتساء الشمبانيا، وأن يطالع بعض الكتب التي تدور حول العناكب، أو قد يقرأ رواية بوليسية. فإذا حان موعد العشاء حمله إليه «نايجل»، وقد يتحادث مع «نايجل» قليلاً، ثم يبدأ «نايجل» في إعداده لاستقبال الليل.. نايجل المبطَّن بالنعومة ذو الأصابع الملائكية. أما دينبي فكان يقول عن نايجل إنه ليس أهلاً للثقة، وقد هدده بالفَصْل ذات مرة. ولهذا لم يكن ينبغي أن يعرف «دينبي» أن «نايجل» كسر الكأس الذي ابتاعه برونو من مدينة سيملا(*). وكان ينبغي أن يتذكر «برونو» أن يقول إنه هو الذي كسره بنفسه.

غير أن دينبي لم يكن في استطاعته أن يأمر نايجل بالرحيل إن لم يكن برونو الذي يريد ذلك. والواقع أن نايجل لم يكن ممرضاً مدرباً، إنما كان مجرد «تمرجي» أو شيئاً من هذا القبيل، غير أنه كان بارعاً في ترتيب الوسائد ومساعدة المريض على الخروج من الفراش، كان لطيفاً كل اللطف. وكان

(*) عاصمة هيماشال برادش Himashal Pradesh التي تقع في منطقة معزولة من البنجاب. (المترجم).

twitter @baghdad_library

«دينبي» صهراً عطوفاً على برونو. ولم يكن ينوي إطلاقاً إرسال برونو إلى دار للمسنين، هذا شيء كان يعرفه برونو. وقد مضت أعوام منذ أن ألح دينبي إلحاحاً لا عدول عنه على أن يأتي برونو للبقاء معه، حتى يتمكن من العناية به. كان دينبي ودوداً، وإن كان الأمر كله يرجع بالطبع إلى مسألة مزاج وصحة جيِّدة، وجوع دائم، واستعداد لقبول أية دعوة للشراب. وقد كان دينبي من ذلك الطراز من الرجال الذي لو شاهد المدينة كلها تنهار أمام عينيه لما امتنع عن الابتهاج إذا عرض عليه أحدٌ كأساً من الخمر. والله وحده يعلم ماذا رأت ابنة برونو في دينبي، فقد كانت جوين (ابنة برونو) فتاة جادة قوية الشخصية، على حين كان دينبي متسكعاً بين الحانات. ولكن يبدو أن النساء جنس يستعصي تفسيره. ومع ذلك، كان يبدو أن كلاً منهما يحب الآخر. وكان دينبي يتذكر ذلك حق التذكر، وإن انقضى زمن طويل منذ أن توفيت جوين المسكينة.

كان برونو يستطيع أن يرى الآن في عتمة الحجرة حدبة قفص القدمين، والصندوق الخشبي الفخم موضوعاً على المائدة، وهو الصندوق الذي يحتفظ فيه بمجموعة الطوابع، وزجاجات الشمبانيا على خزانة الكتب التي يعلوها رف رخامي. وعلى مقربة منها على الجدار علّقت في إطار مربع صورة زوجته جاني. وكانت «جاني» قد توفيت منذ عشرين عاماً قبل «جوين»، ولكنهما تبدوان منه الآن على بُعد متساوٍ من الزمان. أما صورة جوين فما زالت في الطابق السفلي موضوعة على البيانو، فلم يكن في إمكانه إقناع نفسه بطلب إحضارها. ومنذ ثلاثة أسابيع سمع «أديليد» وهي تقول لنايجل «إنه لن ينزل درجات هذا السلَّم بعد الآن أبداً» وحينذاك شعر بإحساس من الجور، وبرجفة من الذعر. كيف يمكن أن يسلِّم بهذه العبارة «بعد الآن أبداً»؟ حقاً، إنه لم يهبط هذا السلَّم منذ أكثر من شهر، ولكن ليس هذا هو ما تعنيه: «بعد الآن أبداً!».

فما زال في استطاعته أن يذهب إلى دورة المياه بيسر تام. ومع ذلك لماذا يتحدث نايجل دائماً عن الأحواض المتنقلة الصغيرة التي تعفي المريض من الانتقال إلى دورات المياه، وقوله إنها سهلة تماماً، واقتراحه بأنه أصبح بكل تأكيد من التعب بحيث لا يستطيع الانتقال إليها.

أكان نايجل يُعدُّه لتلك الساعة؟ طيب، ولكنها لم تأت بعد. كان واثقاً من ذلك، وإن لم يكن يريد أن يعلم ما كان دينبي والطبيب الأحمق يتهامسان به عند البسطة. لقد قال الطبيب المأفون إنه قد يمتد به العمر أعواماً. قال: «سوف تعيش بعدنا جميعاً!» وهو يطلق ضحكته الصحية وينظر في ساعته. قد تعني الأعوام أي شيء.. ولكن ينبغي أن يعيش ثلاثة أعوام على كل حال... ينبغي عليه أن يفعل ذلك حتى يخادع في ضريبة الدخل، ولهذا كانت الأعوام الثلاثة التي ينبعي أن يحياها مطلباً قانونياً.

وناجى برونو نفسه قائلاً: إذا كان لا بد لي من التفكير في الموت فلأفكر في واجباته. ولم يكن في هذا التفكير بالطبع شيء من الغيرية، وإنما كان الأمر أقرب إلى أن يكون عجزاً مرضياً، حتى وهو في حالته الحاضرة، أن يجرد نفسه من الإحساس بالمِلْكية. كانت المسألة كلها محيّرة تماماً. والحق أنه كان يشعر اليوم بأن تفكيره مشوّش إلى أبعد حد، وذلك بسبب تلك الأقراص، وإن كانت توقف الألم فعلاً. أو لعل أقراص البروميد المنومة هذه كانت تعمل على تسميمه شيئاً فشيئاً. وكان تفكيره يختلط في بعض الأحيان، فيشعر شعوراً مضطرباً لا يشبه في شيء الاهتياج الذي تسببه الشمبانيا، فيسمع نفسه يتحدث بصوت مرتفع دون أن يعرف عما يتحدث. إن مليون خلية من خلايا المخ تتحطم يومياً بعد سن الخامسة والعشرين، أخبره بهذا دينبي ذات مرة، وكان قد قرأ ذلك في صحيفة يوم

twitter @baghdad_library

الأحد. أمِن الممكن أن تتبقى أية خلايا بهذا المعدل حين يتجاوز المرء سن الثمانين؟ بهذا تساءل برونو. لقد مرت به أيام أصفى من ذلـك. وكان الألم الآن أقـل كثيراً عن ذي قبـل. شيء عجيب هذا الـذي يستطيـع العلم أن يفعله. يجب عليه أن يعثر على فعل من أفعال الهبة لإهداء مجموعة الطوابع إلى شخص ما لكي لا يدع ضريبة الدخل تستولي عليها. مجموعة الطوابـع هــذه يمكن أن يبلغ ثمنهـا عشرين ألفـاً من الجنيهــات. عشرون ألفـاً من الجنيهات معفاة من الضرائب شيء يستحق كل إنسان أن يحصل عليه. كم كان أبوه يكره أن يمنحها له في نهاية حيـاته! ومـا زال في استطاعتـه أن يرى بـوضـوح، صـورة صغـيرة ملونـة في ركن صغـير من عقله، اليـد البيضـاء النحيلة وهي تدفع بالصندوق ناحيته على المنضدة المصنوعة من المـاهوجني، وأبوه المحتضر يقول له في مرارة: «سـوف تبيعها، يـا برونـو، أيها الأحمق، وسوف ينطلي عليك خداعهم عـلى أحسن وجه». ولكنـه لم يبعها، بـل لقد أضـاف إليها قليـلاً، وأحبها قليـلاً، وإن لم يكن أبداً كـأبيه عـاشقاً جـاداً للطوابـع. وإنما احتفظ بهـا ليوم أسـود، وها هي حيـاته الآن تـوشك عـلى نهايتها ولم يصادف بعدُ هذا اليـوم الأسود. كـان يستطيـع أن يقوم بـرحلة حول العالم، أو أن يشتري الأعمال الفنية العظيمـة وأن يستمتع بهـا. أو أن تكون له مائدة حافلة بالمحار والكافيار كل يوم، أو أن يتبرع بها لأوكسنام. وكان يريد أن يعرف كيف تكون معاملة الهبـة ضريبياً، ولكنـه لم يكن يحب أن يسأل دينبي. كان دينبي رؤوفاً، ولكنه كان رجلاً دنيوياً إلى أبعـد حد. ولا بد أنه يسائل نفسه عمن سيحصل عـلى الطوابـع. وبرونـو يتساءل هـو أيضاً: صهره دينبي أم ابنه مايلز؟ ولكن، ها هي سنوات طوال تنقضي منذ أن رأى مايلز لآخر مرة. لقد نبذه مايلز منذ زمن طويل.

كانوا يسببون له جميعاً طيلة الوقت أشـد الآلام، دون أن يدروا. وكـان في استطاعته أن يخمِّن افتراضاتهم، وأفكـارهم التي لم تعد تنتهي عنـده، وإنما تمضي متجـاوزة إيّاه إلى ذلـك الزمـان غير المتخيـل حين لا يعـود لـه وجـود.

لقد أصبح بالنسبة إليهم مسخاً لا إنساناً. «ما هو إلا رجل عجوز عجيب!» هذا ما وصفه به أحدهم منذ سنوات لا يريد أن يحصيها. فماذا يكون الآن؟ إنه في وعيه الخاص لم يكن عجوزاً على الإطلاق. يستطيع أن يرى يديه وقد شاختا. لاحظ ذلك في شيء من الحيرة حين كان يمر بهذين الشيئين المعروقين اللذيْن جف ماؤهما وغطتهما بقع كثيرة، فوق اللحاف. وكان قد انقطع عن النظر في المرآة وإن كان يشعر أحياناً بشبح وجهه الأصغر كثيراً كأنه قناع. ولم يكن يختلس النظر إلى نفسه إلا في عيون دينبي وأديليد التي تتحاشى النظر إليه، وفي ترددهم البالغ الحساسية الذي لا يستطيعان إخفاءه. لم يكن ذلك بسبب الرائحة فحسب، بل بسبب النظرة. كان يعرف أنه صار مسخاً، له رأس حيوان، رأس ثور، مينوتور(*) Minotaur حبيس. أصبح له الآن وجه يشبه واحداً من عناكبه، قد يكون إكسيستيكوس Xysticus، أو أكسيبتيلا Oxyptila وهي عناكب لها وجوه تشبه الضفادع. وتحت الرأس الضخم البارز يمتد الجسم النحيل الذي اتخذ ـ مصادفة ـ الشكل الإنساني، مجرداً من القوة، هزيلاً، مستطيلاً، تنبعث منه رائحة. كان يعيش الآن في أنبوبة، مثل آتيبوس(*) Atypus، فاستحال إلى أنبوبة. Soma sema. كان جسده مقبرة حقاً، مقبرة متنافرة خالية من الجمال. كم يبدو له الموت مختلفاً الآن عما كان يبدو له منذ أعوام ثلاثة عندما كان لا يزال محتفظاً بشعره الأشيب. لا شأن للموت الحقيقي بالمسلات والزوايا. فلا عجب إذن في أنهم كانوا جميعاً يزورُّون بعيونهم عنه.

كان من الممكن أن تكون ورش الطباعة نوعاً من الأثر الباقي الذي يستطيع أن يتركه من بعده، لولا أنه كان يرى في هذه الورش عملاً من أعمال أبيه الإبداعية. «جيتر وجرينسليف» Gayter and Greensleave.

(*) حيوان خرافي نصفه على صورة رجل ونصفه الآخر على صورة ثور.

(*) نوع آخر من العناكب.

twitter @baghdad_library

وكـان ينبغي أن تكـون الآن «جـرينسليـف وأودل» Greensleave and Odell بعـد أن تـولى دينبي الإشراف عليهـا، غـير أن دينبي رفض تغيـير الاسم مع أن «جيتر» رحل عن عالمنا هذا منذ أربعين عـاماً. وقـد تعرضت هذه الورش لأزمة طاحنة بعد الحرب عندما أصبح من العسير الحصول على قطع الغيار لآلات الطباعة الأمريكيـة، غير أن الأحـوال تحسّنت بعد ذلـك إلى حـد ما. هـل كان ذلـك التحسن راجعـاً إلى دينبي؟ كـان التنـوع هـو السر، وعدم الترفع عن قبول أية صفقة: برامج، كتالوجـات، منشورات، إعلانات، بطاقات البينجو Bingo Cards، مجلات الطلبة، ورق الكتابة. وقد بذل برونو أفضل ما في وسعه من أجل هذا المكان. وكـان قد ولـد من أجله وفي سبيله، وفيه ـ من الناحية العملية، وقرقعة آلات المونوتيب تـتردد في أذنيه الطفوليتين. غير أنه لم يشعر قط بالراحة بين عمال الطباعة، وظلت رطانتهم الخاصة الغريبـة لغة أجنبيـة بالنسبـة إليه. وكـان يشعر دائمـاً بشيء من الخـوف من تلك الورش، كـما كـان يخـاف من الخيـول التي كـان أبـوه يُكْرهه في طفولته على امتطائهـا. غير أن الأمـر كان مختلفـاً بالنسبـة لدينبي الذي لم يكن لديه مَيْل طبيعي أو مواهب خلاّقة، بل إنه لم يكن مثقّفاً، ولم يشتغل بالطباعـة إلا بعد أن تـزوج جوين، وكـأن هذا هـو الشيء الطبيعي الـوحيد فـي العـالم. غير أن بـرونو الـذي لم يكف عن التفكير في أن دينبي أحمق ـ كره منه أن يأخذ الأمر بهذا الهدوء. ومع ذلك، فقد أثبت دينبي أنه رجل الأعمال الحق.

أراد برونو أن يدرس «علم الحيوان». ولم يكن يريد أن يدخل في أعـمال الطباعة، وجعله أبوه يـدرس الكلاسيكيـات وأن يشتغل بـالطبـاعة. كيف صنعه على هذا النحو؟ هذا شيء لم يستطيع برونو أن يتذكـره. ذلك أنـه لم يكن يتصل بأبيه اتصالاً حقيقيـاً إلا عن طريق العمـل وحده، ومن خـلال المال وحده.

وبسبب بعض العقوبات، كاد أن ينسى تقريباً كل شيء عن أبيه الذي ظل مع ذلك مصدراً للطاقة السلبية في حياته ومنبعاً للسخط والنفور، وثقباً تنضب من خلاله الأشياء. وإن وجهه ليتضرج حتى الآن خجلاً حين يتذكر أباه، وما زالت كراهيته القديمة تنبعث في نفسه حتى الآن بكل جِدَّتها وقتامتها دون أن تختلط بها أية صور. هذا بينما يستطيع أن يستحضر صورة أمه في غاية من الوضوح، وأن يسترجع تلك الابتسامة المتوترة الخاصة التي كانت ترتسم على محياها وهي تحاول إقناع زوجها؛ وكانت نبرات صورتها تأتي إليه في وضوح خلال فترة امتدت ثمانين عاماً وهي تقول: «جورج، ينبغي أن تكون ألطف من هذا مع الغلام».

حدَّث برونو نفسه قائلاً: لا بد أنني كنت متوحداً، أعيش في بلدي مثل قسّ من القرن الثامن عشر - مع كتبي في اللاهوت، وعناكبي. وكانت السعادة الحقيقية في حياته، والشيء الذي ضيَّعه تماماً - يأتي إليه دائماً مرتبطاً بأمه، وبذكريات عن ليالي الصيف عندما كان في السادسة عشرة وهو يشاهد في نور مصباحه الكهربائي الصغير الطقوس التي يؤديها العنكبوت الضخم الوسيم دولوميدس Dolomedes أثناء وضعه للبيض.

يا لهذه العناكب، العناكب، العناكب.. هذه الكائنات الأرستقراطية في عالم الزواحف! إنه لم ينقطع يوماً عن حبّها، ولكنه خانها منذ البداية إلى حد ما. إنه لم يعثر أبداً على عنكبوت من فصيلة «الزنجي الثائر» Eresus niger، وإن كان يقينه في العثور على واحد منها في صباه يبدو أنه كان صادراً مباشرة عن الله. وقد تحول مشروع كتابه عن «ميكانيكا خيوط العنكبوت» إلى مجرد مقالة. أما كتابه الأكثر طموحاً: «عناكب متنزه باترسي» The Spiders of Battersea Park، فقد تقلص إلى مقالتين. وبحثه عن حياة س. أ. كليرك C.A. Clerck ومؤلفاته فلم يُنْشر أبداً. وكتابه عن: «العناكب الصائدة الكبيرة» The Great Hunting Spiders - لم يتجاوز

twitter @baghdad_library

مرحلة التخطيط. وقد ظل أعواماً عدة يراسل فلاديمير پوك Vladimir Pook عالم الحشرات الروسي الشهير، وكان كتاب «پوك» المكوّن من مجلدَيْن عن «العناكب السوڤيتية» الذي أهداه إلى ب. جرينسليف، الصديق الإنجليزي والعاشق الصادق للعناكب ـ كان هذا الكتاب من أعز ممتلكاته. غير أنه لم يقبل قط دعوة «پوك» لزيارة روسيا، وكان «پوك» هو الذي كتب له الخطاب الأخير في التراسل بينهما.

كان يسائل نفسه: ماذا حدث له؟ وفيم كل هذا؟ وهل يهم الآن بعد أن انتهى عملياً كل شيء؟ وقال لنفسه: لم يكن كل شيء إلا حلماً، والإنسان يعيش خلال الحياة في حلم، وما أصعب هذا كله! إن الموت يرفض الاستقراء. وليس هناك «ما» بالنسبة إليه لكي يكون «هذا كله». لا وجود لشيء سوى الحلم، ونسيجه، وماهيته، وفي أمورنا الأخيرة لا نبقى إلا في حلم شخص آخر، ظل داخل ظل، يتلاشى، ويتلاشى، ويتلاشى. وكان من الغريب أن يفكر في أن جاني وجوين وأمه وكل من عرفهم كانت مورين بالقياس إليهم الآن توجد وجوداً أشد، وأكثر واقعية هنا في عقله، أكثر مما يوجدون في أي مكان آخر من العالم.

إنهم جزء من حياته ـ الحلم، هذا ما فكر فيه ـ وهم قد اندمجوا في وعيه كما تندمج العينات في الفورمالين. النساء جميعاً في شباب أبدي، على حين طعنّ في السن كما طعن تيثونوس(*) Tithonus وسرعان ما يصبحن أقل واقعية. هذا النسيج الذي تُصْنع منه الأحلام، هذا النسيج الذي هو نسيج حلمه والذي يشعر به بكل هذه القوة، سينتهي في لحظة ما ويذهب

(*) تقول عنه الأساطير اليونانية إنه ابن لاوميدون Laomedon الذي أحبته إيوس Eos ربةُ الفجر التي حصلت له على الخلود دون الشباب الأبدي، ومن ثم فقد طعن في السن حتى استحال إلى جرادة. (المترجم).

بدءاً، ولن يعرف أحد كيف كان حقاً. وكل الجهد الذي بذله لكي يصنع نفسه يبدو الآن غروراً بعد أن لم تعد ثمة أغراض. لقد اجتهد كثيراً، وتعلم الألمانية، ودرس الإيطالية... كل هذا يبدو له الآن على أنه كان غروراً، ابتغاء لحظة لم تأتِ أبداً، للتأثير على شخص ما، لكي ينجح، ويكون موضع الإعجاب. ولقد كانت جاني تتحدث بلغة إيطالية غاية في الجمال.

وناجى برونو نفسه قائلاً: كلما طعن المرء في السن، صار أقل تمسكاً بالأخلاق، لأن ما بقي له من العمر أقل، ولهذا فهو أقل اكتراثاً، وبالتالي يصبح المرء مهملاً. هل هناك ما يهم الآن وقد بلغنا نهاية المطاف؟ ألا يوجد شيء حقاً خارج الحلم؟ لم يعبأ قط بالدين، فقد ترك ذلك للنسوة، وكانت رؤيته للخير لا ترتبط بالإله، وإنما ترتبط بأمه. وكانت جدته تؤدي صلوات المساء كل ليلة في حضور الخدم، وكانت أمه تذهب إلى الكنيسة كل أحد. أما جاني فكانت تتردد على الكنيسة في أعياد الميلاد وأعياد الفصح. وكانت جوين عقلانية. وقد ذهب معهم جميعاً، وعاش في وعي عَرَضيّ من حين إلى آخر خلال حياة المسيح وموته.

أهناك أية جدوى في أن يبدأ الآن في التفكير في هذه المسألة كلها، في إحياء فكرة أن يكون خيراً الآن، أو في فكرة التوبة، أو في أي شيء آخر؟ كان يحب أحياناً أن يصلي، ولكن ماذا تكون الصلاة، إن لم يكن هناك أحد؟ آه، لو كان يؤمن بالتوبة وهو على فراش الموت، أو بالخلاص الفوري! بل إن فكرة المَطْهر كانت تجلب العزاء إلى ما لا نهاية: أن يدوم ويتعذب في الحصن الأبدي لحب عادل شامل.. أو حتى فكرة صدور حكم... حكم على قسوته تجاه زوجته، وقسوته على ابنه.. حتى لو جرَّته لعنات جاني المحتضَرة إلى الجحيم.

لا بد أنها أعوام عشرة تلك التي انقضت على رؤيته لمايلز، وكان ذلك

twitter @baghdad_library

بسبب مستندات نقل ملكية المنزل الواقع في كنسينجتون Kensington، وكان مؤجراً، على حين كان مايلز يريد بيعه. وكان المنزل باسم جاني. وقد اشترته جاني بأموالها، وبالطبع كانت قد تركت كل شيء لأبنائها. وقبل هذا كان قد التقى بمايلز في جنازة جاني، ثم في جنازة جوين، ثم كانت هناك مقابلة أو مقابلتان من أجل المال. وكان مايلز - في برودة شديدة، وجفوة لا تعرف النسيان - يكتب إليه بانتظام تلك الرسائل المترفعة في أعياد ميلاد المسيح، وفي أعياد ميلاده قائلاً: إنني أفكر فيك دائماً بحب واحترام. ولا يمكن أن يكون صادقاً فيما يقول. كما يظن أن ابنه شخص ممتاز. وقد أعجب به لأنه رفض أن يعمل في المطابع، بل ربما أضمر له الحسد على ذلك. غير أن مايلز لم يفعل بهذا الامتياز شيئاً في حياته. وكان من الصعب عليه أن يصدق أن «مايلز» قد تخطى الخمسين. كان موظفاً مدنياً كفيّاً، هذا ما أخبروا به برونو - ولكنه لم يكن أبداً قريباً من القمة، ثم كان هناك كل هذا الهراء عن نظمه للشعر الذي لم يؤد به إلى أية نتيجة.

يا ليتَ بعض الأشياء لم ينطق بها اللسان! فالمرء يتفوه متسرعاً بأشياء لا يعنيها حقاً، ولا يفكر فيها، بل حتى دون أن يفهمها! ولا بد أن تُغْتفر للمرء مثل هذه الأمور المتسرعة، ولم يكن من العدل أن يُحَمَّل هذا العبء الأخلاقي بسبب أقواله المتسرعة، وأن يحمله سنوات طوالاً حتى أصبح شطراً ممسوخاً من نفسه دون إرادة منه. لم يكن يريد أن يتزوج مايلز من فتاة هندية. ولكن ما كان أسرعه إلى نسيان نظرياته حين واجهته فتاة حقيقية. ماذا لو أنهم تجاهلوا جميعاً ملاحظاته، أو جعلوه يقابل بارڤاتي Parvati، تركوه يلتقي ببارڤاتي بدلاً من الانسحاب وإقامة حاجز دائم من إساءته التي تورط فيها؟ ماذا لو أنهم كانوا على شيء من الرفق به، وفكروا معه بدلاً من هذا الترفع العقلي وهذا الغضب؟ حدث كل شيء بسرعة فائقة، ثم عُهِد إليه بهذا الدور وأُدين بسببه. وقال مايلز إنه قال كل هذه الأشياء التي كان واثقاً من أنه لم يتفوه بها أبداً. كانت هناك ضروب لا

حصر لها من سوء الفهم. وقد حاولت جوين محاولة ضئيلة. ولكن حتى جوين لم تملك الحس الذي يدفعه إلى الجدل معها كما ينبغي. ثم لم تلبث بارڤاتي أن لقيت مصرعها بعد الزواج بقليل. بل إنه لم ير صورة لها إلا بعد ذلك بكثير، وهي صورة التقطت لها مع جوين في هايدبارك وقد تعانقتا وطوقت كل منهما خصر الأخرى بذراعها. وكانت جوين قد أخذت ضفيرة بارڤاتي الطويلة الفاحمة ورفعتها لتستقر حول كتفها. وكانتا تضحكان. وحتى هذه اللقطة كان من الممكن أن تحمله إليهما.

لم يغفر مايلز شيئاً. ولعل موتها هو الذي ثبّته في هذا الحقد الذي لا نهاية له. وكان دائم الاستشهاد بهذه الملاحظة عن «الأحفاد الذين يحاكي لونهم سمرة القهوة». وهنا صدر حكم.. لن يكون لبرونو أحفاد. جوين ودينبي لم ينجبا أطفالاً، مايلز وبارڤاتي لم ينجبا أطفالاً، مايلز و ـ ولم يستطع برونو أن يتذكر اسم زوجة مايلز الثانية، لأنه لم يقابلها أبداً. أجل، لقد تذكر الآن، إنه ديانا.. مايلز وديانا لم ينجبا أطفالاً. أهناك الآن أية جدوى في محاولة الصلح، أياً كان معناه؟ إنه مجرد عُرْف جرى بين الناس على أن يكون المرء على علاقة طيبة بابنه أو بأبيه. الأبناء والآباء أفراد وينبغي أن يقوموا بالمجاملة التي تدفع إلى معاملتهم بوصفهم كذلك. فلماذا لا تكون لهم الميزة التي يمتلكها الأشخاص الآخرون الذين لا تربطهم رابطة وهي أن يفترقوا عن بعضهم البعض دون آلام؟ أو هكذا قال لدينبي منذ أعوام عدة، عندما سأله هذا الأخير عن علاقاته بمايلز. ومن المحتمل أن دينبي ـ حين سأل هذا السؤال ـ كان قلقاً على الطوابع.

وليس من شك أن كراهية مايلز بدأت ـ قبل ذلك بكثير ـ بمسألة مورين. هل أخبرتها جاني بها، أم أن الابنين هما اللذان تكهنا بها؟ كان يود لو يعرف ذلك. الابن والابنة الوسيمان بعيونهما السود ونظراتهما الناقدة اللوامة ـ يتهامسان، وينظران إليه دون ابتسام. أما جوين فقد عادت إليه

twitter @baghdad_library

بعد ذلك بزمن طويل، غير أن مايلز لم يعد إليه أبداً، وتسربت هذه المرارة القديمة إلى الأحداث التي وقعت بعد ذلك، بحيث بدا أن الذنبينْ قد حدثا في وقت واحد. وما من أحد استطاع أن يفهم مسألة مورين، وأصبح من المتأخر جداً الآن محاولة تفسيرها على الإطلاق أو تحديد الشخص الذي يُقَدَّم إليه هذا التفسير. ليس لدينبي الذي سوف يضحك، كما يضحك من كل شيء، من الحياة، وحتى من الموت. وهو الذي قال إنه يرى أن وفاة جوين كانت هزلية، وفاة زوجته ملهاة مضحكة. وكانت قد انقضت أعوام طويلة بالطبع، بعد تلك القفزة الرهيبة التي لا معنى لها من فوق الجسر. أيستطيع أن يفسِّر لمايلز مسألة مورين، وهل سيستمع إليه مايلز؟ لقد كان الشخص الوحيد الذي بقي في هذا العالم والذي ما زال مهتماً بها. أفي إمكانه أن يرغم مايلز على أن يراها كما كانت حقاً؟ أمن الممكن أن يغفر له مايلز نيابة عن الآخرين، أم أن المسألة كلها لن تعدو أن تكون جفوة وقسوة وزيادة أخيرة في البشاعة؟

وصفت جاني مورين بأنها بغيّ صغيرة مثيرة للشفقة. ولكن كم تبتعد الألفاظ، وبخاصة الألفاظ الغاضبة ـ عن الشيء الحقيقي الذي تهدف إليه! بالطبع، نالت منه مورين مالاً وفيراً. وأكرهته جاني على أن يحدد مقدار هذا المال. غير أن المال لم يتدخل في صلته الحقيقية بمورين، كما أنها لم تكن مجرد المعاشرة الجنسية أيضاً، وإنما كانت نوعاً من المسرة. كانت مورين بالنسبة إليه هي العذوبة، والبراءة، واللطف، والمرح، والطمأنينة. لقد اشترى لها ملاءات، وستائر جديدة، وأكواباً وأطباقاً. وكان لعبه مع مورين في تأثيث بيتها يمنحه من السرور ما لم يمنحه له بناء بيت الزوجية مع جاني. فقد كان هذا موضعاً لمشاجرات عديدة حول الأثاث الكلاسيكي القديم مع والدة جاني. وكانت جاني هي التي جهَّزت المنزل: إذ لم تكن تتوقع منه أن يعبأ بشيء كهذا. مورين تغني بصوتها الإيرلندي الذي يتميز به سكان ليڤربول: أمسك، ذلك النمر، أمسك ذلك النمر. مورين

تتهادى في تنوراتها القصيرة الجديدة. مورين، لا تضع إلا عقداً أزرق حول عنقها، وهي ترقص الشارلستون. وكانت شقتها الصغيرة المكتظة بأدوات مهنتها النسائية أشبه بعش طائر من بلاد غريبة نائية. وذات يوم، حين عاد إلى بيته مغطًى بالريش قال حين لاحظت جاني ذلك إنه كان في حديقة الحيوان. وصدقته جاني. وضحكت مورين ساعاتٍ عندما قصَّ عليها ذلك.

لعلها لم تكن البراءة. كيف كانت تعيش؟ لم يكن يبدو على الإطلاق أنها تبيع شيئاً من تلك القبعات. وكانت تقول إنها تعمل أحياناً مرشدة إلى المقاعد في دور السينما، و الحق أنها كانت تبدو له أحياناً كحورية من عصر السينما، ربة من ربات كهف الحب الوهمي. ولكنها تمتلك عدداً هائلاً من الثياب، وشقة فاخرة. وذات مرة، عثر عندها على منديل رجالي، فقالت إنه منديل أخيها. ومع ذلك، حتى الغيرة أصبحت - معها - تقليداً، نوعاً من اللعب أو المباراة، لعبة شخصية لذيذة، مثل لعبة الشطرنج التي شاهدها وهي تقوم بإعدادها في أحد المقاهي بقطع ضخمة جميلة حمراء وبيضاء فوق رقعة كبيرة من الخشب، في أول مناسبة وقع بصره عليها فيها. وتبيّن له فيما بعد أنها لا تستطيع لعب الشطرنج. وإنما كان الرجال الذين يلعبون الشطرنج أداة من أدوات الإغراء. هذا الاكتشاف افتتن به برونو افتتاناً شديداً. قالت إنها في الثامنة عشرة وأن برونو هو أول من قابلت من الرجال. وحتى هذه الأكاذيب كانت تتسم بالعذوبة. وهو يتذوقها ممتزجة بأحمر شفاهها في قبلات طويلة متمهلة متلاحمة. وناجى برونو نفسه قائلاً: يا إلهي، إن كل شيء يعود إليه، إنه يمكن أن يعود إليه حتى الآن باندفاعة دافئة إلى مركزها هذا الهيكل التخطيطي الذي جفت عصارته. كانت الرغبة الجسدية ما برحت تناوشه، وتنقض عليه، غامضة خرافية تارة، مختلطة بذكرياته عن مورين تارة أخرى، مصحوبة بصور فتيات ملونات كان يتعقبهن في الشارع ويعانقهن بنوع من الإثارة العاجزة في حجرات

twitter @baghdad_library

معتمـة في كِيْلبِرْن Kilburn وناتنـج هيل Notting Hill تـارة ثـالثـة بعـد أن توفيت جاني بأمد بعيد.

وحـدّث نفسه قـائلاً: مـا أشد ذلـك الطابـع الانتقائي الـذي يتسم بـه الذنب. إننا لا نتذكر ولا نندم إلا على الخطايا التي تربط بين حلقات حياتنا برباط ذي دلالة. فالأشخاص الذين نلتقي بهم في طريقنا عابرين سرعـان ما يـطويهم النسيان، مهـما يكن من عمق جراحهم. وإنمـا نندم عـلى الضعف الذي جعله شكلٍ حياتنا منسوباً إلينا. إذ إنه قبـل تلك اللحظة في هـارودز Harrods التي غيّرت عالمه، لم يكن يشعر بأنه اقـترف إثماً عـلى الإطلاق. وفيما بعد، عقب ذلك المشهد البشع الذي وقـع بين جـاني وموريـن، وبعـد أن أخذت مورين تبكي وراء ذلك الباب المغلق، أحـسّ بما في هذا المـوقف من عبء جاثم وفظاعة، وبما فيه من قبح وفضيحـة. لماذا تـزوجته جـاني، على كل حال؟ جاني ديڤلين ذات الأسلوب الخاص. لا بد أنـه تحول وقتيـاً بسبب الحب والطموح إلى ذلك الشاب الجسور اللّماح الذي كـانت تبتغيه. وكانت خيبة أملها باعثة على السخرية والرثاء.

وكان يبدو له أن صور جاني كلها تنتسب إلى فترة ما قبل الحرب العـالمية الأولى، إلى فترة الخطبة والزواج. أما الحرب نفسهـا فقلما كان يستحضرهـا لذاكرته. ذلك لأنه لم يشترك في القتال، إذ كان قـد تخطّى الثـلاثين فعـلاً، كما كان يعاني من قرحة في المعدة، ولهذا لم يكن يبدو عليـه أنه التفت إليهـا على الإطلاق. وكان والده قد قضى نحبه، فتولى الإشراف على المطابع التي كانت مزدهرة حينذاك في تلبية طلبيات الحكومة. أما والدتـه التي ذهبت إلى نورفولـك بسبب مناطيـد زبلين، فقد تـوفيت في عام ١٩١٦. هـذه الوفـاة صدمته أكثر من كارثة الحرب. وكانت صور جـاني أكثر إشراقـاً، وإن تكن أبعد ما تكون عن ذاكرته. ها هي تلعب التنس في ثـوب أبيض من الكتان الثقيل اخضرّت حافته بسبب احتكاكه بالحشـائش خلال أصيـل طويـل من

أيام الصيف. وها هي ذي تثرثر بالإيطالية في حفل دبلوماسي بينما كانت عيناها البراقتان الجريئتان تتطلعان بفضول إلى الرجال. وهذه جاني تقوم بتدوير مظلتها وقد أحاط بها المعجبون في «برود ووك» Broad Walk، وها هي جاني في مسرح سانت جيمس في الليلة التي طلب فيها يدها. ما أمرحها، وما أعذبها! وما أبعد ما يبدو هذا كله الآن بُعْداً لا متناهياً! أما مرح مورين فكان المرح المحموم لعالم لاحق أشد جهامة. «عند مفترق الطرق، تُنْتَزع مني أيامي السعيدة وتُتْرك لي الليالي الموحشة».

وقد تواطأ المجتمع ليجعل زوجين ارتبطا حديثاً يشعران بأنهما فاضلان. فالزواج رمز الخير، وإن لم يكن سوى مجرد رمز. وقد استمتع هو وجاني بفضيلتهما فترة طويلة. وسألته أمه التي لم ترضَ أبداً عن جاني - سألته في البداية: «أهي امرأة فاضلة؟» لم يكن هذا سؤالاً تقليدياً. فانتابته الحيرة من هذا السؤال ولم يعرف الإجابة عليه. وانقسمت علاقته بجاني إلى شطرين: الشطر الأول، وكان قبل هارودز - كان كل منهما يلعب دوره الاجتماعي، فيرتدي الثياب الأنيقة، ويكون موضع الإعجاب والحسد، ويعيشان في مستوى أعلى من طبقة برونو وموارده، وأنجبا طفلين وسيمين موهوبين. وفي الشطر الثاني - بعد هارودز - كان يبدو أنهما يعيشان وحيدين، يرتبط كل منهما بالآخر ارتباطاً حقيقياً في نهاية الأمر، في عزلة رهيبة مغلقة عليهما، بحيث أصبح كل منهما شيطاناً للآخر. قال لنفسه: لقد كانت جاني تسلك سلوكاً سيئاً نحوي، أو لعله حاول للمرة العاشرة بعد الألف أن يحصر الحكم، ولكنه لم يستطع. لقد قُتل أجاممنون في ليلته الأولى بعد عودته من طروادة إلى بيته. غير أن أجاممنون كان مذنباً، مذنباً. ولم تلبث جاني أن أصيبت بالسرطان بعد هذا بقليل، فألقت عليه اللوم.

لم يكن حبه لجاني في متناول ذاكرته، وإنما كان لا يعرفه إلا بشيء من البيِّنة. فلا بد أنها حطمته بمنهج منتظم خلال عهد الإرهاب ذاك. وهو لم

twitter @baghdad_library

يعرف كما بدو له الآن على وجه اليقين أنها أحبته إلا عندما كانت تقوم بصلب هذا الحب أمام وجهه. وهو لا يعرف أنها احتفظت برسائله جميعاً إلا عندما مزقتها ونثرتها في حجرة الاستقبال، كما لا يعرف أنها احتفظت بطلبه الزواج منها إلا بعد أن قذفت به صارخة في نيران المدفأة. وظل أسابيع وشهوراً يقول لها إنه آسف، باكياً، راكعاً، يشتري لها الأزهار التي كانت تلقي بها من النافذة، متوسلاً إليها أن تصفح عنه: «لا تغضبي مني، يا جاني، فأنا لا أحتمل ذلك، اصفحي عني، يا جاني، اصفحي عني من أجل السيد المسيح». كان لا بد أنه يحبها في تلك الآونة. وتلاشت مورين وكأنها لم تكن إطلاقاً. ولم يعد لزيارتها ثانية، بل بعث لها خمسين جنيهاً. ولم يكن يستطيع أن يكتب إليها مجرد تذكرة. لا بد أنه كان يحب جاني حينذاك، ولكنه كان حباً في الجحيم: هذا الإلحاح الرهيب الذي لا يعرف الكلل في طلب المغفرة. وما كانت أمه لتُنْزل به مثل هذا العقاب على أي خطأ يرتكبه. ولم يلبث بعد ذلك أن أصبح فظاً عنيفاً. فقالت له جاني: «لقد دمرت عالمي». وصاح برونو: «إنك ترفضينني.. ترفضين كل ما أنا عليه.. وهذا ما فعلته دائماً، إنك لم تحبيني أبداً». وشرعا في التشاجر، واستمرا فيه حتى بعد أن مرضت جاني، وحتى بعد أن عرف كلاهما أن جاني تحتضر. ما كان ينبغي عليه أن يدع جاني ترغمه على مقتها. كان هذا هو أسوأ ما في الأمر.

كان قلب برونو يخفق خفقاناً عنيفاً.. فتحامل على نفسه ليرتفع قليلاً فوق وسائده. هذه الأفكار التي أدارها في ذهنه ملايين المرات ما زالت قادرة على أن تعميه، وأن تجعله يلهث من الانفعال، وأن تبتلعه في نسيان تام لكل شيء آخر. ألم يكن ثمة طريقة صحيحة لكي يفكر في هذه الأشياء المخيفة، ألا مخرج من التفكير فيها يمكن أن يجلب له السكينة والسلام؟ ماتت جاني منذ ما يقرب من أربعين عاماً. كم يعرف جيداً هذه المعلومة

الخاصة التي احتفظ بها عقله حتى الآن. ينبغي عليه.. ينبغي عليه ألا يضطرب كل هذا الاضطراب... وإلا فإنه لن ينام أثناء الليل. وكانت الليالي التي يقضيها دون نوم تكلفه أشد العذاب. ولم يكن يحب أن يستدعي أحداً أثناء الليل، إذ كان صوته يخيفه عندما ينادي في الظلام. وحتى عندما ينادي، كان نايجل لا يسمعه دائماً، ولا يحضر إليه دائماً. وذات مرة عندما بلغ به الأمر أقصى مداه، صاح صياحاً عالياً لا بد أن نايجل قد سمعه، ولكنه لم يأت. لعله لم يكن هناك بتاتاً، إذ يرقد في مكان آخر بين ذراعي فتاة. إنه لا يعرف سوى القليل حقاً عن نايجل وبعد هذه الليلة، كان يخشى أن ينادي حتى لا يسمعه دينبي، فيكتشف أن نايجل ليس في مكانه.

وسدد بصره إلى عباءته الحمراء العتيقة المعلقة على الباب فبدت كحجاب ضخم يلوح في الضوء المعتم. كانت هي العباءة الوحيدة التي يرتديها الآن، والتي تمثل له ثوب سفره الوحيد؛ دولاب ثيابه تقلص إلى هذه القطعة. لماذا أصبحت على نحو ما رمزا لموته؟ لقد اقترح دينبي أن يشتري له عباءة جديدة، ولكنه رفض قائلاً: «لم تعد المسألة تستحق هذا الآن». وتقبل دينبي هذه الملاحظة. وسوف تبقى هذه العباءة العتيقة في مكانها بعد أن يعودوا مرتاحين من الجنازة، ويشرعوا في إخراج الزجاجات، وعندئذ سيقول أحدهم: «لقد ذهب برونو، ولكن ها هي عباءاته العتيقة ما برحت معلقة على الباب».

كيف سيكون الحال، أسيكون هناك أحد؟ فتاة مثلاً؟ ولكن لا توجد ثمة فتاة. ماذا لو كان من الممكن أن يحبه شخص جديد؟ ولكن هذا محال. من ذا الذي يمكن أن يحبه بعد أن استحال مسخاً؟ ربما حضره الموت وحيداً، وهو ينادي، وينادي. لقد ترك جاني تموت وحدها. لم يكن يحتمل ذلك. سمعها وهي تصيح، تصيح باسمه. ولكنه لم يصعد إليها. كان

twitter @baghdad_library

يخشى أن تلعنه في النهاية. ولكن، لعلها كانت تريد أن تصفح عنه، أن تتصالح معه، فسلبها هذه الأمنية الثمينة الأخيرة؟ واستمرت الآهات والصيحات لحظة، ثم ساد الصمت أخيراً. وبدأت الدموع تنهمر على وجه برونو. فغمغم قائلاً: «يا لبرونو المسكين، برونو المسكين، برونو المسكين...».

(٢)

«أي أديليد، أديليد العذبة، قد تذهب الأعوام، وتأتي الأعوام...»

«هس!».

كان دينبي أوديل في الفراش مع أديليد الخادمة. وكان قد اتخذها عشيقته منذ ثلاثة أعوام تقريباً وقبْلها كانت ليندا. وكانت ليندا ذكية منظَّمة، وحقائب يدها السوداء اللامعة أشبه بطاقم مهني تحرص كل الحرص على العناية به. ولما كانت مطلَّقة هادئة الأعصاب، كان هذا الحرص على النظام والترتيب هما تصورها للفضيلة، ومن ثم فقد حافظت على علاقتها بمخدومها ـ وكانت هي البادئة بها ـ دقيقةً حسنة التنظيم. وذات يوم، رجعت إلى استراليا، ولم يتبادلا سوى خطابات ثلاثة، وما انقضت ستة أشهر حتى كان دينبي قد اتخذ أديليد عشيقة له، وكانت لذيذة، وهي الآن في فراشه.

لم تكن لهذه الأمور صلة بعبودية الوقوع في الحب. كما لم تكن تَمُت بصلة لما كان بينه وبين جوين. فقد كان الأمر مع جوين ضرباً من الجنون الذي لا يحدث في العمر سوى مرة واحدة. تعذب دينبي كثيراً؛ وحتى بعد أن تزوجها ذاق مر العذاب، كما تتعذب روح في حضور إلاهها من مجرد الخوف من اختلاف جوهر كل منهما كانت جوين قوية الشخصية، متسامية، روحانية. وقد أحب دينبي قوتها الأخلاقية حباً جسدياً. وكان كل منهما يعاني آلام الانفصال. وحتى عندما كان يضحكها، وكثيراً ما كان

twitter @baghdad_library

يفعل، كان هناك أحياناً نوع من انقباض الألم، وسرعان ما يشيح كل منهما بوجهه ناظراً إلى بعيد. كانت جوين قد أحبته حباً عميقاً، ولا تفتأ تتأمل اختلافه عنها، والاستحالة المتبادلة بينهما، محتوية لانفصاله في حبها الجارف، محتضنة له كما يحتضن قديس في السر جراح العلامة التي يجهلها رفاقه، فهو يخفيها دائماً وأبداً في طيات ثيابه. ولم يعرف دينبي الشفاء من وفاتها. غير أن طاقته الحيوية كانت من مادة المرح.

كان دينبي جذاباً للنساء. كان طويل القامة، ولكنه أخذ الآن يميل إلى الامتلاء.. وتحت خصره ثمة كرش ضخم آخذ في النمو. وما زالت الشعيرات الطويلة التي تغطي صدره وبطنه بديعة وذهبية، على حين كان شعر رأسه الكثيف المسترسل قد ابيضَّ تماماً. أما وجهه فكان يتميز بذلك الألق الذي ينبعث من النسيج المتغضّن قليلاً من تفاحة خمرية اللون؛ وكانت عيناه زرقاوين زرقة صافية خفيفة، كما كانت أسنانه منتظمة رائعة، وكثيراً ما كان يتأملها في المرآة معجباً بها. وكان يستمتع بالطعام والشراب وبأدائه للعمل. وعندما كان أصغر سناً، كان راقصاً بارعاً، ولاعباً ماهراً للتنس. وهو ينحدر من أسرة تجارية قليلة الطموح، ومع أنه كان الطفل الوحيد لوالدين يعبدانه، فإنه لم يضع لنفسه أو يضع له أي أحد آخر خططاً معينة لحياته. فالتحق بمدرسة ثانوية متوسطة، وقضى عاماً واحداً في جامعة إقليمية. ولما توفي أبوه وتوفيت أمه، لم يبق له شيء من المال. فأدرك ـ بعد أن لم يعد هناك من يستحسن أفعاله أو يستقبحها ـ أنه كان يحب أمه حباً عميقاً. والتحق بعمل في شركات التأمين. وأنقذته الحرب من هذا المصير، فكان يستمتع بكل لحظة من لحظات حياته. ثم جاءت الجدية في شخص جوين. وهنا دخل دينبي أعمال الطباعة بشيء من الرهبة، ولكن سرعان ما اكتشف ـ مندهشاً لهذا الكشف ـ أنه موهوب لهذا العمل، وكان فيه حقاً أفضل من برونو كثيراً. أما برونو الذي كان آنذاك

قد تجاوز الستين من عمره ـ فقد كان سعيداً كل السعادة أن يتخلى عن سلطانه لصهره. وازدهر دينبي. ولم يكن ربحه للمال هو موضع استمتاعه، بل شيء أكثر من ذلك كثيراً، شيء أشبه بعناية ربة البيت بتدبير بيتها أو شيء من النظام المنزلي المُحْكم: الحرص على ترتيب الأشياء وتجهيزها للأداء السليم، ومواجهة عشرين أزمة صغيرة يومياً. وكان العمال الذين يراهم يحتسون الخمر بانتظام في حانة «البجعة العجوز» ـ يحبون دينبي. والحق أن جميع الناس تقريباً كانوا يحبون دينبي.

لم يكن ضميره يؤنبه بوجه خاص فيما يتعلق بأديليد. إذ كان يعتقد أن على المرء أن يفعل ـ بوجه عام ـ ما يريد ما دام لا يجعل الناس تعساء، وهو لم يكن يرى سبباً يدعوه إلى إتعاس أديليد. فقد كانت في السن الذي يجعل النساء في حاجة إلى الاطمئنان بأنهن مرغوبات. ولم يكن لديه أية فكرة عما إذا كانت تحب أن تذهب معه إلى الفراش، ولكنه كان يعرف أنها مغرمة به، وأنها كانت كذلك تقريباً منذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها تلبيةً للإعلان الذي نشره. وكان برونو في بداية مرضه. وطال الأمر ببرونو العجوز المسكين. فكانت أديليد نافعة في هذا المجال، وأصبح نايجل الممرض ابن عمها ضرورة لا غنى عنها. ولم يخطر له على بال، أو تخيل أنه لم يخطر على بال أديليد ـ أن علاقتهما يمكن أن تنتهي إلى الزواج. فهي بطبيعتها لم تكن هذا النوع من العلاقات. ولكنه بدأ يشعر بأنه يتقدم إلى الشيخوخة، وأنه بلغ نقطة الاستراحة. وكانت أديليد ملائمة له. وقد وعد بإعالتها في شيخوختها. وكان يضاجعها كل ليلة، وهو على درجة طفيفة من السُّكر، ولكنه كان سعيداً غاية السعادة.

وكانت أديليد التي أخذت في البدانة، ولم تعد في نضارة الشباب، جميلةً حقاً، كما كان يراها دينبي بعد أن ذهب معها إلى الفراش فترة ما. كانت ثقيلة الردفين والبطن، غير أن كتفيها ونهديها كانت آية في الجمال. وكان لها

twitter @baghdad_library

وجه مستدير، وبشرة وردية بطبيعتها، وقدر وفير من الشعر الطويل الكستنائي الداكن (كان شعرها مصبوغاً، غير أن دينبي لم يدرك ذلك أبداً).

وكان ميلها إلى الاحتفاظ بثيابها - (وهي تختلف في هذا عن ليندا) قد أضفى عليها نوعاً من السحر الغريب، يوشك أن يكون شرقياً.

وكان ينبعث من أديليد صليل وخشخشة من الحليّ والزينة التي تتحلى بها. وعيناها العسليتان المتباعدتان إحداهما عن الأخرى كانتا تعبدانه حين تعقص شعرها الغزير المسترسل في كعكة محبوكة الصنع. وكان صوتها المنبسط الذي ينم عن لكنة جنوب لندن، كان بالنسبة إليه نداء جنسياً يدعو أليفَه إلى ما لانهاية.

أصيب دينبي بالفواق. . وكانت السماء تمطر في الخارج بصوت لطيف ودود. إنها أمسيته لاحتساء الخمر مع جيسكين في حانة «الغُراب». وكان قد أفرط في الشراب كالمعتاد. فاستلقى على ظهره رافعاً ركبتيه. كان يطيب له أن يرقد على ظهره على هذا النحو، إذ يمنحه هذا الوضع شعوراً سعيداً بالاسترخاء. وكانت أديليد قد أطفأت النور من فورها، وهي الآن في مواجهته ملتصقة إلى جنبه كأنها حواء. وكان يستطيع أن يرى حدبة ركبتيه مخططة على الستائر الرفيعة التي كانت تتألق تألقاً خفيفاً ناشئاً عن الضوء المنبعث من مصباح الشارع الذي يسطع في الفناء. وكان ينام هو وأديليد في الملحق الذي يشبه البدروم والذي بناه أحد الملاك السابقين من ناحية المنزل الواقعة في شارع ستاديوم Stadium (الاستاد) في الأيام التي كانت فيها الجيرة أقل سوءاً عما هي عليه الآن. وكان دينبي مبتهجاً بهذا السوء. ذلك أن منزله الأنيق الجميل في «نوتنج هيل» Notting Hill كان منزل جوين، وعلى قطعة أرض تملكها جوين. وقد لاذ دينبي بالفرار منه، وبعد أعوام من الإقامة ابتاع منزل «شارع الاستاد»، لأنه كان مختلفاً كل الاختلاف،

حقيراً كل الحقارة. وبالطبع كان على مقربة من المطابع. وكان مولعاً بالفناء الصغير الممتد أمام نافذته تحت مستوى الأرض، المظلم دائماً والمغطى بالطحالب الخضراء الزَّلقة. وكان يسمِّى دائماً «بالفناء»، ولا تُطلق عليه كلمة «الحديقة»، رغم أن فيه أيكة صفراء من نبات الرِّباط، وأجمة من أشجار الغار، وخميلة ورد تحولت فيها بعد إلى كتلة متشابكة من الورد البري. وكانت التربة سوداء لا تنبت فيها الحشائش، اللهم إلا بضع زهرات قلائل من الهندباء البرية والقطيفة المعشوشبة التي كانت تكافح كل عام خلال قشرة الطحالب الرطبة. وكانت مداخن محطة «لوتس رود» لتوليد الطاقة تعلو شامخة على المكان، وكأنها الامتدادات المناسبة لهذه الأرض البور المعتمة.

وكانت المطابع قائمة على الجانب الآخر من التيمس في باترسي، فوق حافة المياه، في الوجه المقابل تماماً لرصيف ميناء البلدية إلى جوار محطة الطاقة، وكان دينبي يجتاز كل يوم جسر باترسي في رقعة أرض أخرى، لا تقل عن تلك قذارة ورداءة، ولكنها مختلفة تفوح منها رائحة الماشية والفطائر وخميرة الجعة (البيرة) والحطام الذي تحمله المياه. وما برحت البائنة (الدوطة) التي منحتها له جوين مصدراً لسرور دينبي. فهو يعشق المطابع، وضجيج آلاتها المقرقعة، وغبار الورق، وذلك الاستقلال القَبَلي الذي يتمتع به الطّباعون، وكان يحب النسيج الأساسي للمهنة، الورق الخام المقطوع بنظافة، وعنصر الرصاص وما يتسم به من فحولة رجولية. وكان في طفولته يفضّل إذابة جنوده المصنوعة من الرصاص على استعراضها، وكانت صناعة الحروف من معدن الرصاص مَشْغلة لم تكف يوماً عن إرضائه. وكان مولعاً بالآلات، وبخاصة الأبسط منها والأقدم، وكان يتردد على تشلسي من حين إلى آخر، وتوغل فيها على الأقل حتى وصل إلى الضفة المحاذية «لكنجز آرمز» King's Arms، واصطحب أديليد في أكثر من مناسبة إلى مطعم «كنجزرود» Kings Road (طريق

twitter @baghdad_library

الملوك) الأنيق لأنها كانت تحب ذلك، ولكنه لم يشعر قط بالراحة في تجاوزه لتلك الحدود بالذات. وكانت فولهام Fulham وباترسي اللتان كان يعرف فيهما كل حانة.. كانت هذه هي لندن التي يحلو له أن يتأمل أسرارها. وقد شعر بالارتياح عندما كَفَّ برونو عن حثِّه على الانتقال. ذلك أنه لم يكن يحب الاختلاف مع الرجل العجوز، فقد كانت الأمور تسير بينهما دائماً على خير ما يرام.

ـ دافئة بما فيه الكفاية، يا أديليد؟»

ـ «أجل».

ـ شعرك كله بارد. مادة عجيبة، هذا الشعر الإنساني.. إذا كنت تحبينني فلا تقصي شعرك أبداً».

» «

ـ ....

ـ «هل لديّ قميص نظيف أرتديه غداً؟ صبيان بووتر قادمون».

ـ «بالطبع لديك واحد».

ـ «هل استمعت إلى أخبار الساعة السادسة؟ ماذا يدبِّر النهر؟».

ـ «إنذار آخر عن الفيضان».

ـ «أرجو ألا يصل إلينا من الفناء الخلفي كما حدث منذ عامين».

ـ «هل قضيتَ يوماً لطيفاً؟».

ـ «أجل، كان لطيفاً. وأنت؟ كيف كان الرجل العجوز؟»

ـ «كالمعتاد دائماً. عاد إلى الحديث عن مايلز مرة أخرى».

ـ «يا إلهي!».

ـ «يتحدث عن رؤيته».

ـ «مجرد كلام».

ـ «أعتقد أنه ينبغي أن يرى مايلز. إنه ابنه».

ـ «هراء، يا أديليد. لم يعد هناك ما يدعو لذلك بعد كل هذه السنين.

لم يعد لديهما ما يقولانه. كل ما في الأمر أن كلاً منهما سوف يثير الآخر. وبالمناسبة، هل تذكرت الإغلاق على الطوابع؟».

ـ «أجل».

كان دينبي يعتقد حقاً أنه لا داعي لرؤيته لمايلز. لا لأن دينبي كان يأمل في الحصول على الطوابع، وإن كان يأمل بالطبع في الحصول على الطوابع. كل إنسان يود ذلك.

ـ «أتعتقد أنه دخل في هذيان الشيخوخة؟».

ـ «كلا، بكل تأكيد، يا أديليد. تختلط عليه الأمور أحياناً، ولكن عقله في غاية الصفاء، حقّاً».

ـ «سيتحدث على هذا النحو عن العناكب. أظن أنه يتخيلها».

ـ «بل أشتبه في أنه يجتذبها. ألاحظت كيف تمتلىء حجرته دائماً بالعناكب؟».

ـ «مخلوقات بشعة!. إلى متى سيمتد به العمر في رأيك؟».

ـ «إنه يغوص تحت تعقيد من الاختلالات.. قد يستمر الحال على هذا المنوال أعماراً».

ـ «قلت إنه لم يعد يتحدث عن العمل قطّ. وأن هذه علامة سيئة».

ـ «ربما، ولكنه يمتلك إرادة هائلة للحياة، هذا العجوز المسكين».

ـ «لست أدري كيف يريد الإنسان أن يستمر في الحياة إذا آل به الحال إلى ذلك. ما الذي يمكن أن يتطلع إليه؟».

ـ «كأس الشراب التالي».

ـ «طبعاً، أنت تغفل ذلك. أعتقد أن الشيخوخة شيء فظيع. وأتمنى ألا أكون عجوزاً أبداً».

ـ «عندما تصبحين عجوزاً، يا أديليد، فسوف تكتشفين أن الحياة مشتهاة تماماً كما هي الآن».

twitter @ baghdad_library

ـ «خالتي عجوز مخرفة. . أصبحت تهرف بما لا تعرف. وتظن أنها أميرة روسية، وتتحدث بلغة غير مفهومة تعتقد أنها اللغة الروسية».

ـ «من الأمور المضحكة جنون الناس بالألقاب. وبهذه المناسبة أما زال ابن عمك عاطلاً من العمل؟».

ـ «تقصد بوس Boase! بل إنه لا يحاول الحصول على عمل! كل ما يفعله أنه يتلقى المعونة القومية. وهم يعطونهم منها الكثير جداً».

ـ «إنه يستطيع أن يقوم لنا بعملية الطلاء. . وليس هناك ما يدعوه إلى إخطار رجال المعونة القومية».

ـ «لقد التحق بمدرسة ثانوية. . وهكذا فعل نايجل».

ـ «أظن ذلك يا أديليد، ولكنني أخشى ألا يكون لديّ في هذه اللحظة عمل ذهني أستطيع أن أعرضه عليه!».

ـ «ينبغي له أن يكون في الوظيفة المناسبة. لقد دفعت له أكثر من اللازم في المرة الأخيرة».

ـ «لا بأس، فالمرء يجب أن يقدم المساعدة. وهو يختلف عن نايجل تمام الاختلاف، أليس كذلك؟ من الغريب أن يفكر المرء في أنهما توأمان».

ـ «إنهما ليس توأمين متطابقين. لم أكن أود أن تستقدم نايجل للعمل هنا. لم تكن هذه فكرتي».

ـ «اعلمي أن هذا لم يكن من أعمال الإحسان. إنه يتقن عمله مع برونو اتقاناً عجيباً. بل أكاد أقول إنه خارق للطبيعة».

ـ «ما الموضوع الذي يدور الحديث دائماً عنه بينه وبين برونو؟».

ـ «لا أدري. ولكنهما يسكتان كأنهما اثنان من البطلينوس(*) عندما أدخل عليهما».

ـ «أعتقد أنهما يتحدثان عن الجنس، عن الفتيات».

(*) حيوان من الرخويات أو السمك الصدفي لا يصدر صوتاً. (المترجم).

ـ «الفتيات؟ نايجل؟ مهههم».
ـ «تخيل أن برونو مهتم بالجنس في هذه السن».
ـ «موضوع يتميز بفتنة دائمة، يا عزيزتي أديليد».
ـ «ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً».
ـ «إننا في عالم خاص من الأحلام معظم الوقت. والجنس يحتل مكاناً كبيراً من العقل».
ـ «لم ألاحظ أبداً أنك تحسبه كذلك! وأعتقد أن نايجل يعرف كل شيء عن هذه المسألة».
ـ «عن الجنس؟ ما من أحد لا يعرف ذلك. يا عزيزتي. وعليك أن تتخصصي. وأنا أحدس بوجود متخصص شائق وغير عادي في شخص نايجل».
ـ «لا بد أن تكون نوعاً غريباً من الرجال إذا أردت أن تصبح ممرضة».
ـ «إنها مهنة مشرِّفة جداً، يا أديليد».
ـ «لا تكن أحمق. أتظن أن نايجل يتعاطى المخدرات أو شيئاً من هذا القبيل»؟.
ـ «إنه غامض نوعاً ما. ولكني أشك في ذلك. وفي عقل كل إنسان ما يكفيه من الخزعبلات دون أن يعمد إلى تشجيعها إيجابياً. وأظن أن نايجل يملك شيئاً من التعقل».
ـ «ومع ذلك، أوقن أنه يتعاطى شيئاً أو آخر. إن وجهه يميل إلى ناحية أكثر من الأخرى».
ـ «أعتقد أن وجه نايجل أَمْيَل للجمال».
ـ «أنت مجنون. إنه شيطان من الجن».
ـ «وأنا أحب الشياطين، فعلاً».
ـ «إنه يبعث القشعريرة في جسدي. وأود لو لم يكن هنا. ويرعبني أن يكتشف أمرنا».

twitter @baghdad_library

ـ «إننا منعزلان تماماً في هذا الجزء من المنزل، يا طفلتي العزيزة. لا تكوني قلقة كل هذا القلق بشأن نايجل. إنه شخص لطيف لا ضرر منه أبداً».

ـ «إنه ليس كذلك. أنا أعرفه. إنه شرير. وسيذيع الخبر على الناس».

ـ «لا بأس، لن يكون لذلك أية أهمية».

ـ «بل سيكون. أنت تعرف أنني لا أريد أن يعلم الناس».

ـ «فليكن، يا طفلتي، فليكن. نامي في سلام واهدئي بالاً».

وَعَبَرَتْ صورة جوين على عيني دينبي المغمضتين. كانت تدير رأسها على مهل نحوه. وكان شعرها الغزير الكستنائي القاتم المجعَّد يتسلل على كتفها، وقد تشابك مع دبوسها الذي يزينه حجر كريم واحد. وجمعته نظرتها المنبعثة من عينيها العسليتين الواسعتين لتضمه داخل انتباهها الشديد. «هنا يأتي خلاصك الهزلي القديم، يا عزيزتي جوين».

وهناك صورة أخرى كانت تأتي أحياناً مع النعاس، وكانت فظيعة. كانت جوين قد غرقت في نهر التيمس. فقد قفزت من جسر باترسي لتنقذ صبياً صغيراً سقط من زورق بخاري. وسبح الصبي إلى الشاطىء. غير أن جوين أصيبت بنوبة قلبية، ففقدت وعيها، وغرقت وتعرف دينبي في المشرحة على جثتها ذات الشعر الغجري الذي يقطر منه الماء. كانت هذه الفعلة جديرة بجوين تماماً، بهذا ظل يحدث نفسه أعواماً إثر أعوام، أن تقفز من جسر باترسي في شهر مارس لتنقذ صبياً يستطيع أن يسبح على كل حال. إنه ذلك النوع من الجنون الذي يمكن أن يصدر عنها. كان عملاً مميَّزاً لها. شيء مضحك حقّاً.

قالت أديليد: «أنبأني برونو بالأمس أن العناكب وُجِدت قبل أن يوجد الذباب بمائة مليون سنة.

ـ «مممممممممم».

ـ «ولكن، ماذا تأكل العناكب؟».

وكان دينبي نائماً، يحلم بجوين.

twitter @baghdad_library

(٣)

كـان نايجـل يتنصت عـلى دينبي وأديليـد وهمـا يتحـادثـان، وقـد جلس القرفصاء عـلى الأرض في الظلام، خـارج حجرة نـوم دينبي. ولم يلبث أن نهض في هـدوء ورشاقـة، وما زالت سـاقاه متشـابكتين. لم يكن هنـاك مـا يُسْمع من الداخل، إلا نغمات مضادة (كونـتريوينت) من الشخـير. فتسلل مرتقياً درجات السلم إلى حجرته، ودخل، ثم اطمأن على إغلاق الباب.

كان الظلام سائداً في الحجرة، والباب موصداً، والستائر كثيفـة كالفـراء. وفي مكـان ما من أعـماق الظلمـة كانت شمعـة وحيدة تحـترق. وفي قميصه الأسـود، وسرواله المحكم الأسـود، أخذ نـايجـل يـدور وقـد بسط ذراعيـه أمامه. كان الأثاث الملاصق للحائط صقيلاً مسطَّحاً. وكانت الجدران البنية تتوالى في أقواس متراجعة حول الكرة التي تـومض بوهن حيث كـان نايجـل يدور ويدور، رفيعاً كالإبرة، رفيعاً كالخط المستقيم، ضيقاً ككـوَّة يحاول أن ينفذ من خلالها نور باهر صُلْب ليبلغ العالم الغائم.

كون متمركز حول نقـطة واحدة. وبسرعـة متزايـدة الآن تدور الأجـرام الكروية بعضها داخل بعض وهي تغنّي. والمدينة المقدسة تلف داخل حلقة الـزمرد الاستـوائي، وداخـل حلقـة الـطريق اللبني للؤلؤة، داخـل العجلة الَّلبَنيّـة ـ المَجرِيَّـة، (نسبة إلى المجـرة) مجرة المجـرات التي تدور كـالمغزل دون حـركة حـول نقطة لا امتـداد لها. ورُقَـاقة الصـدأ، وبقعة الغبـار، والشق الخفي في الجلد الذي من خلاله يغوص كل شيء وينساب.

وكانت الشمعة قد نَمَت وتحولت إلى أسطوانة هائلة مضيئة مصنوعة من المرمر أو من ثلج جوز الهند. وأخذت تتوهج توهجاً شاحباً من الداخل، وتنبض وتتنفس. وسقط نايجل على ركبتيه، وركع منتصب الجذع، وأخذ يتأرجح على إيقاع الأغنية الصامتة. في البداية كان أوم Om، ثم أومفالوس Omphalos، ثم أوم ـ فالوس Om Phalos، الخواء المستدير الأسود غير المنقسم للوعي أو الذات. ومن الرَحِم الخالية من الأحلام تسلل الزمان في اللحظة التي لا بداية لها في النهاية التي ليست نهاية. الزمان هو الصدع. والظلام يتحرك فوق الظلام، والوعي ينزلق من الوجود. وتصفق التموجات بأجنحتها فيكون الصوت. وتنظر عينٌ إلى عين فيكون النور.

وفي العتمة يجلس القرفصاء متضخماً يسد وجه السماء. والأيدي الصغيرة ترتعش كالشعيرات، ولكنه يواصل جلسته القرفصاء، ويتأمل نفسه. وقد تسحق قدمه التي تتحرك متكاسلة مليون مليون حين يهرش أو يتململ، أو يزيل بالفرشاة عدداً لا يحصى من الحشرات الصغيرة التي تعد آلاف الأزمنة التي تنكمش فيها بالنسبة إليه الطنين الذي لا يستغرق سوى لحظة واحدة حين يسحق في تكاسل بين إصبعيه بعوضة واحدة أثناء جلوسه القرفصاء ساكناً يتأمل نفسه.

كان النور المترنِّم يتعاظم، والسواد الجبلي يتلاشى، والصياح ينتفخ متحولاً إلى انسجام (هارمونية)، دائرة باهرة من الصوت المرئي. مَلَكان رهيبان لا سبيل إلى التمييز بينهما يحيطان بالأرض، متعانقان، متلاحمان، يتعثران خلال الفضاء الدائري، يتوحدان، ويتحولان إلى شيء واحد في فرع متجاذب (ممغنط). الحب والموت، يسعيان ويُسعى إليهما.

وخفتت الأصوات، وفي السماء الصافية الخاوية تدور الحلَقة متبعدة كما يدور المِغْزل. وفي النهاية، أصبحت نقطة إشعاع، بقعة من الذهب، ومضةً متلاشية، شعاعا من الليزر، نقطة واحدة باهرة من الضوء الذي

twitter @baghdad_library

يمتص الأنوار جميعاً في نفسه. ويتماوج الصمت الذي لا لون له ولا صوت، ويأخذ في التأرجح. إنه قريب. ويرتعد نايجل، ويلهث، وينتفض. عيناه المفتوحتان على سعتهما لا تبصران شيئاً هو، نايجل، البصير، الكاهن، عبد الله. وينهار الزمان والمكان في بطء. إنه قريب، إنه قريب. ينطويان وينهاران. الحب هو الموت. والكل هو الواحد.

ويقبض نايجل على قلبه. وتتقطع أنفاسه، ويئن، ويترنح. ثم يسقط منكفئاً بوجهه على الأرض، وتصطدم جبهته بأرضية الحجرة. ويغلق عينيه معاً أمام الظلمة المتوهجة. الحضور اختصار، عقاب، جَلْد بالسياط، الوجود الممتد يُعذَّب ليتحول إلى نقطة وحيدة. إعدام، الكل هو الواحد.

وبعد ذلك، في عالم آخر، يصيح رجل عجوز منادياً، منادياً، ثم لا يلبث أن يبكي وحيداً في ساعات الليل البطيئة المظلمة. وفي دِقة متضخمة يسمع نايجل النداء والبكاء.. فيرقد ساجداً على أرضية العالم.

(٤)

«مستأجرنا شاب ما ألطفه،
ما ألطفه حقاً من شاب».

كان دينبي يغني، وهو يوجه لكمة ودية إلى ظهر نايجل. فألقى نايجل شعره الطويل الفاحم إلى الوراء، وخفض عينيه، ثم غادر الحجرة وعلى شفتيه ابتسامة روحانية.

قال برونو: «دينبي، سأقوم باستدعاء مايلز».

- يا إلهي!».

كان برونو يجلس مستنداً في فراشه. وكان اللحاف الأبيض مغطىً بطوابع من ألوان شتى. وفوقها استقرت نسخة مفتوحة من كتاب جرهارت: Neue Untersuchungen zur Sexualbiologie des der Spinnen (بحث جديد عن البيولوجيا الجنسية للعناكب) وكان برونو يشعر اليوم بصفاء في الذهن. أما ساقاه فكانتا تنبضان بالألم؛ غير أن هذه النقطة العليلة من عدم الارتياح التي استقرت وسط وجوده، هذه الإمكانية للألم البشع، خفضت حتى أصبحت لاشيئاً. بل كاد شعوره أن يكون عجزاً لذيذاً وضعفاً. وقد دارت بينه وبين المسئول عن الأرصاد الجوية محادثة تليفونية طويلة مريحة، طمأنه فيها المسئول عن إمكانية فيضان التيمس. هذه المحادثات مع أصوات رسمية لاشخصية مهذبة كانت تهدىء من أعصاب برونو. فكان يشعر أنه صوت هو نفسه. مجرد مواطن مغمور. ثم جاءه بعد ذلك بعض المكالمات الممتازة الناشئة عن طلب أرقام خاطئة.

twitter @baghdad_library

كان من الضروري أن يتحدث مع مايلز. سيتحدث إلى ابنه عن أمور عادية موضوعية، عن المطابع، عن وظيفة مايلز، عن عطف دينبي، وعن مهارة نايجل. سوف يتحدثان ويتحدثان، وستصبح الحجرة أشد إعتاماً، وبعد نقله تكاد ألا تُحَسَ، سوف يجرهما الحديث إلى ذكر أسماء النساء: پارڤاتي، وجاني، ومورين، وسوف يغشاهما حزن وقور هادىء وهما يتأملان معاً تلك الأطياف المستحضرة. في البداية سيكون مايلز رسمياً نوعاً ما، ولكنه ما إن يسمع صوت برونو وهو يردد أسماء النسوة، متحدثاً عنهن في تواضع وبساطة، حتى يطرق برأسه، وينظر إلى أبيه نظرة ملؤها اللطف، ومن ثم تمتلىء الحجرة بجو من التصالح والوئام. وقبل ذلك، وعندما كان بمفرده، وهو يردد لنفسه هذه الكلمات: «الصلح والوئام»، اغرورقت عينا برونو بالدموع. وكان يبكي الآن لأهون الأسباب. أية حكاية في الصحف عن كلب مفقود أو قطة كانت تفيض لها عيناه من الدمع. بل إن شيئاً عن الأسرة المالكة قد يصنع به ذلك أيضاً.

الأمر كله يرجع إلى البداية. وهذا شيء يود لو يحاول تفسيره. «برونو» بهذا الاسم سمّاه أبوه، غير أن أمه التي لم تكن تستسيغ هذا الاسم سمته «بروونْ» و«الدب الصغير». ولكن، كيف دَبَّ إليه الفساد وفقد براءته التي كانت تنتسب لطفل أمه الوحيد، وكيف يمكن لطفل له مثل هذه الأم أن يكون شريراً؟ ولكن هل أصبح بهذا السوء، وكيف كان السوء الذي تحول إليه؟ تقول الإحصاءات إن معظم الرجال يخدعون زوجاتهم طول الوقت. أما هو فلم تكن له سوى مورين فحسب. أما شطحاته المتأخرة فلم تصل إلى أكثر من التماسك بالأيدي في «نوتنج هيل». لقد عاش حياةً طاهرةً حقاً. ولم تكن جرائمه هي التي تزعجه، بل أولئك الذين يوجهون إليه الاتهام.

كل شيء يبدو الآن عَرضياً إلى أقصى حد، ولِيد المصادفة البحتة. ولكن، أكان من الممكن أن يختلف شيء في تلك الليلة التي طلب فيها

الزواج من جاني في مسرح سانت جيمس في جو الحلوى وشكسبير والجنون العذب في موسم لندن؟ كتب، «تزوجيني يا جاني» على صفحة من برنامجه، وطوى الصفحة على هيئة صاروخ من الورق وقذف بها من المقاعد الأمامية إلى مقصورتها. وأمسكت بها وهي في الهواء، وقرأتها بابتسامة خفيفة، بينما كانت الأنوار تطفأ بعد فترة الاستراحة. وكانت المسرحية «الليلة الثانية عشرة» وبعدها، أخذ يبحث عنها في الردهة المزدحمة باهتياج شديد. وفيما كانت تبتعد مع جماعتها، ربتت على ذراعه بمروحتها وقالت: «يعجبني اقتراحك تماماً يا برونو، تعال وناقشه معي غداً».

واستمرت الأمور، حفيف الملابس الحريرية النسائية، وحضور البديهة، والأضواء الصناعية المتألقة، استمرت في سيرها كما يبدو له، حتى تلك اللحظة في فصل الأوكازيونات المزدحمة التي يعلن عنها «هارودز»، عندما كانت «مورين» تناضل ثوبها. وكانت الأيام الأولى لاستخدام السوستة في الملابس. وكان برونو الذي يشتري لها الثياب في كثير من الأحيان ـ واقفاً خارج الستار الذي ينسدل على حجرة تجربة الملابس. وكانت مورين قد وصلت بثوبها إلى نصف المسافة فوق رأسها، ولأن السوستة توقفت عن السير، لم تستطع أن تواصل خلع الفستان. فخرجت متجهة إلى برونو، وقد أخفى الثوب وجهها، وأخذت تلوح بذراعيها، كاشفة عن جزء من تنورتها. «بسرعة يا برونو، اخلعه، فأنا لا أستطيع التنفس». فضحك برونو، وأخذ يشد الثوب، وأعقبت ذلك فجأة لحظة من الفزع. «مورين، لا تتحركي، لن تختنقي أيتها الحمقاء، إنك تمزقين الثوب». وأخيراً خرج منها الثوب. ونظر برونو إلى ما فوق كتف مورين العارية في عينيْ جاني. استدارت جاني في الحال واختفت بين المترددين على المحل. وخرج برونو ـ الذي لم تعد مورين موجودة بالنسبة إليه ـ مارقاً وراءها كالسهم. وبحث عنها يائساً بين الجماهير المتباطئة كما بحث عنها من قبل في ردهة المسرح. ولمح رأسها، فتقدم نحوها مسرعاً، ولكنها كانت قد ذهبت. عاد مرة

twitter @baghdad_library

أخـرى إلى القسم الـذي تقف فيـه مـورين، ودفـع للعـائلة ثمن الفستـان الممـزق. وكانت مـورين قد اختفت هي الأخـرى. «علمتني كيف أحبك، والآن علمني كيف أنساك».

وفيما كان ينتـظر جاني في البيت حتى تعـود، أحس أن صفة الـزمان قـد تغـيرت، ربما إلى الأبـد. لم تعد جـاني إلا في سـاعـة متـأخـرة من المسـاء. وأجبرته جاني على أن يصحبها لرؤية مورين. كيف أكرهته على ذلك؟ هـذا الإحسـاس الرهيب بـالعقوبـة. اندفعت أمـامه ودخلت شقـة مورين قبله، وأغلقت الباب. وكان يستـطيع أن يستمـع إلى صوت جـاني وهي تتحدث وراء الجانب الآخر من الباب، ثم صوت مورين وقد انخـرطت في البكاء. طرق الباب طالباً أن يؤذن له بالدخول. وخـرج المستأجـرون الآخرون من حجراتهم لمراقبـة الموقف. وجعلوا يستهـزئون بـه. «زوجته تـوبخ عشيقتـه!» «ضبـطتـك زوجتـك، ألـيس كـذلـك؟» «حظ سيّء، أيهـا الـرجـل العجوز». وأخذوا يضحكون. وعاد برونو إلى البيت. مزيد من الانتظار.

ولم تقع عيناه على مورين بعد ذلك أبداً. غير أن جاني كانت تـزورها في فـترة استغرقت عـدة أشهر. «أريـدها أن تفهم مـاذا فعلت». «أريدهـا أن تعرف أننا كنا سعيدين معاً قبل أن يحدث هذا». «أريد أن أساعدها». جـاني القوية المنتقمة، ومورين الضعيفـة التي لا حول لهـا ولا قوة. وبعـد سنوات من وفاة جاني، نشر إعلاناً في صحيفة «التايمـز»، وكان عـلى النحو التـالي: «مـورين في مفترق الـطرق. أرجو الاتصـال بـ B.G. لمجـرد الحـديث عن الماضي البعيد». ولم يتلق أية إجابـة. والحق أنه لم يكن يتـوقع أيـة إجابـة. ولكنها كانت محاولة لاسترضاء طيفها. وبعد أعوام أُخَر رأى خـبراً شنيعاً في الصحيفة. سيدة تدعى مورين جنكينز، أرملة تعيش بمفردهـا في كريكلوود Cricklewood عـثر عليها الجـيران ميتة في بيتهـا، وقد خنقهـا ثـوب كـانت عـاجزة عن انـتزاعه من فـوق رأسها. وأُرْفق الخـبر بصورة لامـرأة بدينـة، منهكة، في سن الشيخوخة. ولم يستطع أن يحدد إن كانت هي أو لم تكن.

أقبل دينبي وجلس عند الطرف الآخر من السرير. وجمع الطوابع حتى جعل منها كوْمة. «أود لو كنت أشد عناية بهذه الطوابع، يا برونو. لقد وجدت منذ أيام طابعاً من بريد موريشيوس ملقى على الأرض».

- «لا شيء يمكن أن يحدث لها».
- «من الممكن أن تسقط في الشقوق الموجودة بين ألواح الأرضية».
- «لا شقوق هناك. والحجرة كثيرة الغبار بحيث لا يمكن أن تكون فيها شقوق. فهي مليئة بالتراب».
- «لا جدوى هناك من رؤية مايلز، على ما أعتقد».
- «أنت لا تفهم. ثمة أشياء لا أستطيع أن أتحدث عنها إلا مع مايلز».
- «أتريد أن تدلي إليه باعتراف عن حياتك؟».

فأخلد برونو إلى الصمت. ونظر مطرقاً إلى الطوابع، وكأنه يربِّت على وجوهها المرحة. وتطلع إلى وجه دينبي الضخم الوسيم الذي تلوح عليه أمارات الصحة. ما أعجب الوجوه الإنسانية! إنها تختلف كثيراً من حيث الحجم، بغض النظر عن أي شيء آخر. لم يكن دينبي شخصاً أحمق. وقال أخيراً: «ربما».

- «فليكن هذا الاعتراف لي.. أو من الأفضل لنايجل. إنه على اتصال بالمتعالي».

قال برونو: «لماذا تعارض في ذلك؟» وكان يستطيع أن يسمع التهدّج الذي أصاب صوته. انتابته لمسة خفيفة من الخوف الذي يشعر به الآن أحياناً عندما يدرك عجزه التام. كان سجيناً في منزله إلى الأبد. ولو أنهم أرادوا أن يمنعوه من رؤية مايلز، فسيفعلون ذلك. وفي استطاعتهم ألا يقوموا بتوصيل الرسائل، وفي إمكانهم ألا يبعثوا الخطابات بالبريد. هناك الهاتف. ولكنهم يستطيعون قطع الأسلاك. وبالطبع كانت هذه الأفكار جنونية.

twitter @baghdad_library

قال دينبي: «أرى أنك لم تتخيل ذلك حقاً. سيكون كل منكما سبباً في ارتباك الآخر بصورة بشعة. أنت تعرف كيف تطيل التفكير في العبارات. وربما قيل شيء سيء الحظ، مما قد يجعلك شقياً كل الشقاء».

قال برونو: «لا مندوحة عن التحدث إليه». ونظر إلى يديه النحيلتين المليئتين بالبقع وهما تزحفان فوق الطوابع. كانتا أشبه بعنكبوتين هائلين.

«ما كل هذه الضجة المباغتة ما دمت قد مضيت في حياتك بدونه طيلة تلك الأعوام؟ بل إنك لا تجيب إطلاقاً على رسائله». ونظر برونو بغير إرادة منه إلى عباءته وهو يقول: «لم يبق هناك ـ كثير من الوقت».

قال دينبي: «وقد يرفض دينبي المجيء. وعندئذ سوف تستولي عليك كآبة شديدة. هل فكّرت في هذا؟».

ولم يكن برونو قد فكر في هذا الاحتمال: «طبعاً فكّرت فيه. ولكن أعتقد أنه سيأتي. ينبغي أن أراه. أرجوك، يا دينبي».

بدا الاضطراب واضحاً على دينبي، فنهض، وسار صوب النافذة، وهو يسوي شعره الأبيض الغزير فوق عنقه. «انظر يا برونو تستطيع بالطبع أن تفعل ما تشاء. ولست بحاجة أن تقول لي «أرجوك». وأرجو ألا تظن ـ وهذا شيء طبيعي على ما أفترض ـ ليس السبب ـ وإنما أفكِّر حقاً فيك. فلعلك تقوم باختراع شيء تعذِّب به نفسك».

ـ «إنني أتعذب فعلاً. أريد أن أحاول أي شيء».

قال دينبي: «الحق أنني لا أفهم. ولكن، فليكن، إمض قدماً ولن يعترض طريقك أحد».

ـ «لا تغضب مني يا دينبي، أنا لا أحتمل أن تكون غاضباً».

ـ «لست غاضباً، بحق السماء!».

ـ «هل تذهب وتقابله؟».

ـ «أنا؟ ولماذا أنا بالذات؟».

قال برونو: «قد يكون من الحكمة أن تستطلع المكان». وكانت هذه الفكرة الجديدة عن أن مايلز قد يرفض الحضور ببساطة.. هذه الفكرة كانت تخيفه خوفاً شنيعاً. ولم تكن قد خطرت له لحظة واحدة. وربما كان دينبي على حق في أن المجازفة لا تستحق الإقدام عليها. كان يعيش الآن في عقله كثيراً. فليفترض أنه كتب ولم يتلق رداً؟ وليفترض أن الهاتف لم يكن في مكانه الصحيح عندما يطلبه؟ هناك ألوان من العذاب أسوأ من هذا كثيراً.

ـ «تعني اكتشاف ما إذا كان سيأتي؟ وربما أقنعه بالمجيء؟».

ـ «أجل».

وابتسم دينبي: «إذن فأنا السفير الصحيح، يا عزيزي برونو؟ مايلز وأنا لم نتفق أبداً. كما أنني لم أره منذ أعوام. وكان يعتقد أنني غير جدير بأخته». وتوقف دينبي، ثم قال: «أنا لست جديراً بأخته».

قال برونو: «لا يوجد أحد سواك. وكان صوته قد صار أجش، فتنحنح لتسليك حلقه. «أنت جزء من العائلة».

ـ «فليكن. متى تريدني أن أذهب؟ غداً؟».

ـ «ليس غداً». وفجأة أخذ قلبه يدق بعنف. ماذا سيكون شكل هذا اللقاء؟

نظر إليه دينبي بإمعان: «لن يوافق الطبيب على هذا»

«لم يعد من المهم ما يفكر فيه الطبيب الآن. ربما كان من المستحسن أن تكتب خطاباً».

ـ «إلى مايلز؟ وماذا أقول له؟ أطلب منه أن يأتي لأراه؟».

ـ «أجل. افعل كل شيء بتمهل شديد. أعني، امنح مايلز مهلةً للتفكير. قد يكون متسرعاً. فإن أتيح له الوقت للتفكير، فسوف يأتي».

twitter @baghdad_library

ـ «فليكن. . وستكتب أنت الخطاب؟ أنت تعلم أنني لا أجيد كتابة الخطابات».

ـ «كلا، اكتبه أنت. ولكن، ليس اليوم».

ودخلت أديليد، وألقت بصحيفة «الإيفننج استاندارد» على السرير. فانهمر نهر من الطوابع على أرضية الحجرة. «سأحضر لك الشاي خلال عشر دقائق. أتحب شيئاً من الرقائق، أو شطيرة بالأنشوجة؟».

ـ «رقائق، من فضلك يا أديليد».

وأغلقت الباب. وجعل دينبي يلتقط الطوابع، ويضعها في الصندوق الخشبي الأسود. وكان والد برونو لا يوافق على لصق الطوابع في حافظة للصور (ألبوم)، لاعتقاده بأن ذلك يضر بالطوابع. وقضى عمره كله يحاول عبثاً اختراع طريقة بديلة. ومع أنه كان يؤمن إيماناً قوياً بالجانب الجمالي من هوايته، ومع أنه كثيراً ما كان يعظ برونو بأن الرجل الذي لا يحب أن يتأمل طوابعه ليس إلا تاجراً وليس عاشقاً للطوابع ـ فإنه لم يحتفظ أبداً بطوابعه داخل الكتب. ولهذا صنع هذا الصندوق الخشبي الضخم بحيث يوجد فيه عدد كبير من الأدراج الصغيرة التي افترض أن توضع فيها بين أغلفة ملائمة من السيلوفان، يمكن أن تُعرض للتأمل إذا فُتحت الأدراج. غير أن برونو الذي كان تعلقه بالطوابع أشد إيغالاً في الطابع الجمالي الخالص من أبيه، بدأ يفسد منذ أمد بعيد ـ هذا النظام المحكم الذي رُتِّبتْ به. وأخذ في الآونة الأخيرة ينتقي من بينها تفضيلاته الخاصة، بغض النظر عن الأصل، وهذه الطوابع محفوظة الآن، مكدسة بعضها فوق بعض، في درج احتياطي من أعلى الصندوق.

قال دينبي: «لك ما تشاء، يا برونو. سأقوم بهذه الخدمة البسيطة. لا تنزعج، سوف نرى. أيمكنني أن أساعدك للذهاب إلى الحمّام؟»

ـ «كلا، أشكرك. . أستطيع أن أتصرف».

- «فليكن، سأنصرف، فإن لديّ موعداً عند «البالون». . إلى اللقاء».

وحدّث برونو نفسه قائلاً: إنه يظن أنني لا أستطيع أن أفعلها. وأخذ يحرك ساقيه تدريجياً صوب الجانب الآخر من السرير، ولكنني سأفعلها. كان احتمال التغيير مخيفاً، ولكنه كان شيئاً جديداً تماماً، أعني خطر أن يُجْرح المرء بطريقة جديدة. وضع ساقيه فوق جانب السرير واستراح. ماذا لو أن مايلز لم يحضر؟ ولنفرض أنه بعث بردٍّ معادٍ؟ ولنفرض أنه جاء، وكان قاسياً على برونو؟ ولنفرض أن برونو أحس بدافع لا يقاوم لإخباره عن موت جاني، فلعنه مايلز؟ ومايلز يستطيع أن يلعنه. كان ولداً عنيفاً حاد المزاج. ويستطيع أن يلحق به الأذى الآن، وبفظاعة. ربما كان دينبي على حق، ومن الأفضل أن يموت في سلام.

تحرك برونو حتى حافة السرير ووضع قدميه المجوربتين على الأرض. وعند كل خطوة يخطوها كان يبدو له أن قدميه قد نسيتا المشي تماماً. إذ كانتا تنكمشان متكوّرتين تحت ملاءات السرير، ومن ثمّ فقد أحجمتا عن الانبساط مرة أخرى لتصبحا سطحين يمكن الوقوف عليهما. وكانت عملية إعادة تعليمهما مضنية. وقف برونو، منحنياً انحناء طفيفاً، ساانداً نفسه بيد واحدة وضعها على السرير. وظل متشبثاً بالسرير وهو يشرع في جر قدميه نحو الباب. فإذا بلغ عمود السرير، استطاع أن يتقدم لينتزع عباءته من الباب من غير أن يكون في حاجة إلى الوقوف دون الاستناد إلى شيء.

وبالطبع، لم يكن من الضروري مطلقاً أن يرتدي العباءة، وقد ولّى الشتاء الآن، ولكنها كانت تشكّل تحدياً بالنسبة إليه. وكان الأمر يسيراً كل اليسر، حقّاً. أمسكت اليد اليسرى بعمود السرير على حين رفعت اليد اليمنى العباءة، وبهذه الحركة نفسها انزلقت قليلاً في كمه الأيمن. وباليد اليمنى رفعها عالياً، وامتد الكم تحت الذراع. ثم استقرت اليد اليمنى منبسطة على الباب. بحيث تكون أعلى قليلاً من ارتفاع الكتف، بينما تترك

twitter @baghdad_library

اليد اليسرى عمود السرير وتمرق في تجويف الذراع اليسرى. فإذا لم تكن الذراع اليسرى سريعة بما فيه الكفاية، فإن العباءة سوف تسقط على الأرض، متعلِّقة بالكتف اليمنى. ومن ثمّ ينبغي أن يتخلى عنها متمهلاً، ويتركها ملقاة على الأرض. فلم يكن في مقدوره أن يلتقط أي شيء من أرضية الحجرة.

وتمكن برونو من بلوغ ما أراد، فلفّ العباءة ووضعها فوق كتفيه، وضم طرفيها إلى الأمام بيده اليسرى. وكان تنفسه عميقاً من أثر المجهود الذي بذله. ومد يده اليمنى ببطء حتى بلغت مقبض الباب النحاسي المجعَّد، وهمّ بفتح الباب وهو ينحرف متمهلاً حوله بينما كان يفعل ذلك. وأفضت به حركاته إلى أن يستدير لمواجهة الحجرة، فأخذ يتأملها لحظة، مشاهداً صندوقه الصغير الذي هو سجنه كما ينظر إليه غريب من الخارج. وكان لحافه الأبيض المائل إلى الصفرة والمصنوع من القطن الهندي مزيناً بزخارف سود باهتة تبدو أشبه بكتابة على النحاس المطروق لحرف قديم جداً. أما السرير القائم بين أعمدة خشبية أربعة مسطحة الرؤوس وذات لون بني فاتح ـ فقد كان يبدو منكمشاً على نفسه، قذراً، عريناً يخلو من كل نظام. والملاءات تبدو جميعاً على أنها مكونة من عقد. كان السرير يفصح إفصاحاً ناقصاً عن أنه سرير موحش لشخص مريض، توقفت العناية به مؤقتاً. وكان ضوء المساء البارد الذي فارقته الشمس والمنبعث من النافذة يبدي المربع الصغير من السجادة البنية النحيلة التي توارى بعضها الممزق تحت السرير، محوطاً بألواح خشبية يكسوها الغبار. أما ورق الجدران المغطى برسم معتم من أوراق اللبلاب، فقد كان باهتاً حائل اللون ملطخاً ببقع بلون الشاي. وكانت حجرة النوم الضيقة هي «الحجرة الاحتياطية الصغيرة» أعواماً طويلة. ويحتلها برونو الآن لقربها من دورة المياه. وعلى يمين برونو خزانة للكتب يعلوها رخام متشقق، وُضعت عليه علبتان فارغتان من علب زجاجات الشمبانيا جعلتا إطاراً لصورة جاني. أما

الـرفوف العليـا فتحتوي عـلى كتب قديـمة جـداً ذات أغلفـة لينـة. وتضم الرفوف السفلى مجهر برونو وأربعة أطر تحتوي على أنابيب اختبار وضعت فيهـا العناكب في الكحول. وعلى شمال برونو، وراء الباب عند انفتاحه ـ منضدة متهالكة ذات جانبين مسدلين استقـر عليها الآن صنـدوق الطوابـع الخشبي الضخم، وهـو الصندوق الـذي اعتاد دينبي أن يـأخذه إلى حجـرتـه أثنـاء الليـل، يراوده الأمـل في أن ينساه بـرونو فـلا يطلبـه مرة أخـرى، ومن ثم يستطيع أن يودعه في أحـد المصارف. وكـانت زجاجـات الشمبانيـا المملوءة راقـدة تحت المائـدة. ولم يكن برونـو يحتسي الشمبانيـا مثلجـة وفقـاً لأوامـر الـطبيب. وكانت كتب العنـاكب التي هي أضخم من أن تتسع لهـا خزانـة الكتب ـ تمـلأ معظم المسـاحة المتبقيـة من الحجرة، مكـدسـة عـلى خِـزانـة الأدراج، وعلى المقعدين القـائمين وعـلى المنضدة الصغـيرة المجاورة للسريـر حيث يـوضع المصبـاح. ويلوح من النافـذة ذات الإطار شـطرٌ من السقف الأردوازي المبلل، وسماءٌ بلون القهوة تتحرك حركة بطيئة مضطربة لا سبيل إلى تحـديد معـالمها، وواحـد من الأبراج الثـلاثة لمحـطة «لوتس رود» لتـوليد الطاقة يبدو حالك السواد، وببعديْن فحسب من الضوء الكئيب.

استـدار برونـو متثاقـلاً، وشرع في رحلته متجهـاً إلى دورة الميـاه، وهـو يتحسس الجـدار بيده اليمنى. بقعـة قاتـمـة دائمة عـلى ورق الجدران، هي التسجيل لكثير من هذه الرحـلات ـ كانت تقـود يده المتحـركة. كـان باب الحمام مفتوحـاً، حمداً لله. غـير أن مقبض الباب كـان عنيداً. وكـانت فكرة نايجل النيِّرة أن يترك الباب مفتوحـاً دائماً حين لا يكون هناك من يقوم عـلى خدمته. كان نايجـل زاخراً بـالأفكار الصغـيرة التي تستهدف راحـة برونـو. وتحـركت يد بـرونو عـلى الجـدار. من المؤكـد أن بـارڤـاتي لم تكن هي التي أحدثت كل هذا الغضب. إنه مايلز. أما بارڤاتي فلا بد أنها فهمت. ذلـك أن أبويها، وكانا من البراهمة ـ اعترضا أيضاً على هذا الزواج. ولم يوافقا قط على رؤية مايلز. ولو أنه التقى ببارڤـاتي لسار كـل شيء على مـا يرام، فهي

twitter @baghdad_library

فتاة حقيقية، وليست مجرد فكرة عن فتاة هندية. وعلى كل حال فإنه لم يكن يقصد ما فهم عنه، فقد كانت عبارة قالها ذات مرة: إنه لا يريد أن تكون زوجة ابنه من الملوَّنين. وليس في إمكانه الآن أن يتذكر أي شعور عن هذا الموضوع، أو أي شعور كان يشعر به حينذاك. قال مايلز إنه كان يعارض هذا الزواج «في مرارة». ولم يكن ذلك حقّاً. كل ما يتذكره هو هذا الخلط، وإنكاره أنه قال أشياءً، وغضب مايلز، ذلك الغضب البارد المترفع. ولم يكن ذلك من العدل في شيء.

كان برونو الآن داخل الحمّام يستند إلى الباب المغلق. وبينما كان يتحسس عباءته سقط شيء على الأرض عند قدميه، فرأى على الفور أنه العنكبوت Pholcus Phalangioides الذي نقله من مكانه على الباب، أو لعله كان ركن الحائط، حيث كان قد نسج مشنقته غير المنتظمة التي تكاد أن تكون لا مرئية، فلم تزعجه أديليد. واستقر العنكبوت في مكانه بلا حراك. فتساءل إن كان قد حطّمه بكمه. وعندئذ لمسه برفق بقدميه المجوربتين. غير أن ذلك الكائن ظل ثابتاً، وقد طوى ساقيه الطويلتين داخل جسمه لعله يتظاهر بأنه ميت. خطا برونو في أناة فوقه، وخفض مقعد المرحاض وجلس عليه. وانتزع قطعة من ورق الحمّام، وانحنى إلى الأمام، ثم وضعها بعناية تحت ذلك الشيء الصغير المنطوي على نفسه. فانزلق العنكبوت على الورق مع كمية وفيرة من الغبار والزغب. وتحرك حركة خفيفة. لا بد أنه قد أصابه بطريقة أو بأخرى، ولكنه بغير المجهر أو النظارات المكبرة على أي حال ـ لن يعرف كيف كانت هذه الإصابة. حاول أن يدقق النظر في وجه العنكبوت، ولكنه بغير نظارته كان كل شيء يبدو غائماً. وهو لم يعد يحتفظ الآن بالعناكب حبيسة منذ زمن طويل. فمنذ عام مضى استولى عليه حنين مباغت ليرى عنكبوتاً جميلاً من فصيلة Micro-matta Vivescens، وبعث نايجل مزوَّداً بآلة تصوير ليصطاده من متنَزَّه باترسي. وعاد نايجل دون أن يصيد واحداً من هذه «الميكروماتا»، وإنما بعلبة

مربى مليئة بتشكيلة من العناكب، اثنان منهما ميتان فعلاً، وواحد مسكين من فصيلة Ciniflo ferox وآخر Onops Pulcher، من المحتمل أن يكون قد قتل بذلك العنكبوت المفترس Drassodes lapidosus الذي كانا يتناوبان حبسه. ووضع برونو نظاراته المكبرة جانباً وطلب من نايجل أن يطلق سراحها جميعاً في الفناء حالاً. . وعلى كل حال لم يكن نايجل من رجال العلم أبداً.

لم يُبْد العنكبوت Pholcus phalangioides أي أثر للحياة. لا بد أنه سحقه عندما كان مستنداً إلى الجدار. فأسقطه على الأرض ووضع عليه قطعتين من ورق الحمام، وداس بكعبه في شدة على الكومة التي لم تكن لتقاوم أية مقاومة.

وأحس برونو بالدموع اللعينة قريبة من عينيه مرة أخرى. كان النسوة جميعاً في شرخ الشباب بينما كان يهرم مثل تيثونوس Tithonus. ماذا لو أرادت جاني أن تصفح عنه في النهاية بعد كل شيء؟ لعلها مدت إليه يديها وقالت: «برونو. إن أصفح عنك، أرجو أن تصفح عني، يا قلبي العزيز، أنا أحبك، أحبك، أحبك». لم يكن ليعرف هذا أبداً، أبداً. أثمن شيء في الوجود ضاع بالنسبة إليه إلى الأبد.

twitter @baghdad_library

(٥)

قـال ويـل بـوس لابنـة خـالتـه أديليـد دوكـريسي: «كيف حـال تـوأمي المحترم؟».

ـ «بخير». ونظرت إليـه أديليد في ارتيـاب. ولم تكن أبداً عـلى يقين من مـدى العلاقـة الوثيقـة بين هـذين الاثنين. فقـد كانـا يبـدوان في كثـير من الأحيـان أشبه بـالأعداء، ولكن لم يكن في إمكـانها الحدس بمـا يشعران بـه حقاً.

ـ «مـا كنت أحب أن أكـون في وظيفــة. ولا أسـتـطيــع أن أفكـر كيف يتصرف مع الأحمق العجوز المسكين»

قالت أديليد: «إنه حسن التصرف إلى أبعد حـد مع بـرونو. شيء يكـاد يكون خارقاً للعادة».

ـ «نايجل شخص مخبول إلى حد مـا، إذا سألتني. وكـان ينبغي أن يبقى في التمثيل».

ـ «انظر إلى ما أفضى إليه بك التمثيل!».

ـ «لا أسـتـطيع الحصـول على دور إلا إذا كنت أمتلك شيئـاً من الثيـاب المحترمة».

ـ «لن أعطيك مزيداً من المال، يا ويل!».

ـ «لم أطلب منك شيئاً من ذلك، أتُراني فعلت؟».

ـ «يكفيك أنك تحصل على معاش خالتي!».

ـ «كفِّي عن هذا النكد!».

ـ «قال دينبي إنك تستطيع أن تقوم بطلاء واجهة المنزل، لو أردت».

ـ «أخبريه أن يطليها بنفسه».

ـ «لا تكن على هذه الدرجة من الحماقة يا ويل. لقد دفع لك دينبي مبلغاً كبيراً في عملك الأخير. أكثر من اللازم في واقع الأمر».

ـ «بالضبط. أنا لا أريد هذا الإحسان البغيض من دينبي».

ـ «إذن، أظن أن عليك أن تحاول وتكسب شيئاً من النقود كما يفعل غيرك من الناس».

ـ «هذا المجتمع يفكر كثيراً في المال».

ـ «أنت مجرد متسول».

ـ «كفى بحق السماء! سأبيع رسوماتي. وسترين».

ـ «تقصد تلك اللوحات الفاجرة.. التي منعتني من النظر إليها؟».

ـ «ليس في الفُحش أو الفجور أي خطأ.. بل إنه يلائمك. ولو تمسك رجال السياسة بالفحش لما اضطربت أحوال العالم على هذا النحو».

ـ «من يشتري هذه الموضوعات البشعة على كل حال؟».

ـ «هناك سوق لها.. وما عليك إلا أن تبحثي عنها».

ـ «أود لو حافظت على شيء واحد بدلاً من أن تبدأ في تلك الأشياء التي لا تقودك إلى أي مكان».

ـ «لا حيلة لي إن كنت متعدد المواهب، يا آد!».

ـ «أما زلت تتردد على ذلك المكان للتدرب على المسدسات؟».

ـ «على الرجل أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه».

ـ «أنت تعيش في عالم من الأحلام. وأنت ونايجل في السوء سواء».

ـ «عليك أن تنتظري، آد. وسأشتري آلة تصوير جيدة حقاً. يمكن اكتساب كثير من المال من مهنة التصوير».

ـ «في البداية كانت الصور الفاحشة، والآن جاء دور التصوير. ليس لديك من المال ما يكفي للحصول على آلة تصوير جيدة حقاً».

ـ «نكد في نكد في نكد!».

twitter @baghdad_library

ـ «أعتقد أن المسألة تزداد سوءاً».

ـ «كفي عن التذمر، أيّتها الخالـة، وإلا وضعناك في صنـدوق. اذهبي، واكتبي مذكراتك!».

كانت أديليد تـتردد على المكـان الذي يقيم فيـه «ويل» أيـام الآحاد لكي تطهو طعـام الغداء لـه ولخالتهـا. وكانت تعـرف من أحوالهـا ما يجعلهـا لا تدعوه وجبه خفيفة Lunch بالنسبة لـ «ويل». وكان المكـان هو شقـة خالتهـا أصلاً، ولم ينتقل إليه ويل إلا حينـما كان عـاطلاً عن العمـل. وكانت الخـالة عجـوزاً مُخرِّفة، ومع ذلـك كانت قـادرة على تـدبير شؤون المنـزل. وكانت أديليد تطهو غداءً بسيطاً ما دام ويل وخالتها لا يعرفـان ما يـأكلان، وكـان ويل يرى أن الاهتمام بالطعام خصلة بورجوازية.

ولم تكن الخالة خالة حقيقية، ولكن تابعة نذرت نفسها لخدمـة التوأمـين في أيـامهما المبكـرة في التمثيل عنـدما كـانت تحتفظ بغرف لـلإقامـة في شمال إنجلترا، وقد انفصلت تماماً عن الواقـع مرحلة تمتـد عدة سنـوات. فكانت تعلن عـلى فـترات منتـظمـة أنها أمـيرة روسيـة، وأنها عـلى وشـك أن تبيـع مجوهراتها للحصول على ثروة، وأنها تعاقدت على كتابة مذكراتها عن البلاط القيصري. وفي الآونة الأخيرة، بدأت قدرتها حتى على الكلام تتخلى عنها. وفي الحوانيت، كانت تجمجم وتشير إلى ما تريد، أو تتفوه بسيل من الرطانة غير المفهومة التي تنتهي بنهايـات أشبه بـاللغة الـروسية. ومن المحتمـل أنها اكتسبت النهـايتين «دا» و«نـايت» Nayetمن الصحف. وكانت الخـالـة في شقة معتمة في الطابق الأرضي في «كامدن تاون» Camden town. وكانت شقة الخالة أنيقة المـظهر، وتحتـوي على كثـير جداً من الأشيـاء، من ضمنها قـطع صغيرة لا تحصى من الخـزف الصيني، يبدو أن عـددها لا يقـل أبداً، على الرغم من عادة «ويل» في تحطيم الأشياء أثناء نوبات الغضب. ولم تكن كـل الأشياء التي ينبغي أن تـوضع في مـواجهة الحـائط، يـوجـد حـائط في

مـواجهتهـا. أمـا حجـرة الجلوس فكـانت منقسمـة بلوح جـانبي طـويـل، وبخزانة طويلة للكتب تنتصب بزاوية قائمـة في الحجرة. ولم يكن هـذا يهم كثيراً لأن أحداً لم يكن يتردد على هـذا المكان أبـداً. وكانت الحيـاة تدور في المطبخ. وذات مرة خطر لـ «ويل» أن يجتاز مرحلة قصيرة أراد فيهـا أن يقوم «بتحـديث» الشقة، ولكنـه لم يتجـاوز شراء مقعـد من الصلب عـلى درجـة عالية من القبح، يقف الآن في القاعة تغطيه المعاطف بلا رحمة.

وكـان المطبـخ معتمـاً، وأشـد عتمـة اليـوم لانهمار المـطر، ومن ثم فقـد أضـاءوا المصباح الكهـربائي. وكـان عبارة عن لمبـة بغير غـطاء تلقي ضوءاً شاحباً على المشهد المتجمِّع حول مائدة المطبخ، هنـاك حيث كانـوا قد فـرغوا لتـوهّم من التهام شـواء الضأن. وكـانت الخالـة المشغولـة على غـير العـادة بالنظام القيصري - تبتسم ابتسامة غامضة خلف نظارات سميكة العدسات ذات إطارات من الصلب. وكانت لها طريقـة تنظر بهـا «في» نظارتهـا وكأن هناك مشهداً خاصاً مطبوعاً على زجاج العدسات. كانت امـرأة جميلة ذات يـوم. . طويلة، ذات شعـر يميل إلى الـزرقة وتـرتـدي جـونـلات طـويلة، وسترات برتقالية طويلة جداً تقوم بحياكتها بنفسها. واستحـال وجهها الآن إلى لون رمادي ضارب إلى الصفرة وقد أصابته البدانة، غير أن عينيها كانتا لامعتين مرحتين. ويبدو أن فقدانها لعقلها لم يجعلها تشعر بالتعاسة.

وكانت أديليد لا ترتاح أبداً إلى أن يكون لهـا مثل هـذا الاسم الذي يـرن في الأسـماع رنين الأسـماء الأرستقراطيـة. كانت أمهـا - «ماري بـوس»، قد تزوجت نجاراً ميسـور الحال يـدعى «موريس دوكـريسي». وتعلمت أديليد منـذ صغـرهـا أن تـردد هـذه العبـارة: «لقـد انحـدرنـا من أسرة من الهوجونـوت»، وإن لم تكن تعلم من هم هؤلاء «الهوجـونوت» أو حتى كيف تتهجى هذه الكلمة. وفي المدرسة عندما كان اسمها - في قائمة النداء - يأتي بين ميني دوكينز ودوريس دوبي، كان أترابها يضايقونها كثيراً بسبب اسمها،

twitter @baghdad_library

ولكنها سرعان ما رأت أيضاً أن الفتيات متأثرات به. ولعل اسمها هو الذي جعلها حائرة كل هذه الحيرة إزاء وضعها وهويتها. وهذه الحيرة لم تخف حدتها مع استمرار حياتها. كان أبواها شخصين لا يعرفان الادعاء، ويعيشان في «كريدون» Croydon ويتناولان وجباتهما في المطبخ. وعندما كبرت أديليد حاولت عبثاً اقناعهما بتناول وجباتهما في حجرة الطعام. ولكنها احتكرت فيما بعد حجرة الطعام لنفسها وأطلقت عليها حجرة الدراسة وملأتها بحليٍّ تافهة من حوانيت السلع القديمة. غير أنها لم تكن تبدو على الإطلاق أشبه بحجرة حقيقية. أما شقيقها الذي كان يكبرها بسنوات عشر، فلم تكن لديه ألغاز محيِّرة أبداً. اشتغل بالحاسبات الالكترونية، وتزوج، ثم رحل إلى مانشستر حيث أقام في منزل منفصل، وكان يدعو أصدقاءه إلى وجبات الغداء دون أن يضع مفرشاً على المائدة.

وكانت أديليد ذكية في المدرسة، ولكنها تركتها وهي في الخامسة عشرة، وأصبحت كاتبة في مكتب للتأمين. وتعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة، وتمنت أن تصبح سكرتيرة شخص ما. وانتقل المكتب إلى لندن فاشتغلت أديليد مساعدة في محل رائع، وتطلعت إلى أن تصبح بائعة. ولكن يبدو أن أحداً لم يلتفت إلى مواهبها، فتركت المحل، وأصبحت كاتبة في مكتب للبريد. وبدأت تشعر أنه لو كانت هناك حافلة، فلا شك أنها فاتتها الآن. وفي لحظة يأس استجابت إلى إعلان دينبي الملتوي الكلمات الذي يطلب فيه مدبرة منزل مقيمة. كانت تتوقع منزلاً عظيماً. وما إن أفاقت من دهشتها حتى كان الأوان قد فات، إذ وقعت في غرام دينبي. والواقع أنها لا تشرف على تدبير المنزل، ما دام دينبي الذي يجري عرق قديم من خدمة المنزل في طبيعته، كان يقوم بالإشراف والتنظيم كله. أما عمل أديليد فقد اقتصر على التنظيف والطهي. فكانت هي الخادمة. وكان دينبي يسميها أديليد الخادمة، وكان يخترع النوادر عنها. ولا بد أنه ابتكر حوالي خمسين نادرة. وقد أحالها إلى نكتة، كما كان يحيل كل شيء تقريباً إلى

نكتة، وكان هذا يؤلمها. قال لها ذات مرة: «إن لك اسم بغي شهيرة في قصة». فأجابته أديليد: «وأظن أنني بغي أيضاً». وبدلاً من أن يستنكر ذلك قال: «كل الفتيات الظريفات هن كذلك». ولم تسأله عن سميتها لأنها لم تكن تريد أن تعرف. وقالت لنفسها في مرارة: «إذن فلست أكثر من طيف بغي شهيرة في قصة».

وقضى والد أديليد نحبه عندما كانت في حوالي الثانية عشرة، وأصبحت أمها الغامضة التي لا حول لها ولا قوة معتمدة تمام الاعتماد على «جوزيف جوس»، والد «ويل» و«نايجل». وكذلك فعلت أديليد. إذ كان شقيقها في مانشستر فعلاً. أما زوجة جوزيف الذي كانت ممثلة ذات يوم، فقد هجرته منذ زمن لأنه كان حاد الطباع، وعادت إلى المسرح، وبذلك أصبح هذا الثلاثي من الرجال البؤرة التي لا سبيل إلى مقاومتها والمغناطيس الذي يجتذب الأم والابنة المحرومتين. والواقع أن أديليد كانت مفتونة بأسرة «بوس» منذ أمد بعيد؛ وكان التوأمان اللذان لا يكبرانها بأكثر من ثلاثة أعوام ـ أوثق صلة بها أثناء طفولتها من شقيقها نفسه. كانت تحبهما معاً، وإن كانت تميل إلى نايجل ميلاً أكثر قليلاً في تلك الأيام. بل كانت مغرمة بعمهما جوزيف أيضاً، وإن كانت تخشى حدة مزاجه. وقد كان شخصاً وسيماً إلى أبعد حد، وله شارب ولحية سوداوان، ويعمل في مكتب للشحن، ويتخيل نفسه رجلاً من رجال البحر.

وكانت طفولتها مع التوأمين أسعد فترة في حياة أديليد، وكثيراً ما كانت تشعر بأنها الشطر الحقيقي في شخصيتها. وكانت لا تختلف عن الصبيان في مظهرها وتنضم إلى التوأمين على أنها ند لهما في جميع ألعابهما التي كانت تتألف في معظمها من ارتياد مواقع المباني، وتسلق الصقالات، وحفر علامات في الإسمنت اللين، والفرار من الحراس، وسرقة قوالب الطوب الأحمر. «هل يمكن أن يأتي ويل ونايجل لتناول الشاي؟» هل أستطيع أن أذهب لتناول الشاي مع ويل ونايجل؟» وفي أيام السبت كانوا يلعبون

twitter @baghdad_library

الكريكيت مع غيرهم من الأطفال في حديقة «بوس» الخلفية. ولكنهم كانوا بالطبع أرقى من الأطفال الآخرين. كانوا يؤلفون مجتمعاً سرياً صغيراً. وكانت أوقاتهم التي يقضونها كثلاثي هي أوقاتهم الخاصة التي لا يشاركهم فيها أحد. وعندما بلغ التوأمان التاسعة عشرة هربا من العم جوزيف، وانضما إلى أمهما، واشتغلا بالمسرح.

وكانت أديليد تعمل حينذاك في مكتب التأمين، وكان هروبهما صدمة شديدة لها. ومع أنهم كانوا قد اجتازوا مرحلة سرقة قوالب الطوب إلا أنها كانت تراهما كثيراً. فكانوا يذهبون إلى المسرحيات والأفلام معاً، وكان الغلامان اللذان استمرا في دراستهما حتى الفصل السادس من المدرسة الثانوية يقومان بتعليم ابنة خالتهما الشابة تعليماً لم يكونا يقصدانه. كانت تصغي إلى حديثهما وتقرأ الكتب التي يتحدثان عنها. ويبدو أنهما لم يلتفتا إلى أنها تنمو إلا نادراً، وإن كانا يتحدثان عن جمالها بصورة تستهدف إغاظتها. وكانت تغار من صديقاتهما من الفتيات. وهنا فحسب بدأت تفكر في أنها قد تتزوج من أحدهما ذات يوم، وإن لم تستطع أن تحدد أيهما.

ومضت فترة طويلة كانت تسمع فيها عن التوأمين دون أن تراهما. وكانت آمال كبيرة معقودةً على مستقبلهما. ولكن قيل إن نايجل قد هجر المسرح ليعمل في وظيفة أو في أخرى في ليدز Leeds. وظهر «ويل» مرة واحدة في دور صغير في التلفزيون، وكانت أديليد تعمل وقتئذ، فلم تستطع أن تشاهده. وماتت الأم الممثلة، من إدمان الخمر على ما يقال. وتنقلت هي بعد ذلك في أعمال عدة وكان لها العديد من الأصدقاء الشبان، بعضهم كان يشتهيها بحرارة، ولكنها لم تكن تستطيع أن تقرر مضاجعة أحدهم. إذ كانوا يبدون لها جميعاً بعد التوأمين ـ تافهين، أغبياء، دون ميزة تميِّز أحدهم عن الآخرين. وكان «ويل» يعمل في أحد المسارح الصغيرة في اسكتلندا. وفجأة، بدأ يكتب لها رسائل غرامية.

كـان يعيش وحيداً هنـاكِ، يفكر تفكـيراً عاطفيـاً في زمن طفولتنـا، وهذه الـرسائـل لا تعني شيئاً في الحقيقـة. . هذا هـو ما كـانت أديليد تحـدث به نفسها. ولكنها كانت مسرورة على كل حال. فردَّت على رسائله في حرارة، حريصة لأول وهلة على ألا تلتزم بشيء، ولكن سرعان مـا تحولت رسـائلها إلى الـرومانسيـة التي اصطبغت بهـا رسائله. وكـان كل منهـما يستمتع بهـذه المراسلة، وتحولت الرسائل إلى عمل إيجـابي من أعمال الفن. وكـانت أديليد تحتفظ بنسخ كربـونية من رسـائلهـا. وظـل «ويـل» يـردِّد أنـه سيعـود إلى الجنوب، ولكنه لم يعد. وتقاعـد العم جوزيف من مكتب الشحن، وذهب للإقامة في بورتسـماوث. وألمح ويـل إلى وظيفة ضخمـة تنتظره في «الـوست إنـد» West End. وفي نهاية الأمـر، عاد إلى لنـدن، عاطـلاً عن العمل، وانتقل إلى شقة الخالة، وتقدم طالباً الزواج من أديليد.

لم تكن أديليد تعرف شعورها حق المعرفة. فهي لم تـر «ويل» منـذ أمد بعيـد، وقد تغـيَّر. كان شـاباً جميـل الطلعـة، وقد أخـذ يزداد شبهـاً بالعم جوزيف. ولكنه كان أشد منه امتلاءً، وأصبح له شـارب. وقد كـان دائماً أميل إلى البدانة من نايجل، ويبدو الآن أشبـه بلاعب من ألعـاب القوى في العصر الفيكتوري. كان ضخماً غليظاً، يكاد يكون آلياً في حركاته، متورد الوجه، ترك شعره الفاحم مسترسلاً ولكنه مقصوص بعناية. كما يبـدو عليه أيضاً أنه أخذ ينمِّي حدة طبـع العم جوزيف، وهـذا ما اكتشفتـه أديليد في الحال، إذ لم تكن قادرة على إخفاء هذه الحقيقة، وهي أنهـا كانت مضطربـة اضطراباً شديداً.

والمشكلة هي أنها مـا إن وقع بصرهـا على «ويـل» حتى قررت أنها تـريد «نايجل». آه، لـو لم يكن هناك «اثنان» منهما! ولم تكن قـد رأت أو سمعت عن نـايجـل منـذ أعـوام، ولم يكن هنـاك من يعلم مستقـره. ولكن كـانت تطاردها الآن رؤية غلام نحيل فاحم الشعـر لم تكن تستطيـع أن تقرر أهـو

twitter @baghdad_library

نايجل أم هو ويل كما اعتاد أن يكـون. وتمنّت ألا يخمِّن «ويل». وخمّن ويـل فحـطّم ببغاوات الخـالة جميعـاً. وكان نـايجل قـد عاد إلى لنـدن واشتغل في المستشفى الملكي الحـرّ. وطفقت أديليد تلقي بـأكاذيب محمـومة عـلى ويـل، وذهبت لرؤية نايجل سراً. ولم يتمخض اللقـاء عن شيء. فقد كـان نايجـل فاتراً، غامضاً، مشتتاً، وإن لم يكن قاسياً كل القسوة. وتركتـه أديليد وهي في حالة شديدة من الهيـاج. واستجابت لنـداء دينبي، ووقعت في غرامـه. ولحسن الحظ، رحـل ويـل عن لنـدن ليعمـل في فيلم يُصـوَّر في «إيست جرينستد». وحينما عاد كانت أديليد خليلة دينبي.

ولم تكن أديليد تتحدث إلى دينبي إطلاقاً عن ويل إلا في عبارات عابرة، وبالطبع كانت تخفي عن ويل أنها تهتم أي اهتمام خاص بدينبي. واحتـالت على إقناع ويل بأنه كان مخطئاً فيما تصوره من علاقة بينها وبين نايجل، وكان ذلك أمراً يسـير عليها الآن، لأنه كان حقيقياً. ذلك أنها لم تكن تشعر بأيـة مشـاعر رقيقـة نحو نـايجل، وإن كـان يثير فيهـا من حـين إلى آخـر عـواطفـ غامضة مثيرة للأعصاب. ولم تكن تستطيع أن تغفر له عدم استجابته الهادئة لندائها المكشوف الذي لا لَبْس فيـه. كان قـد تغير هـو أيضاً، وكـادت أن تشعر نحوه بشيء قليل من الخوف. وكـان يبدو أنـه يحيا في عـالم آخر. وفي غير حكمة تماماً أنبأت دينبي أن نايجل يعد ممرضاً نصفـ مدرّب، وأنه الآن عاطل عن العمل. أما دينبي الذي مال إلى نـايجل في الحـال فإنـه لم يستطيـع أن يمنع نفسه من استـدعائـه، وتعيينه. وظنت أديليـد لأول وهلة أن وجود نايجل في المنـزل سيجعل حيـاتها مستحيلة. ولكنهـا اعتادت عـلى حضوره، وإن ظلت مضطربة، خائفة منه. ولم يكن هناك ما يدعـو نايجـل لأن يعرف مـا يدور وراء الأبـواب المغلقـة في المبنى الملحق أثنـاء الليـل، وحتى إن كـان يفكـر في ذلك فـإنها موقنـة بأنـه لن يفضي بشيء إلى «ويـل» الـذي يبـدو أنـه قطع معه كل العلاقات. وهو لم يخبر ويل أبـداً بأن أديليـد سعت إلى لقائـه ذات يوم.

تغيرت مشاعرها نحو دينبي دون أن يخفف ذلك من عبوديتها للحب. كانت أسيرة تماماً لسحره اليسير، لنظراته الطيبة، للجو المرح الذي يحمله معه أينما حل. وكذلك تأثرت تأثراً عميقاً بأسطورة زوجته المتوفاة التي كانت تنفض الغبار عن صورتها الموضوعة فوق البيانو في غرفة الاستقبال. عينان سوداوان متأملتان، وشعر غزير فاحم مجعَّد، ووجه بيضاوي شاحب، ولكنه متوتر القسمات، وفم صغير بارز حسن التكوين، وما من مرة تحدث فيها دينبي عن زوجته، وكان كثيراً ما يفعل ذلك إلا وكانت نبرة صوته يطرأ عليها التغيير، وكذلك كانت عيناه، ينتابه شيء من الجدية، بل والغرابة، حتى إذا كان غارقاً في الضحك. وكانت أديليد تحب ذلك منه.. إذ يضفي لمسة من السر على ما قد يبدو ـ بدون هذه اللمسة ـ شيئاً هيناً، شيئاً مكشوفاً. لقد اكتشفت في دينبي شيئاً يقرِّبه من الإله، نوعاً من إلّه الغابة المبتسم المتوج بأوراق الكروم، الحافل بألوان من المزاح والتهريج، ولكنه زاخر بالقوة أيضاً. وكان يربّت عليها كثيراً منذ البداية ويضربها مداعباً، ولكنه كان يفعل ذلك مع عمال المطابع، ومع عاملة البار في حانة «البالون» والفتاة في حانوت التبغ، والخادمة النهارية المؤقتة، والرجل الذي يحمل إليهم اللبن. وذات يوم دخل حجرة نومها، ونظر إليها في وقار شديد، صامتاً برهة من الزمن، ثم قبّلها وقال: «ما رأيك في هذا، يا أديليد؟» وكاد يُغْشى عليها من الفرح.

أما دينبي بوصفه عاشقاً، فكان أبعد ما يكون عن الألوهية. لا لأنها كانت تشعر بأنه غير خليق بالثقة، فقد أنبأها منذ البداية في جدية تامة ـ بأنه ينوي أن تكون الصلة بينهما دائمة، وأنه ينوي أن يعولها إذا اقتربت من الشيخوخة. أما أديليد ـ التي لم تكن تفكر في شيخوختها، والتي كان من الممكن أن تقبل اقتراح دينبي على أية شروط كانت ـ فقد أصغت في شيء من الحيرة لتلك الاحتجاجات. ولكنها أصبحت ـ فيما بعد ـ مصدراً لسرورها. وحينما كانت تشعر في بعض اللحظات، وهذا ما كان يحدث لها

twitter @baghdad_library

عرضاً فيما بعد ـ بأنها تعطي لدينبي أكثر من اللازم، كان عزاؤها أن تفكر في أنها كسبت على الأقل شيئاً دائماً.

لم يكن يعنيها حقاً أنها لا تستمتع بمعاشرته في الفراش كل الاستمتاع. فقد كانت قلقة فيما يختص بمسألة منع الحمل. كانت مسرورة لأنه مسرور، كما كان تأثرها عظيماً بما أبداه من حنان وابتهاج عندما علم أنه أول من ضاجعها. وقالت لنفسها: المسألة هي أن أي رجل، ما إن تعرفه المرأة جيداً، حتى يتحول إلى شخص أناني تماماً. فقد كان دينبي يفعل بالضبط ما يريده، ولم يكن يبدو عليه أنه يفكر إطلاقاً في أن هذا الذي يفعله لا يلائم أديليد تمام الملاءمة. ووجدت أديليد أنه من العسير عليها في الواقع أن تتذكر المسائل الخاصة التي استند إليها في غضبه عليها، ولكنها كانت تستبقي إحساساً غامضاً بأنه لم ينظر إلى هذه المسائل نظرة كافية. وإذا أخذنا الموقف كله بشيء من التحليل العميق، فربما كان وراء هذا افتراض دينبي بأنها ليست نداً له من الناحية الاجتماعية. وهذا الافتراض، كانت أديليد تشعر به في حالة سديمية، شاملة، عميقة. وأحست ـ إحساساً يكاد يكون جسدياً ـ بأنانيته وبعجزها عن الدفاع عن نفسها ـ في الليالي الطويلة بعد أن يمارسا الحب ـ وهي ترقد مستيقظة، متسائلة عما يفعل هذا الجسد الضخم المتكرش الذي يتفصد عرقاً ـ في فراشها. غير أن اكتشاف ضعفه، بل وأنه إنسان عادي، لم يكن ذلك إلا ليزيد من حبها له.

وفي هذه الأثناء ظل ويل ثابتاً على رأيه بصورة تبعث على الذعر. إذ استقر على حالة من الحيرة لإحجام أديليد، ومن التوقع الواثق لاستسلامها الوشيك. وبذلك أنفقت قدراً كبيراً من طاقتها لإقناعه بأنه لم يكن ثمة أحد سواه. وشرعت تبني لنفسها صورة بوصفها عانساً بطبيعتها. وخطر لها ذات مرة أنه قد يكون من المفيد أن تعمد إلى التلميح بأنها سحاقية، غير أن ويل اضطرب لهذا التلميح وغضب غضباً شديداً بحيث قررت ألا

تمضي في هذه الفكرة، ولم يكن يبدو عليه بتاتاً أنه يرتاب في دينبي، ويرجع ذلك في معظمه إلى أن ويل ينتمي إلى ذلك القطاع من البشر الذي يعمى تماماً عن رؤية ما يمتاز به دينبي من جاذبية. كان «ويل» يعتقد أن دينبي لا يعدو أن يكون حماراً. والزمن الذي سيطوي معظم ما هو غير محتمل من الترتيبات، والذي سيجعلهما يبدوان مستقرين مبتذلين، استولى على هذا أيضاً. وكفَّت أديليد عن خوفها من اكتشاف «ويل» علاقتها بدينبي، وإن كانت تنتابها أحياناً لحظات من الذعر. واعتادت أن تذهب إليه أيام الآحاد مستقبلة لحب دينبي المتفاني المؤثر العصبي الكهربائي. وكانت تعطيه شيئاً من المال من احتياطي ضئيل كانت تدخره من الهبات التي يمنحها دينبي إياها للإنفاق على ثيابها، فكان أن أودعتها في أحد المصارف. وبعد الغداء، عندما تنسحب الخالة إلى حجرتها، كان الجو يسوء بينهما عادة، حين يلح عليها ويل ويستسلم للغضب. ولكنها أخذت تتحسن في التصرف معه، بل بدأت تستمتع قليلاً بأنها كانت تمتلك بهذا المعنى غير الحاسم نوعاً ما ـ ويل أيضاً.

وعلى الرغم من أنها تلقت ـ فيما يتعلق بويل ـ ذلك الكشف نفسه عن الأنانية الشاملة لجنس الرجال الذي تلقته عن دينبي ـ فإنها ما برحت تفكر فيه باعتباره شخصاً نبيلاً متميزاً بطريقة أو بأخرى. كانت معجبة بثقته الاجتماعية، واقتناعه الراسخ بأنه من «الطبقة العاملة». والواقع أنه لم يكن حقّاً من «الطبقة العاملة». فذلك الطابع من البوهيمية المتعددة المواهب جعله بلا طبقة. بل بلغ بها الحال أنها كانت معجبة أيضاً بقدرته على البطالة دون أن يساوره القلق. كان موهوباً حقاً. وقد أطلعها مؤخراً على سلسلة من رسومات عن كائنات ممسوخة: أجنة مشوهة، ومخلوقات بشعة كثة الشعر ذات وجوه نصف ـ بشرية ـ أخافتها وأثّرت فيها. وكانت لديه أيضاً رسومات فاحشة شاهدت أحدها مصادفة فجعلها تشعر بالغثيان. كانت هناك طاقة من العنف من ويل تدفعها إلى الخوف، ولكنها كانت

twitter @baghdad_library

تثيرها قليلاً أيضاً غير أنها ظلت متحفظة يقظة في معاملاتها معه، وتحولت إلى أن تقوم معه بدور الأخت المشاكسة.

كانت الخالة تتسكع في القاعة، وتوشك على الانسحاب لتنال قسطاً من الراحة. وكانت أديليد تغسل الصحون. على حين جلس ويل إلى المائدة يدخن.

ـ «ماذا يفعل برونو العجوز طيلة اليوم؟»

ـ «إنه يلعب بطوابعه، ويقرأ تلك الكتب عن العناكب المرة تلو المرة، ويطلب أرقاماً خاطئة على الهاتف، ويطالع الصحف».

ـ «لا ريب أن الشيخوخة شيء رهيب، يا آد. يا ليتني لا أبلغ هذه الشيخوخة أبداً».

ـ «كما أنه أصبح دميماً إلى حد البشاعة. ويبدو أشبه بواحد من كائناتك الممسوخة».

ـ «لا عليه، وأظن أنه ليس من المهم الآن أن يبدو على ما يبدو عليه، هذا الوغد العجوز. لا بد أن تلك الطوابع التي يملكها تستحق رزمة من الأوراق المالية».

ـ «سمعت دينبي يقول إنها تساوي عشرين ألفاً من الجنيهات».

ـ «ومن الذي سيحصل عليها؟».

ـ «دينبي، على ما أظن».

ـ «أتعرفين شيئاً عن الطوابع، يا آد؟».

ـ «كلا، أنت الذي اعتدت على جمعها، ألا تذكر؟».

ـ «بلى. وقد اعتاد نايجل أن يسلبني أفضلها. إن نايجل لص بطبعه».

ـ «وأنت تعودت أن تضربه.. أنت فتوة بطبعك».

ـ «ربما. وإني لأتساءل هل يملك برونو أية «مثلثات عن الرأس؟».

ـ «وما مثلثات الرأس هذه؟».

ـ «إنها الطوابع المثلثة الشكل لرأس الرجاء الصالح».

ـ «إن لديه طوابع مثلثة الشكل. . وقد شاهدتها. . ولكنني لم أكن أعرف نوعها. أتستطيع أن تناولني فنجان القهوة؟»

ـ «آد أترين تلك الطوابع كثيراً؟».

ـ «ماذا تقصد؟ أجل. إنني أقضي نصف حياتي ألتقطها من الأرضية، وأضعها بعيداً، ثم أحضرها مرة أخرى. . .».

ـ «على أي نحو هي مرتَّبة؟ أهي موضوعة في كتب؟».

ـ «إنها تعيش في صندوق، في أدراج، بين رقائق من السلوفان. وكثير منها منفصل في الصندوق. . إنها في حالة فظيعة من الفوضى».

ـ «أيمكنك أن تنظري ما إذا كانت هناك تلك الطوابع المثلثة؟ سأطلعك على صورة لواحد منها».

ـ «ولماذا تهتم كل هذا الاهتمام. لقد هجرت الطوابع منذ زمن بعيد. إنها لعبة أطفال».

ـ «عشرون ألفاً من الجنيهات ليست لعبة أطفال، يا آد».

ـ «لا بد أن الناس مجانين حين يدفعون مثل هذا المبلغ».

ـ «بيع الطابع المثلث لرأس الرجاء الصالح بمائتين من الجنيهات في الأسبوع الماضي. . قرأت هذا في الصحيفة».

ـ «أظن أنك تريد طابعاً منها».

ـ «سأحصل على واحد منها، يا آد».

ـ «ماذا تعني؟ كيف ستحصل على واحد منها؟».

ـ «ستحصلين عليه من أجلي من مجموعة برونو».

ـ «ويل!».

ـ «واحد فحسب».

وتوقفت أديليد عن الغسيل، واستدارت من الحوض، وأخذت تتفرس في ابن خالتها. كان ويل يجلس بساقيه المكتنزتين ممددتين على آخرهما،

twitter @baghdad_library

وكعبا حذائه الثقيل ذي الرقبتين قد أحدثا حفرتين دائمتين في مشمع الأرضية البني المصقول. وكان يتطلع إلى أديليد وقد ارتسم على وجهه تعبير حالم ماكر كانت تتذكره منذ الطفولة.

ـ «تريدني أن أسرق واحداً من طوابع برونو! لست جاداً!».

ـ «إنني جاد، يا آد. تلك الكاميرا التي حدثتك عنها. والواقع أنني حصلت عليها. و المشكلة هي أنني لم أدفع ثمنها. وأنا في حاجة إلى مائتين من الجنيهات».

ـ «ويل، أنت مجنون. وعلى كل حال، سيدرك برونو أنها اختفت».

ـ «كلا، لن يدرك ذلك. قلت إنه بدأ يهذي ويهرف بما يلا يعرف. وقلتِ إنها في فوضى. وليس هناك من ينظر في هذه الطوابع. أليس كذلك؟».

ـ «كلا. ولكن، أعتقد أن برونو سينظر. وعلى كل حال، من الخسة تماماً أن يسرق المرء رجلاً عجوزاً».

ـ «أقل خسة من سرقة شاب. أنت مسرفة في العاطفية يا عزيزتي. لن يشعر بأن الطابع مفقود. ومن المحتمل أنه لن يجعل هناك فارقاً في القيمة الإجمالية للمجموعة على كل حال. وسيحل مشكلتي الخاصة بآلة التصوير».

ـ «ومع ذلك، لا أريد، هذا كل ما في الأمر!».

ـ «أيتها العاهرة الأنانية! ألا تريدين مني أن أكسب نقوداً؟ هناك مئات الأشياء التي استطيع أن أفعلها بهذه الكاميرا، لديّ مئات من الأفكار!».

ـ «لماذا لا تبيع مُسدسيِ المبارزة؟».

ـ «لأنني لا أريد».

ـ «أو تحصل على كاميرا أرخص. أستطيع أن أعطيك عشرة جنيهات».

ـ «أنا لا أطلب منك أن تسرقي المجموعة كلها، يا آد. بل إن برونو لم يكن هو الذي جَمع هذه الطوابع بنفسه. لقد ورثها. ينبغي ألا يُسْمَح

بمثل هذه الأشياء. الملكية سرقة، حقاً. . أليست كذلك، يا خالتي؟».

وكانت الخالة قد جاءت تبحث عن سترتها البرتقالية قبل الانسحاب.

ـ «سيزارا سيزارو، بوجا، بوجو».

ـ قالت أديليد:

ـ «ويل، أعتقد أنك مجنون».

ـ «إذن فأنت لا تريدين أن تفعلي ذلك، لمجرد أن ذلك يسرني؟»

ـ «كلا».

ـ «إنك تقولين دائماً كلا، يا آد. تعالي واجلسي إلى جانبي الآن، بعد أن ذهبت الخالة. اتركي هذا الغسيل الآن. سأقوم به فيما بعد».

ـ «لا بد أن أرحل حالاً».

ـ «كفي عن هذا القول وإلا ضربتك. تعالي واجلسي هنا».

وجلسا مرتبكين جنباً إلى جنب في المقعدين المنتصبين تحت النور الكهربائي. وأسندت أديليد ذراعيها فوق المفرش المخطط بمربعات حمراء وبيضاء، وهي تسحق الفتات بكمها جيئة وذهاباً. وتطلعت أمامها عبر النافذة المعتمة إلى المطر وإلى السور المغلول المطلي بالكريبوسوت المحيط بالممر الجانبي، وإلى الجدار الرمادي المعد للطلاء والذي يتقاطر منه الماء من المنزل المجاور. ووضع ويل يده على كتفها ـ وكان يجلس منحرفاً إلى جانبها، متفرساً فيها، وضاغطاً ركبته بشدة في ردفها ـ ثم أنزل يده حتى بلغت ذراعها، ورفع كمها إلى أعلى وهو يتحسس ذراعها متجهاً إلى المعصم. وضغط الفتات منغرساً في لحمها بحيث آلمها. وبدأت يد ويل الأخرى في العبث بتنورتها. وتملصت أديليد بذراعها، وقبضت على يديّ ويل الاثنتين، وعصرتهما بإيقاع معين، وهي ما زالت تنظر عبر النافذة دون هدف.

ـ «أوه يا آد، أنت تعلمين أنني متيم بك. ولا أستطيع أن أتوقف. متى ستقولين نعم؟».

twitter @baghdad_library

ـ «ويل، لا تضايقني على هذا النحو. أنا لا أريد».

ـ «أنا لا أضايق أحداً، عليك اللعنة. هذا أمر جاد، إنه حقيقي، يا أديليد. وأعتقد أحياناً أنك تعيشين في عالم من الأحلام. وينبغي عليك أن تنزعي نفسك من هذا العالم».

ـ «أنا متأسفة، يا ويل. ولا أستطيع أن أريد الأشياء بمجرد أن أرغم نفسي على أن أريدها».

ـ «حاولي، يا عزيزتي. إنني أحبك، ولا أحتمل أن تمضي حياتي بدونك. . هذا مجرد تبديد، وأي تبديد. أديليد، لماذا تمانعين؟».

ـ «لأنني لا أريد».

ـ «لا أستطيع أن أفهم ذلك. لا بد أن تحبيني».

ـ «نحن أولاد خالة. . وأنت أشبه بأخي».

ـ «هراء. أنا أعرف أنني أثيرك. . وها أنت ترتجفين».

ـ «كل ما في الأمر أنك تربكني. أرجوك، يا ويل، لا تكن فظيعاً، ولا تشاجر. لقد تشاجرنا في الأسبوع الماضي وكانت حماقة ما بعدها حماقة».

ـ «أديليد، أهناك شخص آخر؟ كوني أمينة، أرجوك. أهناك شخص آخر؟».

ـ «كلا».

ـ «يا إلهي، أظن أنه لو كان هناك شخص آخر فسأقتله بكل تأكيد».

لماذا لا يشاهد المرء أبداً طيوراً ميتة، وكيف يمكن أن تتوارى جميعاً حين يحضرها الموت؟

طوى «مايلز» دفتر مذكراته، واتجه صوب النافذة. كان يحاول قبل ذلك وصف ورقة شجرة زاوية ألصقها المطر على زجاج النافذة. كانت ورقة من ورقات آخر العام، في درجة من درجات اللون البني الداكن الشفاف، نوع من البني الذي تكون عليه الجوارب، مما ذكّر مايلز بسيقان الفتيات.

وكانت عروق الورقة ترسم نموذجاً لشجرة، وكانت ساقها تمثّل الجذع. كل ما في الأمر أن الساق كانت تبدو من جانب النافذة الذي وقف عنده مايلز، مقعَّرة، قُمْعاً تقسمه فتحة ضيقة، وفي قاعدته قطرة معلّقة من ماء المطر لا تريد أن تسقط، تكاد تكون ذات لون رمادي شفاف حول نقطة من الأصفر الفاتح.

ما أصعب وصف الأشياء! وما أصعب رؤية الأشياء! وكان يسائل نفسه، ما إذا كان - بعد أن أقلع تماماً عن الشراب - يستطيع آن يرى فعلاً مزيداً من الرؤية. ليس معنى ذلك أنه كان يسرف في الشراب، غير أن أي انحراف عن الصحو الكامل كان يبدو مُضِرّاً بإدراكه الحسي. وحتى الآن لم يكن على درجة كافية من الصحو، كافية تماماً، بحيث يدرك الأعاجيب التي تحيط به. التحليق النشوان لحمامة، التواصل بين حذاءين منبوذين، النموذج المرسوم على قطعة مُعلَّبة من الجبن. وكان كتابه: «دفتر مذكرات اللطائف» Notebook of Particulars في مجلده الثالث، وما برح يتعلم ببساطة كيف ينظر. وكان يعرف أن هذا - في الوقت الحاضر - هو كل مهمته. أما الأمور العظيمة فسوف تقع فيما بعد، عندما يكون متهيأ لها.

رفع مايلز ستار النافذة. كان الوقت مساءً، في لحظة تحوُّله إلى الغسق، وهذا وقت يحبه وكان الهواء رطباً دافئاً. فأخرج إحدى يديه، ولف ذراعه ليمسك بعنق الورقة ذات اللون البني الشبيهة بلون الجوارب، وانتزعها من زجاج النافذة. فانفصلت محدثة صوتاً خافتاً أشبه بصوت الامتصاص. تفحّصها لحظة، ثم طوَّح بها في خفاء الهواء الآخذ في القتامة. وكان المطر قد كفّ عن الانهمار، وكان ثمة أَلَق أرجواني في السماء عالياً فوق السقف المحدب الهائل «لقاعة معرض إيرلز كورت» وكان السقف المبلل متلألئاً، معدنياً. غير أن الحديقة الضيقة تحته كان الظلام قد غشيها فيما بين الجدران عدا انعكاس خافت من الضوء ينبعث من نوافذ الدار الصيفية. وكان مايلز قد شيد هذه الدار الصيفية وهي عبارة عن

twitter @baghdad_library

صندوق مربع يستند إلى جدار، ويبعد قليلاً عن المنزل، على أمل أن جلوسه فيه سيوحي إليه بكتابة شعر أفضل. ولكن يبدو أنه لم يُحْدث أي اختلاف يُذْكر، كما كان شديد الرطوبة في الشتاء.

كانت الحديقة مظلمة في الضوء المتماوج المتخافت، فلم يستطع أن يميز سوى القباب الرمادية المغطّاة بالسانتولين(*) ونبات الزوفا(*)، وفَيْجن جاكمان(*) التي تنمو في المربعات المنتظمة من الرصيف. وفيما وراء الرصيف كانت المرجة الصغيرة التي يمتد في وسطها ممر حليق الحشائش، وفي نهايتها السياج الصنوبري دائم الخضرة ذو الفجوة التي توجد وراءها تعريشة ديانا لأدوات الحديقة.. هذه الفجوة التي بدأت شجيرات الصنوبر في تسقيفها بأغصانها الطويلة ذات الألياف لتجعل منها مدخلاً مقوّساً، حوّلت هذه الحديقة الصغيرة إلى مكان للأحلام على نحو ما، وجعلتها تبدو أطول، وكأنه لا بد أن يكون هناك مزيد من المكان إلى وراء ذلك، حديقة أخرى، وأخرى، وأخرى وراء ذلك. وكانت التعريشة الصنوبرية سوداء الآن، وشجيرات الصنوبر تكاد أن تكون سوداء هي الأخرى، وقد ازدادت كثافتها بفعل الظلام.

إلى متى يطول هذا الحال؟ إلى متى ينبغي عليّ أن أكون صابراً؟ هل سيأتي، هل سيأتي حقاً إليّ في النهاية؟ بهذا أخذ مايلز يسائل نفسه. منذ عام تقريباً مضى حتى الآن وهو ممتلىء بيقين يتنامى بأنه سرعان ما ينظم الشعر مرة ثانية، وسيكون هذا الشعر أفضل كثيراً من أي شيء صنعه حتى الآن، وبأنه سيكون أخيراً الشيء الحقيقي. وفي هذه الأثناء كان ينتظر. حاول أن يُعِدَّ نفسه. فأقلع عن الشرب، وعمد إلى حياته الاجتماعية الملحّة فزادها انكماشاً. قال لنفسه: كل ما هو مهم فإنما يتعلق ببقاء الإنسان في

(*) أسماء نباتات متسلقة.

مكانه. فكان يقضي الأمسيات مع دفتر ذكرياته، فإذا اقتربت منه ديانا أو ليزا، كان يمنع نفسه من الصراخ في وجهيهما للابتعاد عنه. لم يكن يقول شيئاً لهما. وفي البداية، اعتقدتا أنه مريض. وفيما بعد، كانتا تنظران إليه في صمت، ثم تتبادلان النظرات. وكان يكتب أحياناً أبياتاً قليلة من الشعر، كالعازف الذي يختبر آلته. وكانت تسنح له بعض الأبيات الجميلة المتفرقة، غير أن الأوان لم يحن لمجيء الإله.

كانت أشعار الصبا تبدو له الآن تافهة مهلهلة. والقصيدة الطويلة التي نظمها بعد وفاة بارڤاتي تبدو له الآن مجرد نسيج أجوف. وكان عليه أن يعيد كتابة هذه القصيدة، وأن يقوم بتحويل بشاعة تلك المِيتة إلى فن وإلى دلالة وإلى جمال. كانت قصيدة بقاء، ولدت من إرادته الشعواء للبقاء. وكان يبدو له أحياناً كأنه يرتكب جُرماً إذا كتب تلك القصيدة، وكأنها تحول بينه وبين أن يرى ما كان ينبغي عليه أن يراه: الوجه الحقيقي للموت. ولكنها هبطت عليه بقوة ضرورة لم يعرفها من قبل أو من بعد. وقد أطلق عليها اسم: **بارڤاتي وشيڤا** Parvati and Shiva.

كان يستطيع أن يستمع إلى بارڤاتي وهي تقول: «أيها الإله شيڤا» بصوتها الرقيق الذي تشوبه لكنة، وهي تشرح له جوانب من الدين الهندوكي. «أتؤمنين بشيڤا، يا بارڤاتي؟» «هناك حقيقة في كل الأديان». «ولكن، هل تعتقدين فيه، فيه؟» «ربما. من يعرف ما هي العقيدة؟» وكانت قدرة بارڤاتي الشرقية على أن ترى أن كل شيء - من وجهة نظر معينة - يمكن أن يكون كل شيء سواه، هذه القدرة كانت تحيّر عقله الأرسطي الغربي وتسحره. كان لقاؤهما في «كمبردج» حيث كان يدرس التاريخ، وتدرس هي الاقتصاد. وكان كل منهما اشتراكياً بالطبع. وإن كانت أشد حماسة منه. فكانت بارڤاتي في أمسيات كمبردج الباردة، تجلس إلى جانب مدفأة تشتعل بالغاز، وقد أحاطت كتفيها ورأسها بوشاحها الرمادي المصنوع من

twitter @baghdad_library

الكشمير، خفيفاً كنسيج العنكبوت، لتتحدث عن الأزمة الأخيرة للرأسمالية. وكانا ينويان الذهاب إلى الهند وخدمة الإنسانية. بارڤاتي تقوم بالتدريس، ومايلز سيلتحق بفترة دراسية في الهندسة الزراعية. وسيعملان في القرى مع الشعب. وبدأ مايلز في تعلم اللغة الهندية. وتزوجا فوراً عقب امتحاناتهما النهائية. وكان كل منهما قد بلغ الثانية والعشرين.

انحدرت بارڤاتي من أسرة برهمانية على جانب من الثراء في بنارس. واعترضت أسرتها على هذا الزواج. ولم يستطِع أن يفهم أبداً سبب هذا الاعتراض. أكان اجتماعياً، أم عنصرياً، أم دينياً، أم حتى مالياً؟ وطفق يسأل بارڤاتي دون جدوى. «إنه أمور عدة. هم لا يستطيعون أن يوافقوا. وأمي لم تعش أبداً في العالم». وذات مرة، ترجمتْ له خطاباً بعثه أخوها. كان خطاباً حافلاً بالألفاظ الطنانة. ويبدو أن الأخ لم يكن يتصور أن بارڤاتي جادة. «. . أن تضل الطبيعة هذا الضلال الذي يجافي العقل. .» ماذا يمكن أن تبدو لهم المسألة من وجهة نظرهم؟ اضطربت بارڤاتي اضطراباً شديداً وأرادت إرجاء الزواج. وكانا غارقين في غرام عنيف، فلم يقبل مايلز التأجيل، وغضب من أسرتها التي لم يستطع أن يعلل موقفها بوضوح. بل كان أشد غضباً على أبيه الذي أخبره في الحال بأغلظ الألفاظ أنه لا يريد أن تكون له زوجة ابن ملونة، وأحفاد بلون القهوة. وقطع مايلز علاقاته بأبيه. وتزوجا، وكتب كل منهما رسائل ضارعة إلى بنارس. وبعد فترة، كتبت أم بارڤاتي تطلب منها أن تقوم بزيارتهم. ولكنها لم تذكر مايلز. واستخف الفرح بارڤاتي. من المؤكد أنهم سيحضرون الآن، وبخاصة عندما أنبأتهم بأنها تنتظر طفلاً. وشاهدها مايلز وهي تُقلع من مطار لندن. غير أن الطائرة تحطمت بين جبال الألب. ولم يخبر مايلز أحداً ـ ولا ديانا نفسها ـ بأن بارڤاتي كانت حاملاً.

ولم يذهب مايلز لرؤية والديها أبداً. وقد كان يبدو من المفهوم أنهم

يلقون عليه اللوم لوفاة ابنتهما. وكتب إليهما بعد انقضاء وقت عندما تزوج ديانا، ولكنه لم يتلق رداً. وبقي في كمبردج وأجرى بحثاً لم يؤد به إلى نتيجة، وأخفق في الحصول على زمالة. ونشبت الحرب، فجلبت معها لمايلز سبع سنوات عجافاً من التعاسة. لم يشترك في المعارك اشتراكاً فعلياً، وإنما أخذ ينتقل من معسكر إلى آخر، غير قادر على القراءة، غير قادر على الكتابة، تنتابه متاعب غامضة في الأمعاء. ومن ثمّ، فقد نُقِل إلى الأعمال الكتابية. وارتقى أثناء ذلك إلى رتبة كابتن. وعندما وضعت الحرب أوزارها التحق بالخدمة المدنية.

كانت كتابة القصيدة الطويلة التي استغرقت منه ما يزيد عن عام قد أطالت عنده على نحو ما ـ حتى في ظروف الحزن الرهيب ـ إحساساً بحياة حافلة بالحب. إذ قام بتحويل تحطيم الطائرة إلى إعصار باهر من الصور الشبقية. غير أن القصيدة كانت عن الموت حباً Liebestod، ومع أن الفن لا يستطيع سوى أن يجلب العزاء من أجل ما يبكى عليه، فقد تركه إتمام هذه القصيدة ممروراً، عليلاً، مقتنعاً تمام الاقتناع باستحالة الحب من الآن فصاعداً. وضاعف من شعوره بالوحدة في الجيش ازدراؤه الذي لم يُحْسِن إخفاءه من فسوق زملائه الضباط العارض في موقفهم من الجنس. فأعرض إعراضاً مطلقاً عن النساء، فإذا خاض زملاؤه في أنواع معينة من الحديث، غادر الحجرة، وأغلق الباب غاضباً وراءه. واكتسب العزلة لنفسه، بل العداوة أيضاً. لم يكن يرغب واعياً في الموت، ولكنه كان يجتر أحزانه أثناء الليل عن شيء غامض لا يملك حتى أن يسميه.

جعلت بارفاتي كل النساء الأخريات أمراً مستحيلاً بالنسبة إليه. بارفاتي تضفر شعرها الطويل الفاحم. بارفاتي ذات الحركات السريعة الرشيقة تطوي الساري الذي ترتديه. بارفاتي جالسة على أرضية الحجرة وقد أخرجت لسانها قليلاً كالقطة. محياها الرقيق المعقوف الأنف، بشرتها

twitter @baghdad_library

الشبيهة بلون العسل؛ إحساسه بأنه اكتسب معها حضارة نفيسة بأكملها. والأحجار التي كانت قرطين في أذنيها والتي اندهش حين علم أنها من الياقوت الحقيقي، ومن الزمرد الأصيل. كم ضحكت من دهشته! بارڤاتي تكوي سارياتها في حجرة في نيونهام Newnham، وبعد ذلك تكوي قمصانه. «أنت تمثل الإله». «أي إله؟» «الإله ـ شيڤا، العشق. . . لكل شاعر ملائكته. وأنت لي. «اليدان الصغيرتان جداً الرشيقتان البنيتان، لمحة خاطفة لقدميها العاريتين إلا من الصندل على أرصفة الخريف المبتلة. حبة شفتيها الحمراء ـ البنية. رشاقتها التي تجعل أية امرأة غربية تبدو لخمة متصلبة في حركاتها. ما أخشن صديقاتها في الكلية وما أشد سوقيتهن وابتذالهن بالقياس إليها. والشعور بتلك الضفيرة الطويلة الغزيرة من الشعر في يده عندما تجرأ أول مرة ـ عابثاً وإن يكن مرتجفاً ـ وأمسك بها. لقد لثم شعرها، ثم لثم حافة ساريها الحريري حيث انزلق فوق ذراعها النحيلة. ضحكت وهي تدافعه بعيداً عنها. كانت فتاة ذكية ستكون الأولى في الاقتصاد، ولكنها لم تكن قد خرجت زمناً طويلاً من فناء ذلك المنزل المغلق في بنارس حيث كانت أمها تنسج الأكاليل لوضعها فوق الصور. وهذه صورة بارڤاتي تتحدث عن السواراج Swaraj (الحكم الذاتي) وعن المشكلات الأساسية في اقتصاديات الزراعة.

لقد نظم مئات القصائد الغرامية من أجل بارڤاتي. غير أن الشعر بعد الحرب، كغيره من الأشياء العديدة، بدا له أنه بلغ نهايته. وتحول إيروس (الحب) إلى ثاناتوس Thanatos (الموت)، وحتى وجه الموت قد أُسدل عليه الآن حجاب. وكانت الإنسانة الوحيدة التي يتصل بها اتصالاً حقيقياً هي جوين Gwen، وإن لم يكن وثيق الصلة بها عندما كانت طفلة. وكانت تصغره بعدة سنوات، كما كان بعيداً عنها في المدرسة. وكانت أول مرة أعجب فيها حقاً بجوين، أو التفت إليها حقّاً لأول مرة، حينما دافعت عنه دفاعاً عنيفاً أشد ما يكون العنف حين اعترض أبوه على هذا

الزواج. كانت جوين تحب بارفاتي وتُعْجب بها. وكانت نصيرة متحمسة مولعة بإلقاء الخطب الطوال. وخطر له فيما بعد، عندما ساوره الندم قليلاً على قطيعته لأبيه، أنه ربما كان الضرر الذي أحدثته جوين أكثر من الخير. كان برونو في حاجة إلى التملق، وربما استطاعت ابنة من نوع مختلف أن تتملقه بدلاً من أن تعظه. ولم يكن مايلز يضمر أية نية لتملقه. وإنما يتمنى أن يذهب أبوه إلى الشيطان.

وبعد وفاة بارفاتي، لم يكن يريد أن يرى أحداً، حتى جوين. والتحقت جوين بكمبردج ودرست العلوم الأخلاقية، ثم شرعت في إعداد رسالة للدكتوراه عن فريجه(*) Frege. وعندما نشبت الحرب أصبحت جوين ملاحظة غاراتٍ في لندن. ووصل مايلز إلى لندن فيما بعد، أثناء الحرب، وما زال في بزته العسكرية، للعمل في مكتب ما، ولم تلبث أن نشأت بينهما علاقة غريبة، توشك أن تكون حميمة لفترة من الزمن. وكانت جوين تشعر عادة بالإرهاق إلى درجة الانهيار. وانتاب مايلز شعور بالذنب للحياة السهلة التي يحياها الآن إذا قورنت بحياة جوين. ولم يشتركا قط في منزل واحد، ولكنه اعتاد أن يتردد عليها معظم الأمسيات في شقتها الصغيرة في «بيكر ستريت»، فيصل قبلها ويعد لها وجبة ساخنة. وكانت تتأخر كثيراً في بعض الأحيان، فلا يملك إلا أن يجلس متوتّر الأعصاب، مصغياً إلى القنابل، محاولاً ألا يدع التخيلات الفظيعة تهاجمه. وفي أحيان أخرى كانت تعمل بالليل، فلا يراها إلا لحظات قصاراً. وكانا يتحدثان كثيراً، لا عن نفسيهما، ولا عن بارفاتي بتاتاً، وإنما عن أمور لا شخصية من شأنها أن تجلب نوعاً من الشفاء البارد كالشعر والفلسفة والفن. فكان حديثهما يدور

(*) فيلسوف منطقي ـ رياضي ألماني (١٨٧٩ ـ ١٩١٨) أسهم إسهاماً كبيراً في المحاولات المعاصرة لوضع لغة مثالية (المترجم).

twitter @baghdad_library

أســاســاً حــول الفلسفــة والــلاهــوت: كــارل بــارت(*) Karl Barth وفتجنشتاين(*) Wittgenstein.

وفي الأيـام الأخيرة من الحـرب، انتهت عـلاقتهـما الحميمـة، بـواسـطة دينبي. ولم يستـطع مايلز أن يفهم أبـداً العلاقـة بين جـوين ودينبي، فقـد حـدث كـل شيء بسرعـة فـائقـة. التقيـا في قـطار الأنفـاق. «في الـدائـرة الـداخلية»: ويبـدو أن كـلاً منهـما يعلق عـلى هـذا الأمـر أهميـة مـا، لأنهما يستعيدان هذا اللقـاء بجديـة طقوسيـة حمقاء. وشرعـا في تبادل الحـديث، والناس مهيئون لذلك بسهولة أكثر في زمن الحرب. وتعمـد دينبي خفية أن تفوته المحـطة التي سينزل فيهـا، وكذلـك فعلت جوين بمحـطتها. وعنـدما قـطعا الـطريق الذي تستغـرقه «الـدائرة». كـان لا بد لكـل منهما أن يعـترف لـلآخر بـأن شيئاً مـا قد حـدث. وهكـذا بـدأت المسألـة بينهـما بنـوع من اللامعقول؛ وشعر مايلز بأنها لم تكف أبداً عن أن تكون لا معقولة بطريقـة مـا. ذلك أن دينبي في أسـاسه شخص لا معقـول جـداً، شخص عَـرَضي (كثير الاحتمالات)، وكان مايلز يرفض الذوبـان في هذا الـتركيب العضوي السـائب المتميع الـذي حـدث لأختـه المُحْكمـة الـتركيب التي هي أبعـد مـا تكون عن العَرَضيّة.

وأحس أن جوين قد خدعته. كـان ينبغي عليها ألا تـدع الأمور تجـري بهـذه السرعة، وكـان من الواجب عليهـا أن تلجـأ إلى شورتـه.. وكـل مـا فعلته ـ على سبيـل الاعتذار ـ هـو أنها قدمت إليـه دينبي لإخراجـه من هذا الغمـوض ـ بوصفـه خـطيبهـا. وعبس مـايلز في أدب وهـو ينـظر إلى هـذا المتـطرف البدين المبتسم دائمـاً الذي كـان من الواضـح أنـه راضٍ عن

(*) كارل بارت (١٨٨٦ ـ ١٩٦٨) لاهوتي سويسري معروف ـ أما فتجنشتاين (١٨٨٩ ـ ١٩٥١) فهو فيلسوف بريطاني ولد في النمسا.

نفسه تمام الرضا ـ في حلته العسكرية التي تدل على أنه ضابط في المدفعية. وكان شَعْر دينبي ذهبياً في تلك الأيام، أما لون بشرته فكان وردياً أحمر. وكان يبدو أشبه بطالب مبتدىء في الكلية الحربية. وسأله مايلز أسئلة دقيقة عن نشأته وتعليمه. فعلم أن أباه كان صاحب متجر في ديدكوت Didcot، وأنه التحق بمدرسة ثانوية محلية ثم بالجامعة حيث درس الأدب الإنجليزي لمدة عام، واكتفى بذلك. وعمل في مكتب للتأمين، ثم اشترك في الحرب دون أحداث درامية أو امتياز في المدفعية، وقد أخبر مايلز فيما بعد أنه استمتع بهذه الفترة غاية الاستمتاع. وكان يبدو عليه أنه يخلو من أية اهتمامات عقلية. وما إن تزوج حتى دخل أعمال المطابع في عدم اكتراث أثار المزيد من حنق مايلز. فلم يكن مايلز يستطيع أن يرى لدينبي «علة وجود» محترمة أياً كانت، وقال لأخته ذات مرة: «كل ما في الأمر أنني لا أستطيع أن أراها، بالنسبة لدينبي»، فأجابته جوين: «ولكن دينبي شخص شديد المرح». ولم ينتفع مايلز بشيء من هذه الإجابة.

وقيل إن برونو ـ الذي استعادت جوين علاقتها معه الآن ـ معجب بدينبي، ولم تمضِ فترة حتى بدأ مايلز يتحمل زوج أخته. وكان دينبي حريصاً على اكتساب وده؛ وبعد أن أوضح مايلز رأيه في النكات الذكورية التي أراد دينبي بها في بداية الأمر أن يوطِّد بينهما شيئاً من التواطؤ، استطاعا أن يبلغا نوعاً من الفهم قائماً على تفسير دينبي لدوره بوصفه أحمق خاضعاً للتحكم والرقابة. واستطاع دينبي الذي لم يكن مجرداً من الإحساس، أن يبسط في اتجاه مايلز ـ على سبيل الاسترضاء ـ الإحساس بالدونية الذي كان يشعر به شعوراً حقيقياً إزاء جوين. وهكذا تقبل مايلز على أنه أعلى منه، كما تقبل رأي مايلز وشاركه فيه عن الحظ الطيب الذي لا يُصدَّق والذي لا يستحقه في حصوله على أخت مايلز. وعلى هذا النحو، استقرت الأحوال؛ غير أن مايلز أخذ ينقطع عن زيارتها شيئاً فشيئاً. . وبعد أن ماتت جوين لم يعد هناك ما يدعو إلى رؤية دينبي على الإطلاق.

twitter @baghdad_library

وجاءت ديانا بعد ذلك، بوصفها مفاجأة، بل كادت أن تكون معجزة. ذلك أن المرارة الشنيعة التي أحاطت بموت جوين وضعت مايلز مرة أخرى في مواجهة ما أراد بقصيدته الطويلة أن يتحصن منه. ولكن ما إن تمكن من ذلك حتى كفّ عن النظر والشعور، ووطّن نفسه على أن يحيا حياةً من العزلة التامة، أو حتى من البلادة الشديدة. ولم تعد الكتابة أمراً قابلاً للتصور. كان يقرأ كثيراً، على سبيل العادة، ومعظم قراءته في التاريخ والسِّيَر، ولكن دون عاطفة. وكان يؤدي عمله، ويتحاشى زملاءه، فوُصف بأنه شخص غريب الأطوار، وتخطاه رؤساؤه في مواعيد الترقية، وبدأوا ينظرون إليه على أنه مختل القوى إلى حد ما، ولكنه بالإجمال لم يكن يسترعي الانتباه. ومن حين إلى آخر كان يعاني من كآبة حادة، بيد أن هذه الحالات لم تكن تصيبه كثيراً.

وذات يوم، في محل البقالة الذي كان يتردد عليه مرتين في الأسبوع في «طريق إيرلز كورت» حاملاً سلة كبيرة ليشتري مواد تموينه، قالت له فتاة: «لا تَبْدُ حزيناً على هذا النحو». فأجفل مايلز من أن تخاطبه امرأة، وغادر المتجر في الحال. فتبعته: «متأسفة.. رأيتك هنا كثيراً. هل تسمح لي بالسير معك؟» ثم سألته بعد هنيهة: «أتعيش وحيداً؟» وبعد هنيهة أخرى قالت: «هل كنت متزوجاً؟» قامت ديانا بالمجهود كله. وشرحت لمايلز فيما بعد كيف شاهدته مرات عدة في المتجر وقد بدا عليه الشرود والحزن، وخيِّل إليها أن كل شيء كان سيحدث كما حدث: أنه يعيش بمفرده، وأنه يحمل حزناً عظيماً، وأنه يجتوي المجتمع، وليست له أية معاملات مع النساء. وكانت المسألة كلها بالنسبة إلى ديانا ـ على نحو شديد الغرابة ـ تنفيذاً كاملاً لحلم، كانت تبحث عن مايلز، ولهذا تعرفت عليه في الحال. وكان إحساسها بالمصير هو الذي مضى بهما معاً في هذا الطريق.

كانت ديانا تعتنق تصوراً غاية في الإيجابية عن دورها كامرأة. وكان في

الواقع دورها الأوحد والوحيد الذي استغرقها منذ أن غادرت المدرسة. وكانت نشأتها في لايشستر حيث كان أبوها يعمل كاتباً في أحد البنوك. وكان أبواها يكتنفهما شيء من الغموض، فكانت تفعل هي وأختها ما يحلو لهما. وتلقت ديانا منحة دراسية في إحدى مدارس الفن تقع في ضواحي لندن، ولكنها تركتها بعد عامين، وأصبحت فنانة تجارية لم يحالفها التوفيق، فاشتغلت في وكالة للإعلانات. ولكن الشيء الرئيسي هو أنها كانت تجد ما تواصل به حياتها. وانتقلت إلى «إيرلز كورت». وهناك خاضت مغامرات عِدَّة. عاشرت الرجال، ومنهم أشخاص أثرياء كانوا يجدونها باعثة على الحيرة، وكانوا يقدمون لها هدايا نفيسة، ومنهم الفقراء الذين يأخذون نقودها ليسكروا بها، ثم يبكون. هذا كله أعادت حكايته فيما بعد لمايلز، وهي تستمتع بعجزه عن الفهم، وتقطيباته اللاإرادية التي تنم عن الاستنكار. قالت له إنها كانت تبحث عنه طيلة الوقت. وكانت تحلم بإنسان منعزل، رجل حزين متقشف مستوحش من الناس، رجل يحمل بين جنبيه حزناً عظيماً، رجل زاهد. كانت فراشة تبغي الاحتراق في لهب بارد بارد.

وأحبته حباً جماً، ومع أنه أنبأها منذ البداية بأنه وعاء فارغ، لا شيء، وأن حبها ليس شيئاً بالنسبة إليه، فقد نجحت أخيراً في اجتذاب انتباهه. كان مايلز في الخامسة والثلاثين، وكانت ديانا في الثامنة والعشرين. وأدرك مايلز أنها جميلة. كانت فتاة شقراء، عسلية العينين، ذات أنف مستقيم حازم، وثغر مكتنز مرسوم بخطوط حسنة، وجبين عريض منبسط، وبشرة عاجية، ويرتسم على محياها تعبير فاتر مُلْغز. وكانت تعقص شعرها بعناية خلف أذنيها، وتُبرز وجهها الشاحب الناعم بعينيه الواسعتين إلى الأمام في جسارة لملاقاة العالم. وثمة سجية فيها بدت لمايلز للوهلة الأولى على أنها انعدام الحياء، ولكنها بدت له فيما بعد على أنها أشبه بالشجاعة: وفي لأيام الأولى لاهتمامه أخذها على أنها غانية، دون أن يخلو هذا الفهم من شيء من

twitter @baghdad_library

المتعة. وعندما أيقن فيما بعد أنها تحبه، أحس بروح المغامرة عندها تقوّي ولا تضعف ـ من الحب الذي كان عليها أن تمنحه. ولما تزوجها احتفظ بشعوره بأنها ما زالت عشيقته، وكان هذا مدعاة لسرور كل منهما.

وبالطبع كانت ديانا تفهم حكاية بارڤاتي. وتعلم أنها كانت بالنسبة لمايلز شيئاً أسمى من كل شيء، حبّاً ليس من هذا العالم فحسب. وأذعنت ـ على نحو أثّر في قلبه وجعله أول ما جعله يؤمن بحبها إيماناً مطلقاً ـ بأنها الثانية في مكانتها عنده، لا في الزمن فحسب. وتقبلت بكل تأكيد هذه الحقيقة وهي أنه لا وجود حتى للتنافس بينهما. ثمة مكان في حياته، جزء من نفسه، لعله أفضل جزء ـ لم يكن متاحاً لها على الإطلاق. وهذا ما حاول مايلز أن يشرحه لها بينما كان يحاول حينذاك إقناعها بحبه. وسرعان ما أحس بالراحة حين اكتشف أنه واجهها بكل ما يثير الغيظ وأخبرها بكل الحقائق التعسة دون أن يصرفها ذلك عن حبه. وفي النهاية توقف عن النضال، وتركها تستخدم القوة الهائلة كلها الكامنة في طبيعتها كامرأة لتجلب له العزاء وتغريه بالخروج من ذلك القمقم المظلم الذي عاش فيه. وكانت متعته بفرحها خير تجربة مرت بحياته منذ سنوات عديدة.

وانتقل إلى المنزل القائم في «حدائق كمپسفورد» Kempsford Gardens وبعد فترة، علم مايلز ـ دون أن تقول له ديانا شيئاً عن ذلك ـ أنها تتمنى أن يكون لها طفل. ولم يكن مايلز على يقين من شعوره عن الأطفال. كان ابنه ـ الوحيد ـ قد مات في جبال الألب. أيمكن أن يكون هناك سواه؟ وبدأ يريد ـ في شيء من الغموض ـ أن يكون له ابن. غير أن الأعوام مضت دون أن يحدث شيء. وكان كل منهما ينظر إلى الآخر متسائلاً في الأماكن الخالية من المنزل. وكانت حياتهما بسيطة، ولم يكن مايلز يشتاق مطلقاً إلى الصحبة. فالآن، بعد أن أصبحت له ديانا، كان راضياً تمام الرضا. ولم يكن يسعده أن يرى أحداً سواها. وكانت ديانا تلتقي

بصديقاتها في أوقات تناول وجبة الغداء الخفيفة. ولكنهما لم يكونا يدعوان أحداً إلى زيارتهما.

وأقامت ديانا - بل لعلها اخترعت اختراعاً - رسميات حياتهما المشتركة. فجعلت من المنزل الصغير في «حدائق كمپسفورد» منزلاً محافظاً على الرسميات وكأنه منزل ريفي من الطراز القديم. فالوجبات تُقدَّم في مواعيد ثابتة، ويُخْدم بدقة شديدة. ولم يكن مسموحاً لمايلز بدخول المطبخ. وكان المنزل ممتلئاً دائماً بالزهور دون أن تكون ورقة واحدة في غير مكانها. ووجد مايلز نفسه مُكرهاً على اتخاذ مستوى من النظام الدقيق يعتقد أنه غير طبيعي ولا معقول، ولكنه اعتاد عليه تماماً. وكأن ديانا كانت عازمة على أن تجعله يشعر بأنه يعيش حياةً فخمة، فلم يلبث أن شعر بذلك بعد فترة من الزمن. وكانت لها القدرة على أن تجعل الأشياء الصغيرة تبدو كبيرة، مثلما استطاعت بطريقة خارقة للمألوف - أن تجعل الحديقة تبدو مترامية الأطراف، وكأنها ممتدة حديقة وراء أخرى كالحديقة المسحورة في حكاية خرافية. وظن مايلز أن ديانا - في كل هذا الذي تفعله - إنما تكافح منذ طفولتها في لايشستر. إذ قالت له ذات مرة وهي مستغرقة في تفكير عميق: «إنك أكثر امتيازاً من كل من تقدموا لخطبتي». وكانت ديانا تلتزم بنظام يومي محكم في حياتها، وبرسمياتها الشخصية الخاصة التي اخترعتها. ولما كانت بغير عمل آخر يشغلها - فقد ملأت وقتها بالواجبات المنزلية وبألوان المتع المختلفة. كانت هناك ساعة عملها في الحديقة، وساعة لتنسيق الزهور، وساعة للتطريز، وساعة أخرى للجلوس في حجرة الاستقبال، وقراءة كتاب مجلد، وموعد للاستماع على الجرامفون إلى الموسيقى الشعبية القديمة التي كان مايلز يكرهها، ولكنه اعتاد عليها أيضاً فيما بعد. وقد كان من الممكن أن تستمتع بمنزل ريفي من منازل القرن الثامن عشر تمضي فيه الحياة في نوع من الضجر الهادىء والرتابة الرسمية والتزاور الطويل المتنعم

twitter @baghdad_library

بـأوقات الفـراغ. وفي وسط منطقـة من أشد أجـزاء لندن ازدحـاماً نجحت تقريباً في استحضار مثل ذلك الجو.

وطـرأ تغيير عـلى حياة مـايلز وديانـا، ولعلهما رحّبـا به عـلى نحو مـا، وإن جعلهما في بداية الأمر متـوجِّسينْ منـه إلى حد مـا. كانت ليـزا شقيقة ديـانا الأصغر منها قد بدأت حياتها بداية مختلفـة تمام الاختـلاف. ذلك أنها درست سير العظماء في أكسفورد، وحصلت على المرتبة الأولى، ثم قامت بالتدريس في إحدى مدارس يـوركشايـر، وانضمت إلى الحزب الشيـوعي. وانقطعت ديانا التي كانت معجبة بأختها إعجـاباً شـديداً ـ عن الاتصـال بها فـترة من الزمن. غير أن ليزا أتت إلى الجنوب لحضور زواج أختها والتقت بمايلز. ثم اختفت من بعـــد ذلـك، ولم يسمـــع أحـد عنهـا شيئـاً حتى تحـولت إلى الكاثوليكية وانضمت إلى طائفة «كلاريس المسكينة». وعندئذ قالت ديـانا: لمايلز: «أنا واثقة من أن مجرد الاسم هو الذي اجتـذبها. . فلقـد كانت دائمـاً فتاة تهوى الأدب. » وبعد أعوام قـلائل، خـرجت ليزا من طـائفة «كـلاريس المكسينة» ومن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ورحلت للإقامـة في باريس. ولم تلبث أن عادت إلى انجلترا مصابة بالسل، وأقامت مع مايلز وديانا أثناء فـترة النقاهـة. وظفرت بـوظيفة للتـدريس بإحـدى مدارس «إيست إنـد». وأخذت فكرة البقاء للعيش مع مايلز وديانـا تتبلور شيئاً فشيئـاً، حتى بقيت معهما في نهاية الأمر.

وكـان ثلاثتهم في حـاجة إلى قسط كبـير من الاقتناع بـأنها فكـرة طيبـة، وأخيراً اقتنعوا تماماً. وسرعـان ما بـدت لهم المسألـة كلها طبيعيـة لا غرابـة فيهـا. ويبدو أن ليـزا ملأت الفـراغ الذي تـركه الـطفـل الغـائب في حيـاة الزوجين. وكانت الشقيقتان مرتبطتين كل منهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً، كـما أصبح مايلز معجباً بأخت زوجته، معتمداً على حضورها. . وكان يستمتـع بمـا بـين الشقيقتـين من أخـوة، ومـا بينهـما من تشـابهـات تفلت دائمـاً ممن

يتعقبهـا. وكان يطيب له ذلك في الأمسيات حين يجدهما جالستين معاً للحياكة. لم تكن ليزا منظَّمة بطبيعتها، ولكنها استسلمت بأسرع مما استسلم مايلز ـ لاستبداد ديانا المنزلي. وكان من الخير بعد كل هذه الأعوام التي عاشاها على تلك الصورة الثنائية à deux أن يضاف إلى المنزل شخص آخر، وأن يكون في البيت امرأتان تكرس كل منهما نفسها لراحته. ولعله بقي مع ديانا وحيداً أكثر من اللازم، وهذا التوسع في مجتمعهما كان منعشاً، جعله قادراً على رؤية زوجته في ضوء جديد.

وكذلك كانت ليزا ـ على نحو غامض وإن كان ظاهراً للعيان ـ في حاجة إلى من يرعاها. وقد اعتادت ديانا على التعميم فيما يتعلق بأختها. «فاتتها حافلة الحياة بطريقة أو أخرى». «إنها أشبه بشخص يحطِّم عظامه إذا وقع على الأرض». «لقد فقدت غريزة السعادة». «إنها طائر بجناح مهيض». أما ليزا فكانت أكثر رزانة، وأشد حزناً وكآبة من ديانا، وتؤخذ عادة على أنها الشقيقة الكبرى. وكانت عصبية، متحفظة صامتة، معتزلة، وإن كانت تتحدث في الفلسفة أحياناً مع مايلز، وأشد حماسة منه في إكمال المناقشة. وكثيراً ما كانا يختلفان تماماً، فلا تجد ديانا بدأ من الافتراق عنهما. ويبدو أن ليزا كانت راضية عن عملها المدرسي، وفي أيام العطلات كانت تتطوع للعمل كضابطة محلية لمراقبة سلوك المذنبين الذين علِّقت عقوبتهم وأطلق سراحهم على سبيل التجربة. وكان مايلز يستمتع بصحبتها. كانت تثير حيرته وتبعث على شفقته في آن واحد، وكأنها زهرة باردة ندية ولكنها ذاوية في الوقت نفسه. والحق أنها كانت تبدو له في كثير من الأحيان ـ طيفاً، أو خيالاً إلى جانب واقعية أختها الصلبة. وكان هو وديانا يتقاسمان شيئاً من القلق نحوها، يشغلهما دون أن يخلو مع ذلك من شيء من اللذة.

أوشكت السماء أن تكون مظلمة الآن، علقت بها نجمة متوهجة من نجوم المساء، تحلقت حولها نجوم أخرى دقيقة أشبه برؤوس الدبابيس.

twitter @baghdad_library

وكـانت حركـة المـرور تـطن في استـواء من «طـريق أولـد بـرومتـون» Old Brompton Road . وثمة طائر أسحم، يغني دائماً في أواخـر الليل ـ قـد جعل ينشر «تسبيحه» الملحاح الذي يشق أجواز الفضاء فوق شجرة قـريبة. واستحال الهواء الرطب من الظلمـة إلى زمهريـر. وهناك، تحت هـذا كله، تحـرك شيء شـاحب: امـرأة في ثـوب بـاهت تمضي متثـاقلة عــبر أحجـار الـرصف، خلال الممـر الذي سـوِّيت حشـائشـه متجهـة صـوب المـدخـل المعروش. تُرى، أيهما تكون؟ وهَـزَمت الظلمـة الحالكـة عينيه وهـو يراقب الشخص المتحرك في صمت.

وفجأة أضيىء النور في الحجرة.

فـاستدار مـايلز مجفلاً، وبنفس هـذه الحركـة أغلقت النـافـذة وأسـدلت الستارة.

ـ «ديانا، كنت أود ألا تفعلي ذلك!».

ـ «متأسفة جداً».

كانت ديانا ترتدي كيمونو أزرق مطرزاً من الطراز القديم. وكـان شعرهـا المستقيم الـذي لم يَسْرِ فيـه الشيب بعــد ـ قـد شحب قليــلاً دون أن يفقـد لمعانه ـ فتحول إلى أصفر رملي لؤلؤي، ومحياها العاجي خالياً من الخـطوط، وكأنه وجه في صورة مصغرة.

ـ «متأسفة، لم أكن متأكدة أنك هنا».

ـ «أين يمكن أن أكـون في هذا الـوقت بحق السماء. لم أكن أود أن تـأتي للاطمئنان على إغلاق النوافذ. فأنا أحـاول أن أعمل. مـا هذا الـذي أتى بك هناك؟».

ـ «رسالة سلمها باليد شخص ما. وعليها كلمة «عاجل»، ومن ثمّ خطر لي أن أحضرها في الحال».

ـ «لا تذهبي، يا حبيبتي سامحيني. ممن تكون بحق الجحيم. هذا الخط لا أعرفه». وفضّ مايلز الخطاب.

عزيزي مايلز

أتوقع أن تصيبك الدهشة حين تتلقى خطاباً مني بعد كل هذا الصمت. المسألة هي هذا، أبوك مريض، كما تعلم، ومع أنه ليس هناك سبب مباشر يدعو إلى القلق، إلا أنه من الطبيعي أن يفكِّر في الترتيبات، في كل هذه الأمور. وهو يود أن يراك. ويريد مني أن أؤكد لك أنه لا يفكر في شيء خاص يتعلق بهذا الشأن، وإنما مجرد شعوره بأنه يريد رؤية ابنه. ويراودني الأمل كثيراً في أنك تشعر في نفسك بالاستعداد لرؤيته، مثلما هو متلهف لرؤيتك. وحيث أنكما لم تلتقيا منذ فترة طويلة، فأظن أنها قد تكون من الأفكار الجيِّدة إذا جرى بينك وبيني في البداية حديث تمهيدي عن هذا الموضوع حتى أتمكن من وضعك في الصورة. وأرجو كثيراً أن توافق على هذا. وسأطلبك ـ إن سمحت ـ بالهاتف في مكتبك صباح غد لأحدد الوقت المناسب لزيارتي لك. وأملي أن يتم هذا كله على نحو ودي فوالدك رجل عجوز، وأبعد ما يكون عن السلامة.

المخلص

دينبي أوديل

قال مايلز: «يا إلهي!»

ـ «ماذا في الأمر؟».

ـ «رسالة من دينبي».

ـ «دينبي؟ آه، دينبي أوديل. ماذا يريد؟».

ـ «يريد أن أذهب لرؤية أبي».

قالت ديانا: «أليس هذا غريباً»، وهي تدفع بشعرها وراء أذنيها، «إنني ـ بعد كل هذه السنين ـ لم ألتق أبداً بأبيك أو بدينبي أوديل. أهو أمر عاجل، أعني: هل الرجل العجوز على شفا الموت؟».

ـ «الظاهر أنه ليس كذلك».

twitter @baghdad_library

ـ «ستذهب بالطبع؟ راودني الشعور فترة ما في أنه ينبغي عليك أن تفعل شيئاً بهذا الشأن».

وألقى مايلز بالرسالة على المائدة. أحس بالسخط وبشعور بالحرج أميل إلى الخوف. «يا للجحيم، كنت أكتب رسائل مهذبة للوغد العجوز طيلة هذه الأعوام، فلم يرد عليّ إطلاقاً. والآن، يكتب هذا الدينبي الأحمق وكأنني كنتُ أنا المخطىء على نحو ما».

تناولت ديانا الخطاب. «أعتقد أنه خطاب لطيف. ولا يُسْتنتج منه أنها غلطتك».

ـ «أجل، إنه يفعل ذلك. يا للسيد المسيح». لم يكن مايلز يريد هذا الآن. لم يكن يريد العواطف والذكريات والمشاهد والمواقف غير المتوقعة التي لا سبيل إلى التحكم فيها. ولم يكن يود أن يجتاز هذا الهراء للصفح وطلب الصفح. لن يعدو الأمر كله أن يكون تمثيلاً في تمثيل. وقد يرجىء، وقد يسيء، وقد يستبعد إلى الأبد الزيارة النفيسة الوشيكة للإله.

(٧)

سوَّى دينبي رباط عنقه، ودقَّ الجرس.

وفتح مايلز الباب.

ـ «أرجو ألا أكون قد بكَّرتُ كثيراً في الحضور».

ـ «ادخل».

واستدار مايلز، وارتقى السلم تاركاً دينبي ليغلق الباب ويتبع مضيفه صاعداً درجات السلم. وكان مايلز قد اختفى فعلاً في إحدى الحجرات. واقترب دينبي من باب مفتوح، فشاهد مايلز واقفاً عند النافذة وقد أدار نصف ظهره. دخل دينبي الحجرة، وأغلق الباب.

وكان دينبي قد اختار السادسة والنصف مساءً لإجراء هذه المقابلة على افتراض أن مايلز سيقدم ـ بكل تأكيد ـ كأساً من الشراب يمكن أن يساعد خلال المقابلة. ومع ذلك، لم يستغْن عن احتساء كأسين كبيرين من «الجين» في مشرب «لورد كلارنس» قبل أن يتجه إلى «حدائق كمپسفورد». كانت الحجرة معتمة، أمَّا السماء في الخارج فكانت رمادية متألقة.

كانت فكرة مواجهة مايلز فعلاً، حين أصبحت من دينبي قاب قوسين ـ مزعجة له أشد الإزعاج. لم يكنِ السبب أنه كان قلقاً على الطوابع. ذلك أنه لم يكن من المحتمل أن تغيِّر رؤية برونو لمايلز أو عدم رؤيته له من مصيرها شيئاً كما أنه لم يكن يعتقد حقاً أن برونو جاد في رؤية ابنه. وكان

twitter @baghdad_library

برونو قد قلَّب أوجه النظر في هذا الموضوع، ولم يتمخض هذا التفكير عن شيء. وانتهى الأمر بدينبي إلى الشعور بأن برونو قد استقر بهدوء في المرحلة الأخيرة من حياته، لا يريد سوى أن يُتْرك وحيداً مع روتينه اليومي المؤلف من الطوابع والهاتف وصحف المساء، وقد ركَّز عينيه ـ إن لم يكن على الأبدية ويوم الحساب ـ فعلى شيء من السَّكينة العظمى، وعلى شيء من الانكار الوشيك الذي يستبعد المفاجآت، والمواقف، واللامتوقع، على أقل تقدير. وكان قد استخف بأمر برونو، ولكنه حين أدرك بغتة قوة الإرادة التي ما زالت تعتمل داخل هذا الرأس الضخم والجسد الواهن ـ أصابته صدمة، وكان لا بد له أن يراجع بسرعة تصوره عن مايلز.

كان مايلز قد طواه النسيان منذ سنين. وبدون تفكير عميق افترض دينبي أنه لن يرى مايلز مرة أخرى، فلن تتاح لذلك أية مناسبة سوى جنازة برونو. وكان دينبي يتخيل هذه الجنازة من حين إلى آخر، وكيف ستكون. وتخيل أيضاً مشاعره ـ حينذاك ـ من الحنان والأسف والارتياح، ومهابة المشهد، وانحناءته الصامتة لمايلز. وفجأة تعرض الآن هذه المقابلة الصريحة الغريبة، والمثيرة اللامتوقعة برجل كان غريباً عنه، ومع ذلك أصبح مشاركاً بعمق في رسم حياته، وهذا ما أدركه دينبي في تلك الفترة القصيرة التي انقضت منذ اتخذ برونو قراره. وكان كل ما يستطيعه هو ألا يكون مبالياً ما دام مايلز على مسافة منه؛ أما في حالة الاقتراب، فقد كان مايلز مهماً، مزعجاً بل شيئاً ينذر بالخطر.

وعلى الرغم من أن مايلز ودينبي كانا من سن واحدة تقريباً، فقد أحس دينبي دائماً وكأن مايلز أكبر منه سناً. استعار هذا الموقف من جوين التي كانت تُجِلُّ أخاها، وتنظر إليه بوصفه حكيماً مُلْهَماً. ومنذ وقت مبكر تقبّل دينبي فكرة أن مايلز شيء مرموق، وعليه أن يذكّر نفسه الآن بأن مايلز لم يكن في واقع الأمر سوى شخص عادي جداً، بل شخص فاشل

ببعض المقاييس. ومع أنه لم يكن قد قابل مايلز بعد، إلا أنه كان يشعر فعلاً بشيء من الخوف منه، وبخوف أكبر ـ وفي هذا كان هذا الخوف معقولاً إلى حد كبير ـ من سلطانه على جوين. ولم يُخْفِ مايلز رأيه في دينبي، وسبّب ذلك ألماً شديداً لدينبي، حتى بعد أن تأكد من أن جوين لن تسمح لأخيها بأن يحول دون زواجهما. وأدرك دينبي الآن ـ وهو يقف في تلك الحجرة المعتمة ناظراً إلى ظهر مايلز، أنه كان معجباً بمايلز إعجاباً حقيقياً في الأيام الخوالي، وإن أدرك أيضاً في هذه اللحظة أنه كان قد تناسى هذا الإعجاب تماماً. كما أن صدمة حضوره قد حملت أيضاً إلى دينبي مرة أخرى ذلك الإحساس المهين المألوف القديم ممتزجاً بالخوف والإعجاب والنفور المرير المجروح.

استدار مايلز وأشار إلى مقعد وثير إلى جوار المدفأة، فجلس عليه دينبي.

قال مايلز وهو يجلس إلى المقعد القائم إلى جوار النافذة: «انظر هنا.. فيم هذا كله؟».

قال دينبي: «إنه واضح على ما أظن.. برونو يريد أن يراك».

ـ «أيريد ذلك حقاً؟».

ـ «إنه يقول ذلك ويردده كثيراً.. ولست قارئاً للعقول».

وكان دينبي قد أمعن الفكر سلفاً في هذه المقابلة دون أن يتمكن من تحديد النغمة التي تسير عليها. فلم يكن بد من أن تُحَدَّد هذه النعمة ارتجالاً. وها هو قد أصبح عدوانياً فعلاً.

قال مايلز: «يبدو الأمر عقيماً نوعاً ما بعد كل هذه السنين»، وكان يطوي قطعة من الورق، دون أن ينظر إلى دينبي. وازدادت العتمة في الحجرة.

قال دينبي: «إنه يُحْتَضَر». وأحس بدفقة من الانفعال، بشعور غامض

twitter @baghdad_library

ربط بين برونو وجوين والصفحة الجانبية من وجه مايلز، بحيث شاهد هذا كله على زجاج النافذة الرمادية القائمة المتوهجة.

قال مايلز بصوت يشيع فيه الهياج: «أجل، أجل. ولكن الأبناء والآباء لا يجدون بالضرورة شيئاً يقوله بعضهم للبعض الآخر. وأنا لا أتبع التقاليد في هذا الأمر، ولم أكن أظن أن أبي خلاف ذلك».

كان في قوله «أبي» على هذا النحو شيء استحضر جوين إلى ذاكرته، بل استحضر نبرات صوتها. قال دينبي: «إنه يريد أن يراك. وكل مناقشة عبث لا طائل وراءه». وتصلَّب مايلز، وقذف بالورقة بعيداً، وأحس دينبي بأن من الغرابة والروعة بالنسبة إليه أن يصف مايلز بأنه عابث. ولاحظ في شيء من الرضا أن الحركة المفاجئة التي طرح بها مايلز شعره إلى الوراء كشفت عن رقعة صلعاء.

قال مايلز: «أخشى ألا يكون تفكيرك واضحاً تمام الوضوح. إن غرضي يتعلق بمصلحة أبي. ومقابلته معي يمكن أن تسيء إليه على نحو خطير. أعني أن الموقف يجب أن يُمَحَّص تماماً. هل يقترح أبي أن يرى كل منا الآخر يومياً، أو ماذا؟».

حدث دينبي نفسه قائلاً: لك السيد المسيح، أيها البيروقراطي البارد ـ الدماء. «لا أظن أن برونو قد أمعن الفكر فيما وراء فكرته عن مجرد رؤيتك مرة واحدة».

ـ «لا أرى ثمة فائدة في لقائنا مرة واحدة».

ـ «أعني أنه بعد الالتقاء مرة واحدة، يمكن لكل منكما أن يرى بما يشعر».

ـ «أعتقد أن هذا سيكون حَقّاً معذِّباً لأبي أشد العذاب. ويدهشني أنك لم تحاول إقناعه بالعدول عن رأيه. لا بد أنك مسيطر عليه الآن بعد كل هذه الفترة».

أكان في هذا إشارة إلى الطوابع؟ «برونو يسيطر على نفسه، ولست متولّياً رعايته».

ـ «إذا التقينا مرة لكي نلتقي مرة أخرى أو لا نلتقي أمران يتعادلان في الفظاعة».

ولأول مرة خطر لدينبي أنه ربما كانت هنا مشكلة حقاً. ولم يكن قد فكّر ـ شأنه شأن برونو ـ وراء المناسبة الأولى. قال دينبي: «إنك تعقّد المسألة. فأنت ـ على كل حال ـ ابنه الوحيد، وهو قريب من الموت، وهو يود أن يراك. تبدو لي المسألة على أنها واجب بسيط، أياً كانت النتائج».

ـ «لا يستطيع المرء أن يفصل الواجب عن النتائج».

قال دينبي: «فليكن لك ما تريد». ووقف بغتة مزيحاً مقعده إلى الوراء.

ـ «هل أعود وأخبره أنك لا تريد أن تأتي؟».

ـ «إجلس في مكانك، يا دينبي؟».

وتردد دينبي، ثم جَرَّ قدميه، وجلس متثاقلاً.

قال مايلز: «آسف. من المحتمل أن أبدو جامد العواطف، ولكني أريد أن أرى ما يترتب على هذا الموقف. أظن أننا يجب أن نضيء النور». وشد الستار، واتجه إلى زر النور الكهربائي. وصرف دينبي بأسنانه.

لم يكن مايلز شبيهاً كل الشبه حقاً بجوين، ومع ذلك كانت هناك قسمات من وجهها كانت الذاكرة، بل الصور الفوتوغرافية ـ قد استبقتها لدينبي في صورة عامة غائمة ظهرت الآن فجأة في وضوح متجسِّد: الثغر المحدد تحديداً حاداً يعلوه ذلك المجرى العميق، والحاجب يطل قريباً على العينين الحازمتين، وغزارة الشعر الفاحم.

أعرض دينبي ببصره، ونظر بسرعة إلى الحجرة التي كشفها الآن مصباحان تعلوهما مظلتان خضراوان. كانت حجرة رتبت فيها الكتب على

twitter @baghdad_library

رفوف، فمن الواضح أنها حجرة للدراسة. وتحت النافذة منضدة سُحِبَ نصفها، وغطتها أكوام مرتَّبة من الأوراق ودفاتر المذكرات وصف منظَّم من الأقلام الجافة. وكانت المدفأة النظيفة المفتوحة تحتوي على هرم من خشب المواقد (التنوب) المخروط، ومحوطة بقوالب من قرميد «وليم موريس» كانت تلمع في خليط دوّار من الأزرق والأرجواني. كان من الممكن أن تحب جوين قوالب القرميد هذه، وأن تستمتع بجمع مخروطات خشب التنوب. وكانت هناك آنية من أزهار النرجس البري فوق رف المدفأة المطلي باللون الأبيض، والذي تعلوه مرآة مربعة صغيرة ذات إطار مذهَّب. وهنا وهناك كان رف أُخْلِيَ من كتبه لكي تعرض عليه تحفة من الخزف الصيني: بط لازوردي، كلاب، تنانين. كل شيء يبدو نظيفاً مرتَّباً غاية الترتيب. حجرة عميد في الجامعة: ومع ذلك لم تكن الزهور ولا البط ولا الخشب المخروط تبدو أشبه بمايلز تماماً. وفي شيء من الغموض تذكر دينبي ـ وقد أزعجته هذه الفكرة ـ أن مايلز متزوج.

مضى مايلز قائلاً: «بكل أمانة»، وكان قد جلس ثانية، وركّز على طي جذاذات الورق، وقطعها بعناية بسكين حاد». بكل أمانة، أنا أخشى هذه العملية، لا لما قد تفعله به فحسب، ولكن أيضاً بسبب ما يمكن أن تفعله بي. لم أعد أصلح للانفعالات، وبخاصة هذا النوع، لدي أشياء أريد أن أنجزها. هل المسألة كلها عن النقود؟».

قال دينبي: «النقود؟ يا إلهي الرحيم، كلا!» أو لعلها كانت؟ ربما كان برونو يريد بعد هذا كله أن يقرر مصير الطوابع. عليها اللعنة هذه الطوابع، إنها تقوم بتعقيد كل شيء.

قال مايلز مركِّزاً على فصل ورقة مطوية بعناية ونظافة: «ها أنت ترى.. ها أنت ترى، فأنا لا أدري إن كنت تعلم ذلك أو لا تعلمه، ولكنني كنت أكتب بانتظام لأبي طيلة سنوات، دون أن أتلقّى منه رداً على الإطلاق

فظننت أنه لم يعد لديه ما يكتبه لي. ولهذا كانت تلك الرغبة لرؤيتي باعثة على الدهشة. أتراه دخل في مرحلة الخرف؟».

قال دينبي: «كلا! وإنما عليه أن يتجرع أدوية مختلفة، وفي بعض الأيام يبدو شارداً إلى حد ما، ويهدف قليلاً، ولكنه في مجموعه يتمتع بذهن صافٍ كل الصفاء.. وما برح بكل تأكيد مخلوقاً عاقلاً».

- «هل تغيّر - كثيراً؟».

- «من حيث الجسم، نعم. لا من حيث الأشياء الأخرى. وأظنك تعلم العلة التي أصابته؟».

قال مايلز متمهلاً وهو يرفع عينيه المتأملتين بطريقة لها دلالتها، ذكّرته تذكيراً قوياً بجوين: «من الغريب أنني أعرف علته. وقد كتبت إلى طبيبه منذ ثمانية أشهر تقريباً. وأظن أنه لا يوجد أي تطور جديد؟»

- «كلا. مجرد تقدم لذلك - الشيء».

وأخلدا إلى الصمت، دينبي يراقب مايلز، ومايلز يدقق في فحص جذاذة من الورق المقطوع. «فليكن. سوف أذهب لرؤيته.. ولكني أعتقد أن ذلك سيكون فظيعاً. **فظيعاً**».

نهض برونو. وأحس بنوع من الحنان الدفاعي الغريب نحو برونو مختلطاً برغبة حادة في أن يدعوه مايلز إلى كأس من الشراب. وكان يود لو طُلب منه البقاء، وتقديم كأس من الشراب إليه، ومحاولة من مايلز لتطييب خاطره. كان يجب أن يتحدث عن الماضي. «كان برونو على نصيب كبير من الشجاعة».

- «لا أشك في ذلك، لا أشك في ذلك، متى سأحضر؟».

ونهض مايلز أيضاً.

- «بالطبع، قد يغيّر رأيه إذا علم أنك ستأتي. ربما ارتاع من ذلك».

- «تعني أنه عصبي أيضاً؟».

twitter @baghdad_library

ـ «أجل».

قال مايلز: «شيء مضحك. لم أفكر حقّاً أن يكون له أية مشاعر إزاء هذا الموضوع، الآن على الإطلاق»، وابتسم. وكانت أسنان مايلز حادة غير منتظمة، وأكثر من العدد الذي يحتمله الفك، ومزدحمة معاً في مقدمة الفم، بحيث تضفي عليه ابتسامة ذئبية عذبة ـ متوحشة كان دينبي قد نسيها تماماً. وفي العادة، كان دينبي يزدري الرجال ذوي الأسنان غير المنتظمة، غير أن أسنان مايلز كانت ذات تأثير.

قال دينبي: «سأنبئك على كل حال. سأتصل بك هاتفياً». ووقف مرتبكاً. كان أطول من مايلز، وقد نسي ذلك أيضاً. إنها لحظة كأس الجين المبارك. وحدث نفسه: لو أن برونو قرّر ألا يرى مايلز، فلن أرى مايلز مرة أخرى، إلا في الجنازة. ودفع دينبي مقعده إلى الوراء قليلاً، بحيث يمكن أن يكون ذلك تمهيداً للرحيل، أو للجلوس ثانية. وما كاد يفعل ذلك حتى أبصر كرة صغيرة زرقاء محشورة في الفجوة بين المقعد والظهر. كانت منديل امرأة.

قال دينبي: «لم ألتق بزوجتك قط».

فألقى عليه مايلز نظرة متشاغلة، ووضع يده على الباب.

قال دينبي لنفسه: يجب أن أوقفه، أريد أن أتحدث إليه عن جوين. ليتني أتمكن من التفكير في شيء سريع أقوله عنها الآن! ولم يستطع التفكير في شيء. قال: «برونو يريد أن يقابل زوجتك». ولم يكن برونو قد أعرب عن رغبة من هذا القبيل.

قال مايلز: «عواطف. عواطف. كل هذا عقيم، عقيم». وسار في طريقه هابطاً درجات السلم، يتبعه دينبي.

* * *

قال برونو في ارتياب: «إذن، فقد تحدثتما عني؟» وتطلع ببصره إلى دينبي.

قال دينبي بصوت حانق: «أجل بالطبع فعلنا ذلك!» وكان دينبي ساخطاً كل السخط عند عودته من منزل مايلز، ولم يستطع برونو أن يكتشف السبب.

كان دينبي يقف عند النافذة ناظراً إلى الخارج من خلال الستائر المسدلة إلى الظلام المتوهج الذي يسود ليل لندن. وكان برونو مستنداً في وضع مستقر إلى الوسائد. وكلاهما يحتسيان الشمبانيا. واللحاف الباهت المنقوش مغطى بالطوابع وبصفحات منزوعة من «الإيڤننج استاندارد»، وعلى قمتها رقد المجلد الأول من «العناكب السوفييتية» مفتوحاً على الفصل الخاص «بالعناكب في ساحل بحر البلطيق».

- «ماذا قلتما عني؟».
- «سألني عن حالتك فأخبرته، وقلت إنك مشتاق للقائه و....».
- «ما كان ينبغي أن تقول ذلك».
- «يا إلهي -».

قال برونو بلهجة الرجل الحكيم: «لست واثقاً من أنني أشتاق إلى لقائه».

- «إذن، احزم أمرك بحق السماء!».
- «لا أرى لماذا أنت منزعج كل هذا الانزعاج».
- «لست منزعجاً، عليك اللعنة!».

منذ أن خطرت له فكرة رؤية مايلز، أو على أي حال منذ أن أصبح إرسال دينبي كمبعوث لمايلز خطة حقيقية، عانى برونو خليطاً معقّداً من المشاعر. ففي شطر من نفسه كان يشعر بضرب من الخوف الحيواني للإمكانية الحقيقية بمواجهة ابنه. وفي شطر آخر كان يخشى ما يمكن أن يشعر

twitter @baghdad_library

به لو أن مايلز رفض المجيء. هنا، كانت إمكانية الجنون. وقد بعث دينبي الاطمئنان إلى نفسه في اللحظة الأولى من عودته. وفي شطر ثالث كان برونو يشعر بإحساس مباشر وحي من الضيق كلما خطرت له فكرة أن مايلز ودينبي يناقشان شخصيته، وربما كانا يتحالفان ضده. وتخيل أنهما يقولان: «الأحمق العجوز يريد أن يراك. ينبغي أن ترفّه عنه، على ما أظن». «كيف حال ذلك المخرِّف؟» و«كم سيعيش من الوقت؟» هل كانا يتحدثان عنه على هذا النحو؟ كانا شابين، غير حبيسين، لا يضمهما قفص، وإنما يعيشان في كتائب الأصحاء. كما أحس أيضاً بدهشة مثيرة مؤثرة بأن مثل هذا الخليط المعقد من الانفعالات يمكن أن يظل موجوداً في مثل هذا الرجل العجوز. «مثل هذا الرجل **العجوز**،»، بهذا حدث نفسه حتى واتته الدموع. كان سعيداً في تلك اللحظات التي شعر فيها بأنه لم يكن معرَّضاً للتبسيط بسبب الشيخوخة أو المرض. ها هو يرى نفسه الآن ذلك الشيء المقعد المنتشر الذي كانه دائماً بل أكثر من ذلك في واقع الأمر، أكثر من ذلك كثيراً. لقد سحب خيوط عواطفه العنكبوتية داخل نفسه دون أن يفقد منها خيطاً واحداً. إذن، فسوف يرى مايلز. وكان ذلك أمراً لا متوقعاً رغم هذا كله، وهذا شيء مخيف.

قال برونو بلهجة الرجل الحكيم: «طبعاً أريد أن أراه. ولكنني أشعر بعدم المبالاة تماماً إزاء هذا الموضوع. ما كان ينبغي أن تلمح إلى أنني متلهف».

- «لم أعمد إلى التلميح بهذا. كان الحديث بيننا صريحاً».

- «ماذا تعني بأنه كان صريحاً؟ ما شكل مايلز الآن؟»

- «إنه في طريقه إلى الصلع».

- «لم تحبه على الإطلاق، يا دينبي».

- «وهو لم يحبني أبداً. أما أنا فقد أحببته. لقد كان شبيهاً بجوين إلى درجة فظيعة. وما زال».

ـ «وهذا هو سبب انزعاجك».
ـ «أجل. مزيداً من الشمبانيا؟».
ـ «شكراً. ولكن كيف كان تصرفه؟».
ـ «أميل إلى الفظاعة والانشغال. ولكنه سيكون لطيفاً معك».

قال برونو: «لا أستطيع أن أفكر فيما يمكن أن نتحدث عنه». وأخذت يده اليسرى تتحسس في شرود الأشياء الموضوعة على اللحاف، على حين كانت اليد اليمنى ترفع الكأس المرتعشة إلى شفتيه. فما برحت الشمبانيا تبعث في نفسه شيئاً من البهجة.

ـ «من الأفضل أن تراه في الصباح.. فإنك تكون في أحسن حالاتك في أوقات الصباح».

ـ «أجل. فليكن كل شيء في السبت أو الأحد إذن. هل لك أن تخبره بذلك؟».

ـ «أجل. هل أستطيع أن أتركك الآن، يا برونو؟ هناك رجل ينتظرني في الحانة. وها هو نايجل الممرض يتولى رعايتك».

ودلف نايجل ذو القدمين الناعمتين، على حين غادر دينبي الحجرة. وكان شعر نايجل المسترسل الفاحم يحيط بوجهه الشاحب المائل، ويتشكل على هيئة قوس لينٍ تحت ذقنه. وكانت عيناه القاتمتان حالمتين، كما كان متعدد الأيدي، لطيفاً، وهو يهيىء برونو لتناول العشاء. حمل الطوابع بعيداً، وطوى «الإيفننج استاندارد» بعناية، وملأ كأس برونو الذي كان يحتسي منه الشمبانيا الذهبية، إلى حافته. وتساقطت قطرات منه على الملاءة البيضاء المقلوبة حين ارتعشت اليد المعروقة المنقَّطة واهتزت. يا لها من شيء عجوز عجوز هذه اليد!

ـ «أتريد أن تذهب إلى دورة المياه؟».
ـ «كلا، شكراً، يا نايجل، إنني على ما يرام».

twitter @baghdad_library

ـ «ألم يحدث لك ذلك التقلص مرة أخرى؟».
ـ «لم يحدث تقلص».

وأخذ نايجل يطوف كالفراشة. ثبَّت زراً مخلخلاً في المنامة، ووضع دعامة راسخة لتستند إليها عظام الكتفين، كما نفخ في وسادة من الوسائد، وأزاح المصباح والهاتف إلى مكان أبعد قليلاً، وأغلق كتاب «العناكب السوفيتية» وحمله بعيداً. وكان يمسح بظهر كفِّه وكأنها فرشاة وجنة برونو. حنان لا سبيل إلى تصديقه. واغرورقت عينا برونو بالدموع مرة أخرى.

ـ «سأرى ابني، يا نايجل».
ـ «هذا شيء طيب».
ـ «أتعتقد أن الصفح شيء مهم، يا نايجل؟ أيحدث عندئذ شيء ما؟ أم أنها مجرد كلمة؟ أشعر بالنعاس الآن. أمن الممكن أن أتناول عشائي في الحال؟».

الشمبانيا أكثر من اللازم. وتجرع نايجل ما تبقى في كأس دينبي. نايجل يحوم كالفراشة، مالئاً الحجرة بحفيف ناعم منضوح ينبعث من أجنحة هائلة.

(٨)

عَدَل دينبي رباط عنقه، ودق الجرس.

ففتحت الباب امرأة عريضة الجبين ذات شعر بلون الرمل الباهت معقوصاً بعناية خلف أذنيها.

وتلاشت صورة مايلز.

ـ «أقول ـ هاللو ـ أنا ـ».

ـ «أنت دينبي».

ـ «أجل، وأنت ديانا».

ـ «أجل. أهلاً، كنت في شوق إلى لقائك. ادخل. أخشى أن يكون مايلز في الخارج».

وكانت هناك موسيقى خافتة تنبعث من الخلفية.

وتبعها دينبي عبر القاعة المعتمة إلى حجرة كانت فيها شمس المساء الأخيرة تسطع في شحوب. وفي الخارج، من خلال النوافذ ذات الطراز الفرنسي ـ كان يرى رصيفاً بللته أمطار حديثة، تتخلله أجمات كثيفة من الأعشاب الرمادية والمائلة إلى الزرقة. وثمة بخار خفيف جداً يتصاعد من الرصيف الذي أدفأته الشمس. غير أن دينبي لم يحوِّل عينيه عن المرأة.

وكانت الموسيقى ـ كما أدرك دينبي الآن ـ موسيقى راقصة، موسيقى راقصة من الطراز القديم، فوكستروت Foxtrot، شيئاً يرجع تاريخه إلى

twitter @baghdad_library

شباب دينبي، ويثير فيه طائفة من الذكريات الجسدية المبهمة. فوكستروت بطيء. وعمدت ديانا إلى تخفيضه حتى استحال في الخلفية إلى همس.

ـ «يا له من لطف منك أن تزورنا».

ـ «كان من الممكن أن أتصل هاتفياً، ولكنني كنت ماراً فخطر لي أن أقوم بهذه الزيارة». والواقع أن دينبي اكتشف أنه يكابد رغبة شديدة في رؤية مايلز مرة أخرى.

ـ «إن ذلك من أجل رؤية مايلز لبرونو؟ أنا مسرورة بأنه سيذهب، أليس هذا شعورك؟».

ـ «بلى.. وأتساءل هل صباح السبت مناسب؟ مايلز لا يعمل أيام السبت؟».

ـ «يفعل ذلك أحياناً، ولكنه يستطيع ألا يفعل إذا شاء».

ـ «حوالي الحادية عشرة، إذن».

ـ «هل تعلم، أنك لا تشبه في شيء ما توقعته».

ـ «وماذا توقعت؟».

ـ «شيء ـ يصعب على المرء أن يقول..».

ـ «لم يكن وصف مايلز مما يبعث على إعجاب المرء بنفسه؟».

ـ «كلا، كلا، كلا، لم يكن الأمر على هذا النحو. كنت أظنك أكبر، وأنك لست...».

ـ «وسيماً؟».

ـ «وضحك الاثنان معاً.

كانت الحجرة مبهرجة فاقعة الألوان، حافلة بالمقاعد المستديرة الصغيرة المنفوخة المكسوة بأقمشة قطنية ملونة (كريتون أو تشينتز Chintz). وكان هناك رف أبيض طويل من طراز الفن الجديد تناثرت عليه تحف من الخزف الصيني اللامع. أما الجدران المخططة بخطوط صفراء وبيضاء فكانت

مغطاة بلوحات زيتية صغيرة متنوعة، من العصر الفيكتوري المتأخر ورسومات ظلالية وأخرى من فن المينياتير. كانت حجرة انتقائية على وعي بنفسها، حجرة مصنوعة، كان يمكن أن توجد في كمبردج في أوائل القرن العشرين، زاخرة بالضوء البارد الصادر عن مصابيح صينية، ويشيع فيها جو يميل إلى نزعة قاسية نوعاً ما في طلب المتعة (هيدونيزم Hedonism).

وكانت الفتاة ـ وهو في تفكيره المباشر عنها يراها كذلك ـ ترتدي ثوباً من الصوف الأزرق، قصيراً وبغير نطاق. وكانت ممتلئة داخل هذا الثوب المُحْكم كالغِمْد، بحيث يُظْهر أعضاء جسدها في خطوط مستديرة: النهدين والبطن، والردفين ـ ويوحي بها جيداً، ويضفي عليها نوعاً من الملاسة. وكانت عيناها عسليَّتين ثريتين صافيتين في عسليتهما، وشعرها الطويل المسترسل، وكانت الشمس تسطع الآن عليه، يتألق ذهبياً مفضضاً معدنياً. ولها أنف مستقيم حازم، وعلى محياها يرتسم تعبير ملغز مُركَّز، جائع على نحو طفيف. وأدرك دينبي في الحال إحساساً معيناً بالدراما، إحساساً بمبادرتها. فتاة عصبية المزاج، ممغنطة، لا يلقى كثيرات من أمثالها الآن، إلا نادراً. من المؤمنات بمذهب المتعة، وإن تكن مؤمنة على شيء من القسوة في إيمانها.

ـ «وهل وجدتني شبيهة بما توقعته؟».

ـ «أخشى أن أقول إنني لم أفكر فيك كثيراً، على الإطلاق. ولكنني سأفكر فيك الآن».

ـ «أنت شخص مهذَّب».

وضحك الاثنان معاً مرة أخرى.

قالت ديانا: «أتحب كأساً من الشراب. لقد أقلع مايلز تماماً عن الخمر. أليس ذلك شيئاً فظيعاً؟» وتناولت زجاجات من الجين والفرموت والشيري وأقداحاً زجاجية مشطوفة من صُوان أبيض.

twitter @baghdad_library

تنـاول منها دينبي قـدح الشراب في شيء من الامتنان. ذلـك أن طقوس الشراب، وهـذا الوقت من النهـار، وتلك اللحظة المضغـوطة كـأنها كبسولـة لأول كأس من الخمر في المساء ـ هذا كله كـان يشيع في عـروقه دائمـاً دفقةً من السعادة الخالصة. وبدت له هذه المناسبة ـ بما فيها من عنصر المفـاجأة ـ كاملة بنوع خاص.

ـ «أحب أن أشرب في هــذه السـاعــة من اليــوم، ولكنني لا أحب أن أشرب وحدي».

ـ «إذن، فأنا مسرور لزيارتك حتى أوفِّر لك رفيقاً في الشراب!».

ـ «أنا مسرورة بزيارتك! فمايلز مهموم إلى أبعد حد بعائلته».

ـ «العائلة، أجل، أظن أنني أُعَدّ من ذوي القربى».

ـ «أعتقد أن الروابط العائلية على جانب كبير من الأهمية..».

ـ «هذا يتوقف بالأحرى على نوع العائلة. ماذا تعملين، يا ديانا؟».

ـ «ماذا تقصد بما أعمل؟ إنني ربة بيت. وأنا أعرف ما تعمله».

ـ «أنا رجل أعمال، على ما أظن. أو من رجال الـطباعـة. والحق أنني لم أفكر أبداً فيمن أكون».

ـ «وأنا أيضاً لم أفكـر حقّاً فيمن أكـون، ولكنني أتخيل ذلـك لأنني لست شيئاً».

ـ «أنت لا تخرجين للعمل؟».

ـ «كلا، بحق السموات.. أنا عاطلة».

ـ «تقومين بتنفيض الغبار؟».

ـ «الخادمة تقوم بنفض الغبار. أما أنا فأتولى العناية بالحديقة والطهي، وأعيد ترتيب أدوات الزينة».

ـ «عمل إبداعي».

ـ «لا تكن أحمق. خذ قدحاً آخر».

ـ «متى يأتي مايلز؟».

ـ «لن يعود إلا متأخراً. فلديه اجتماع في المكتب ولا يستطيع أن يبرحه. وهو يكره هذا الاجتماع».

ـ «لا أتخيل أن مايلز شخص يميل للمجتمع».

ـ «هو ليس كذلك. إنه يبغض الناس».

ـ «من الواضح أنك تحبينهم».

ـ «أجل، أنا أكثر ميلاً للمعاشرة من مايلز. هل أستطيع أن أذهب لأرى برونو أيضاً؟».

ـ «بالطبع. . إنه يشتاق إلى لقائك».

ـ «أهو حقاً كذلك؟ لم أتخيل أنه يحس بوجودي».

ـ «إنه يحس به، طبعاً، وكله لهفة».

ـ «تجعلني أشعر بأنني عصبية تماماً. سأدع مايلز يذهب أولاً. لقد وددت دائماً أن أقابلك، وأقابل برونو. هل برونو مريض جداً؟».

ـ «نعم ولا. إنه لا يتألم، وما زال محتفظاً بعقلانيته تماماً وسيحبك».

ـ «وسأحبه».

قال دينبي لنفسه: ما أغباني! لم يخطر على بالي قط أن ستكون هناك ـ كما هو هذا الحال ـ فتاة. ويا له من حظ سعيد لبرونو. ستعرف كيف تتعامل مع الرجل العجوز. الفتيات يتمتّعن بلباقة أكثر كثيراً. وتأمل الحجرة مرة أخرى. فتاة لا تعمل شيئاً. وتجلس على مقاعد منفوخة مكسوة بالكريتون، وتقرأ. وأبصر كتاباً فوق أحد المقاعد. جين أوستن(*). امرأة قد تكون ضَجِرة قليلاً. . تنتظر.

قال: «ما أشد سروري لأننا التقينا أخيراً».

وحدث نفسه قائلاً: ثم، يا إلهي، هذه الموسيقى المسرفة في الجنس ماذا

(*) Jane Austen (١٧٧٥ ـ ١٨١٧) روائية انجليزية معروفة. (المترجم).

twitter @baghdad_library

تكون؟ إنها موسيقى مألوفة». ما هذه الأسطوانة التي تدور فوق الجرامفون؟» فأسكتتها. كانت رقصة بطيئة من رقصات الفوكستروت، رسمية، رزينة، عذبة إلى أقصى حد، تحمل معها ذلك الإحساس الدقيق ـ وإن يكن غير قابل للتحديد ـ بالماضي. وشرعت قدما دينبي في تخطيط حركة، منزلقة، آسرة، على أرضية الحجرة المغطاة بسجادة محكمة النسيج.

وفي اللحظة التالية كان يتقدم منحرفاً إلى جانب، ولم يلبث أن انزلقت يده حول خصرها، ثم أخذا يرقصان في صمت، متقدمينْ متراجعين دائريْن، وأقدامهما البطيئة المضبوطة تتحرك على رسومات الأرضية، وظلهما المتشابك يتسلق قطع الأثاث وراءهما.

توقفت الموسيقى، فافترقا. حملقت العينان الزرقاوان في العينين العسليتين فغضّت العينان العسليتان من نظرتهما.

ـ «ترقصين رقصاً جميلاً، يا ديانا».

ـ «وكذلك أنت».

ـ «أعتقد أن الفوكستروت البطيء هو أفضل الرقصات جميعاً».

ـ «أجل، وأصعبها».

ـ «لم أرقص منذ أعوام».

ـ «وأنا كذلك. مايلز يمقت الرقص».

ـ «فزت ذات مرة في مسابقة للرقص».

ـ «وأنا كذلك».

ـ «ديانا، هل تأتين وترقصين معي، بعد ظهر أحد الأيام في قاعة من تلك القاعات المخصصة للرقص، فهناك ـ كما تعلمين ـ يمكن للمرء أن يرقص بعد الظهر».

ـ «كلا، بالطبع لا».

ـ «هل في ذلك ما يزعج مايلز؟».

ـ «دينبي ، لا تكن أحمق» .

ـ «ديانا، فوكستروت بطيء» .

ـ «كلا» .

ـ «فوكستروت بطيء» ـ «كلا» ـ «فوكستروت بطيء؟» ـ «كلا» .

twitter @baghdad_library

(٩)

جلس نـايجل القـرفصاء عـاري القدمـين إلى جوار درابـزين نـاظـراً إلى أسفل. وكانت قدماه موحلتين ويداه حمراوين من الصـدأ. ومر بـه رجل في الظلام على الرصيف، استدار، وتـوقف، ثم حملق فيه. ابتسم نـايجل دون أن يتحرك، فومضت أسنانه البيضاء في العتمة، وأمسكت بشعـاع من النور ينبعث من مصبـاح بعيـد. تـردد الـرجــل، وانسحب، ثم لاذ بـالفــرار. واستدار نايجل لينظر وهـو ما زال مبتسمـاً: شاهـد من خلال ستـار منقسم رجلاً يذهب إلى الفراش في بدروم. الـرجل يخـرج من سرواليه، ويـتركهما كوماً ملتفاً حول نفسه على أرضية الحجرة، ثم يـذهب ليبول في الحـوض. ذيل قميصه مهلهل. يخلع قميصه، ويهـرش تحت ذراعيه فـترة، وكل يـد من يديه مشغولة بالهرش داخل الإبط المخالف. يتوقف، وفي تركيز شديد يشم أصابعه. ومع أنه ما زال يرتدي صديـره الدافىء القـذر، فإنـه يلبس فوقـه منامته المكرمشة، محملقاً في السقف، ثم يطفىء النور. فينهض نايجل.

هذه هي أمجاد مـدينته الليليـة: مكان للحـج، مكان للخـطيئة، مكـان للاعتراف. ويتسلل نايجل حافياً، وهو يخطو بخطوات واسعة، ويلمس كل مصباح من مصابيح الشارع أثناء سيره. رأى أناساً ساجدين، يتلوون ألماً، يلعنون، ويصلّون. وشاهد رجلاً يبسط وسـادة على الأرض لـيركع فـوقها، ويغمض عينيه، ويضم يديه الراحة إلى الراحة الأخرى. وفي أرجاء المدينـة المقـدسة من أدنـاها إلى أقصـاها وفي الأكشـاك البشرية، كـان الناس يتلون

صلوات الحب والبغضاء، وكان نايجل ـ متجرداً من شخصه ـ يخطو بينهم بقدمين طويلتين صامتتين، والصلوات تتصاعد حواليه في هسيس خافت، كأنها البخار. على أي دين يمكن أن يتصاعد الإنسان. وعلى طول الممرات المعتمة يحمل العابدون المتلفعون بأرديتهم البيضاء الأكاليل البيضاء الزكية الرائحة، ليضعوها في صمت على النصب المدهون بالزيت لشيفا العظيم.

وكان نايجل يخطو دون أن يحدث صوتاً، فيجتاز الطرق بخطوة واحدة، دون أن تلمس قدماه الأرض، مُطّلعاً على المشاهد الداخلية. كان قد وصل إلى النهر المقدس، وها هو يتموج عند قدميه أسْود ممتلئاً، نهراً من الدموع يحمل بعيداً جثث الناس. وكان ثمة بكاء ولكنه لم يكن الباكي. والنهر العريض يتدفق ماضياً في طريقه، هائلاً أسود تحت الأصوات العتيقة المشروخة المنبعثة من أجراس المعابد وهي تحوم كالخفافيش في الهواء الأسود الرهيب. والنهر كثيف، مترافد، مجعَّد، محدب، متكوِّم على شطآنه. ويقوم نايجل بتقديم القرابين. زهور. أين توجد الحديقة الليلة التي جمع منها هذه الزهور؟ وألقى نايجل الزهور فوق النهر المحدّب، ثم قذف وراءها بكل الأشياء التي وجدها في جيوبه: سكين ومنديل، وحفنة من النقود. وطوى النهر في أحشائه الآهات والزهور والمنديل الأبيض، وهي تنزلق جميعاً على مهل داخل نفق الليل.. على حين كان نايجل، الإله، العبد، يقف منتصب القامة، معذَّباً في جسده من أجل الخطايا التي اجترحتها المدينة العليلة.

واستلقى على الرصيف حيث كانت المياه المتصاعدة قد رفعت نافذة عوامة حتى أصبحت على مقربة من عينه التلسكوبية. رجل وامرأة يجلسان على سرير، والرجل بكامل ملابسه، والمرأة عارية تماماً. كان يتحدث إليها غاضباً ويلوِّح بقبضته أمام عينيها. والمرأة تهز رأسها، وتحرّكه بعيداً في شيء من العسر، وأصبح وجهها قبيحاً بتأثير الخوف والرغبة في الفرار.

twitter @baghdad_library

وشرع الرجل في خلع ملابسه، ممزِّقاً لها، متعرياً وهو يصب اللعنات. وسحب بطاطين السرير عليه فمرقت المرأة داخلها كحيوان يلجأ إلى جحره، واختبأت، وأخذت تحدِّق من تحت البطاطين التي وصلت حتى عينيها. وأزاح الرجل البطاطين بعيداً عنها، وأطفأ النور. ورقد نايجل على الرصيف الرطب، وتنهد حسرة على آثام هذا العالَم.

ورفع نفسه قليلاً ليتمكن من النظر وراء خصاص نافذة لا يحجبها ستار. كان «ويل» و«أديليد» يتناقشان إلى جوار مائدة مطبخ. تبعثرت عليها الأشياء. تناول «ويل» يدها التي حاولت أن تسحبها منه في جفاء. فقذف بيدها ناحيتها. وكانت الخالة تحيك بالإبر سترة برتقالية من الصوف. «إذن، فهناك طابع مثلث لرأس الرجاء؟» «أجل، هناك طوابع عديدة». «عليك أن تحصلي على الطابع المطلوب، سأعرض عليك صورة له». «لن أحاول الحصول على أي واحد منها». «أجل ستحصلين عليه يا أديليد». «كلا، لن أفعل». «سأتمكن من قتلك ذات يوم يا أديليد» «دع ذراعي، فأنت تؤلمني». «المقصود بهذا إيلامك». «أعتقد أنك شخص بغيض». «لماذا تأتين هنا لتعذيبي». «دعني أذهب». «أنت تستمتعين بتعذيبي». «دعني أذهب». ولاحظت الخالة ـ ولم تكن هذه أول مرة ـ وجه نايجل يرتفع كالقمر فوق خصاص النافذة ـ فابتسمت ابتسامة مبهمة، وواصلت الحياكة.

وفي مكان آخر، كان يركع إلى جانب باب زجاجي بين أعشاب رمادية مريشة. وهنا، لم يكن يوجد سوى شقٍّ دقيق بين الستائر يستطيع من خلاله أن يشاهد رجلاً شاحباً نحيل الوجه، ذا عينين ضيقتين وشعر غزير فاحم، يتجادل محتداً مع امرأة نحيفة لها ذراعان أشبه بالعصى، ووجه هزيل متحمس. وكان شعرها الكستنائي غجرياً لا شكل له كسحابة سوداء حول وجهها المندفع.

ـ «العالم مستقل عن إرادتي».

ـ «ولا بد أن معناه يكمن خارجه. كل شيء في العالم هـو ما هـو عليه، ويحدث كما يحدث. وفيه، لا توجد أية قيمة».

ـ «ولو كانت هناك قيمة، لكانت بلا قيمة».

ـ «لـو أن إرادة الخير والشر تغـيّر من العالم شيئـاً فإنها لا تستـطيع أن تغـيّر إلا حدود هذا العالم. ولا بد للعالم من أن يتوسع وينمحق ككل».

ـ «عالم السعداء يختلف تماماً عن عالم التعساء».

ـ «وكـما هو الحـال في المـوت أيضـاً، لن يتغـير العـالم، بـل سيكف عن البقاء».

ـ «الموت ليس حادثة في الحياة. لأن المرء لا يحيا خلاله».

ـ «لو فُهمت الأبدية على أنها ليست مدة زمانية لا نهاية لها، بل عـلى أنها لا زمانية، فسوف يحيا إلى الأبد من يحيا في الحاضر».

ـ «ليست الكيفية التي يوجد عليها العالم، وإنما وجودها نفسه ـ هو الأمر الملفع بالأسرار».

ـ «وهنا لا نستطيع أن نتحدث».

ـ «ومن ثم ينبغي أن نصمت».

ودخلت الحجرة امرأة جميلة ذات جبـين عريض مشرق كـالفجر. وكـان ثوبها الليـلي (الروب) الأزرق كمنتصف الليـل، يجرِّر أذيـاله عـلى الأرض. وأمـام الشخصين المتجـادلينْ وضعت صينيـة، ثم جلست بينهـما وهي تـربَّت على كل منهـما براحتيهـا. وكان كـل منهما ينـظر إليها في حب، وهمـا يحتسيان الأوفـالتين الـذائب في اللبن الساخن ويقضـمان شرائح البسكـويت المحشـوة بالقشدة.

وعاد نايجل إلى المنزل. وهو يرجع الآن فوق الطحلب الرطب المـوحل، عـلى حـين أخـذ يحدِّق إلى نفسـه في مـرآة. دينبي يبتسم لنفسـه معجبـاً

twitter @baghdad_library

بالصف المزدوج من أسنانه المنتظمة الناصعة البياض. ويبتسم نايجل أيضاً ـ راكعاً إلى جواره دون أن يراه ـ تلك الابتسامة الحنون المتسامحة، الحزينة إلى ما لا نهاية.

(١٠)

فوكستروت بطيء.

بعينين نصف مغمضتين، كان دينبي وديانا يدوران حالمين، كل منهما بين ذراعي الآخر. وكانت حلبة الرقص مكتظة بأزواج في منتصف العمر راحوا ينزلقون وهم في شبه غيبوبة، وكانوا جميعاً يجيدون الرقص. وكانت الأضواء خافتة مائلة إلى الاحمرار، والأعمدة الرخامية في قاعة الرقص تحلّق حتى تتوارى في ضباب السجائر. وكانت الجدران مكسوة بالموزاييك الذهبي الذي تزيِّنه زهور من الأزرق اللازوردي. وعلى الأعمدة حِلْيات من قرون مذهبة، مثبَّتة بدهاء، بحيث تبرز مائلة نحو القاعة، فوق أهداب مروحية الشكل من المخمل الأرجواني، وأدغال من أشجار السرخس والنخيل تحتل الأركان جميعاً، وتحجب المدخل تماماً. وفي الجو تشيع رائحة كثيفة عَبِقة من العطور الرخيصة ومواد التجميل. وعلى الموائد الجانبية جلس نفر قليل من الناس، غير أن معظم الموجودين كانوا يرقصون بعيون نصف مغمضة، وقد تلاصقت خدودهم. وقليل منهم كانوا يتحادثون بهمسات خافتة. ومعظمهم صامتون. وكان الوقت عصراً.

- «دينبي».
- «نعم».
- «نحن أصغر الناس هنا».
- «أجل».

twitter @baghdad_library

ـ «هل تظن أن هؤلاء النسوة جميعاً يرقصن مع أزواجهن؟».
ـ «كلا، بالطبع».
ـ «هل سيخبرن أزواجهن؟».
ـ «كلا، بالطبع. وهل ستخبرين زوجك؟».
ـ «أليس من الغريب أن يفكِّر المرء في أن الوقت عصر في الخارج والشمس ساطعة».
ـ «بلى».
ـ «العصر وقت شرير. أظن أن الجحيم سيكون عصراً دائماً».

كانت ديانا تتحدث بهمس لا يكاد يسمع، وكأنها تتحدث أثناء نومها. وكان انتباهها يكاد يكون مستغرقاً تماماً في الضغط الذي تحدثه وجنة دينبي على وجنتها، وفي الحركات الخفيفة الحازمة الحساسة المرشِدة التي تقوم بها يد دينبي اليمنى على ظهرها.

لم تكن ديانا متأكدة كيف ولماذا كانت فوق حلبة الرقص مع دينبي. اتصل بها هاتفياً؛ وكان هناك إحساس بالقَدَر، تَوْق شديد، حاد ومحدّد إلى أقصى حد، للشعور بأصابع عازف التشيللو المتسلطة تلامس ظهرها مرة أخرى. كان الأمر كله غير مألوف تماماً. أنفقت أعواماً عدة تنتظر الأطفال، ولم تحدث نفسها واعية بما تقول إلا مؤخراً جداً ـ بأن الانتظار قد انتهى. لقد شَغَلَت كل تلك الأعوام العديدة، ولكن كيف شغلتها؟ كان مايلز هو شغلها الشاغل. شعور مايلز بالوحدة، خجله، نزعته العصبية في حيوية المادة Animism، وعجزه في بعض الجوانب ـ عن الإمساك بالحياة على الإطلاق. وسرعان ما كفَّت عن الطموح له في عمله. واقتصر كل ما تبغيه على الاحتفاظ بإحساسها بحمايته أطول وقت ممكن، وإشاعة

(*) الاعتقاد بأن لكل ما في الكون، وحتى للكون ذاته، روحاً أونفسا. (المترجم).

دفء الحياة فيه. وفي هذه الأثناء كانت تغازل قليلاً أصدقاءها من الجنسين. وحدثت نفسها بأنها لم تكن بطبيعتها من المتمسكات بزوج واحد، على حين أنها بقيت في زمرتهن لا تحيد قيد شعرة. وأدركت أن أحلامها الشبقية المبهمة التي كانت تراودها أثناء اليقظة لم تكن تدور دائماً حول زوجها. ومع ذلك، لم يكن هناك من يثير اهتمامها على نحو دائم، متسق، غامض حار، مثل مايلز. والحبل السري لحبها المبكر له، لم ينفصم أبداً. وما برحت تعد نفسها من المحظوظات.. وإن كانت مؤخراً ـ وعلى سبيل التنبؤ ـ وهي تستجمع فكرها هادئة في المطبخ أثناء الليل ـ قد وجدت نفسها تنظر قليلاً بعينين جديدتين، وأحسّت بحاجة غامضة إلى التغيير، بل أحست بإمكانية الضجر.

عاشت على حبها الذي لا ينفد لمايلز. كما عاشت أيضاً على شيء لعله لم يكن مما يقبل النفاد، صورة حلمها لنفسها. فالانشغال بالبيت سلبها أعوامها، وفي داخله شَغَلَت أعوامها في اتخاذ الأوضاع. وضع في ثوب حريري للعصر في حجرة الاستقبال، ووضع في قميص من النايلون لحجرة النوم. وعندما كانت تقوم بتنسيق الزهور كانت تتخذ وضع سيدة تقوم بتنسيق الزهور. وكانت تضع المساحيق على وجهها أثناء أوقات العصر التي تكون فيها وحيدة. أما مايلز فكان نفوراً من الحياة الاجتماعية، ولهذا نادراً ما كانا يتزاوران. كانت أشبه بعاهرة تنتظر بين اللُّعب والحليّ الزائفة اللازمة لمهنتها، وكل الاختلاف بينهما هو أنها كانت تنتظر زوجها.

وكالراهبة، تأملت سنوات طوالاً في حظها الذي جعلها تظفر بمايلز. لم تحلم أبداً بمثل هذا الصيد الارستقراطي الممتاز. وكان من الممكن أم تقنع بأقل من ذلك. وبعد وفاة أبيها، ظلت تتردد على أمها العجوز في البيت الذي نشأت فيه، وكانت عطوفاً على السيدة العجوز، ولكن لم يكن في وسعها إلا أن تتأمل ـ في شيء من الرضا ـ الفجوة بين حياة أمها وحياتها.

twitter @baghdad_library

وهكذا ارتقى بها مايلز دون أن يشعر بذلك. فأعدت نفسها لتهيئة عش جميل أنيق لهما معاً، وداخل هذا العش أخذا ينموان مع مضي الأعوام مثل حيوانينْ انتهى بهما الأمر إلى تنمية شخصية واحدة متخاطرة (Telepathic).

ولعبت لمايلز دور العشيقة المدلّهة بدقة شديدة، وفي تسليم أكثر وعياً، إذ كانت تعلم أنها تأتي في المرتبة الثانية من التفضيل بعد زوجته الراحلة. ولم تكن فكرة بارفاتي تشعرها بالإحباط، بل على العكس، إذ فتنت نفسها بدور المرأة الشافية. لم تكن البطلة العذراء في قلعة، وإنما كانت سيدة النبع الغامضة التي تشفي جرح الفارس المتجول، الجرح الذي تحدى جميع اللمسات الأخرى. وكان الدور أدعى للامتنان ما دامت العذراء البطلة قد طواها الردى منذ أمد بعيد؛ لم تُدْرج في أكفان النسيان، ولكنها كانت غائبة، وكان غيابها رحمة. إذ لم يعد ثمة وجود الآن لغير سيدة النبع. وأصبحت ذكرى السيدة الراحلة ضماناً لإخلاص زوجها. وهكذا كانت بارفاتي المتوفاة تتربع متنعمة على عرش زواجهما.

وليزا، ليزا المسكينة، جاءت لتصبح مَشْغَلة أخرى، كما كانت منذ زمن بعيد أثناء طفولة ديانا، عندما كانت مثالية ليزا وافتقارها إلى الحس السليم يوقعها دائماً في مآزق، وعلى ديانا أن تخلصها منها. وكانت ديانا شديدة الارتباط بأختها، وتستمتع بالإعجاب بها ورعايتها في آن واحد، كما كان يعينها ويساندها دائماً ما تحمله لها ليزا من حب متبادل لا يرقى إليه الشك. ومع ليزا استمتعت ـ بحكم الطبيعة (القرابة) ـ بذلك التقارب الحيواني والتوحد الذي لم تنجزه مع مايلز إلا بعد سنوات عدة. وفرّقت بين الأختين حياة البلوغ، وفي لقاءاتهما النادرة، كان ما تقوله كل منهما للأخرى يزداد قِلّة، وإن بقي بينهما شيء من التقارب القديم، وكانت ديانا سعيدة لأن مايلز أحب ليزا، وبعد أن مرضت ليزا بدا طبيعياً في نظر الزوجين أن

يطلبا منها ـ في تلك الفترة على كل حال ـ أن تقيم معهما. وما أكثر ما كان يدور الجدل بينها وبين مايلز! كان في هذا كله شيء من الجدَّة، وكانت جِدَّة موفَّقة على نحو ما.

وشعرت ديانا بالحزن على ليزا إلى ما لا نهاية، وهي تضع شفقتها في مكان وَسَط من إحساسها بمغايرة أختها المطلقة، ومن خلال إحساسها بحظها المزاجي الخاص. فقد كانت ديانا إنسانة مرحة لا تعرف القلق، وهبها الله نظراتٍ مريحة، وأحاطها بهالة من الاكتفاء الذاتي. أما تلك الابتسامة المُلْغزة قليلاً التي كانت تطوف بشفتيها وكأنها كيوبيد مقيم، فقد كانت حقاً ابتسامة بسيطة تنم عن الرضا، علامة خارجية مضيئة تشير إلى إنسانة ممتلئة، متمتعة بالصحة، ومُشْبَعة، تجسيد جيد للنجاح. أما ليزا فكانت تفتقر إلى الجمال، وما كانت تتمتع به من وسامة ولّى مع مرضها. وكانت ذكية بالطبع، وهي في حقيقة الأمر أقوى تحملاً مما تبدو عليه. وقد التحقتْ بوظيفة مدَرّسة في إحدى مدارس «الإيست إند»، وكانت زيارة واحدة لهذه المدرسة كفيلة بأن تجعل ديانا تشعر بغثيان حقيقي. وعلى الرغم من هذا كانت تبدو لديانا فتاة قُدِّر لها الشقاء. ودهشت ديانا لشفاء أختها. وكانت قد قالت لمايلز: «ليزا تريد الموت. ومن المؤكد أنها تسعى إلى المعاناة»، فأجابها مايلز: «ليس هذا هو ذاك بالضبط». وختمت ديانا بقولها: «إنها متصوفة، إنها تريد ألا تكون شيئاً». ووافق مايلز قائلاً: «من المؤكد أنها مولعة بتعذيب نفسها (مازوكية)».

قالت ديانا لنفسها: «أنا الآن في منتصف العمر». وتلفتت حولها في قاعة الرقص تتأمل الأزواج الحالمين الذين كانوا أبعد ما يكون عن الشباب. وأنا أنتمي إلى هؤلاء الناس. أما التغيير الجديد الذي أحدثته ليزا فقد ولّى. أكانت ديانا قد بلغت الآن السن الذي ينبغي أن تتوالى فيه التغيرات الجديدة، الواحد إثر الآخر؟ أكان ذلك نوعاً من الشر؟ لم تكن

twitter @baghdad_library

تشعر بشيء من ذلك، كل ما كان في استطاعتها أن تشعر بـه إحساس مثـير بتجديد الشباب والبهجة في ظهور دينبي غير المتوقع. وقد فكَّرت بالطبع في بـرونو، وفكـرت في دينبي، وإن كـانت قـد تخيلتـه غـير منعكس تمـامـاً في الألفاظ التي استخدمها مايلز في تصويره له. وحتى بعد مقابلة مايلز الأخيرة لـدينبي استمعت بحسن نيـة إلى تعجبـات مـايلز عن ذلـك الأبله البـدين، والمهرج المأفون. ولم تكن تتوقع أن يأسرهـا في الحال. وهـذه المفاجـأة ذاتها كانت نوعاً من إضفاء الحياة: وجه دينبي الأسمـر الأملس الظريف، عُـرْفه المتدلي من الشعر الأبيض، ابتسامته القوية الواثقة ـ كـان هذا كله يحُـوم في ذهنها وهي تنبىء مايلز بزيارة دينبي في عبارات مقتضبة، وأثناء استماعها في صمت لسيـل من التهكم انـدفـع من مـايلز. هــذه الصـور صحبتهــا إلى الفراش.

ـ «اتصال الأجساد هو اتصال العقول».

ـ «أنت فيلسوف، يا دينبي».

ـ «فكـري في كـل تلك الأعـوام السخيفـة التي لم يعـرف فيهـا أحــدنـا الآخر».

ـ «أشعر بأنني عرفتك منذ أجيال».

ـ «وهذا ما أشعر به أيضاً. وأعتقد أن كـلا منا هـو النمط الذي يتمنـاه الآخر. أليس كذلك؟».

ـ «ربما. فأنت الشخص الذي أستطيـع أن أكون معـه خاليـة البال دون أن أشعر بالقلق. وليس من اليسـير على امـرأة في مثل سني أن تحصـل على هذا النوع من ـ الإجازة».

ـ «خالية البال. ألا تعنين طائشة، ساخرة؟»

ـ «كلا، مجرد خالية البال. فأنت تضحكني».

ـ «هذا صحيح. دعينا إذن نمارس الحب».

ـ «كلا، يا دينبي، لا شيء من هذا القبيل، فأنا أحب زوجي، ومعلَّقـة في صنارته بصفة دائمة».

- «أخشى أن تكون هذه صورة سيئة نوعاً ما لامرأة تقول هذا وهي تراقص شخصاً آخر على نحو غير مشروع».
- «أخشى أن يكون ذلك حقّاً، يا عزيزي».
- «دعيني أدفع لكِ الجزية عن قولي إن ملاحظتك آلمتني».
- «ودعني أدفع لك الجزية عن قولي إنني أستعرض ألمك في سرور».
- «من الممكن أن نصل إلى شيء ما على هذا الأساس».
- «كلا، كلا».
- «قلت كلا في المرة الأخيرة، وأردفتها بنعم، ومن ثمّ سأواصل الأمل».
- «لا تفعل. إنني مسرورة لأنك أردت أن تراقصني، هذا هو كل شيء».
- «ليس هذا كله، ما دمنا معاً في هذا المكان الشرير اللذيذ بفظاعة».
- «إنه صورة من صور الخطيئة. أليس كذلك».
- «دعينا نضع في الصورة شيئاً من المادة إذن».
- «أليس لك شخص آخر، يا دينبي».
- «فتاة، كلا».
- «لستَ شاذاً، أليس كذلك؟».
- «سبحان الله، كلا! ديانا، إنك تشعرينني بأنني على وشك الإغماء!».
- «وحيد تماماً؟».
- «وحيد تماماً. كانت هناك واحدة، ولكنها رحلت إلى استراليا. وأنا الآن مستغرق في الكآبة».
- «مسكين أنت يا دينبي. غير أنني أعتقد حقاً أن الأفكار والمشاعر ليست بكل هذه الأهمية».
- «أفكاري ومشاعري أنا مهمة. فأنا أفكر وأشعر بأنني أريدك. ماذا أنت فاعلة إزاء هذا الموقف؟ أتدركين أنك أنت التي كنت تقودينني إلى هذا؟»

twitter @baghdad_library

ـ «أنا في الخمسين تقريباً. ولا يجدي معي ذلك».
ـ «وأنا تجاوزت الخمسين. ولكن الأمر يجدي معي».
ـ «لا تختلق المصاعب. في هذه اللحظة فحسب أشعر بأنني عدت إلى الشباب».
ـ «إنها الموسيقى. وهذا المكان ينتسب إلى الماضي. إنه شيء يتعلق بالحركة، والتكرار. وأنا أشعر بالشباب أيضاً، أو بالأحرى بأنني لا أخضع للزمن».
ـ «لا تخضع للزمن، أجل. أنت شديد الجاذبية».
ـ «إذن، ما جدوى ذلك؟».
ـ «لا، لا».
ـ «ستفضين إلى مايلز بكل شيء، ثم تكتبين إليّ ورقة تقولين فيها إنك لن تريني مرة أخرى؟ إذا فعلت ذلك، فسأضع المصاعب حقاً».
ـ «كلا، بالطبع، لن أفعل ذلك. ولكن ينبغي أن يكون كل شيء هادئاً، شكلياً، ورومانسياً».
ـ «هذه العبارات تبدو لي متناقضة. أنت تعنين شوكولاته، وزهوراً..».
ـ «أعني نوعاً من الصداقة الرومانسية».
ـ «الرجال لا يصلحون للصداقات الرومانسية.. أريدك في الفراش».
ـ «أنت لا تحبني حقاً، وأنا لا أحبك حقّاً. كل ما في الأمر أننا أسيران».
ـ «لا نستطيع أن نتحدث بعدُ عن الحب.. وعلى أي حال. ما الخطأ في أن نكون أسيرْين؟ لم يحدث لي أن أُسِرت مثل هذا الأسْر في كثير من الأحيان، هذا ما أستطيع أن أخبرك به!».
ـ «كل منا يهتم بالآخر بأقل الأجزاء خيراً فيه».
ـ «ها أنت تصبحين متفلسفة. أيمكن أن أراك في البيت؟».

ـ «كلا».
ـ «ديانا، لا بد لي من أن أنفرد بك لحظة من الزمن. أريد أن أقبِّلك».
ـ «كلا».

twitter @baghdad_library

(١١)

«نايجل!»

كانت الساعة الثالثة صباحاً، الهزيع الرهيب من الليل. وكان برونو يحلم. حلم بأنه قتل شخصاً ما، امرأة، ولكنه لم يستطع أن يتذكر من كانت، ودفن الجثة في الحديقة الأمامية لمنزل في تويكنهام Twickenham حيث كان يعيش طفولته. وتقاطر الناس على المكان وأخذوا يحملقون في الموضع الذي دفِنت فيه الجثة، ويشيرون إليه، حتى لاحظ برونو، وقد استولى عليه الرعب - أن شكل الجثة كان ظاهراً بوضوح من خلال الأرض، وأنه كان مرسوماً بخطوط ذات وهج مضيء أحمر. ثم رأى نفسه في محكمة، وأن القاضي - وكان مايلز - يحكم عليه بالإعدام. وهنا استيقظ من نومه بقلب سريع الخفقان. وأحس براحة غريزية فورية حين عرف أنه مجرد حلم قبل أن يدرك في لحظة لاحقة أنه كان حلماً صادقاً.

كانت الحجرة التي أُسْدلت ستائرها بإحكام - حالكة الظلام، غير أنه كان يستطيع أن يتبينَّ الوقت فحسب على ميناء ساعته المضيء. ومَدَّ برونو محاولاً أن يضيء الحجرة، ولكنه لم يستطع أن يجد المصباح. لا بد أنه نُقل من المنضدة المجاورة للسرير إلى المنضدة المجاورة للنافذة. وكانت أديليد تفعل ذلك أحياناً حين تنفض الغبار، وتنسى أن تعيده إلى موضعه. وكان نايجل قد أطفأ له النور في الساعة الحادية عشرة. ورقد برونو ضاغطاً بإحدى يديه على قلبه. قلبه يقفز وتفوته بعض الضربات مثل عدّاء يجري

بأقصى سرعة، ويتعثر دائماً. وفي صدره، كان يشعر بألم حاد في منطقة القلب، وبإحساس بالانقباض وكأن سلكاً التفَّ حول صدره وجعل يضيق شيئاً فشيئاً. وحرك قدميه في وهن داخل قفصهما معتقداً أنه ربما قام ووجد النور، ولكنه شعر بأنه أضعف من أن يتحرك. ثم قَبض ذلك التقلص الأليم على ساقه اليسرى. وحدث نفسه بأنه قد جاء زمن السجود، زمن الضعف الشامل زمن المرحاض في الفراش. زمن الكفن. كل ما في الأمر، وما أغربه، هو أنه لن يكون في حاجة إلى ذلك الكفن بعد ذلك أبداً. وحينذاك سيكون الكفن متفرجاً ينتظر ساعته.. غير أن هذا كله كان عبثاً. فقد شعر في كثير من الأحيان بهذا الضعف من قبل، فلا يلبث أن يزول. الحياة سلسلة من الأشياء المؤلمة التي تزول، ما عدا شيئاً واحداً أخيراً لا يزول.

بذل برونو جهداً ليحبس دموعه. عمل غريب، هذه المحاولة للحيلولة دون انسكاب الدموع، بهذا حدث نفسه في جهد جهيد. إنها تعيش في مكانٍ ما وراء عيونك، وتستطيع أن تحس بها وهي تتحرك هناك كالحيوانات. ثم يعقب ذلك اللذة الواهنة المنهزمة بتصاعد المد الدافىء، الماء الذي يسيل على الخدود. كانت الدموع نوعاً من الراحة الخفيفة. حرك يده بصعوبة ولمس وجنته ووضع إصبعه المالح على شفتيه. وخطر له: لعلني لن أرى مايلز بعد كل هذا. وكان ابنه يتراءى له الآن على أنه صورة الموت. وما فتىء قلبه يتعثر في خفقانه. وما هذه الضجة؟ ضجة منقطعة ذات طنين، كأنها منبعثة من آلة. وأصغى برونو دون أن يتمكن من التحديد: هل كان الصوت مرتفعاً بعيداً. أم كان خافتاً قريباً؟ ثم تعرَّف عليه. كان صوت ذبابة تناضل داخل نسيج عنكبوت. من المحتمل أنها وقعت في نسيج عنكبوت ضخم من فصيلة Tegenaria atrica كان برونو يشعر بحضورة الودود في ركن مرتفع من السقف فترة من الزمن. واستمرت انتفاضات الطنين اليائسة، وتقاصرت، وأخيراً توقفت. وعاد

twitter @baghdad_library

الرعب إلى برونو. زمن الكفن. ثم شرع في النداء مرة أخرى.

«نايجل!»

انفتح الباب في رفق: «هس، هس، سوف توقظ دينبي». وأضاء نايجل النور وهو عند الباب، واتجه صوب المنضدة بجوار النافذة، فاضاء الأباجورة ذات الغطاء الأخضر الداكن، ثم أطفأ النور الرئيسي.

رقد برونو ضعيفاً مسترخياً بارتياح. «أيمكنك أن تضع الأباجورة إلى جواري، يا نايجل؟ يا عزيزي، يبدو أنني تعثرت في كوب الماء المعد لي. أتستطيع أن تمسحه؟ أرجو ألا يكون قد تسرب إلى الكتب».

ـ «أتشعر بشيء غريب؟»

«أنا بخير. كل ما في الأمر أنني شعرت بالخوف. وأصابني تقلص رهيب في قدمي اليسرى. أيمكنك الإمساك بها، أمسكها بشدة، هذا رائع».

وقبض نايجل بيديه القويتين الدافئتين على القدم المصابة، فزال الألم في الحال.

ـ «شكراً لك، لقد ولّى. آسف لإيقاظك».

ـ «كنت مستيقظاً على كل حال».

ـ «نايجل، أيمكنك أن تحركني قليلاً، أريد أن أتأكد من أنني ما زلت استطيع إخراج ساقيّ».

وفي بطء شديد اتجه برونو إلى حافة السرير، وهو يدفع بيديه جاهداً، بينما رفعه نايجل واضعاً يداً من يديه تحت كل ذراع. وأزاح نايجل الملاءات على حين كان برونو يناور على مهل شديد للوصول بساقيه إلى حافة السرير. وبدا الحال على ما يرام.

ـ «أتريد أن تذهب؟»

ـ «كلا. أردت أن أتأكد فحسب من أنني أستطيع. فقد شعرت منذ لحظة بأنني في غاية من الضعف. حلمت حلماً مزعجاً. . والآن، كل شيء على ما يرام. نايجل، ألا يزعجك أن تبقى معي فترة قصيرة حتى أشعر بأنني أحسن، حالاً؟ ألا تجلس إلى جانبي؟».

ـ «بكل تأكيد».

وسحب نايجل المقعد إلى جانب سرير برونو. وجَمَع يدي برونو اللتين كانتا مبعثرتين على اللحاف على هيئة العنكبوت، وجعل يضمهما بين راحتيه. هذه الحركة من الضم والتدليك القوي حتى أطراف الأصابع كانت تُشْعر برونو بالاسترخاء. ولعلها كانت تخفف من آلام الروماتيزم في مفاصله.

كانا يتحدثان بصوت هامس.

ـ «لماذا تعطف عليّ كل هذا العطف، يا نايجل. أنا أعرف أنني فظيع. ولن يحاول أحد أن يلمسني سواك. أتُراك تميت الجسد؟»

ـ «لا تكن أحمق».

ـ «أنا أُثقل عليك».

ـ «وأنا أعيش لكي يُثْقل عليّ».

ـ «أنت شخص غريب الأطوار، يا نايجل. أنت تقوم بالعبادة، وأنت تؤمن به».

«أومن به. أجل».

قال برونو: «من الغريب أن يلاحظ المرء كيف يتطور. عندما كنت صغيراً جداً كنت أعتقد أن الاله خواء رحب عظيم، أشبه بالسماء، أو لعله كان السماء في واقع الأمر، كله ود وحماية وإعزاز للأطفال الصغار. وأستطيع أن أتذكر كيف كانت أمي تشير إلى أعلى، باصبعها تشير إلى أعلى، وحينئذ أشعر بإحساس بديع من الأمان والسعادة. أبداً لم أفكر

twitter @baghdad_library

كثيراً في السيد المسيح، وأعتقد أنني كنت آخذه على أنه شيء مفروغ منه. كانت بيضة السماء الخاوية الضخمة هي التي أحبها والتي أشعر معها بالأمان والحب. ومضيت بإحساس من يعيش في شيء ملفوف. لعلني شعرت بأنني داخل البيضة. واختلف الأمر فيما بعد، وكان ذلك عندما بدأت أنظر لأول مرة إلى العناكب. أتعلم يا نايجل أن هناك عنكبوتاً يسمى أموروبيوس Amaurobius، وهو يعيش في جحر، وينجب صغاره في أواخر الصيف، ثم يموت عندما يبدأ الصقيع، وتحيا العناكب الصغيرة في هذا البرد بأن تلتهم جثة أمها. لا يستطيع المرء أن يعتقد أن هذا حدث عارض. ولا أعرف أنني تخيّلت الاله وقد فكَّر في هذه المسألة تماماً، ولكنه يرتبط بهذا النموذج على نحو ما. بل كان هو النموذج، كان هو تلك العناكب التي أراقبها في ضوء مصباحي الكهربائي الصغير في ليالي الصيف. كانت هناك روعة، انفصال، كان شيئاً إلهياً أن تشاهد تلك العناكب تعيش حياتها غير المألوفة. وفيما بعد، في سن المراهقة، اختلط كل شيء بالعاطفة. اعتقدت أن الاله هو الحب، حب هائل شامل يشبع العالم بقبلات ضخمة رطبة، ويجعل كل شيء في موضعه. أحسست بنفسي أتحول، أتطهَّر، أُمَجَّد. ولم أكن قد فكّرت في البراءة من قبل أبداً، ولكنني خبرتها بعد ذلك. كنت شاباً مُشرق النفس. وكنت متأثراً بنفسي تأثراً عميقاً. أحببت الله، وقعت في غرام الله؛ وكان العالم منعماً بسلطان الحب. كان نصيبي من الله كبيراً في تلك الفترة، وقَلّ هذا النصيب بعدئذ، وأصبح أشد جفافاً وتضاؤلاً حتى صار أشبه بموظف حكومي يضع القواعد. وكان عليّ أن أراقب خطوي معه. كان نوعاً من البيروقراطي الذي يضع معوقات ومعوقات مضادة. ولم يعد ثمة وجود للبراءة أو الاشراق حينذاك. وتوقفت عن حبه، وبدأت أراه باعثاً على الكآبة. . ثم انسحب تماماً. أصبح أشبه بشيء تفعله المرأة، نوعاً من النشاط النسائي،

وإن كنت ألقاه من حين إلى آخر في الكنائس الريفية عندما أكون بمفردي، وفجأة يكون هناك. وفي تلك الاجتماعات، كان قد طرأ عليه اختلاف آخر. لم يكن موظفاً رسمياً كما كان من قبل، كان بالأحرى شيئاً ضائعاً مثيراً للشفقة، وأحسست بالحزن عليه. ولو كان في استطاعتي أن آخذ بيده لكان الأمر أشبه بقيادة طفل صغير. ومع ذلك كانت له أمكنته الخاصة، ومكامنه، وجحوره، وما زال هناك ضرب من المفاجأة في العثور عليه. ومع مضيّ الزمان، اختفى مرة أخرى، لم يكن شيئاً سوى خرافة عقلية، افتراض قديم، قطعة من الأدب».

ران الصمت على الحجرة. وألقى المصباح الأخضر نوراً معتماً. وكف نايجل عن تدليك يدي برونو، وجلس محملقاً فيه، وقد لف ساقيه الطويلتين حول حافة المقعد كأنهما خطّافان. وكانت عينا نايجل مستديرتين شاردتين وثغره ذو الشفتين الرفيعتين ظل مفتوحاً حيث كان يمضغ طرّف خصلة من شعره الفاحم. كان يبدو كأنه شريحة من كائن بشري. وكان يغمغم في خفوت ليبينّ أنه يفهم ما يقوله برونو.

مضى برونو قائلاً: «من الغريب أن هناك أناساً يتحدث المرء معهم دائماً عن الجنس، وأناساً يتحدث المرء معهم عن الله. وأنا أتحدث إليك دائماً عن الله. قد لا يفهم الآخرون ما أقول».

وزمجر نايجل.

- «من أي شيء صُنع الإله، نايجل؟»

- «لماذا لا تكون العناكب؟ كانت العناكب فكرة جيدة».

- «كانت العناكب فكرة جيدة. غير أنني لا أملك الأعصاب، ولا الشجاعة للوقوف عندها. ولعل هذا هو حيثما بدأ كل شيء».

- «ليس من المهم إطلاقاً من أي شيء صنع الإله».

twitter @baghdad_library

ـ «ربما كان الإله جنساً كله. الطاقة كلها جنس. ماذا تعتقد، يا نايجل؟»

ـ «لا أهمية لهذا لو كان كله جنساً».

ـ «لو كان كله جنساً، فكيف يمكن أن نصل إلى الخلاص».

ـ «لا أهمية إن نجونا أو لم نَنْجُ».

قال برونو: «لا حيلة لي في ذلك. أريد أن أنجو. أتحبه يا نايجل؟»

ـ «أجل، أحبه».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأنه يجعلني أتعذب».

ـ «ولماذا تحبه من أجل هذا؟».

ـ «إنني أحرث المعاناة».

وبعد فترة من الصمت قال برونو: «أظن أن المرء يشبه ما يحبه. أو أن المرء يحب ما يشبهه. الآلهة جميعاً آلهة خصوصيون. هل تصلّي يا نايجل؟»

ـ «أنا أتعبد، والصلاة هي العبادة. أن يشعر الإنسان بأن الله أعدمه».

ـ «أتعتقد أن من واجب المرء أن يعبد شيئاً؟»

ـ «أجل. غير أن العبادة الحقة تقتضي الانتظار، إذا انتظرت، فسوف يأتي، ويجدك».

وواصل برونو حديثه قائلاً: «لم أتوغل كثيراً في طلب المعاناة. ولكنني لن أنزعج الآن إذا شعرت بأن لذلك أي معنى، وكأنما يشتري المرء ما اقترفه من أخطاء. يستغرق المرء الأبدية كلها في العذاب في مقابل الموت في أي يوم».

«أظن أن الموت لا بد أن يكون شيئاً جميلاً، شيئاً يمكن للمرء أن يحبه».

ـ «أنت شاب، يا نايجل. وليس في وسعك أن ترى الموت».

ـ «عندما أفكر في الموت، أفكر في نشوة جنسية سوداء بلون الكهرمان الفاحم».

ـ «ليس المـوت كذلـك، ليس كذلـك عـلى الإطلاق». وتسـاءل بـرونـو إن كـان يستطيـع أن يخبر نـايجل بـالكفن، ولكنه قـرر ألا يفعل. وأضـاف قائلاً: «سأرى ابني. وسيصفح كلٌّ منا عن الآخر».

ـ «هذا جميل».

هل سيكون جميلاً، شيئاً ذهبياً، كاملاً متحققاً؟ أما زال هناك شيء يمكن أن يتحقق؟

ـ «إنك تفهم كل شيء تقريباً، يا نايجل».

ـ «أنا أحب كل شيء».

ـ «ولكنك لا تفهم شيئاً عن الموت. أتعرف فيمَ أفكِّر؟» قال برونو ذلـك وهو يحملق بمشقة إلى العبـاءة في ذلك الضـوء الشاحب. «أظن أن الله هـو الموت. هذه هي المسألة. الله هو الموت».

twitter @baghdad_library

(١٢)

أغلق دينبي بـاب حجرة الجلوس ذات المـروحة الـدائرة خلفـه وأستنـد إليه، وقلبه خافق كأنه مطرقة تعمل بالبخار.

وكانت ديانا تقف متوترة منتصبة على مقربة من النوافذ الفرنسية الطراز. وأخذ كل منهما يتفرس في الآخر دون ابتسام.

وكانت المسافة بينهما فضاءً هوائياً شاسعاً ممغنطاً، تحرك فيه دينبى متئـداً، وهو يدفع بقدميه المقاعـد المستديـرة الصغيرة المكسـوّة بالكـريتون بعيـداً عن طريقه. ووقفت ديانا متصلبة. وعندما أصبح منها على بُعْـد ياردة واحـدة، توقف مرة أخرى.

وفي تمهـل شديـد اقـترب منهـا بـاسـطاً ذراعيـه، لا في حـركـة من يـريـد احتضانها، بل في حركة متـوسلة، أو لعلها حـركة إضفـاء البركة. وهبطت الأيـدي المباركـة، وهي ترسم مـلامح جسـدها، عـلى بُعـد قـدم واحـدة. وبتنهيـدة شديـدة العمق وضع يـديـه وراءه.. خـطوة أخـرى إلى الأمـام، وتلمس سـترته صدرها لمساً خفيفاً. ومالت برأسها متمهلة إلى الوراء، بينما ظلت يداه وراء ظهره ـ لثمها على شفتيها. وبقيا بـلا حراك فـترة من الزمن: العيون مغمضة، والشفاه ملتصقة بالشفاه.

قال دينبى: «ميتافيزيقا القُبل»، طوقها الآن بذراعيـه، وهو يقبّـل عنقها

النحيل، ويتحسس بيديه في بطء شديد ظهرها بطوله. أية هشاشة ومرونة في العنق الإنساني! وكان يستطيع أن يشعر بآلام قلبها الذي يخفق بشدة ملاصقاً لقلبه.

ـ «لقد جعلت من هذا كله احتفالاً.»

ـ «المرة الأولى التي أقبلك فيها جديرة باحتفال.. هذه هي الأولى من آلاف.»

ـ «أو الأولى من عدد قليل. من يدري؟»

ـ «ماذا أقول؟ من ملايين.»

وما برحت يداها متدليتين إلى جانبها.

ـ «إنني نصير قوى العزم، على درجة رفيعة من التنظيم من أنصار مذهب اللذة، يا ديانا.».

ـ «لسنا حبيبين.»

ـ «بل نحن كذلك.. على نحو يتلاءم مع سننا المتقدمة.»

ـ «ألم تُصبح سوْرة الدم مستأنسة؟»

ـ «لا أشعر مطلقاً بأنني مستأنس، يا عزيزتي. ماذا في ذلك؟»

ـ «لقد أخبرتك. إنني أحب زوجي.»

ـ «إذن، فقد كانت تلك قبلة لطيفة طيبة من فتاة تحب زوجها. تعالي، كوني رياضية، وطوقيني بذراعيك. أو إذا كنت لا تقدرين على ذلك، على الأقل، اسخري مني!»

ـ «عزيزي، عزيزي، عزيزي دينبى. يا إلهي، أنت لطيف!»

وضحكا معاً. ثم طوقته بذراعيها، ودفنت رأسها بعنف في كتف سترته.

وحاول دينبى أن يرفع رأسها. فأمسك بشعرها وسحبه إلى الخلف، ثم قبّلها مرة أخرى: «رقم اثنان. فلنجلس، أليس كذلك؟»

وكانت هناك وسادة صغيرة منتفخة مزينة بشرّابات مستندة إلى الجدار.

twitter @baghdad_library

والمكان لا يتسع إلا الاثنين. وأخذت شمس الأصيل الصافية الباردة تتسلل إلى الحجرة. «رقم ثلاثة.»

قالت ديانا «ما كان ينبغي عليّ أن أدعك تأتي إلى هنا.» وكانت الآن مسترخية في أحضانه، وقد أخذت تزيح شعره الأبيض عن وجهه.

ـ «ولكنك فعلت ذلك لأنك تريدين أن تريني.»

ـ «أخشى أنني كنت أود كثيراً أن أراك.»

ـ «ما أحلى ذلك!»

ـ «غير أن هذا كله شيء مضحك يا دينبي، هذا هو نوع الجدل الذي ينتهي بالفراش...»

ـ «ما أحلى ذلك!»

ـ «كل ما في الأمر أنه ليس المكان الذي نذهب إليه الآن».

ـ «سنرى. لا داعي للعجلة. لم أقبلك سوى ثلاث مرات فحسب... وها هي رقم أربعة في الطريق.»

وشرع دينبي في فك أزرار الجزء الأمامي من ثوبها. وتدخلت يدها لحظة في محاولة لإيقافه، ثم لم تلبث أن استسلمت. ودس يده من خلال المشد الأبيض ليغطي بها نهدها الأيسر. وتوقفا عن الحركة، وكل منهما يحملق في الآخر بعينين واسعتين خاويتين.

وما هي إلا لحظة حتى ناضلت ديانا للنهوض. ولكنها لم تسوِّ ثوبها بل تركته مفتوحاً. «دعنا نحاول الحديث بالعقل. حدثني عن نفسك. قلت كانت هناك فتاة ذهبت إلى استراليا. متى حدث هذا؟»

ـ «منذ أربعة أعوام تقريباً.»

ـ «وكم من الوقت عشتما معاً؟»

ـ «أعوام ثلاثة»

ـ «ماذا كان اسمها؟»

ـ «ليندا»

ـ «ألم تفكر في الزواج منها؟»

ـ «كلا.»

ـ «وما السبب؟»

وأخذ دينبي يفكِّر. كان قد نقل يده من وضعها الأول الرائع، وشرع يحركها إلى أعلى قليلاً وهي تحت التنورة. وكانت ترتدي ثوباً مختلفاً، أكثر أناقة، نوعاً من الحرير الرقيق وبأزرار من أوله إلى آخره. مريح. «لم تكن تريده. كما كنت أعتقد أنني لن أستطيع الزواج مرة أخرى.»

ـ «بعد... جوين؟»

ـ «بعد جوين.»

وتنهَّدت ديانا: «وكانت ليندا تهتمّ بقصّتك مع جوين؟»

ـ «لم تكن ليندا تعبأ بأي شخص. كانت فتاة مرحة.»

ـ أتراني كذلك! وكنت بمفردك منذ ذلك الحين؟»

ـ «كنت بمفردي منذ ذلك الحين.» ولم يكن دينبي يشعر بأنه يكذب تماماً. أو لعله يكذب على نحو ما. فعندما سألته ديانا ذلك السؤال في قاعة الرقص كان قد نبذ أديليد في الحال، مؤقتاً بالطبع. وكان يستطيع بالطبع أن يرعى أديليد بطريقة أو بأخرى، أما ديانا فكانت مفاجأة ساحرة. وعلى المرء أنه يرى ما حدث، وألا يساوره القلق أثناء ذلك. ولم يكن هناك ما يدعو إلى مصارحة ديانا بكل شيء منذ البداية.

كان دينبي يلعب دوره بوصفه مغرراً مُصِرّاً وكأنه يحلم. إذ لم يكن واثقاً في واقع الأمر فيما يريده بالضبط من ديانا. كان يريد أن يذهب معها إلى الفراش، وهذا شيء واضح وضوحاً لا مزيد عليه، على نحو كان بعيداً كل البعد عن التأملات الميتافيزيقية. ولكن، إلى أي حد يمكن أن تنجح هذه العلاقة، فأمر لم يفكر فيه أو حتى لم يضعه موضع النظر. ولهذا كان

twitter @baghdad_library

مشـوشاً، بـل يكاد يكـون سلبياً، لا يتخـذ أية خـطوة إلا إذا شعر بـدافـع مسيطر لأخذهـا، كما كـان قد شعـر هذا الصباح بدافـع طاغٍ يـدفعه لأن يتصل هاتفياً بديانا، وأن يطلب منها الالتقاء به.

لم يكن دينبي يشعـر بأي وخـز في الضمير ـ بـوجه عـام ـ من مضاجعتـه زوجـات الآخرين، وإن لم يفعـل ذلك ـ في الـواقع ـ إلا نـادراً. وكان يشعـر بأنه لا ينبغي عـلى المرء أن يسبب آلامـاً للآخـرين، غير أن عـلاقة غـرامية تدور في الخفاء وبحكمة لن تسبب آلاماً، وقـد تتمخض عن قدر كبـير من السعادة، سعادة جديدة، مجـانية، خـارجة عـلى المألـوف. وهذا الإحسـاس بالخروج على المألوف، والتخلص من حياة رتيبة بالية، كان هذا هو ما يسره ويجعله يشعر بأنه صانع للمعروف حقـاً. وقد أسـدى المعروف أيضـاً للبندا وأديليـد. فلماذا لا يكون صـانعاً للمعـروف أيضاً لـديانـا التي ظهرت كـل الدلائل التي تشير إلى أنها زوجة في منتصف العمر تعاني من الضجر وتتعلق بحبل طرفه سائب. وكان من الواضح أنها تبغي رؤيته بإلحاح مـرة أخرى. أما فيما يتعلق بأديليد، فقد يجد طـريقه يـوفق فيها بينهـما، وعلى أي حـال، كانت مثل هـذه الأفكار سـابقة لأوانها. فقـد لا يفعل مـع ديانـا شيئاً عـلى الإطـلاق، وإذا فعل فـربما ألفى نفسـه غارقـاً في حبها أكـثر ممـا هـو الآن. وعنـدئذ سـوف يتصـدى لهـذه المشكـلات عنـد نشـأتهـا، وفي تلك الأثنـاء، كانت فكرة استغفال مايلز ـ التي لم تكن غائبة عن ذهنـه ـ فكرة ظـريفة إلى حد كبير. لم يكن ليحصل على شيء من مايلز، وها هي ذي طـريقة لـطيفة لتسجيل تعاون مايلز الكريم، دون علمه.

قـالت ديانـا: «لكل عـلاقة غـرامية بـداية ووسط ونهايـة». وكانت قـد قبضت على يده الباحثة.

ـ «فليكن، دعينا نجعل لهذه بداية على كل حال.»

ـ «النساء يردن الأشياء إلى الأبد.»

ـ «للنساء عادة مثيرة في الكلام بألفاظ عامة. متى وأين نبدأ؟»
كانت هنا صعوبة بالطبع، وكان يؤثر ألا يكون منزل مايلز ساحة لعمله. غير أن منزله كان مشغولاً دائماً بأديليد.
ـ «لا أريد أن أتورط معك، يا دينبي. لقد أصبحت معجبة بك إعجاباًشديداً. وأنت تجعلني أشعر بالسعادة ـ»
ـ «ما أجمله من قول!»
ـ «وأود أن تدوم هذه السعادة. لا أن يفسدها ما ـ أستطيع أن أمسك بك ـ في صداقة رومانسية ـ دعني أحاول.»
ـ «إن ما ترددين تسميته بالصداقة يبدو لي أشبه بتبديد شرير وقلة أدب للآلهة. اعترفي بأنك تدهشين نفسك، يا ديانا فقد سارت العلاقة بيننا سيراً جميلاً، أليس كذلك؟ هذا شيء لا يحدث كثيراً كما تعلمين.»
كان دينبي متأثراً حقاً بهذا اليسر اللذيذ الغريب الذي أحاط باتصالهما، وكأنه مسرحية مرتجلة اتخذت شكلاً منزَّهاً عن العيوب. وكان يستمتع بهذا الجدل استمتاعاً شديداً. وكان قد نسي تماماً ما تحمله مغازلة امرأة ذكية من متعة.
ـ «إذن، فأنا أريدك كصديق، كشيء عزيز في حياتي، بلا دراما، مجرد أن تكون دائماً هناك...»
ـ أستطيع أن أكون شيئاً عزيزاً في حياتك وأن أكون في الوقت نفسه عاشقك. هذا أفضل، على ما أظن.»
ـ «كلا. هذا معناه البدء في الدراما.. وسأفقدك.»
ـ «لاحظت على الأقل أنك انتقلت من الجملة الشرطية إلى زمن المستقبل!»
ـ «لا، لا، أنا لا أعني..»
ـ «على كل حال، أنا لا أرى اختلافاً كبيراً بين ما نفعله الآن وبين الذهاب إلى الفراش.»

twitter @baghdad_library

ـ «الرجال يقولون هذا دائماً. أنت تعرف أن هناك اختلافاً.»
ـ «لا أظنك تقترحين أن نلتقي دون أن يلمس أحدنا الآخر؟»
ـ «كلا. فأنا أريد أن ألمسك، أن أقبلك. ولا شيء أكثر من ذلك. فليكن، أريد المزيد، ولكن سيكون ذلك جنوناً.»
ـ «فليكن جنوناً إذن. أنا أعرف ما أريد. كل هذه الملامسة والتقبيل سيدفعني إلى الجنون.»
ـ يا إلهي! كنت أظن أنه من الأفضل ألا أراك بتاتاً...»
ـ «تعالي، تعالي... لقد مضيت فعلاً إلى أبعد مما تتصورين، يا ديانا.. أنت من أنصار مذهب اللذة، مثلي تماماً. ولا تستطيعين أن تحرمي نفسك مني الآن بعد أن ظفرت بي. أتستطيعين الآن؟»

وتطلّعت إلى النافذة المشمسة الباردة، ثم نظرت إليه متمهلة: «كلا». ودست ذراعيها تحت ذراعيه، وعانقته بعنف. ونظر دينبي إلى الشعر الذهبي المفضض، المتراكم فوق كمه. فاحتضنها بشدة، وحاول ـ باحثاً بذقنه ـ أن يعثر على ثغرها. «رقم...»

وأدرك دينبي أنه كان يحملق مباشرة ـ فوق رأس ديانا المستسلم ـ إلى عيني فتاة نحيلة فاحمة الشعر، كانت تقف ناظرة في شيء من الذهول إلى مدخل الحجرة.

تخلى عن ديانا، وهو يقرص ذراعيها بخفة، وسعل. فرفعت ديانا رأسها ببطء، ونظرت وراءها، ثم شرعت بهدوء شديد في تسوية ثوبها، وما زالت عيناها شاردتين وفي شيء قليل من اليأس.

ـ «أنا شديدة الأسف!» قالت الفتاة هذه العبارة وهي ما برحت واقفة في مدخل الحجرة ـ بصوت متعجل مقتضب إلى حد ما. واستدارت كأنما تهم بالذهاب، وما برحت مترددة.
ـ قالت ديانا: «لا تذهبي». ونهضت، فقام دينبي أيضاً.

ـ «دينبى، هذه أختي، ليزا ووتكين. وهذا دينبي أوديل.»

ـ «أهلاً..» وترددت الفتاة، ثم مدَّت يدها، وقبضت على يده قبضة ساحقة.

ـ قال دينبى لديانا: «أهلاً. لم أكن أعلم أن لك أختاً» وهو يجاهد ليجعل الموقف يبدو كأنه محادثة.

أما ليزا التي ضغطت الآن بيدها على قلبها، فقد كان يبدو عليها أن صدمتها واضطرابها من هذا اللقاء كانا أشد عليها مما كانا على ديانا. وأخذت تنظر في قلق إلى أختها. وفجأة، ابتسمت الأختان، وكشفت هذه الإبتسامة عن تشابه عابر بينهما. غير أن ابتسامة ديانا كانت على شيء من الكسل والاتجاه إلى الداخل، على حين كانت ابتسامة ليزا أكثر اتجاهاً إلى الخارج، وكأنها مظهر حيواني بسيط.

«إذن، سأنصرف، إلى الطابق الأعلى.» وأتت ليزا بحركة سريعة مرتبكة، كشخص يضرب ذبابة، ثم مرقت من الباب دون أن تنظر لدينبي. وأُغْلِقِ الباب، وتخافت وقع الخطوات.

قال دينبي: «ياإلهي»

فقالت ديانا وهي تبتسم ابتسامة واهنة: «كل شيء على ما يرام.»

ووقف الاثنان ـ بعد أن أنفصل أحدهما عن الآخر، متصلبين، متجمدين في تلك اللحظة.

ـ «هل ستخبر مايلز؟»

ـ «كلا. سأخبر مايلز بأنك قمت بالزيارة.»

ـ «دون تفاصيل، على ما أرجو؟»

ـ «دون تفاصيل.»

ـ «من الأفضل اختلاق ذريعة. قولي إنني قمت بهذه الزيارة لتعديل الموعد من الحادية عشرة والنصف غدا إلى الحادية عشرة. أأنت واثقة من أنها لن تنبىء مايلز؟»

twitter @baghdad_library

ـ «بالطبع واثقة. إنها شديدة الكتمان. وهي كاملة.»
ـ «لا تشبهك كثيراً. أهي مريضة؟»
ـ «كلا. كانت مريضة. وهي الآن بخير تماماً.»
ـ «أخت جميلة، وأخرى دميمة.»
ـ «ليزا حلوة التقاطيع حقاً، ولكن عليك أن تعرفها.»
ـ «بكم من الأعوام تكبرك؟»
ـ «إنها أصغر مني بأربعة أعوام.»
ـ «ولكنها، لا تبدو كذلك. أهي في زيارة لكما؟»
ـ «كلا، إنها تقيم هنا.»
ـ يا للجحيم! كيف سنقوم بتدبير أمورنا؟»
ـ «من قال إن هناك أموراً تحتاج إلى تدبير؟»
ـ «لا تبدأي هذا مرة أخرى. انظري، يا حبيبتي. أظن أنه ينبغي أن أذهب الآن. إن ظهور الأخت ليزا وضع إصبعاً بارداً عليَّ. ولكننا سوف نلتقي في أسرع وقت، أليس كذلك؟ ولا تحزمي أمرك على شيء، لا داعي للقلق. سنرى كيف تتمخص الأشياء. ولكن ينبغي أن نلتقي، أليس كذلك؟»
ـ «أجل، يا دينبي، أظن أنه لا بد من ذلك.»

ونظرت بعيداً عنه إلى الحديقة الصغيرة الخضراء التي بدأت ترتجف قليلاً في غبش المساء.
ـ «لا تبدي كل هذا الحزن من أجل هذا، يا حلوتي. ستتصلين بي هاتفياً في المطابع يوم الاثنين، فإن لم تتصلي، فسأتصل بك.»
ـ «سأتصل.»
ـ «رقم... لم أعد أستطيع حسابها فعلاً.».

وبقيت إلى جوار النافذة الفرنسية، وقد تدلت ذراعاها، كما رآها أول

مرة، ثم انحنت ببطء صوب الحديقة، وأسندت رأسها إلى الزجاج. وانصرف دينبي من الباب الأمامي. وما كاد يستدير سائراً صوب طريق «أولد برومتون» حتى تطلّع ببصره، فشاهد هيئة شخص عند نافذة في الطابق العلوي، ووجها شاحباً يحدِّق إليه. وانسحب ذلك الشخص مسرعاً. وهنا عاد إلى دينبي ذلك الإحساس بالبرودة القارصة، بالإصبع البارد يوضع فوق قلبه. وكانت تذكرةٍ بشخص ما.

twitter @baghdad_library

(١٣)

«إنه **لقوّاد**، ناظر المحطة!».

توقف مايلز خارج المنزل ساخطاً. إلى سمعه تناهى صوت دينبي رافعاً عقيرته بالغناء في الداخل. استولى على مايلز طيلة هذا الصباح ـ شعور بأنه ذاهب إلى جنازة؛ وكان يرتدي ما يناسب هذه الجنازة. وأحس أن ما به يزيد عن كونه مريضاً مرضاً خفيفاً. وكان يتذوق ما في فعلته هذه ـ أعني الإقدام على زيارة أبيه ـ من إجلال، وودَّ لو يعترف كل من يعنيهم الأمر بهذا الإجلال ويحترمونه. وبَسَط من التكشيرة التي غشيت وجهه، ودق الجرس.

ـ «إنه **لقوّاد**، ناظر المحطة!».

وفتح دينبي الباب وهو ما زال يغني.

ـ «إذن، فقد جئت، طيب، أدخل، أديليد، قابلي السيد الصغير. هذا هو مايلز جرينسليف. أديليد دو كريسي».

وأومأت إليه برأسها امرأة شابة منشغلة ذات شعر كستنائي غزير، ترتدي «أوڤرأول» (عفريتة) بمربعات زرقاء وخضراء، ولم تلبث أن اختفت وراء السلالم.

قال دينبي شارحاً: «أديليد الوصيفة. لا أظن أنك تريد الصعود إليه مباشرة؟ وأعتقد أنه من الأفضل أن نتحدث أولاً. أتريد شيئاً من القهوة؟ أديليد! القهوة!».

قال مايلز: «لا أريد أية قهوة، شكراً لك».

ـ «أديليد! لا داعي للقهوة!».

واقتاده دينبي من خلال باب موصل بضع درجات إلى أسفل، ثم دخل إلى مكان يبدو أنه حجرة نومه الخاصة. «أتود أن تشرب كأساً؟ «الشجاعة الهولندية؟».

ـ «كلا، شكراً لك».

وكَشَّر مايلز الذي لم يقم أبداً بزيارة هذا المنزل القائم في شارع الاستاد Stadium Street ـ كشَّر عن أنفه مستنكراً الرائحة والجو الرطب الذي يشيع في المكان. وكان يبدو أن درجات السلم نفسها مغطاة بقشرة من تربة الأرض أو الطحالب. أو لعلها لم تكن سوى المشمع العتيق. وكانت حجرة دينبي، وإن تكن متسعة الأرجاء ـ تحمل طابعاً رجولياً، وتشيع فيها الفوضى المتقشفة، تميل إلى الظلام: هيكل سرير بأطراف خشبية مضلعة، منضدة للزينة مغطاة بركام يعلوه الغبار من الفُرَش المكسوة بالعاج، وأدوات الحلاقة، ورف مليء بالروايات البوليسية الشعبية الطبعات، والستائر الكريتون الرخيصة الملونة بالزهور أصبحت شفافة بفعل الزمن. والنافذة الواسعة ذات الإطار تكشف عن حديقة صغيرة، بعضها من الأسمنت، والبعض الآخر من التربة الداكنة، تناثر فيها بضع زهرات نادرة من الهندباء البرية. وفوق جدار من قوالب الطوب القاتمة، كانت تطل مدخنة سوداء لا رشاقة فيها من مداخن محطة الطاقة تحيط بها سماء ملبَّدة بسحب لا تعرف الاستقرار. وكان رذاذ من المطر يتساقط في الخارج، والأسمنت المجرور استحال إلى لون رمادي داكن. وأحس مايلز بغتة باكتئاب حاد، ووحشة ذات نوعية جديدة كل الجدة. كان يرهب التجربة كلها، ويهاب قدرتها على التشتيت، على الاستحواذ، على الحط من شأنه. وكان يخشى أن يصيبه الدَّنس.

twitter @baghdad_library

ـ «ألا تريد أن تخلع معطفك؟ تستطيع أديليد أن تجففه في المطبخ».

ـ «كلا، شكراً لك. انظر، ليس ثمة ما يقال أليس كذلك؟ من الأفضل أن أراه، وأُنْهي المسألة».

قال دينبي بصوت خافت: «لم أكن أريد سوى أن أخبرك بـأنك ستجـده وقـد تغيّر كثيـراً. ورأيت من المستحسن أن أحذرك. إن منـظره لم يعد كـما كان من قبل على الإطلاق».

ـ «من الطبيعي أن أتوقع أن يكون قد طعن في السن»

ـ «ليست المسألة مجرد الشيخوخة. على كـل حال سـوف ترى بنفسـك. لن تغضبه، أليس كذلك؟».

ـ «بالطبع، لن أغضبه!».

ـ «إنه رجل عجـوز مسكين. كـل ما يبتغيـه هو أن يتصـالح مـع الناس جميعاً».

ـ «إنه ينتظرني، أليس كذلك؟».

ـ «يا إلهي، طبعاً. كان في لهفة شديدة. ولم يستطع النوم الليلة الماضية. أترى، إنه...».

ـ «هل أستطيع رؤيته الآن، أرجوك؟ لا أشعر بـأنني في مزاج يسمـح لي بالمحادثة».

ـ «أجل. أجل تعالَ معي إذن، آسف...».

وقـاد دينبي مايلز عـائداً عـلى أعقابـه إلى البـاب المـوصـل ثم صـاعـداً بمجموعتين من السلالم. وعلى البسطة الصغيرة المعتمـة فتح دينبي بـابا دون أن يطرقه ومضى إلى الداخل. «إنه هنا، يا برونو». وتبعه مايلز.

وأدرك مـايلز إدراكـاً مشـوشـاً أن دينبي تسلل وراءه مبتعـداً، ثم أغلق الباب. وقف مايلز محملقاً، ثم أمسك عن التنفس ووضع راحته على فمه، وكأنما هبّت عليـه لفحة مبـاغتة من حـرارة الصدمـة والفزع. واسـتطاع أن

يحس بالدم يتصاعد إلى وجهه من أثر الصدمة والخزي. كان برونو قد تغيّر حقاً.

وكان مايلز قد قام بتعديل صورة أبيه. فتخيل شعره الفضي وقد نَحَل، وظهره وقد انحنى قليلاً، والوجه وقد صار، أكثر تجويفاً. ولم يكن الذي واجهه رأس الموت، وإنما رأس حيوان ضخم منتفخ معلق فوق جسم منكمش حتى بدا كالعصا الجافة. وظهر رأس برونو وكأنه تضخّم، والقبة الصلعاء تماماً قد تورمت بحيث برزت فوق أذنين مفلطحتين ناتئتين. والوجه القائم تحت هذه القبة بدلاً من أن يصيبه الهزال، ازداد لحماً. وكان الأنف هائلاً، كومة لا شكل لها من البروزات اللحمية. والشعر الذي لا يشابه الشعر الآدمي قد انتشر عليها، وعلى الخدين، بالإضافة إلى لطع وزوائد أشبه بالطفيليات. وكانت أشد أجزاء الوجه تورماً خاليةً من الغضون، ناعمة متوردة على نحو غريب، وكأنها أجزاء من بشرة طفل. وتحت حاجبين كثيفين، تخرج منهما شعيرات قليلة، ولكنها أطول وأخشن، كأنها قرون الاستشعار ـ تحت هذين الحاجبين تقع عينان مستطيلتان ضيقتان، ولكنهما نيِّرتان سائلتان على نحو غريب. وفي أسفل ساق العنق النحيل يأتي الجسد الضئيل الضيق بحيث تبدو المنامات عليه كالثياب التي تعلق على النواطير ـ مستلقياً على الفراش. والذراعان المليئتان بالبقع، ذواتا العظام الظاهرة، كانتا تتجولان بيدين حادتين معروقتين، على اللحاف.

«مايلز!» وتهدج الصوت مثل صوت شيخ عجوز في مسرحية. «ولدي!».

ـ «أهلاً، بأبي».

ـ «اجلس إلى جانبي، هنا».

وأحس مايلز بغثيان كان في الوقت نفسه رغبةً في البكاء، وكأنما يوشك أن يتقيأ بعض الدموع. وتمنّى ألا يكون مُظهراً لحالة الصدمة التي داهمته.

twitter @baghdad_library

فجلس متيبساً على مقعد إلى جوار السرير. ربما كان من رحمة الله ألا يعرف برونو كيف أصبح شكله. وكانت تفوح من الملاءات المتسخة ومن الرجل العجوز رائحة تثير الغثيان أشبه برائحة أوكار الطيور والحيوان.

ـ «كيف تشعر، يا أبي؟».

«أشعر بأنني على ما يرام في أوقات الصباح، هذا هو أحسن أوقاتي. وفي الأمسيات بعد الساعة السادسة أحياناً، أشعر بالراحة. غير أنني لن أسترد صحتي أبداً، يا مايلز. أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟ لقد أخبروك؟».

ـ «لا عليك، يا أبي. عندما يأتي الجو الدافىء، ستقوم وتتحرك».

ـ «لا تقل هذا. أنت تعرف أن هذا ليس حقاً. . ومن القسوة. . .».

وأصيب مايلز بالفزع حين شاهد دمعتين كبيرتين بلّوريتين تنبثقان من شقّيْ عينيه المبللتين، وتنحدران خلال وهاد الوجه وتضاريسه.

وكان مايلز يتوقع أن يثيره أبوه بطرقه القديمة المألوفة، يتوقع كل شيء أن يكون مألوفاً على نحو يبعث على الحرج والاكتئاب. واعتزم أن يلعب ـ وصوّر لنفسه أنه يلعب ـ نسخة أكثر تهذيباً وتجريداً ـ من دوره القديم. ومن ثم، ربما أصبح الموقف نوعاً من التفاوض في سبيل السلام، عدوَّيْن اجتمعا حول مائدة المؤتمر. وستكون هناك بالطبع كل العواطف والصراعات القديمة، ولكن بصورة مكبوحة، مكتومة. كان يخشى من الانفعالات، ولكنه كان خوفاً مألوفاً. غير أن هذه المحنة كانت شيئاً لم يحلم به. لم يكن لديه من الموارد ما يستطيع به أن يتعامل مع هذا المسخ الذي ما زال أباه دون أدنى شك، والذي يبدو أنه بحاجة إلى الحنان والعطف. فالأب الذي كان يعرفه لم يكن في يوم من الأيام بحاجة إلى الشفقة. وأحس مايلز بالذعر. كان يعوِّل على الوقار، وها هو الوقار يبدو أنه تلاشى من أول وهلة، كاشفاً وراءه عن احتياج صريح رهيب من كائن بشري لكائن آخر، وهو شيء لم يكن مهيئاً لمواجهته على الإطلاق. لقد طرأ تغير رهيب على

برونو. لا يمكن أن يكون متمتعاً بعقله السليم، لا يمكن ذلك، وهو بهذا المنظر. بهذا حَدّث مايلز نفسه.

ـ «أنا ـ آسف، يا أبي. أرجوك لا. . تمزق نفسك. لن أبقى طويلاً».

ـ «كلا، لن تذهب، لن تذهب!» وزحفت نحوه اليدان المبقعتان المعروقتان بمفاصلهما المنتفخة المعقَدة في حركة متشنِّجة.

ـ «كلا، ولكنني لا أريد أن. . أتعبك، يا أبي. . .»

ـ «مايلز، أريد أن أشرح لك كل شيء. لم يبق هناك وقت كثير، وأعرف أنك ستكون عطوفاً، وتصغي إليّ. لا بد أن أفضي بالحكاية كلها، كلها، كلها. جاني لم تفهم، إنها لم تفهم أبداً، وجعلت من المسألة كلها شيئاً سيئاً. أنت تعلم، هذه الفتاة، مورين، كانت تلعب الشطرنج في مقهى. . .».

ـ «أخشى ألا تكون لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه، يا أبتاه».

ـ «كانت تلعب الشطرنج. . .».

ـ «نعم، نعم، بالطبع. أرى أنك على وشك الانفعال. . . من الأفضل أن أنادي على. . .».

ـ «أتعرف هذه المسألة، يا مايلز؟ أتعرف جوين؟ هل أخبرتك جاني عني وعن مورين؟ أوه، لقد كانت شديدة القسوة نحوي. . لم تكن المسألة خطيرة على كل حال، لم تكن حقاً. . .».

ـ «لا أعرف شيئاً عن هذا، يا أبي».

ـ «ألم تخبرك جاني؟ كنت أظن أنها لا بد قد فعلت ذلك. . كنت واثقاً كل الثقة. . فقد كنت جافياً معي كل الجفاء. . وكذلك جوين. . يا إلهي، اصفح عني، يا مايلز. . .».

ـ «حقاً، يا أبي. . .».

ـ «سامحني، سامحني. قل إنك سامحتني».

twitter @baghdad_library

ـ «أجل، طبيعي، بالطبع، ولكن. . .».

ـ «سأخبركم جميعاً بهذا الموضوع، أريد أن أفضي إليكم بكل شيء. كنت على علاقة غرامية بتلك الفتاة مورين. . .».

ـ «حقاً، يا أبي، لا أظن أنه ينبغي عليك أن تخبرني بهذا. . .».

ـ «اعتدت أن أتردد على شقتها. . .».

ـ «لا أريد أن أسمع. . .».

ـ «وقد كذبت على جاني. .».

ـ «لا أريد أن أسمع!».

ـ «كان من الممكن أن أحب بارڤاتي، يا مايلز، كان من الممكن أن أتقبلها وأن أحبها لو أن أحداً جعلني ألتقي بها، ولو أنكم جميعاً أتحتم لي فرصة، لقد حدث كل شيء في سرعة فائقة. . كل ما في الأمر أنني تهورت دون تفكير فقلت شيئاً أحمق، وثبتت المسألة عند هذا الحد بطريقة ما. . . لو أنك منحتني مزيداً قليلاً جداً من الوقت، ولم تغضب كل ذلك الغضب. .».

ـ «أرجوك، يا أبي، كل هذا لا ضرورة له تماماً. ولا أريد التحدث عن بارڤاتي».

ـ «ولكنني أريد، يا مايلز ألا تفهم أنني ظللت أفكر في هذا الموضوع طيلة تلك السنين، وأنه كان يعذبني؟».

ـ «يؤسفني أن أسمع ذلك، ولكنني لا أرى. . .».

ـ «لا بد من أن أنال صفحك. . ولا بد لك من أن تفهم.».

ـ «إن هذا لا يعني أي شيء، يا أبي. وقد ولى هذا كله منذ أمد بعيد».

ـ «لم يولِّ، إنه هنا، إنه هنا. . .».

ـ «لا تثر نفسك، أرجوك».

ـ «كان من الممكن أن أُعجب ببارڤاتي. وكان من الممكن أن أحبها،

وكان من الممكن أن نكون جميعاً سعداء، وأن أحب أطفالك. . أواه، يا مايلز، أطفالك. . . ».

ـ «كف عن هذا، أرجوك».

ـ «ينبغي أن تصفح عني، يا مايلز، اصفح عني كما ينبغي أن يكون الصفح، عندما تفهم المسألة كلها. لو أن بارڤاتي. . . ».

ـ «**لا أريد أن أتحدث عن بارڤاتي**. . لا شأن لك بها. . أرجوك. . ».

وساد الصمت. وانسحب برونو عائداً إلى وسائده. وأخذت يداه تزحفان نحو عنقه، وتوهجت العينان الضيقتان النيّرتان. وجعل يتفرس في ابنه.

ـ «لم تحضر لرؤيتي منذ سنين».

ـ «لم ترد على رسائلي أبداً».

ـ «كانت رسائل كاذبة».

ـ إذن، إذا كنت تشعر يا أبي بأنني غير قادر على رؤية الموضوع. . . »

وكانت ركبتا برونو المدببتان مثنيّتين إلى أعلى نحو صدره، ورأسه الضخم مسترخياً متدلياً على الوسائد عندما اتكأ إلى إحدى يديه محاولاً أن يرفع نفسه. أما وجهه العريض المنتفخ فكان يرتجف. انبعث صوته المتهدج كأنه نافورة من البخار.

ـ «لماذا أتيت إلى هنا لكي تكون بهذه القسوة على رجل عجوز. إنك لم تحبني قط، وإنما كنت تتحيّز دائماً إلى أمك، ولم تقترب مني أبداً، ولم تكن عطوفاً متسامحاً كالأبناء الآخرين، كنت بارداً معي، وما زلت تكرهني الآن، وتتمنى أن أموت، أن أموت وأذهب، مثل كل تلك الأشياء التي تقول عنها إنها لم تعد موجودة بعد. فليكن، سرعان ما أموت، وحينئذ يمكنك أن تنساني وتدفعني، وتتخلص مني إلى الأبد. بل إنك لا تستطيع أن تزعج نفسك حتى الآن فتحاول أن ترى ماذا صرت إليه حقاً. كل ما

twitter @baghdad_library

تراه هو أنني أموت، وتفوح مني رائحة الموت، وأنني فقدت عقلي، ولم أعد سوى كومة من اللحم العفن الفاسد بحيث لا يسعك أن تحمل نفسك على لمسه، ولكن ما زال فيّ نَفَسٌ يتردد يكفي لأن ألعنك...».

- «أبي، أرجوك...».

- «اغرب عن وجهي، اغرب عن وجهي، **اغرب عن وجهي!**».

وتعثرت يد برونو المرتعشة في كوب من الماء كان قائماً على المنضدة المجاورة للسرير فأتى بحركة وكأنه يهم بإمساكه، غير أنه لم يكن يملك من القوة ما يستطيع به رفع الكوب، فانسكب الماء قاتماً على جانب اللحاف، وتحطم الكوب إلى شظايا تناثرت على الأرض. «آآه... دينبي! دينبي!».

وهرول مايلز راجعاً من حيث أتى، فتعثر خلال الباب، وتخبط عبر البسطة المعتمة، وطفق يجري على السلّم إلى الطابق السفلي. وعند القاع اصطدم بدينبي، فقبض دينبي برهةً على معصمه.

«لقد أغضبته، عليك اللعنة! قلت لك ألا تفعل ذلك!».

وتخلص مايلز من قبضته، وعندما كان يخرج من الباب الأمامي، كان يستطيع أن يسمع الصوت الصادر من الطابق الأعلى - وقد استحال الآن إلى صراخ:

«ولن تحصل على الطوابع! لن تحصل على الطوابع!».

وشرع يعدو في الشارع وسط المطر المنهمر. كان ينبغي عليه ألا يأتي أبداً. كان الأمر أشبه بلعنة، وكان أفظع مما يستطيع أن يتخيل. لقد عاد إلى ذلك العالم الرهيب من الغباء والعنف والالتباس وفي هذا العالم تلوث تماماً تماماً.

(١٤)

ـ «هـل نستـطيـع أن نـراه، من فضلك؟ لم نتصـل هـاتفيـاً خـوفـاً من رفضـك». حملق دينبي في المرأتـين. وكان المـطر قد انقـطع، وهنـاك ريـح شرقية تهب خلال سماء رماديـة ملبَّدة بـالدخـان. وكانت المـرأتان تـرتديـان المعاطف وحول رأسيهما وشاحـان. وارتسم القلق على وجهيهـما العريضـين الشاحبين كطيفين في الضـوء الكئيب. وكان معـطف ديانـا منقوشـاً باللونـين الوردي والأبيض على طراز معاطف المهرجين، وكانت تحمل باقة من زهـور النرجس. وبدا الشارع خلفهما خالياً من المارة، وقد اكتسحته الريح.

قـال: «ادخلا. ولكنني لا أظن. . انـظرا ـ من الأفضل أن تـدخـلا إلى حجرتي».

وقادهما عبر القاعة المعتمة، ثم نزل بهما إلى حجـرة نومـه، بعد أن أغلق الباب الموصل. «إنه يسمع كل شيء في الشـطر الآخر من المنـزل. وأفضِّل ألا يسمع شيئاً ـ لطيف جداً منكما أن تأتيا».

وأزاحت ديانا وشاحها إلى الوراء، كاشفـة عن جبينها، وعن خصلة من شعرها اللامع كانت مشدودة إلى الخلف. «مـايلز ثائـر إلى أبعد حـد على مـا حدث أمس».

ـ «اللعنة على مايلز، إن صَحّ لي أن أقول ذلك».

twitter @baghdad_library

ـ «أجل. أنا أعرف، أنا واثقة من أنه كان فظيعاً، يفتقر إلى اللباقة، وما شاكل ذلك. وقال إنه حاول أن يسلك سلوكاً رسمياً بارداً. وكان برونو أميل للعاطفية، ومايلز يمقت العاطفة».

ـ «لم يكن الموقف لا عاطفياً على كل حال. وكان ينبغي على مايلز أن يحاول».

ـ «كان ينوي حقاً أن يحاول، وأعرف أنه فعل ذلك. ولكنه خلص بانطباع أن برونو كان على شيء قليل.. من التشويش».

ـ «برونو ليس مشوَّشاً. ومايلز غبي على نحو لا يخلو من إجرام».

ـ «أَخَذَه كل شيء بغتة، على حين غرة...».

ـ «كان في عجلة ملعونة من أمره. وأردت أن أحيطه علماً بالموقف مقدماً، ولكنه لم يشأ أن يستمع إليّ. كان من واجبي الإصرار».

ـ «ما علينا. هل يمكن أن نرى برونو؟».

ـ «برونو ليس في حالة تسمح برؤيته اليوم».

ـ «أهو ثائر أيضاً؟».

ـ «إنه ليس ثائراً فحسب، ولكنه مريض تماماً. رجل يعاني ما يعانيه برونو من مرض لا يستطيع أن يكون متفلسفاً. وكان ذلك المشهد الأخرق الذي جرى بينه وبين مايلز ضربة قاضية عليه. سأصعد بالزهور إليه. ولكنني أخشى...».

ـ «ألا يمكننا أن نصعد إليه ونراه لحظة؟» وكانت ليزا هي التي تتحدث، ورأسها ما زال متلفِّعاً بالوشاح، وقد استندت إلى الباب، ودست يديها في جيوبها.

ـ «طيب...».

وهنا أرعى دينبي انتباهه لليزا للمرة الأولى. كانت أسمر من أختها كثيراً، وانحف من حيث الوجه. وكانت خصلات من شعرها البني الداكن

تبرز كالأشواك من تحت وشاحها الأصفر الرطب الذي عقدته بإحكام. وكان أنفها المائل قليلاً إلى الطول قد علته حُمرة بتأثير الريح الشرقية.

مضت ليزا قائلة: «أعتقد أن من المهم جداً أن نفعل شيئاً بسرعة قبل أن يستقر كل منهما على فكرة استحالة الاتصال بينهما».

قالت ديانا: «أنا موقنة بأن ليزا على صواب، وهي التي فكرت في المجيء للقيام بهذا النوع من التوسط. وأظن أن برونو ربما.... نريد أن نخبره بأن مايلز آسف... امرأتان...».

وضحك مايلز: «امرأتان.. أنتنّ الفتيات تعتقدن أنكن قادرات على كل شيء. إنكما تتعاملان مع شخص اشتدت به العلة، ورجل عجوز مشاكس إلى أبعد حد. لا تتخيلا أن برونو سيأكل من أيديكما!».

قالت ليزا: «لن نمكث أكثر من لحظة.. لنقدِّم إليه الزهور فحسب ونقول له كلمة. ويستطيع أن يفكر فيها فيما بعد. وقد تمنحه شيئاً ألطف يفكر بشأنه. ولعلها أن تكون فاصلاً بين ما حدث وبين الآن».

وتردد دينبي: «على كل حال، سأذهب وأخبره أنكما هنا. ولكنني أشك في مقابلته لكما. لقد أرهق نفسه في حالة حَقَّة من التعاسة الغاضبة، وأخشى أن يكون تفكيره مشوَّشاً إلى حد ما؛ ليس هذا يوماً من أيامه الحسنة».

- «أرجوك -».

- «فليكن، سأرى. تستطيعان الصعود والانتظار على البسطة. هاللو أديليد. هذه أديليد الوصيفة. السيدة جرينسليف، والآنسة دوتكين».

وصعد دينبي مجموعتي السلالم، ومد رأسه من باب حجرة برونو مستطلعاً. وكانت الحجرة غير المضاءة أشبه بصندوق رمادي صغير معلّق من النافذة، حيث كانت السحب الرمادية المضيئة المتسابقة تتحرك منزلقة نحو القضيب الأسود البارز من برج محطة الطاقة. وكان برونو يجلس

twitter @baghdad_library

معتدلاً متسمراً في سريره في وضع غير عادي بالنسبة إليه: فقد كان يرقد عادة ضاماً أطرافه إلى صدره جيداً داخل البطاطين. وكانت منامته القطنية المخططة خطوطاً حمراء وبيضاء مزرّرة حتى عنقه، وقد تدلت ذراعاه متصلبتين إلى جانبيه داخل البطاطين. أما وجهه فكان منقبضاً بحيث كان من العسير تمييز ملامحه أو رؤية هذه الكتلة البارزة المتكومة من اللحم على أنها جزء من كائن آدمي. ولم يكن نايجل قد حلق له ذقنه منذ يومين محتجاً بأنه «من الصعب الآن اقتحام عرينه»، ولهذا كان الشطر الأسفل من وجهه ورقبته مغطى بفِطْر رمادي. وأشاح دينبي بعينيه: «برونو، زوجة مايلز وأختها هنا».

التفت رأس برونو التفاتة خفيفة وشعر دينبي بأنه منظور إليه.

ـ «من فضلك، مجرد أن. . .» وأحس دينبي بحفيف وراءه خارج الباب، وانبعثت من المعطف الأبيض والوردي قعقعة، وهو يلامس سترته. ولم يقل برونو شيئاً.

فالتفت دينبي نحو الباب وفتحه فتحة أوسع قليلاً، ثم قال:

«ضعي الزهور بسرعة على السرير، واخرجي».

وكان يشعر بالاضطراب والارتباك منذ وصول المرأتين، وكأنما انتابه الخوف بغتة من برونو نيابةً عنهما. وكان ينبغي عليه أن يحذرهما من الهيئة التي كان عليها برونو.

واندفعت ديانا داخل الحجرة، ثم وقفت متصلبة. والتقط دينبي شهقة تنفسها الخافت. وكانت ليزا قد أقبلت عن كثب وراء كتفها، وهي تزيح وشاحها الأصفر. وشاهد دينبي وجهيهما المتجاورين يحدقان بعيون واسعة، العينين العسليتين الفاتحتين؛ والعينين العسليتين الداكنتين. وبعد لحظة انحنت ديانا في عصبية إلى الأمام وبيد ممدودة أسقطت باقة النرجس الملفوفة، وكأنها طفل هزيل جداً ملفوف في قماط ـ فوق قمة قفص القدمين

الناتئة. وبدا الأمر أشبه بزيارة رسمية لضريح تذكاري (يخلو من صاحبه)، غير أن هذا القبر لم يكن خالياً.

وبقيت ديانا متجهة نحو السرير، بعينين شاردتين، على حين بدأت تتحرك نحو الباب مولية له ظهرها، وحاذت ليزا التي كانت قد تنحت جانباً.

قال برونو: «أخبرتني بمن كانت هاتان الفتاتان؟».

وكان لصوته غير المنتظم تلك النغمة الجشّاء الخشنة التي ميزت أيامه الأشد اضطراباً، غير أن قوة السؤال وشدته كان لهما تأثير مباغت.

ـ «لقد حملتا إليك بعض الزهور. وهما. . .».

ـ «من تكونان؟».

ـ «زوجة مايلز وشقيقتها. . .».

ـ «زوجة مايلز وشقيقتها. . .».

ـ «أجل شقيقتها. هاتان السيدتان أختان».

ـ «أختان». وكان للنغمة التي نطق بها برونو هذه الكلمة رنين ثقيل، غريب، خال من المعنى.

قال برونو: «ماذا تريدان؟» وما فتيء يجلس متسمراً معتدلاً، بلا حراك؛ وكان من الصعب أن يرى المرء ما ينظر إليه.

قالت ليزا بتؤدة وبصوت خفيض واضح: «جئنا من طرف مايلز لنقول لك إنه آسف جداً على إغضابك».

وتحرك الرأس الضخم المنبعج حركة طفيفة. «ماذا؟».

ـ «يقول مايلز إنه آسف».

كان برونو يتفرس بلا أدنى شك ـ في ليزا. وبدا أن وجهه أخذ يتضح قليلاً، وأصبح الفم والعينان أشد تحدداً.

ـ «من تكونين؟».

ـ «أنا. . .».

twitter @baghdad_library

قال دينبي: «أظن أن هذا يؤدي الغرض، ويكفي تماماً بوصفه زيارة. ها أنت تظفر بزيارة بديعة من فتاتين رائعتين. هذا لا يحدث كل يوم، أليس كذلك يا برونو؟ تحملان إليك الزهور، وكل شيء. ولكن لا ينبغي علينا أن نرهقك، أليس كذلك؟ الآن نقول لك وداعاً، وها نحن ننصرف».

منذ أن دخلت المرأتان حجرة النوم أحس دينبي بارتباك جثماني شديد يكاد يصل إلى حد المرض. كان ثمة شيء رهيب على نحو مفاجىء في هذا التجاور. لعله ذلك التدفق لشعور جديد بالشفقة بحيث يكاد يكون شعوراً بالخزي، هذه النظرة إلى برونو المسكين من خلال عيون غير مألوفة نظرة إلى الحجرة الرمادية البالية التي تسودها الفوضى، وورق الحائط الملطخ بالبقع، والملاءات القذرة، والشيخ العجوز المحتضر برأسه الممسوخ، والمحبوس في قفص تفوح منه الرائحة الكريهة وتضيئه أشعة الغسق. كان دينبي قد ألف برونو أشد الألفة. هنالك أبصر شخصاً لم يثبّته الزمان. غير أنه كان يريد الآن أن يصحب المرأتين إلى الخارج، وأن يخرج من نفسه هو أيضاً. فتحسس قبضة الباب مرتبكاً، مَدَّ يدا واقية هادية نحو ديانا.

«دينبي، اسكت من أجل السيد المسيح!» وتوقفوا عند مدخل الباب.

«لا تخاطبني وكأنني طفل ينشج بالبكاء! أتريدهما أن تظنّا بي الخرف؟ ما زلت كائناً عاقلاً، ومن ثمّ فلتكن من الاحترام بحيث تخاطبني بوصفي شخصاً من هذا القبيل. اجلسا هنا، أنتِ. أرجوك».

وما برح برونو يرمق ليزا. وسحب في شيء من العناء ـ ذراعاً واحدة خارج الملاءات، وحركها عبر اللحاف ليشير إلى مقعد بجوار السرير، فجلست عليه ليزا.

وأحسَّ دينبي بأن ديانا تَلْكزُه من الخلف. فوثب ملتفتاً عند هذا الاتصال. كانت ديانا تهمس له بشيء، وتتسلل مبتعدة من خلال الباب.

وفي محاولة منه لسحب يده، أمسكت ديانا بإصبع من أصابعه، وجذبته إليها. وسار دينبي في أعقابها متثاقلاً خلال الباب، يعوقه التردد، وأومأ إليها بإشارة مطمْئنة وهي تتحرك صاعدة إلى أعلى السلم، ثم عاد إلى الحجرة، وأغلق الباب مرة أخرى. وكان أريج النرجس يمتزج بزخم الرجل العجوز الشبيه برائحة الكلاب المنبعث من الحجرة. وتناولت ليزا يد برونو.

واستند دينبي إلى الباب وهو ما برح يشعر بذلك الدوار العجيب المضطرب. مم كان يخاف؟ أبصر الآن الشكل الجانبي من وجه ليزا الذي كان الآن قريباً من برونو. أكان يخاف من الرجل العجوز نيابة عنها؟ لم يكن الأمر على هذا النحو تماماً.

- «ألم أسبب لك شيئاً من الإزعاج، يا عزيزتي؟».

- «كلا، بالطبع لا. بل إنني في غاية السرور لرؤيتك».

- «وحَمَلْتِ الزهور إليّ».

- «كلانا فعلنا ذلك، وهي أيضاً من مايلز».

- «مايلز. أنت... بالطبع. مايلز كان قاسياً. قاسياً أشد القسوة على الرجل العجوز».

- «إنه متأسف جداً. كان مضطرباً مشوَّشاً. وهو الآن متأسف. ويرجو أن تسمح له بالمجيء مرة ثانية».

- «قال دينبي إن من الخطأ رؤية مايلز، الأمر كله خطأ. المرء يحتاج إلى قليل من السلام في النهاية. مايلز صائحاً في وجهي، فظيع. ها أنت ترين، لقد حاولت أن أفضي إليه بأشياء، ولكنه لم يشأ أن ينصت إليّ، وقال إنه لا يريد أن يعلم». وكان برونو قد خفض من صوته حتى استحال إلى همسة سرِّية. وكأنما سكتت الحجرة من شدة انتباه الفتاة إليه، وتقارب رأساهما معاً، شيء في غاية الغرابة.

twitter @baghdad_library

«لا ينبغي أن تكـون غاضبـاً على مـايلز بشدة. كـان مجـرد سـوء تفـاهم حقاً».

ـ «قال إن الماضي لم يعد له وجود بعد، ولكنه موجود، أليس كذلك؟».

ـ «إنه بكل تأكيد يؤثر فينا».

ـ «بالضبط. أنت الآن تفهمين».

ـ «لا بد أن تعرف مايلز مرة أخرى. تحدث إليـه عن أشياء عـادية أكـثر من ذلك. وسوف يستغرق هذا شيئاً من الزمن».

ـ «لم يبق كثـير من الوقت، يـا عزيـزتي. . ولم تعد هنـاك أشياء عـادية. الأشياء الأخيرة فحسب. دينبي».

ـ «نعم، يا برونو».

ـ «صب لنا شيئاً من الشمبانيا».

وتنـاول دينبي زجاجـة شمبـانيـا من صفٍّ مـترب عـلى أرضيـة الحجـرة. وهنـاك على المنضـدة كان كـأسان. وشرع في تليـين السدادة. ولم تلبث أن طارت في مرح إلى أعلى ركن في الحجرة، منذرة العنكبوت تاجيناريا آتريكـا Tegenaria atrica الذي غشيه النعاس هناك، وانصبت الشمبانيا المـزبدة كـالشلال في الكـأس. وشاع من هـذه الحركـة المباغتـة شيء من الارتياح. ونـاول الكأس إلى ليـزا التي نـاولتـه بـدورهـا لـبرونـو. ومـلأ دينبي الكـأس الأخرى وقَدَّمها لليزا، واصلاً إليها عبر السرير.

ـ «أنتما الاثنان شاركاني في الكأس. . اشربا معي». وجعل برونو يحتسي الشمبانيا.

أما ليزا التي مـا زالت تمسك بيـد برونـو الأخرى، فقـد أعطت الكـأس لدينبي بابتسامة. وشرب. كان كل شيء يبدو غريباً.

ـ «أمن الممكن أن تضيء المصباح، يا دينبي».

كانت النافذة والسماء المسرعة قد اختفتا. وسطع نور المصباح المظلل على

أنف برونو المُطِل على اللحية الرمادية الكثة التي نمت نمواً مؤلماً من التجاويف العديدة التي هزمت موسى نايجل، وعلى يديْ ليزا الطويلتين وقد رفعت الآن إحداهما لتحرر ما تشابك من شعرها الكثيف الفاحم ـ من الوشاح الذي كان معلَّقاً محلولاً حول عنقها.

ـ «ترين يا عزيزتي أنه عندما تصبحين في سني لن يبقى الكثير سوى أن تتمني أن تكوني محبوبة».

ـ «وأنت محبوب». وتطلعت ليزا إلى دينبي عبر السرير. وكان وجهها متوارياً في العتمة، خارج دائرة النور.

ـ «في سني، تعيشين في ذهنك، في نوع من الحلم».

ـ «أظن أننا سنفعل ذلك جميعاً».

ـ «في النهاية، لن يبقى ما نفعله. سيقتصر الأمر على مجرد التفكير».

ـ «التفكير معناه أننا نفعل شيئاً».

ـ «يتحول المرء إلى مسخ في آخر المطاف. أنا الآن أخيف الناس، وأثير ثائرتهم، ونفورهم، أنا أعرف ذلك. لم أعد أستطيع أن أغير شيئاً من العالم».

ـ «بل تستطيع. تستطيع أن تفكر في أفكار رحيمة، تستطيع أن تبعث برسالة لطيفة إلى مايلز. أبعث برسالة إلى مايلز».

ـ «رسالة... طيب، تستطعين أن تخبريه.. بأنني لم أقصد.. ما قلته في نهاية حديثنا».

ـ «أنا في غاية من السرور».

ـ «أتظنين أنه إذا لعنك الناس كان في ذلك ما يهم؟ ارتكبت شيئاً شنيعاً... كانت زوجتي تموت، ولم أذهب إليها.. وأعتقد أنها لعنتني.. وأردت أن أخبر مايلز بهذا... أترين، كانت هناك تلك الفتاة... وحتى العناكب...».

twitter @baghdad_library

قال دينبي: «كف عن هذا يا برونـو. . أعني أنك تـزداد انفعالاً. وأظن أن هذا يكفي الآن لزيارة واحدة. ولا تكن غاضباً عليّ».

واسترخي برونو، وانكمش قليلاً بـين الوسـائد، وقـد أظهر النـور عينيه الآن، شقينٍ يجري فيهما سائـل قاتم شـديد الحيـوية في الفـوضى التي عليها وجهـه حيث ينفتح فمـه الخالي من الشفتـين وسط اللحية الـرماديـة الكثة.

«فليكن».

«إنه لا يتعاطى الشمبانيا عادة في هذه الساعة المبكرة من النهار».

ـ «ستأتين مرة أخرى، يا عزيزتي، ستأتين وترين الرجل العجوز وتدعينه يفضي إليك بأشياء؟

قالت: «أجل، بالطبع، وسيأتي مايلز أيضاً. وسأخبره بما قلت».

ـ «ماذا قلت؟ فليكن، لا أهمية لذلك. اشربي ثانية. . كلاكما».

وشرب دينبي رشفـة من الشمبانيـا، وناول ليـزا الكأس. فشربت وهي تنظر إليه، ثم أعـادت الكأس، وانحنت صـوب برونـو وهي تربِّت عـلى يده ذات العُقَد، وعلى ذراعه الهزيلة المنقطة الشبيهة بالعصا.

ـ «آه، إن لـك يـديْن بـديعتـين. . . وأنصـاف الأقـمار هـذه، إنها أشبه. . . ».

وانحنت ليـزا إلى الأمـام وطبعت قبلة بـالقـرب من فمـه الـذي مـا زال يتحرك، ثم قامت مسرعـة. وأتت بحركـة كأنها تمنحـه البركـة، وتراجعت صوب الباب.

وغمغم دينبي: «سأصحبها إلى الخارج. . وأعود. . . » وهـرول خارجـاً من الباب في إثر ليزا. وتفرس فيها في الضوء الرمادي الأشـد إعتامـاً الذي يسـود البسطة، وبحـركة يختلط فيهـا الحياء والتعمـد أمسك بكم معـطفهـا البنّي، وجـذبها عـبر البسطة إلى داخـل حجرة نـايجـل التي كـانت خاليـة. وحملق فيها مرة أخرى.

- «انظري. . كنت في غاية من العطف، والطيبة نحوه. . ».
- «أنا متعودة على العجائز من الناس».
- «هل ستأتين حقاً مرة أخرى لرؤيته؟».
- «بالطبع، إن أَحَبَّ هو ذلك. ولكنه قد ينسى غداً».

كانت تتحدث بسرعة وفي شيء من الغلظة وكأنها تؤدي دوراً مهنياً. وشدَّت الوشاح الأصفر فوق رأسها، وهي تدس خصلات غزيرة من شعرها البني الداكن داخل ياقة معطفها المرفوعة.

- «لن ينسى. هل سيكون لديك وقت، ذات صباح؟».
- «أوقات الصباح مستحيلة فيما عدا العطلة الأسبوعية. إذ أعمل في مكتب ضابط المراقبة في پوپلار Poplar. وأعود إلى البيت بالقطار كل يوم حوالي الخامسة والنصف. وأستطيع أن أذهب إليه بعد ذلك».
- «أيمكنك أن تأتي غداً؟».
- «من المستحسن أن أتصل هاتفياً أولاً. سأتصل حين انصرافي من العمل. هل سيكون هناك أحد وقتئذ؟».
- «أجل، أجل، وسأرتب الأمر بحيث أكون موجوداً. لا أستطيع أن أخبرك كم أشعر بالامتنان. . . ».

وهرع دينبي في أعقابها على درجات السلّم. وكان باب القاعة مفتوحاً والخارج أكثر إضاءة الآن، وثمة نور معدني رمادي رطب يتدفق من سحب تومض من حين إلى آخر. وهناك لمح ديانا تتحدث إلى «ويل بوس» الذي كان يقوم بطلاء القضبان الحديدية في واجهة المنزل. واستدارت ديانا صوب دينبي ولوحت بيدها، فارتفع ذراعها في كم معطفها الوردي والأبيض الشبيه بعباءة المهرج، وكأنه إشارة في الطريق الخالي اللامع. وتردد دينبي، ولوَّح لها بدوره، ثم أغلق الباب وراء ليزا. ورجع إلى الظلمة البنية الحزينة التي تغشى المنزل، وجلس على إحدى درجات السلم. وفجأة انهمرت الدموع من عينيه.

twitter @baghdad_library

(١٥)

حاولت أديليد التي كانت تستطيع أن تسمع من خلال الباب المفتوح أن هناك من ينزل على السلالم ـ حاولت أن تخلّص يدها التي كان «ويل» يعتصرها بشدة. وقاوم ويل، وهو يقبض على أصابعها بقوة موجعة، ويلقي بجسمه الضخم عليها. ورفسته أديليد ـ على كاحله ـ بأعنف ما في وسعها، وتملصت مبتعدة عنه. وفي مدخل الباب اصطدمت بالسيدة جرينسليف التي كانت تتفرج على الجزء الأخير من الصراع في شيء من التسلية.

ـ «أرجو أن تخبري السيد أوديل أنني أنتظره في الخارج عندما ينزل؟».

ولم تقل أديليد شيئاً، ولكنها نزلت من السلم ودخلت المطبخ الذي كان في مستوى أدنى من الشارع. وكان المطبخ أشبه بالمخبأ، وتفوح منه رائحة التربة الرطبة. ومن هنا كانت تستطيع أن ترى وأن تسمع معاً السيدة جرينسليف وويل اللذين كانا يتحدثان الآن بجانب القضبان، بحيث تبدو خطوط ملامحهما في ذلك البريق العابر الذي تحدثه بين الفينة والفينة شمس تحاصرها السحب. وطفقت أديليد تدرس ساقيْ السيدة جرينسليف. قالت السيدة جرينسليف: «ما أجمل هذا اللون الأزرق الذي تطلي به القضبان».

ـ «أجل، إنه لا بأس به. أزرق من ذلك الصنف الذي كان يستخدمه سيزان».

ـ «إذن فأنت تعرف شيئاً عن سيزان! هذا شيء مفيد لك. أأنت الذي اخترت اللون، أم السيد أوديل هو الذي اختاره؟».

ـ «أنا الذي اخترته. والسيد أوديل لا يستطيع أن يميِّز لوناً من لون آخر».

ـ «هذا شيء لا يدهشني! هل تعمل هنا؟».

ـ «أنا أعمل هنا، ولكنني لا أعمل هنا».

ـ «يا له من ولد مُطْلق!».

ـ «شكسبير. أنا الولد صاحب العمل العجيب».

ـ «وعلى درجة كبيرة من العلم! أتعمل لحساب مؤسسة، أم لحسابك الخاص؟».

ـ «أنا ما يسمونه الموظف ـ الذاتي. ولست موظفاً منتظماً، بل أنا عاطل من الوظيفة عادة. وأتلقى دعماً من المعونة القومية».

ـ «حظ سيء».

ـ «دون أن أعمل شيئاً، هذا شيء ملوكي».

ـ «أرى أنك فيلسوف، أيضاً. ما اسمك؟».

ـ «ويل».

ـ «أمن الممكن أن تأتي وتقوم بطلاء منزلنا، يا ويل؟».

ـ «لماذا؟».

ـ «أحب أن أساعدك. كما أن منزلنا في حاجة إلى الطلاء».

ـ «ربما. سأفكر في هذا الطلب».

ـ «أرى أنك تجيد الطلاء، بوصفك معجباً بسيزان!».

ـ «أنا أتقن أشياء أفضل من الطلاء».

ـ «ماذا تتقن غير الطلاء؟».

ـ الرسم، التصوير بالفوتوغرافيا، التمثيل. . .».

ـ «التمثيل؟ هذا يفسِّر معرفتك بشكسبير».

twitter @baghdad_library

ـ «ثقافتي العامة هي التي تفسِّر معرفتي بشكسبير».

ـ «متأسفة، يا ويل! أجل، أستطيع أن أرى أنك ممثل. إن لك رأساً وسيماً. وإذا كان يصح لي أن أقول ذلك فإنني أحب الطريقة التي تقص بها شاربك».

ـ «وأنت أيضاً ذات رأس بديع. وأتمنى لو استطعت أن أصورك. وسأجعلك أشد فتنة».

ـ «ربما. سأفكر في هذا الطلب! أنت فتى لطيف، يا ويل، أأنت صديق من تسمىّ تلك الخادمة، ما اسمها؟».

ـ «أديليد. أديليد دوكريسي».

ـ «يا له من اسم عظيم!».

ـ «ويا لها من فتاة عظيمة!».

ـ «إذن، فأنا أتمنى لك السعادة».

ـ «أين يقع منزلك؟».

ـ في حدائق كمبسفورد، بجوار محطة «وست برومبتون» للسكك الحديدية. سأكتبه لك».

ـ «ربما اتصلت بك هاتفياً. وربما لم أتصل».

«فلتفعل ذلك من فضلك! لا تتحرك لحظة يا ويل، هناك شيء من الطلاء الأزرق على شعرك. سأحاول أن أزيله بهذه القطعة من الورق. شعرك جميل، ومن المؤسف أن يُصْبغ باللون الأزرق!».

وفتحت أديليد نافذة المطبخ قليلاً حتى تستطيع أن تعيد إغلاقها بصوت مزعج. وانتقت آخر فنجان من مجموعة ودجوود الأقدم وأسقطتها على الأرضية الحجرية. ثم غادرت المطبخ وهي تغلق الباب وراءها بعنف، واعتصمت بحجرتها. ولمحت بقعة طويلة من الطلاء الأزرق على تنورة الثوب الشيفون «المكشكش» الذي ارتدته لليوم الذي يقضيه دينبي في

المنزل. فخلعت الثوب ورفسته في كومة تحتل أحد الأركان. وخلعت أيضاً العقد الأيرلندي المطليّ بالمينا والسوار المماثل له. ثم ارتدت أقدم «عفريتة» لديها، واستلقت على الفراش. وانسكبت من عينيها دموع قلائل.

لم يشاطرها دينبي الفراش في الليلة الماضية أو الليلة التي قبلها. ولم يكن في ذلك شيء غير عادي، غير أن هذه الفعلة كانت تثير دائماً الكآبة في نفسها. وفي الليلة السابقة ترك ورقة قال فيها إنه سيعود متأخراً جداً. وفي الليلة الأخيرة كان هناك شيء تافه من الوعي بالذات في الطريقة التي قال بها:

«ليس الليلة - على ما أظن - يا أديليد.. سأذهب الليلة إلى مكاني الخاص. أريد أن أقرأ قليلاً». لم يكن يقرأ إطلاقاً، كما كانت تعرف ذلك تماماً، إذ كان من الارهاق والتعب بحيث إذا هجع إلى الفراش لم يكن يصنع شيئاً فيما عدا المضاجعة ثم الاستغراق في النوم، وكثيراً ما كان يغط في النوم أثناء المضاجعة نفسها، ولم يكن يُنْقل من فراشه إلا بالكلمات الوحشية والضربات العنيفة التي كثيراً ما كانت تفشل في إيقاظه. وفي الليلة الأخيرة أطفأ نور حجرته، ولم يلبث شخيره أن تناهى إليها بعد أن تركها مباشرة.

كانت أديليد تعيش في حالة دائمة من القلق في عالم من الإشارات المهمة التي كان تأويلها الدقيق يفلت منها باستمرار. كانت تعيش كالسائمة، لا ترى شيئاً بوضوح وراء محيطها المباشر، فهي تختفي من حركات تشعر بها، وتتشمم، وتنصت، وتنتظر. وكانت تستطيع أن ترى المطبخ، والطلاء على ثوبها، والفنجان الودجوود المكسور. غير أن «شارع الاستاد» كان بالفعل سراً بالنسبة إليها. وكذلك كان دينبي وويل - وهما أكبر أعجوبتين في حياتها - غامضين ومخيفين تماماً. أما فيما يتعلق بويل فلم يكن شعورها بالرعب منه يخلو من اللذة، وبالطبع كانت تعرف ويل منذ

twitter @baghdad_library

زمن طويل. كان ويل حين يرعبها، ويصرخ في وجهها، ويلوي ذراعها، مع أن هذه الأعمال نفسها ـ كانت تند عن فهمها ـ كان على الأقل شيئاً مألوفاً. غير أن سلوك دينبي المتكاسل تماماً، وابتساماته الشاردة وعيبوه التي لا تملك لها تفسيراً ـ وإن كان ينبغي أن تكون قد اعتادت عليها الآن ـ كانت تقرأ هذه الأشياء كلها وهي ترتعد كما يحاول المرء أن يقرأ الحكم بإعدامه المكتوب بلغة أجنبية.

وكانت تسائل نفسها: هل تبدو الحياة على هذا النحو في نظر الناس الآخرين، فتجيب بأنها لا يمكن أن تكون كذلك. من الجليّ أنها لم تكن على هذا النحو بالنسبة لدينبي. وهناك أناس متزوجون **يعلمون** أنهم يعيشون معاً إلى الأبد، فإذا شابت حياتهم شائبة أو عكّر صفوها شيء، فلن يكون ذلك إلا وقتياً فحسب. وهناك أشخاص يقومون بأعمال مهمة، وتُطْبع أسماؤهم في القوائم الرسمية. وأناس آخرون ينحدرون من عائلات كبيرة، ويمتلكون أملاكاً شاسعة. هؤلاء الناس ينتمون إلى بنية العالم، تلك البنية التي لا تشعر أديليد أنها مرتبطة بها أي ارتباط. كانت تشعر بأنها شيء ضئيل كل الضآلة يحوم في مكان ما بالقرب من القاع، ويمكن أن يتسرب بيسر من ثقب دون أن يلحظ ذلك أحد. وكان دينبي هو يقينها الأعظم، ولكن أي نوع من اليقين كان ذلك؟ لقد تحدث عن شيخوختها، ولكن، ماذا يعني ذلك؟ إن أي شخص يمكن أن يوفِّر معاشاً لخادمة. وهو يملك السلطان المطلق على وضعها ووجودها. وما أقل ما تعرفه عنه حقاً. وفي إمكانها أن تسمع صوت دينبي وهو يقول: «دعينا نتغاضى عن هذا كله الآن، يا أديليد، أليس كذلك؟». بنفس تلك اللهجة اللامبالية التي قال بها: «ليس الليلة، على ما أظن»، كما قال منذ أمد بعيد: «ماذا في الأمر؟».

كانت أديليد تعرف أنها قد أصبحت سريعة الغضب، متوترة

الأعصاب، وكانت تعلم أنه ما كان ينبغي عليها أن تحطم الفنجان الودجوود، بل لقد ندمت على تحطيمه. وكانت قد اعتزمت ألا تتحدث إلى ويل أثناء طلائه للقضبان إذا أساء التصرف وشاهد دينبي ذلك، ولكنها شعرت في منتصف الصباح بحاجة مفاجئة إلى ويل، وإن كانت قد عبّرت عن هذه الحاجة بأن أخذت تضايقه. ثم كان ذلك المشهد الرهيب الذي أخذت فيه تلك السيدة جرينسليڤ تغازله وتعرض عليه رعايتها في آن واحد، على حين كان ويل يتكلف الابتسام ويجيبها كالخادم الوقح، ويترك يديها تعبث في شعره. وعند هذا الاتصال أحست أديليد بصدمة تلقائية من الغيرة، وبازدراء أشد وعياً لإخفاق «ويل» في شيء كانت تعوّل عليه خاصة وهو: كرامته. أو ربما كان ثقته بنفسه، كبرياءه العجيبة التي كانت تجعله أكثر من أي شيء آخر ـ نفس الشخص الشبيه بالفتى الذي عرفته. لم يعد ويل الآن سوى عبء بغيض وخطر منذر. غير أنه كان صلتها الأخيرة بأديليد الحقيقية التي عاشت ذات يوم، الفتاة الحسناء التي تربّت مع ولدين ذكيين من أبناء الخالة يعيرانها الكتب ويتملقانها، على حين كانت تتساءل في قرارة قلبها ـ وهي سعيدة ـ أيهما قدِّر لها أن تتزوجه.

نهضت أديليد، ووضعت ساقيها على حافة السرير. فلمحت ثقباً في جوربها عند الركبة تبرز منه رابية صغيرة من جسدها الوردي. وانحنت إلى الأمام، وحلّت شعرها وتركته يسقط متهدلاً على جانبي وجهها. كانت تشعر بذلك الإحساس الثقيل المترهل الذي يخلو من كل رشاقة، الإحساس الذي حددته بأنه الشعور بالشيخوخة، الشعور باللاعودة. لقد ارتكبت نوعاً من غلطة العمر ـ نوعاً معناه أن كل شيء سوف يسير من سيء إلى أسوأ منه، ولن يتحسن أبداً. أليس هناك عمل يمكن أن تؤديه يكون كالطقوس السحرية في الحكاية الخرافية بحيث يعكس كل شيء في الاتجاه المضاد، فيكشف بغتة عن هويتها المحتجبة؟ ولكنها لا تملك أية

twitter @baghdad_library

هوية محتجبة. ونهضت متثاقلة، دسَّت شعرها أو معظمه، داخل ظهر عفريتتها، ثم فتحت باب حجرة نومها.

كان باب حجرة دينبي المقابل لحجرتها ما زال مفتوحاً، ومن ثمّ استطاعت أن ترى الفوضى التي كان عليها السرير غير المرتّب بملاءاته المتدلية على الأرض. وهنا قالت لنفسها: «فليرتبها بنفسه» ثم عدلت عن رأيها، ودخلت الحجرة. ثم شرعت في لمِّ أشتات السرير. وكان الصندوق الأسود الضخم بكل أدراجه الصغيرة التي تضم أهم أجزاء مجموعة الطوابع موضوعاً فوق منضدة الزينة التي يستخدمها دينبي. وكان برونو غاضباً أشد الغضب هذا الصباح بحيث لم يطلب رؤيتها. وسحبت أديليد اللحاف الويلزي الباهت تماماً. الحجرة والفراش تفوح منهما رائحة دينبي، رائحة حميمة عذبة من الطِباق والعرق والرجولة. وحملقت أديليد في الصندوق الأسود. وكان دينبي يضع الطوابع عادة في شيء من الترتيب قبل أن يحمل المجموعة بعيداً أثناء الليل، وكانت أديليد التي تفتش الأوراق أحياناً بحثاً عن «الطوابع الجميلة» تعرف ترتيب الأدراج على وجه التقريب. فتقدمت منها وفتحت أحد الأدراج إلى منتصفه، وأخرجت حزمة من أوراق السيلوفان الشفافة. وهناك، كانت مجموعة طوابع رأس الرجاء المثلثة الشكل. فانتقت عشوائياً طابعاً منها، وأخرجته بسرعة، ثم دسته في جيب عفريتتها.

* * *

«وداعاً، يا ويل. تذكّر أن تتصل بي هاتفياً! ولا تلطخ شعرك بهذا الطلاء بعد الآن».

وبدأت ليزا وديانا السير في الشارع الذي يتجه إلى «طريق كريمورن» Cremorne Road. وكانت ديانا تأمل في أن يسير دينبي معهما، ولكنه قرر ألا يفعل ذلك، بلا ريب، ما دامت ليزا بصحبتها.

صُدمت ديانا وانتابها الغثيان من الحجرة الكئيبة الصغيرة وشاغلها المقزز. وكان ما شاهدته يبدو لها أكثر ما يبدو أشبه باللحم، اللحم الحيّ على هيئة لا يراها المرء إلا نادراً، اللحم في أقصى حالاته، وكأنه ليس شخصاً. وكانت تتوقع شيئاً مغايراً تماماً: سيداً مهذباً عجوزاً يتوج رأسه شعر فضي، ويشبه مايلز شبهاً جلياً مؤثِّراً، بحيث تلاطفه وتسحره وتدفعه إلى الثناء عليها وإغداق مجاملاته. توقعت شيئاً يمكن أن يكون حرِّيفاً إلى حد ما، صعباً نوعاً ما، وضعيفاً أيضاً، ولكنه قابل للتحدث بوجه خاص. وكانت أن تأثرت بفكرة الوساطة التي اقترحتها ليزا، وأبصرت نفسها وهي تقوم بذلك الدور المؤثر، دور الساعية في الصلح وحاملة الزهور، لإزالة الضرر الذي ارتكبه زوجها، بما تملك من لباقة. ولكنها أدركت على الفور عند وصولها أن هذه الحالة تحتاج إلى خبير، إلى شخص محترف. أما العبارات المألوفة من قبيل «الشيخ المهذب» فلم يكن من الممكن أن تقترب من ملامسة هذا الواقع.

ليزا هي التي تصلح لمثل هذه المواقع المتطرفة، وتتمتع بموهبة خاصة. وهنا أيضاً شعرت ديانا، مثلما شعرت في زياراتها القليلة لليزا في «الإيست إند» ـ بالاضطراب والحرج والجزع. وكانت مسرورة ـ من أجل الرجل العجوز ـ لأن ليزا كانت معها.

اندفعت ديانا رأساً إلى الشارع لتهرب من الانطباع البشع الذي تركته في نفسها تلك القطعة من اللحم المثيرة للشفقة، وبينما كانت تغازل آلياً ـ إلى حد ما ـ صبي النقّاش الوسيم ذا الشعر الفاحم ـ عادت خواطرها فعلا إلى دينبي. إذ كان عقلها في تلك الأيام قد امتلأ بدينبي إلى درجة أصرت على ألا تجدها منذرة بالخطر. وثابت أعصابها إلى الهدوء بتأثير ما يظهره الرجل العزيز من اللامبالاة والطمأنينة، وهي طمأنينة لم تكن تراها بوصفها طيشاً، ولكن تراها بالأحرى نوعاً من الإخلاص، فالمرء يعرف مع شخص مثل دينبي أين موضعه بالضبط. فما كان يدعيّ لنفسه شيئاً من العنف المميِّز للمُطْلقات. وطريقته المرحة في استمالتها إلى مأربه أبهجتها. كان من

twitter @baghdad_library

اليسير عليها أن ترفض، بينما كانت تعتقد في الوقت نفسه أنه لا يخدعها بإطرائه لها. كما لم تكن تخشى أن يتكشف دينبي المرفوض عن «وغد قذر». وبالطبع سيحاول إغواءها، وربما استغرقت هذه المحاولة زمناً طويلاً، غير أنها عند إمعان الفكر لم يخطر لها حقاً أن الجدل ينتهي بها في النهاية إلى الفراش. ينبغي ألا يكون في هذا شيء بشع، شيء مخيف، فليأخذ الجدل مجراه، بل إنها كانت تشتاق إليه. غير أن في إطالة الجدل نفسه يكمن ما يتيح لها أن تصنع صداقة عاطفية باقية مع دينبي، صداقة كانت ديانا تشعر الآن بأنها في أمسّ الحاجة إليها، وأنها ترغب فيها رغبة ملحّة. وعلى كل حال، ما دام أبرز ما يتصف به أنه رجل صانع للسعادة، فليس عليها إلا أن تقنعه بأين تكمن سعادتها. وبهذه الفكرة انتهت ديانا في الأيام القليلة الماضية إلى إدراك أنها لم تكن بحال من الأحوال سعيدة تماماً رغم كل ما في زواجها من امتياز.

وكانت قد ذكرت لمايلز زيارتيْ دينبي، ولكنها التزمت الصمت فيما يتعلق بالرقص. ذلك أن تلك الحكاية أصبحت بحق لذاكرتها أشبه بالأحلام، رومانسية تماماً على نحو عجيب، بحيث لم تكن تشعر بأنها مذنبة بارتكاب أي تزييف في إغفال ذكرها. ولن يتكرر حدوث ذلك مرة أخرى، ويمكنها أن تجد كل ما تحتاج إليه في مجموعة من الترتيبات لا يشوبها شيء من الزيف. والواقع أنها حتى إن ذكرت الحقيقة فإن مايلز سيكون أقرب إلى الضلال قليلاً عن هذه الحقيقة في الوقت الحاضر ما دام لا يستطيع أن يتصور استمتاع أي شخص بصحبة دينبي. وكان يرثي لزوجته لأنها احتملت زيارتيْ زوج أخته ويشير إليه بقوله: «ذلك الرجل الأخرق!»، فكانت ديانا تبتسم، وفي ابتسامتها حنان لكلا الرجلين. لم تكن تريد أن تخدع مايلز. فاعتزمت أن توحي إليه ـ في الوقت المناسب ـ بالايحاءات الكافية التي تجعله يدرك الوضع الحقيقي للأمور. «أنا أميل إليه، حقاً!»

«إن فيـه شيئاً من العذوبة». «خمِّن، من سـأتنـاول معـه الغـداء؟ دينبي!» وسيتعود مايلز على ذلك، فإن لم يستطع أن يصدِّق أبداً تمام التصديق مَيْلها إليه، رغم كل تصريحـاتها الفعليـة المنتقاة بحـذر، فبها ونعمت. وحينئـذ، سـوف تعمد إلى مـد المـوقف قليـلاً من جـانب دينبي، وقليـلاً من جـانب مايلز، حتى تحقِّق ما تسعى إليه الآن طبيعتها كلها، حباً آخر لا ضرر منه. وعندئذ يمكن أن تحب دينبي، دون أن ينحـدر أحد إلى الأسـوأ. وعندمـا عقدت عزمها على هـذا شعرت بأن قلبها ينتفخ مرة أخرى بحاجتها الملحة إلى الحب، فتنهدت بعمق.

«ماذا هناك، يا دي!».

كان المطر يتساقط رذاذاً، فشدت كل من المرأتين وشاحهـا بإحكـام فوق رأسها، وسارتا بخطوات سريعة في شارع «إيديث جروف».

ـ «ذلك الرجل العجوز المسكين...».

ـ «برونو المسكين، أجل».

ـ «في مثـل هذه الحـالة يصبحـون ـ منفرِّين ومـرعبين. لا بـد أنـه شيء فظيع، أن يكون المرء إنساناً وواعياً، ومنفِّراً تمـاماً. أرجـو ألا يكون مـدركاً لشكله وكيف أصبح».

ـ «كلنا نفسِّر وجوهنا ونتخيلها على نحو مثـالي. وأتوقـع أن تكون لـدى برونو فكرة عن منظره ـ مختلفة تماماً عما نراه».

ـ «أرجـو ذلك. ولا أستـطيع أن أتصـور كيف يتحمـل دينبي هـذا. أن يعامل من لم يعد شخصاً. على أنه شخص».

ـ «لم يبلغ بـرونـو هـذا الحـد. كـان يتحـدث حـديثاً عـاقـلاً بعـد أن انصرفت».

ـ «أنت طيبة جداً، وأود لو كان لديّ ما لديك من العطف».

ـ «أنا أكثر تعوّداً على ذلك».

ـ «ماذا قال؟».

twitter @baghdad_library

ـ «قال أن أخبر مايلز بأنه لم يكن يقصد ما قاله في النهاية».
ـ «أتعلمين. . أعتقد أنه كان يحسبك زوجة مايلز!».
ـ «لا أعرف من كان يحسبني».
ـ «يبدو أنه كان يظنك شخصاً مهماً، وقد مال إليك بكل تأكيد».
ـ كنت أود لو أننا عرفناه قبل هذا بكثير. .».
ـ «على كل حال، هذه غلطة مايلز. يا إلهي. أتمنى ألا أصل إلى تلك الهيئة أبداً، وأفضِّل الموت عليها، ألا تعتقدين أن هناك الكثير مما يمكن قوله عن قتل المريض شفقة به إذا كان لا يُرْجى شفاؤه؟».
ـ «لست على يقين من ذلك. من أشق الأمور أن يعرف المرء ما يدور داخل رجل هَرِم».
ـ «لا عجب أن مايلز أصابه الذهول».
ـ «ينبغي على مايلز أن يحاول ثانية».
ـ «إذن، فأخبري مايلز بهذا. . فأنت تنجحين حين تكونين حازمة معه. ألم يكن غاضباً هذا الصباح؟».
ـ «الشعور بالذنب!».
ـ «لقد ضاق دينبي به ذرعاً».
ـ «أجل».
وانعطفت المرأتان إلى «طريق فلهام» **Fulham Road** وقد انحنى رأساهما اتقاءً للرذاذ.
ـ «ليزا».
ـ «نعم».
ـ «ليس هناك شيء خاص يجري بيني وبين دينبي، إذا كنت تعلمين».
ـ «لم أفكِّر في أن هناك ذلك الشيء».
ـ «هو شخص متهور لا يبالي بشيء؛ ولكنه ظريف حقاً كل الظرف، ولا ينبغي أن تكوني قاسية في الحكم عليه».

ـ «أنا لا أعرف شيئاً عنه».

ـ «أنت مثل مايلز، لا تحبين أنصاف الحلول. وأعتقد أن هذا ما يجعلك قاسية قليلاً في بعض الأحيان».

ـ «آسفة!».

ـ «دينبي شخص متأجج العاطفة، وأظن أنه وحيد إلى حد ما. وأشك أنه لم يتحدث إلى إمرأة منذ أجيال. ويتخيل أنه حريص على اكتساب ودي، ولكنني أستطيع أن أتصرف معه. إنها مجرد الصدمة الأولى! وأعرف أنه يلعب أحياناً دور المهرج قليلاً، ولكنه ليس مغفلاً. ولا وجود لأي دراما».

ـ «لم أفكر أن هناك شيئاً من ذلك، يا دي».

ـ «إذن، فكل شيء على ما يرام. أنت قلقة إلى حد كبير يا ليزا، وأعرف أنك لا تحتملين الحمقى بسرور. أنت ومايلز متشابهان إلى حد كبير، ولا أدري لماذا أنتما معجبان بي كل هذا الإعجاب!».

ضحكت ليزا ودفعت ذراعها نحو ذراع أختها وعصرتها عصرة سريعة. وبعد هذا بقليل، بينما كانتا تختصران الطريق عبر مدافن برومتون، قالت ليزا: «رؤية برونو على هذه الهيئة ذكرتني بأبي».

ـ «يا إلهي. ليزا، خطر لي ذلك أحياناً، ولكن لم أحب أبداً أن أسألك. أكنت معه فعلاً أثناء احتضاره؟».

ـ «أجل».

ـ «يكره المرء أن يفكر في هذه الأشياء. وأنا شديدة الجبن، وشعرت بارتياح شديد أنها حدثت في غيابي. أكان الأمر فظيعاً؟».

ـ «أجل».

ـ «كيف كان؟».

ـ «أظن أن المرء يكاد ينسى تماماً كيفية المشاهد التي من هذا القبيل».

twitter @baghdad_library

- «أكان شكله. . . مخيفاً؟».
- «أجل».
- «لا بد أنه كان شيئاً مرعباً بالنسبة إليك».

- «إنه خوف ليس كمثله خوف. إنه عميق أشد ما يكون العمق. بل يكاد أن يصبح شيئاً لا شخصياً. ويقول الفلاسفة إننا نملك موتنا. ولكني لا أعتقد ذلك. الموت يتناقض مع الملكية ومع الذات، لو كان المرء يعرف ذلك طيلة العمر».
- «أظن أن الإنسان يكون حينذاك مجرد حيوان».
- «الإنسان يكون مع حيوان حينذاك. وليس هذا وذاك شيئاً واحداً تماماً».
- «كان في حالة جيدة تماماً في المرحلة المبكرة من مرضه».
- «إنه لم يكن يعتقد ذلك في تلك المرحلة المبكرة. كما لا نعتقد به نحن الآن».
- «نحن نحاول أن نخدعه».
- «كنا نحاول أن نخدع أنفسنا. وكان من المفزع أن نراه وهو يدرك. . . الحقيقة».
- «يا إلهي. . ماذا صنعت؟».
- «أمسكت بيده، وقلت إنني أحببته. . .».
- «أظن أن هذا هو الشيء الذي يود المرء أن يعرفه».

- «الشيء الرهيب هو أنه لم يكن يريد أن يعرف. فلقد تعوَّدنا إلى حد كبير على فكرة أن الحب يجلب العزاء. ولكن المرء يشعر هنا أنه حتى الحب. . . لم يعد. . شيئاً».
- «لا يمكن أن يكون ذلك حقاً».

- «أنا أعرف ما تقصدينه. إنه لا يمكن أن يكون حقاً. فربما كانت

المسألة أن المرء يبصر بغتة الأبعاد التي يمكن أن يكون عليها الحب ـ مثل قبة هائلة تنفتح بغتة فوق رأسه. . .».

ـ «هل وجد مشقة. . . في الرحيل؟».

ـ «أجل. وكأنه صراع جسدي. وقد كان صراعاً جسدياً، محاولاً أن يفعل شيئاً».

ـ «أظن أن الموت نوع من الفعل. ولكنني أتوقع أن يكون في غيبوبة حقاً عند النهاية».

ـ «لست أدري. ومن يعلم كيف يكون الأمر عند النهاية؟».

ـ «يا لها من محادثة كئيبة. لماذا تبكين، يا ليزا! كفي عن البكاء، يا حبيبتي، كفي عن البكاء، بحق السماء!».

twitter @baghdad_library

(١٦)

كـان دينبي يقف وسط الحشائش الـطويلة في مدافن بـرمـپتون. وكـان الوقت عصر الأربعاء.

وكان قد أمضى نهاره في المطابع ـ مثلما أمضى أيـامه القـلائل الأخـيرة ـ فيما يشبه الحلم. انقضت الدورة المعتادة من الأزمات الصغيرة التي كان يستمتع بها إلى حد ما في حالته السويّة. وكانت آلـة الطبـاعة الكـولومبيـة الضخمة التي اعتادت طبع الإعلانات الصغيرة قد انكسرت، فحـاول أحد الصبيـان إصـلاحها، غـير أن النتائـج كانت شنيعـة. كـما أن أصحـاب أمـاكن الميسر عـدلوا عن رأيهم فيـما يتعلق بتصميم شكل البـطاقات بعـد أن كـانت قـد طُبعت فعلاً. ومقبض الأمان الخاص بتقطيع الورق أدير خطئاً بحيث كانوا يخالفون القانون في كل مرة يستخدمونـه فيها. واقتحمت سيـارة النقل التي تقوم بتسليم الرصاص أكداساً من الورق فأفسدتها. وتمّت إعادة طبع صورة حديثة في مجلة محلية ـ بالمقلوب. ووصلت حروف الطبـع الجديـدة الباهـظة الثمن والخاصة بإحدى آلات التركيب، ولكن الفاتـورة كانت ضعف المبلغ المقدَّر لها تماماً. وسقطت إحدى الفتيات العامـلات في قسم الحزم من عـلى السلم في المخزن، فكسرت كاحلها. وذلك الكهـل الغريب الأطـوار من الذين كانوا يطبعون له الكليشيهات الخشبية اتصـل هاتفيـاً خمس مرَّات ليسأل عن الورق الياباني. ومدرسة الفن التي كان دينبي يحاول أن يشـتري منها خـريطة لإنجلترا القـديمة أرسلت ممثـلاً لهـا لمنـاقشـة الصفقة. وكان دينبي قد غادر عمله مبكـراً، بعد أن عهـد بكل شيء

إلى جيسكين Gaskin في نوع من اللامبالاة المشغولة البال، مما أدهش هذا الأخير الذي كان يعلم أن دينبي ينبغي أن يكون حريصاً كل الحرص على إمكانية الحصول على الخريطة، إذ كانت نموذجاً جميلاً مبكراً طالما اشتهاه.

كان دينبي يشعر بإغراء شديد إلى احتساء كأس سريع على سبيل التشجيع (لنفسه) في مشرب التورنامنت Tournament أو «لورد رانيلاف» Lord Renelagh اللذين فتحا أبوابهما منذ لحظة، ولكن، كان من الأفضل أن يظل متمالكاً لوعيه، ولم يكن ليجد صعوبة في ذلك إن أراد هذه المرة. سيّان لديه الآن إن كان سكران أو صاحياً، وكانت السماء ممطرة، وضوء الشمس المسائي الشاحب يجعل كل شيء الآن متألقاً. وعلى الجانب الآخر من القضبان الحديدية الطويلة، كانت حركة المرور في ساعة الذروة تجري بانتظام على طول «أولد برمپتون رود» Old Brompton Road، وكأنها في حالة تنويم مغناطيسي. أما في داخل القضبان فقد كانت الحشائش التي لم تشذّب تجعل المدافن تبدو كأنها حقل، أو أشبه بمدينة أصابها التدمير، دون أن يشمل شوارعها وميادينها التي كستها الحشائش، مثل مدائن: أوستيا Ostia وبومبيي Pompeii ومسينا Mycenae. وكانت المقابر الضخمة التي تشبه المنازل، والتي اتخذها الأموات لهم سكناً ـ تصطف في الممشى الرئيسي الواسع الذي كان يكشف في الومضات الشمسية الباردة عن قوس من الأعمدة البعيدة. وفي الطرقات الجانبية الأهدأ كانت المقابر الأكثر تواضعاً مغمورة بين الحشائش، بحيث يبدو منها هنا أو هناك مكان ممهد، أو فضاء محوط بسلاسل، أو رابية مشذّبة، أو قطع من الجرانيت بطوال الجسم البشري، أو أزهار قلائل وضعت حديثاً وأخذت في الذبول إلى جانب اسم من الأسماء. وفوق الصف الذي تكوّنه أشجار الليمون المزهرة المغلفة بغمامة خضراء، كانت تعلو بعيداً الأبراج الثلاثة السوداء لمحطة «لوتس رود» لتوليد الطاقة.

twitter @baghdad_library

لم يقع ما قاله برونو موقع المفاجأة من دينبي بعد أن انصرفت الفتاة، إذ قال له: «هذه الفتاة تشبه جوين إلى حد ما». وكان دينبي قد لمس هذا التشابه قبل ذلك حين شاهد رأس ليزا على كثب من رأس برونو. لاحظ عُرْفَها الغزيز من الشعر الفاحم، وما يتسم به وجهها الطويل من استغراق في التأمل، ولفتة عينيها الواسعتين الحالمتين، والثغر المحدَّد المفكِّر بتلك الفجوة العميقة التي تعلوه. وعلى هذا الوجه تفرس طويلاً وأمعن الفكر في الأمسيات التي أعقبت مجيء ليزا إلى برونو، عندما جلس دينبي صامتاً في الركن، لا يلحظه أحد في الظاهر، ولم يتحرك إلا حين أخذ يصب الشمبانيا، بينما قادت ليزا برونو عبر متاهات الكشف الذاتي في نوع من المحادثة الرصينة لم يستمع إليها دينبي من قبل أبداً، والتي شعر أنه لا يكاد يفقه منها شيئاً. وكان يتوقع أن يخبره أحد بالانصراف.. ولكن عندما لم يقترح أحد ذلك، لبث مكانه. وعندما غادرت المنزل تبادل هو وبرونو النظر في حيرة ودهشة. وكان برونو يبدو أحياناً أنه على وشك أن يلقي سؤالاً. لعله كان يريد أن يسأل عمن تكون هذه المرأة، أو لعله افترض أنها زوجة مايلز. أو ربما كان سؤالاً آخر تماماً. والواقع أن أحدهما لم يقل شيئاً للآخر.

وعندما أدرك دينبي هذا التشابه المحيِّر تذكَّر في الحال ذلك الخوف الغريب الذي انتابه حين أبصر ليزا تنظر إليه من النافذة العليا في «حدائق كمپسفورد»، وهناك أدرك ذلك الشيء الذي كان يخاف منه. لم يكن من مجرد فتاة حادة ذات ثغر دقيق وقدرة هائلة على الانتباه. وفي كل يوم أثناء وجوده في المطابع، كان يحاول الآن جاهداً أن يبعثر أفكاره، وأن يتصرف آلياً، وألا يفكر، وألا ينظر إلى الأمام. وفي وعي بالذات مكثف كان يعتز بوجوده الذي اعتاد عليه طويلاً.. وكان يتحدث بحرص مع أديليد، غير أنه أخبرها بأنه مريض. وعندما اتصلت به ديانا هاتفياً ضرب لها موعداً، ثم ألغاه بعد ذلك. وكان مسروراً بأن برونو استمر في حالة اتجه فيها إلى

داخله، دون أن يبدي أية علامة على الرغبة في مناقشة الظاهرة التي علّق عليها. وتمنى دينبي أن تتلاشى على نحو ما، وتنتهي إلى الأبد، ولكنه كان يعرف أيضاً أن شيئاً من ذلك لن يحدث.

كانت علاقة دينبي بجوين تبدو له - حتى هذا الوقت - شيئاً لم يكن نابعاً من نفسه، بل أشبه بأن يكون زيارة من الخارج. وقد فهم حق الفهم نظرات مايلز التي كانت تنم عن عدم الفهم والانذهال. مثل هذا الارتباط لا يمكن أن يكون محتملاً. ذلك أن جوين لم تكن من نمطه، كما أنه لم يكن من نمطها. كانت جوين تمتلك نوعاً من السلطان عليه كان يبدو أكثر ما يبدو صفة لتفردها التام، لا نتيجة لأي تأثير عقلي للاقناع. وربما كانت هذه السلطة راجعة إلى درجة مخيفة من الحب. وبنظرة متراجعة إلى الماضي رأى دينبي زواجه بوصفه احتفالاً خالصاً بإله الحب، شيئاً يوشك أن يكون عشوائياً، ولكنه مع ذلك ضروري تماماً، اخترعه ذلك الإله ودبّره بمشيئته دون الاستعانة بأي أساس دنيوي في الطبيعة. وكان دينبي يعرف بالطبع دون أن يفتح مرجعاً في علم النفس طيلة حياته - أن صُنْع الطبيعة يحتجب في معظم الأحيان، وأن ما جمعه بجوين بهذه العرامة، كان من الممكن أن يكون - على كل حال - شيئاً طبيعياً، ولكنه لم يكن يريد أن يعلم. ويؤثر أن يؤمن بفعل الله في حياته، وهو فعل كان يأخذه على أنه فعل فريد، ونسيج وحده sui generis.

وبعد وفاة جوين، وبينما أخذ يسترد نفسه في بطء شديد، شعر بإحساس من الارتداد، من العودة إلى نوع من الوجود أيسر وأكثر طبيعية مشاكلةً لشخصية دينبي وطبعه. غير أن هذا الإحساس لم يصحبه أي شعور بالارتياح. فقد كانت جوين مصدراً للفرح، وللدهشة المستمرة حقاً، بحيث أن نوع التوتر الذي كان يضغط على طبيعته، والذي صار به واعياً كل الوعي فيما بعد - لم يكن من الممكن أن يُفْهم حينذاك بوصفه ضرباً من عدم الارتياح. ولكن، عندما استقر به الأمر أن يصبح نفسه مرة أخرى،

twitter @baghdad_library

أحس دينبي وكأنها قوة الجاذبية التي انطوت ـ بعد مرور بضعة أيام ـ على شيء يبعث على الطمأنينة. وهذه المسألة قد أفضت به إلى مناقشتها مع ليندا، وكانت النتائج التي توصلا إليها معاً عزاءً إيجابياً بالنسبة إليه. ولم يكن الأمر أن جوين أصبحت تبدو كحلم من الأحلام، إذ كان دينبي يؤمن ـ كما يؤمن بالإنجيل ـ أن جوين كانت هي الحقيقة الواقعة، وأن حياته بعدها هي التي كانت حلماً. غير أنه قرر ـ وخاصة بمعونة ليندا ـ أنه لم يُخْلق للواقع، شأنه في ذلك شأن معظم الناس. ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن لديه بديل عن ذلك. ولم يكن يستطيع الآن بعد أن فَقَد جوين أن يتصور أية إمكانية أخرى سوى حياة الحلم المتاحة **للرجل المتوسط الشهواني** homme moyen sensuel، وهذا هو الرجل الذي كانه تماماً إلى أطراف أصابعه.

وكلما مضت الأعوام تباعاً، وبعد أن انتهت علاقته بليندا التي كانت خيراً وبركة عليه، واتصل بأديليد في هدوء وتعقل وأحس بالقوى الراسخة الرصينة التي يتمتع بها شخص استجمع نفسه داخل طبيعته الخاصة ـ بدأ يشك فيما إذا كان قد استيقظ حقاً، حتى بواسطة جوين نفسها، دون أن يخطر له بحال من الأحوال أن في هذا الشك أي تدنيس. كانت جوين ضرباً من المعجزة في حياته ـ معجزة لم يفهم طبيعتها تماماً على الإطلاق. مثل هذا ا لأمر لا يمكن أن يقع سوى مرة واحدة، وقد خلف له أثراً مقدساً يستطيع أن يتأمله ـ منتفعاً بهذا التأمل حتى آخر أيامه. ولكن، هل عاش حقاً في ذلك العالم الذي كشف عنه حبُّه لجوين بما أعطاه من إيحاءات؟ بدأ يشك في هذا، كلما انقضى الزمان. وليس معنى هذا أنه كان يشك في قيمة جوين. ولكنه شرع يتساءل ـ بعد أن صار ارتياده لطبيعته الخاصة في منتصف العمر أكثر وثوقاً ـ إلى أي مدى يمكن لشخص مثله أن يشارك في ذلك الحفل الذي أقيم للحب مشاركة أصيلة. وكان دينبي على وعي بأن المرء ينسى الأشياء. غير أنه كان يشعر ـ إجمالاً ـ بأن الله لا بد أن

يكون قد وجده ـ رغم كل ما في حماسته من خيال ـ شيئاً مخيِّباً للآمال. لقد أحب بجماع قلبه، غير أن حبه كان بقلب عادي جداً.

ولم يجفل دينبي من ظهور ديانا بحال من الأحوال، فقد كانت ديانا نوعاً من المزيج بين ليندا وأديليد، وإن تكن أشد جاذبية بالنسبة له من كليتهما. فكان لها برود ليندا ونوع غريب من العذوبة الحيوانية والسحر الذي تتمتع به أديليد. وقد أحب الحديث إليها بنفس القدر الذي أحب به ملامستها. وذكَّره ابتهاجها بمدى ما صار إليه أمره من قلة الطموح فيما يتعلق بالنساء، وكيف قلّ عدد اللواتي يشق على نفسه بلقائهن هذه الأيام. كما أعادت إلى ذاكرته أيضاً قدرته على الاجتذاب. ولقد استمتع بالرقص معها استمتاعاً شديداً لم يجده في أي شيء آخر منذ أعوام. فكان من الطبيعي أن يحب الذهاب معها إلى الفراش. غير أنها كانت متزوجة من مايلز، ورغم أن فكرة استغفال مايلز بدت له فكرة ظريفة في بداية الأمر، إلا أن إمعان الفكر وضع بعض العوائق في طريقه.

ومع أن دينبي لم يكن يحب أن يعترف لنفسه بأنه يخشى مايلز، إلا أنه كان ينظر إلى ما يكتنف مايلز من غموض بأنه شيء رهيب حقاً، وخليق بقسط من الاحترام. وكان مايلز ـ فضلاً عن ذلك ـ شقيق جوين، ولم يكن هذا هو المكان الذي يجازف فيه بإحداث نوع من المشاكل. كما لم يكن يشك في أنه يستطيع أن يتغلب في يسر على الهواجس التي أفصحت عنها ديانا. ولكنه، كلما أطال التفكير في هذا الموضوع، أخذ يشعر بأنه قد يكون من الأفضل ـ على كل حال ـ أن يستكشف هذه الصداقة العاطفية التي قالت إنها تنشدها. وقد كانت ـ مثله حقاً ـ نصيرة لـ «حب الذات الهادىء»، وقد يشق ذلك عليهما، غير أن نزعتيهما المتحالفتين في المتعة لن تجدا لهما مَخْرجاً لاستمتاع كل منهما بالآخر دون مخاطرة. بيد أن ما فعله لقاؤه بديانا هو أنه أفضى به إلى التصميم على أن وقت الصيد قد حان أوانه مرة

twitter @baghdad_library

أخرى. فلعله يعثر على فتاة أخرى أقل إشكالية، دون أن تقل عنها حُسْناً، ليصحبها إلى الفراش. وسيقوم في الوقت نفسه برعاية أديليد أيضاً. وعندئذ، سيكون كل شيء على خير ما يرام، وستكون الأطراف جميعاً في غاية من السعادة. هذه الخواطر كانت تنتمي على كل حال إلى الفترة السابقة على السبت الأخير، ولا تمت بأية صلة إلى ما يحدث الآن فعلاً.

توقف دينبي بجانب السياج الذي يحيط بمدافن المتقاعدين الراحلين في تشيلسي ولم يلبث أن تحرك مقترباً من الأسوار وهو يتعثر فوق الصخور المتوارية في الحشائش المتشابكة. وكانت عيناه قد أصابهما الكلل والانبهار من جراء متابعته ـ في الضوء الشاحب ـ لذلك السيل الذي لا ينقطع من الناس الخارجين من محطة «ويست برومبتون» للسكك الحديدية. فقد أخبرته بأنها لن تزور برونو اليوم إذ لا ينبغي أن يعتمد كثيراً على زياراتها. ولم يدرك دينبي إلا أثناء العصر ـ فظاعة ألا تجيء، بحيث لم يجد مناصاً من الإقلاع عن خداع نفسه فيما يتعلق بما حدث له. قالت إنها تعود إلى البيت عادة في الخامسة والنصف تقريباً. وكان دينبي قد رابط في موقعه ذاك منذ الخامسة، غير أن الساعة تجاوزت الآن السادسة. وكان من المحتمل أنه لم يلحقها، أو أنها تقضي المساء في مكان آخر، أو أنها ذهبت إلى المنزل عن طريق آخر، ودخلت حدائق كمپسفورد من «طريق وورويك» Warwick Road. أحس دينبي بشيء من الدوار والشرود وكأنه لا يحصل على ما يكفيه من الهواء. وفي الخارج، كانت السيارات تتحرك والناس يهرولون دون انقطاع في ضوء الشمس الواهن اللامع الذي لا قلب له. أما في داخل الجبانة، فلم يكن هناك سوى الفراغ والفضاء ومساحات من الخضرة الظليلة. ولم تكن لدى دينبي مقاصد واضحة، بل إنه كان يتحاشى تحديد مقاصده. ببساطة، كان من الضروري أن يكون هنا، وأن يراها.

ومرق دينبي كالسهم إلى بوابة المدافن وانطلق خلالها مسرعاً. كانت ليزا

التي مرت منذ لحظة بالقرب من الأسوار - تنتظر لعبور الطريق. فاستدارت، مقطبة الجبين، منبهرة قليلاً بالشمس، حين أقبل دينبي نحوها.

- «أوه، أرجو المعذرة..».

- «هاللو».

وما إن تراجعت من الطريق، ونظرت إليه بإمعان، حتى أحس دينبي بانقباض ساحق عند القلب، ونوع من الانفجار الأسود.

- «رأيتك، ولا أريد سوى كلمة واحدة، إن كنت تسمحين بلحظة...».

- «بكل تأكيد. هل تسير الأمور على ما يرام؟ أرجو ألا تكون حالة برونو قد ساءت؟».

- «برونو. كلا - إنه كما هو. على كل حال، إنه يفتقدك كثيراً...».

- «ألا يعلم أنني سأزوره غداً؟».

- «بلى، بلى».

- «ها أنت ترى، ليس من الممكن أن أذهب إليه دائماً، هناك أحياناً بعض الاجتماعات والشئون. ومن الأفضل ألا يتبع المرء نظاماً صارماً».

- «أفهم تماماً...».

- ««ما هذا الذي كنت تريد؟».

- «إنه.. عن برونو، وعن زيارته.. أتستطيعين... أنظري، أتستطيعين أن تدخلي إلى الجبانة لحظة واحدة، فهنا زحام شديد..».

ولمس دينبي كم معطفها. وكان نفس المعطف البني، ولكنه لم يستطع الآن أن يضم أصابعه للإمساك به. واستدار داخل بوابة المدافن وأحس بها تتحرك وراءه عن كثب. وما إن أصبح في الداخل حتى سار قليلاً صوب أحد الممرات الجانبية، وتوقف تحت شجرة ليمون بجوار مقبرة طويلة مربعة مغطاة بالأعشاب، وتعلوها جرَّة (يحفظ فيها رماد الموتى).

twitter @baghdad_library

ولحقت بـه ليـزا، ومـدت إلى المقـبرة يـداً أخـذت تتحسس بـأنـاملهـا سطحها المتهشّم. ورأى دينبي راحتها الطويلة بأنصاف أقمارها الصافية على حد قول برونو.

ـ «أرجو ألا أكون مُرْهِقة لبرونو؟».

ـ «كلا، وإنك لتُسْدين إليه خيراً كثيراً».

ـ «عندما يتحدث الناس من قلوبهم، فإنهم يندمون على ذلك أحيانـاً فيما بعد».

ـ «إنك ما يحتاج إليه برونو بالضبط. وكان يتشـوف إلى إخراج كـل هذه المادة التي جثمت على صدره».

ـ «ولن نلبث كثيراً حتى نتحدث عن الأشياء العادية. . إنها مجرد مسـألة انتقالية».

ـ «إنـك بارعـة أشد الـبراعـة في التحكم فيـه! وتستـطيعـين أن تجعليـه يتحدث عن أي شيء».

ـ «عـلى كل حـال، إذا كان يفضي إليّ بكـل هذه الأشيـاء، فلعله لا يريـد أن يشعر بأنه مضطر إلى قـولها لمـايلز!» وكانت تـزيح وشـاحها الأصفـر إلى الوراء وتسحب شعرها إلى الخارج مرة أخرى. وبان عليها التعب.

ـ «يبدو أنك مُتْعبة».

ـ «أنا بخير. انظر، فيما يتعلق برؤية مايلز لبرونو. . .».

ـ «أكان يوماً عصيباً بالنسبة له؟».

ـ «كالمعتاد كثيراً. ويقول مايلز إنه سيـذهب ثانيـة يوم الأحـد، إذا كنت تعتقد أن برونو مهيَّأً حقاً لاستقباله».

ـ «وستأتين أنت أيضاً، أليس كذلك؟».

ـ «ربما. . .».

ـ «إذا أحضرت مايلز إلى الحجرة، فقد يساعد ذلك».

ـ «ربما. سأفكر في ذلك. هل الموعد نفسه من صباح الأحد ملائم لمايلز؟».

ـ «أجل، هذا بديع».

ـ «طيب. إذا كان هذا هو كل شيء، فسأمضي في تنفيذه».

ـ «لحظة من فضلك يا ليزا، أمن الممكن أن. . .».

ابتعدت قليلاً، ثم استدارت إليه الآن مركِّزة عليه انتباهها. ووراءها، كانت تمتد مقابر الأطفال، أحجار صغيرة مثيرة للشفقة توشك أن تضيع وسط نباتات المرجة الخضراء. وشكّل النائمون الصامتون قُبَّة من الهدوء. أما حركة المرور والناس فكانا في مكان آخر.

وتعثر دينبي في الحشائش الطويلة المبللة، واعترض الطريق بينها وبين البوابة. بل همَّ بمدّ يديه ليمنعها من الذهاب.

ـ «ماذا في الأمر؟».

ـ «ستأتين غداً، أليس كذلك؟».

ـ «أجل، بالطبع. قلت هذا».

ـ «ألا يضايقك أن أدعوك بليزا؟».

ـ «كلا، بالطبع لا».

كانت تتفرس فيه الآن على ذلك النحو من الانتباه الرهيب، وقد زمَّت ثغرها قليلاً، وضيقت عينيها في مواجهة الشمس.

ـ «ليزا، عندما تأتين لرؤية برونو غداً، أمن الممكن أن تمكثي معي بعد ذلك، أقصد أن تشربي كأساً أو شيئاً آخر؟».

ـ «أهناك شيء خاص تريد مناقشته؟».

ـ «كلا، نعم، هو أن. . .».

ـ «عن مايلز وبرونو؟».

ـ «كلا، ليس ذلك حقاً، متأسف، إنه شيء يصعب شرحه. .».

twitter @baghdad_library

ـ «هل ساءت حالة برونو كثيراً، فجأة؟».
ـ «كلا، كلا، برونو على ما يرام».
ـ «إذن، ما هذا الذي تريد أن تحدثني عنه؟».

ـ «لا شيء خاص، كما ترين، كل ما في الأمر أنني أتساءل... أعني ربما استطعنا أن نتناول شراباً، أو ربما تناولنا الغداء... أيمكنك أن تتناولي غداءك معي غداً؟».

فابتسمت: «لا عليك أن تكون ممتناً على هذا النحو. فأنا أحب أن أرى برونو. ولست مضطراً إلى دعوتي للغداء».

وزمجر دينبي. ويبدو أن قدميه اشتبكتا معاً في الحشائش: «أنت لا تفهمين... إنه شيء لا يمت بصلة إلى برونو. إنه شيء يتعلق بي...».

ـ «ماذا تعني؟».
ـ «أنا في ورطة..».
ـ «أوه، أنا آسفة لسماع ذلك».
ـ «سوف تظنين أنني على شيء من الجنون...».

وتجهمت ليزا، وأطرقت ببصرها إلى الأرض، وهي تعبث بأزرار معطفها. وخطت خطوة مبتعدة، وخطوة إلى جانبها، وتطلعت صوب البوابة: «لا أريد حقاً أن أتناقش معك في أي شيء عن أختي».

ـ «يا إلهي...».
ـ «أنا لا أرى حقاً. أي شيء مثل هذا.. من شئوني. ومن ثمّ، أرجو المعذرة...».
ـ «إنه لا يتعلق بأختك. يا للسيد المسيح!».
ـ «إذن، فأنا لا أفهمك.. وعلى أي حال، ينبغي أن أمضي في طريقي..».
ـ «ليزا، أيمكنك أن تتغذي معي غداً؟».

ـ «أنا مشغولة دائماً في وقت الغداء».
ـ «ليزا، ألا تفهمين، كل ما أريده هو أن أراك».
ـ «أشك في أنني أستطيع مساعدتك في أية مشكلة من مشكلاتك».
ـ «إنه ليس كذلك. ستمكثين، بعد برونو، غداً، وتتحدثين معي؟».
ـ «لا أرى ما يدعو لذلك». وكانت تحملق فيه الآن بطريقة عدائية، وهي تجذب ياقة المعطف كأنها عُرْفُ بني اللون.
ـ «قد لا يكون هناك داع بالنسبة لك. ولكن بالنسبة لي...».
ـ «يجب أن أنصرف».
ـ «أرجوك، أنظري إليّ، أرجوك...» وبسط يديه مستعطفاً، وليحول بينها وبين البوابة.
ـ «أنا لا أعرف ما يدور بينك وبين أختي، وأؤكد لك أنني لا أريد أن أعرف. والآن، أرجو أن تتنحى عن الطريق من فضلك».
ـ «ينبغي ألا تظني أنني.. الأمر ليس كذلك.. مع ديانا كانت المسألة مجرد.. ليست شيئاً كثيراً.. لا شيئاً...».
ـ «إذن، فأنا لا أريد أن أناقش لا شيئياتك.. ويجب أن أتوجه الآن إلى المنزل».
ـ «أرجوك، يا ليزا، فكِّري في أن تريني فحسب، سأكتب إليك، لا تكوني قاسية إلى هذا الحد...».
ـ «لست قاسية. ولا أرى داعياً لهذا النوع من المناقشة. ويبدو أنك تتخذ رأياً في غاية الغرابة...».
ـ «لم أشرح المسألة على الوجه الصحيح. دعيني أشرح لك. دعينا نلتقِ أكثر من ذلك، ونتكلم، أرجوك...».

ـ «أنا إنسانة مشغولة جداً. ولي حياتي الخاصة، كما أوقن أن لك أنت أيضاً مثلها. والآن، ألك في أن تتنحى عن طريقي؟».

twitter @baghdad_library

ـ «لا أستطيع أن أتركك على هذا النحو، سأكتب، وستأتين غداً، أليس كذلك. . .» وتمالك دينبي نفسه أمامها، وبسط يدا مسحت كمٌ معطفها وهي تخطو بسرعة داخل الحشائش الطويلة لتفلت منه. «ليزا!».

وهرولت مسرعة صوب البوابة. وفي اللحظة التالية كانت في الخارج، وسرعان ما توارت في الحشد المتحرك دون انقطاع. ونظر دينبي وراءها برهة، ولم يلبث أن قفل راجعاً، وشرع يسير متثاقلاً في طريق المقابر الطويل.

(١٧)

عنـد عودة مـايلز جـرينسليف من مكتبـه تـوقف بغتـة في طـريق «أولـد برمپتون» حين أبصر في بصيص من ضوء الشمس ليزا ودينبي مستغرقيْن في محادثة داخل أسوار المدافن.

وخلف الأسـوار، وفي الرقعـة الـظليلة ذات المروج الخضر بمشـهـدهـا البعيد من الأعمدة السابحة في ضوء الشمس المطر، بـدا الشكلان أكـبر، وأوضح، وأكثر دلالـة. وكان ثمـة شيء أيضاً في مـوقفهما، وتـركيزهمـا، بما يوحي بجدية شديدة، قضية موضع المنـاقشة. وأحس مـايلز بإحسـاس من الصدمة لا يبعث على الارتياح، وكأنه إحساس بالخوف. توقف عن المسير، وأخذ يراقب. وفي أثنـاء مراقبتـه، دفع دينبي يـديه فجـأة بحركـة مسرحية وكـأنه يحـاول أن يمنـع ليـزا من تجـاوزه. وتفـرّج مـايلز عـلى هـذا المـوقف منـدهشاً. ومـع الاحتفاظ بهـما في مجال نـظره، بـدأ يمشي بسرعـة في اتجـاه البوابة. ولكنـه قبل أن يصـل إليها، رأى ليـزا تمرق من دينبـي الـذي بدا وكأنما يوجه نوعاً من الطعنة إليها، منتقلاً إلى الرصيف. غير أنها راوغته بين المارة، واجتازت الطريق قبل أن يلحق بها مايلز.

واجتاز الطريق ركضاً في أعقابها حتى وصل إلى جـانبها في الـوقت الذي بلغت فيه ركن «إيردلي كريسنت» Eardley Crecent.

ـ «مايلز، مرحى، هاللو».

twitter @baghdad_library

ـ «ليزا، ما هذا الذي كان يجري؟ شاهدت ذلك الأحمق دينبي . . . ماذا كان يفعل؟».

ـ «مجرد أنه . . . كنا نتحدث عن برونو».

ـ «أكان يحاول أن يعانقك أو شيئاً ما؟».

ـ «كلا، كلا. إن لديه مشكلة أو شيئاً من هذا القبيل. وهو. . وهو يريدني أن أتناول غدائي معه».

ـ «تتناولين غداءك معه؟».

ـ «قال إنه يريد أن يراني. . . ».

ـ «أن يراك؟ أرجو أن تكوني قد أخبرته بأن يذهب إلى الجحيم. يبدو أنه كان يسلك مسلكاً شائناً وقحاً، بوقفته أمامك على ذلك النحو، والإمساك بك. . . ».

ـ «لم يمسني بسوء يا مايلز، فلا داعي للانفعال».

ـ «سأنفعل! لم تقبلي دعوته لتناول الغداء معه، أليس كذلك؟».

ـ «كلا، لم أَقْبل».

ـ «بالطبع، كان ينبغي أن أظن ذلك، مع هذا الحمار المثير للرثاء، وهو يقوم علانية بمثل هذا المشهد».

ـ «لا أظن أنه كان جاداً».

ـ «من المحتمل أنه كان ثملاً لا يعي ما يقول. تخيلي رغبته في الغداء معك!».

ـ «أمن الغريب كل هذه الغرابة أن يريد رجل الغداء معي؟».

ـ «كلا، كلا، يا ليزا، بالطبع لا. وإنما أقصد، أنك. . . مع رجل حقير الشأن على شاكلة دينبي. من المحال أن يذهب بك الفكر إلى أنه وجد من نفسه الشجاعة للاقتراب من إنسانة مثلك. إنه يشرب الخمر كالسمكة. ومن المحتمل أنه يغازل الفتيات طيلة الوقت».

- «ربما. وأتوقع أن يكون هذا هو التفسير».

- «أخبريني إذا تعمد مضايقتك مرة أخرى».

- «حقاً، يا مايلز، أنا لست فتاة من العصر الڤيكتوري، وفي إمكاني أن أعتني بنفسي».

- «أرجو ألا تذهبي إلى ذلك المنزل مرة ثانية، إلى شارع الاستاد».

- «قلت إنني سأذهب لرؤية برونو».

- «فليكن، اذهبي في وقت يكون فيه دينبي في الخارج لأداء عمله. وأظن أنه يعمل. أو فلتذهب ديانا. فمن المحتمل أن الرجل العجوز لا يميِّز بينكما على كل حال».

- «ديانا، فليكن...».

وانعطفا ليرتقيا السلالم في منزل «حدائق كمپسفورد». وعندما أبصرت بهما ديانا التي كانت تراقب الطريق من النافذة الأمامية في انتظارهما - كما كانت تفعل في معظم الأحيان - فتحت لهما الباب الأمامي. «ادخلا، ادخلا، أيها الشيئان المسكينان المتعبان. دعاني آخذ معطفيكما. ليزا، معطفك مبتل تماماً، ليس من الممكن أن تكوني قد علقته على الوضع الصحيح هذا الصباح، أنت سيئة. وأنت يا مايلز، لقد أحضرت لي «الايڤننج استاندارد»، طيب، أردت أن أذكرك، تعال، ادخل، أوقدت لك ناراً في حجرة الجلوس، والآن، تبذل الشمس أقصى ما في وسعها لاطفائها. اشتريت اليوم إناءً جديداً للشيري، من القرن الثامن عشر، من ذلك المتجر في «فولهام رود»، ولا بد أن يتناول كل منكما رشفة من الشيري قبل أن يفعل أي شيء آخر. انظرا، زجاج مشطوف، أليس جميلاً؟ كما أنه رخيص جداً. اجلسا، يبدو عليكما الإرهاق، هل التقيتما في القطار؟».

قال مايلز: «كلا، خارج المحطة». ثم جلس. كانت الشمس تتألق في حجرة الجلوس الصغيرة الأنيقة التي انتشرت فيها الألوان. وفي المدفأة نار

twitter @baghdad_library

صغيرة تشتعل في ابتهاج، وعلى مائدة إسكنديناقية لامعة مكسوة بطبقة من السيراميك انتصب إناء الشيري الجديد تحيط به كئوس ثلاثة. كان هذا هو بيته.

وصبّت ديانا الشيري، وناولت كأساً لليزا التي ظلّت واقفة عند مدخل الباب، تفك وشاحها.

«أي دراما؟» وكانت ديانا تسألها هذا السؤال في معظم الأحيان عند حضورهما إلى المنزل في المساء.

قالت ليزا: «لا، لم تحدث أية دراما». وأخذت الكأس.

ورفع مايلز رأسه نحوها، ولكنها كانت قد ابتعدت فعلاً من خلال الباب، وقد حملت زجاجة الشيري معها.

والواقع أنه كان قد أدرك فعلاً، حتى دون ذلك التلميح من ليزا، أنه قد يكون من الأفضل ألا يخبر ديانا بالمشهد الذي جرى مع دينبي. لماذا؟

* * *

«الشعاع الهش المتلألىء يغوص في المائدة، ويستقر حيث كانت بقعة حمراء داكنة، أحمر تغشاه الظلال فيتجرد من حمرته، انعكاس زهرة. وفوقه، ومع ذلك كيف يكون فوقه! ـ انبسط السطح الجلدي من الخشب الحبيبي، لون بني مخطط ثري. كلمات حمراء أشد احمراراً. كلمة بنية كاراملّية حلوة المذاق. ولكن، هناك أيضاً ألوان أشد ما تكون انعزالاً، منفية من ألوان الطيف، لون لفظي، لون خشبي، لون الأرض، الشجرة، الخبز، الشَّعر».

وأغلق مايلز «دفتر اللطائف»، وحدَّق في شقائق النعمان الأرجوانية التي وضعتها زوجته على منضدة عمله. وكانت ورقة قد مزقها وسحقها بيده تنسحق بهدوء في سلة المهملات بصوت خافت أشبه بصوت الفئران. وكان الوقت متأخراً في المساء، والستائر مسدلة. والمرأتان تعرفان أنه من الأفضل

ألا تتطفلا عليه هذه الساعة. كانت رقعة زمن الظلام واقعة في حدود مملكته.

ومع ذلك، لم يكن يستطيع العمل. كان ينوي أن يصف شقائق النعمان، وأن يواصل ما شرع في كتابته عنها مساء أمس في ضوء النهار. وأراد أن يتصيّد في كلمات الانعكاسات التي يحدثها امتقاع الألوان المائي العجيب في الخشب اللامع. وكانت شقائق النعمان التي استرعت انتباهه أمس بقوة سوقها الغليظة المندفعة إلى حد ما ـ تبدو له الآن مجرد حزمة من الأزهار المبتذلة، وجوه متكلفة محوطة بياقات ذات أهداب مصطنعة. وكانت ديانا قد وضعتها في زهرية صينية رخيصة ضاعفت ما أحاط مظهرها من ابتذال. . وهكذا لم يعد يستطيع أن يراها على الوجه الصحيح. بل لم تكن جديرة بالنظر إليها على كل حال. وأحس بالكآبة، وبأنه مجروح.

وذلك المشهد المخبول الذي وقع في المدافن بين ليزا ودينبي أخل باستقرار نفسه، وخلف فيه إحساساً بالعبثية، تلك العبثية القديمة التي يتذكرها جيداً منذ أيام الحرب. كان يعرف مواطن الضعف في قوته. ورؤيته لبرونو، هذه الرؤية جعلت كل شيء يسير في الطريق الخاطىء وجعلته يشعر بالذنب، ومع الشعور بالذنب جاء ذلك الضعف القاتل. وكان مايلز يمقت الشقاق، والحط من قدر نفسه. ليته احتفظ بهدوئه ورباطة جأشه مع برونو، ولم ينفعل، ولم يغضب! وكم كان من اليسير عليه أن يرى ذلك فيما بعد، وأن يدرك كيف كان الموقف بسيطاً لو تصرّف خلاف ما تصرّف به. غير أنه صُدِم صدمة عنيفة، وتأثر تأثراً شديداً بمجرد رؤية برونو ثانية، ولم يُتح له الوقت لاستجماع نفسه. وعرف الآن أنه تعمّد مع سبق الإصرار ألا يحاول التنبؤ بما يمكن أن يكون عليه الموقف، حاول ألا يستخدم خياله. فالأب الذي كان يكتب إليه رسائل محترمة مرتين كل عام،

twitter @baghdad_library

والذي لم يكن خطؤه الوحيد سوى أنهما لم يلتقيا أبداً ـ هذا الأب كان قد استقر منذ أمد بعيد في خلفية حياته، صورة مبجلة أُسْكنت في المشكاة اللائقة بها. وكأنه حكيم صوَّره «بليك»* Blake. أما ذلك العجوز العليل علة لا برء منها في تلك الحجرة الضيِّقة الوضيعة في «شارع الاستاد» فكان شيئاً مختلفاً تماماً، شيئاً يدعو إلى التفكير، شيئاً قاسياً، شيئاً مخيفاً.

«ينبغي عليّ أن أراه مرة أخرى». بهذا حدّث مايلز نفسه حتى قبل أن تحمل إليه ليزا تلك الرسالة الشفاهية المصالِحة. فلا يمكن للأمور أن تترك على هذا النحو، حيث اختلط كل شيء وأصبح في لَبْس رهيب. هذه حالة تكفي أن تحطِّم عمله، وأن تطارد أحلامه. وما تثيره من شفقة أوصله إلى حد الاشمئزاز. ولم يكن مايلز يريد أن يستمع إلى اعترافات برونو. وفيما يعنيه منه الآن، لم يكن لبرونو ماضٍ، فقد صَفَح عنه منذ أجل بعيد، واستأصل من عقله وقلبه أي اعتبار لاتّهامات برونو. لم يكن يريد التفكير في الماضي وهو بصحبة أبيه. فقد كان الماضي رهيباً، مقدساً، ماضيه هو. وقد كان من الممكن أن يكون مهيئاً للقيام بدور الابن البار، إذا كان من الممكن أداء هذا الدور بطريقة رزينة، لا شخصية إلى حد ما. أو ربما هيأ نفسه للتحدث مع برونو، إن كان في هذا شيء من المساعدة، ولكن، ماذا يمكن أن يتحدث المرء عنه مع غريب يُحْتضر؟ أما ما لا يستطيعه فهو أن يدخل في علاقة حية مع والد يطلب إعادة فتح (ملف) الماضي. فما كان يستطيع الآن، بالنسبة إليهما معاً ـ أن يتحمل تلك الأشياء، أن يرياها معاً. كانت هذه الفكرة بشعة، مقززة. ولم يكن هذا بالطبع شيئاً يتوقع أن يفهمه أحد، شيء غير قابل للتفسير لكنه مطلق. لم يكن في استطاعته أن يشاطر

(*) وليم بليك (١٧٥٧ ـ ١٨٢٧) شاعر ورسام إنجليزي تتسم أعماله بطابع صوفي رمزي.

برونو أية عاطفة قوية. كما لا يستطيع أن يتقبَّل - بكل تأكيد - أية إرشادات من دينبي. ومع ذلك ينبغي عليه أن يذهب هناك مرة أخرى وأن يجتاز تلك التجربة على نحو ما، وأن يؤدي نوعاً من الدَّوْر. وعندما حاول الآن أن يفكر كيف يؤديه، قال لنفسه: آلهتي لا تعرف شيئاً من هذا القبيل.

وارتد عقله إلى مشهد المقابر. كان هذا المشهد جزءاً من الموقف نفسه على نحو ما، وأحس بأنه تسبب بطريقة ما عن شيء صادر عن تلك الحجرة الرهيبة في «شارع الاستاد». لم يكن دينبي - بالطبع - سوى مجرد مهرج، غير أن المشهد كان بشعاً على نحو ما. وكان في مجموعه خطأً من أخطاء دينبي على كل حال. وليس معنى ذلك أن مايلز تخيل أن دينبي هو الذي أوعز إلى برونو باستدعائه. ومن المحتمل أن يكون دينبي قد أثيرت أعصابه بظهور مايلز في ذلك المشهد. وتذكر مايلز عبارات الرسالة التي بعث بها برونو إليه عن طريق ليزا: «أخبريه أنني لم أكن أعني ما قلته في النهاية». فما دلالة هذا؟ أكان تراجعاً عاماً عن لعنة أطلقها رجل عجوز، أو كان معناه أن مايلز سيحصل على الطوابع بعد هذا كله؟ ولم يكن مايلز قد فكَّر في مجموعة الطوابع منذ سنين. وإنما استقر على افتراض أن دينبي هو الذي سيحصل عليها. ومهما يكن من أمر فإن افتراض حصول مايلز عليها لن يكون بلا ترحيب، بكل تأكيد، إذ سيكون معناه أنه يستطيع التخلي عن وظيفته وتكريس وقته كله لكتابة الشعر.

واستبعد مايلز من ذهنه هذه الفكرة المبتذلة عن الطوابع. فنهض من مكانه قلِقاً، وشرع يجوب الحجرة لا يقر له قرار. خطوات ثلاث لاجتيازها، وخطوات ثلاث للرجوع يمر فيها بالمائدة المضاءة اللامعة التي كان يحرص على أناقتها «بدفتر لطائفه». وبصف من الأقلام المتباينة الألوان، وقلمه الحبر، ودواة الحبر الفضية التي أهدتها إليه ديانا، وأوراق

twitter @baghdad_library

النشاف الزرقاء المرصوصة بعناية، والزهرية الصينية الصغيرة التي تضم شقائق النعمان الأرجوانية. توقف لينظر إلى وجهه في مرآة صغيرة مربعة. وكان قد اعتاد على التفكير بأنه يشبه «ييتس»(*) Yeats في شبابه. أما ما شاهده الآن في ذلك الإطار المذهب، مطموساً كرسم صغيرة لسيزان ـ فكان وجهاً طويلاً نحيفاً ملتوياً بفم مُعْوج مرتعش، وأنف طويل مدبب، وعينين مقطبتين، وتعبير قلق غير آمن، تحيط به خصلات خشنة مهتزة من الشعر الفاحم المضطرب المتلبد الذي وخطه الشيب. وأظهر أسنانه الشبيهة بأنياب الذئب دون أن يبتسم. لم يعد من المهم الآن كيف يبدو. وطفق يذرع الغرفة مرة أخرى. وارتد به فكره إلى ليزا في الجبانة.

كان رد فعله ـ على حد تعبير ليزا ـ من العصر الفيكتوري حقاً! وبالطبع، كانت ليزا تستطيع أن تُعْنى بنفسها. إنها أقوى مائة مرة من سكير تافه مثل دينبي، ومن الغريب أنه على الرغم من اعتياده على رؤية ليزا من خلال عينيْ ديانا بوصفها «طائراً مهيض الجناح»، ولكنه كان يفهمها أيضاً ـ وكما بدا له الآن أن هذا الفهم كان منذ البداية ـ على أنها شخص يتمتع بالقوة. كانت ليزا إنسانة ذات شأن. وليس من العبث على الإطلاق أنها مدرسة في تلك المدرسة. وقد زارها مايلز ذات مرة فأصابه النفور من جو القذارة والفقر والوحل، والرائحة، والأمهات الشرسات، والأطفال المتشاجرين في الشارع. وأدرك أن ليزا تعيش في عالم واقعي يبدو مختلفاً كل الاختلاف عن الواقع الذي كان يسعى في شعره إلى الانتساب إليه. كانت هذه هي رسالتها، وقد احترمها وأعجب بها.

فإذا كانت ليزا قادرة بكل هذا الوضوح على مواجهة حماقة دينبي، فلماذا استولى عليه الغضب إذن؟ ولماذا بدا له إخفاء هذا المشهد عن ديانا أمراً

(*) وليم بطلر ييتس (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩) شاعر وكاتب مسرحي ايرلندي منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٣.

جلياً؟ كانت ليزا جزءاً من البيت، جزءاً من حياته. وكان قد قرر هو وديانا منذ أمد طويل ألا تتزوج ليزا مطلقاً، وأن تبقى معهما إلى الأبد. ولما سألته ديانا إن كان هذا يزعجه، أجاب بالنفي، وإنه ليسعده أن تمكث ليزا معهما، كل السعادة. وأصبحت ليزا جزءاً من رضائه، ذلك أنها كانت تمنحه نوعاً من الصحبة لم تكن ديانا تستطيع أن تمنحه إياه، وكانت تستطيع أن تتحدث معه في أمور لا تفهمها ديانا. وانتهى الأمر بمايلز إلى أن يفكّر فيها بوصفها شخصاً منعزلاً، منفصلاً، مغلقاً. كانت تقوم بعملها، وتعيش مع مايلز وديانا، فهي ليست كغيرها من النساء، بل هي أشبه بالراهبة. وقد كانت - على كل حال - راهبة بالفعل لمدة سنوات عديدة، فطبعتها التجربة بطابع من البرودة والانفصال. أكان هذا هو السبب الذي جعله يشعر بأنه صدم حينذاك، وكأنه امرؤ شاهد رجلاً فظاً يهين راهبة؟

«أمن الغريب كل الغرابة أن يريد رجل الغداء معي؟» كلا، ليس في هذا شيء من الغرابة حقاً. لم تكن ليزا جميلة كما كانت ديانا. وعلى المرء أن يعرفها حق المعرفة قبل أن يتبين ما فيها من جاذبية على الإطلاق. وكان مايلز يستطيع أن يرى هذه الجاذبية، بل يستطيع - كما أحس الآن - حتى أن يرى جمالها المستترّ، تلك الشدة القاتمة المماثلة في عينيها وثغرها. وهذا شيء لا بد أن يكون مخفياً عن الشخص الغريب. وهو يستطيع أن يتخيل ما تبدو عليه ليزا لعينيْ شخص غريب، مجرد مدرسة هزيلة مُهْملة في منتصف العمر. ولكن حتى مثل هؤلاء الناس يمكن أن يتلقوا دعوة للغداء في بعض الأحيان، وهذا ما افترضه مايلز، أما ليزا، فليست من هؤلاء. وتلك المغازلات التي أبداها دينبي كانت بالطبع خالية من المعنى، ومن المحتمل أنها نتيجة لمعاقرته الخمر، ولكنها وضعت سؤالاً. وبدأ مايلز يعي هذا السؤال كأنه سهم مغروز: بماذا يشعر لو تقدم لليزا خاطب؟

كان لا يعرف عن ليزا إلا النزر اليسير، على نحو ما. وعلى نحو ما،

twitter @baghdad_library

كان قد تصورها على أنها طائر مهيض الجناح ـ قد ساعد على إخفائها. كما أنه لم يتناقش معها مطلقاً عن ماضيها. ولقد تخيل ـ ولا يدري لماذا ـ أنها تؤْثر ألا تتحدث عنه. ولم يكن يعرف شيئاً عن حياتها الجنسية، لو كان لمثل هذه الحياة وجود على الإطلاق. ووضعت ديانا نظرية مؤداها أن ليزا لا تهتم بالرجال، واعتنق مايلز هذه النظرية في شيء من الإبهام. وعندما كان يسأل أسئلته الروتينية عن «يوم» ليزا، لم يخطر على باله قط أن يتساءل: هل كان ثمة رجل ضمن يومها؟ والواقع أنه لم يتخيل أن لليزا حياة سرية. غير أن ما تلقاه الآن من تلك اللمحة للمسرحية الجانبية التي دارت في جبانة برومبتون، وما يعلم الآن أنه لن يستطيع التخلص منه أبداً ـ هو فكرة أنه من الممكن أن تكون ليزا موضع غزل. . كانت طليقة، وكانت حرة.

وفيما كان مايلز يذرع حجرته جيئة وذهاباً دون انقطاع، ماسحاً لرف المدفأة في طرف، ومقبض الباب في الطرف الآخر ـ بدأ يدرك رويداً رويداً دلالة ذلك الرعب التنبؤي الذي عاناه بجانب أسوار الجبانة. لقد اكتشف شيئاً جديداً، مخيفاً، آخذاً في النمو وعليه الآن أن يعايشه، خطراً عميقاً لا متوقعاً يهدد صفو ذهنه. . شيئاً كان يستقر غافياً في صميم عالمه، وهو الآن مستيقظ بفظاعة. ليزا تنتمي إلى «حدائق كمبسفورد». وهو يحب ليزا. ليزا أصبحت له.

(١٨)

«دينبي!».

كان دينبي قد فرغ لتوه من كتابة رسالة لليزا، ووضعها في مظروف، فأخذ يصب اللعنات، وهو يضع آلة الحلاقة الكهربائية فوق المظروف. ولما لم تكن هناك منضدة في الحجرة، فقد كتب خطابه واقفاً إلى جانب خزانة من الأدراج.

- «دينبي!».

- «ها أنذا قادم، يا برونو، قادم!».

وجعل دينبي يصعد درجات السلم، كل درجتين معاً.

- «لا تَصِحْ على هذا النحو، يا برونو».

- «دينبي، واحد من الطوابع قد اختفى».

- «أعتقد أنه ما زال موجوداً، كل هذا نتيجة للطريقة التي تبعثر بها طوابعك».

- «ولكنه اختفى، كان هنا في كيسه، وفي المرة الأخيرة نظرت، وأنا على يقين من أنني لم أخرجه من مكانه».

- «من المحتمل أنك فعلت، لا تنهض من سريرك، يا برونو، سأبحث عن ذلك الشيء الملعون».

- «إنه أحد طوابع رأس الرجاء المثلثة، وهو يساوي مأتين من الجنيهات».

twitter @baghdad_library

ـ «لا تغادر الفراش! ولا تجزع كل هذا الجزع. سأفتش عنه، وستبحث عنه أديليد، فمن المحتمل أنه في مكان ما من الحجرة على الأرض».
ـ «لا يمكن أن يكون. . .».
ـ «أديليد! أديليد!».

كان الوقت في أواخر المساء وهو تقريباً الموعد الذي ينام فيه برونو. وكان المطر يصفع النوافذ، والمصباح يسطع على اللحاف الباهت المهترىء، وعلى صينية عشاء برونو الذي لم يتناول إلا نصف حباته من الفول على شريحة من الخبز، والركام المبعثر المعتاد من الطوابع، وكتاب «سكان شرق آيخليا من العناكب»، وصحيفة «الإيفننج استاندارد». وكان دينبي قد أمضى المساء في حالة من الهياج، فقد زارت ليزا برونو بعد الظهر ففاته أن يراها.

وتدحرجت زجاجة شمبانيا من على السرير فتحطمت على الأرض. وعرهت أديليد لترى ما حدث وقد بدا عليها الانهاك والسخط، وشرعت تلتقط شظايا الزجاجة.

ـ «أديليد، لقد فقد برونو أحد طوابعه، طابعاً مثلثاً. ولا بد أنه هنا في مكان ما على الأرضية. . ابحثي في ذلك الجانب من الحجرة، وسأبحث أنا في هذا الجانب».
ـ «لا يمكن أن يكون في الحجرة، أنا متأكد أنه كان في كيسه. . .».

ـ «أوه، اسكت يا برونو. ارفعي السجادة عند أركانها، يا أديليد. سأساعدك في نقل الكتب. واحترسي من وضع ركبتك على شظية من الزجاج. أوه نايجل، مرحى، برونو فقد أحد طوابعه، طابعاً مثلثاً. هل لك في أن تساعدنا في البحث عنه؟ لا بد أنه على الأرض».

وزحف كل من دينبي وأديليد على مهل فوق أرضية الحجرة بحيث يتجه كل منهما صوب الآخر، على حين وقف نايجل حالما يراقبهما عند الباب.

ـ «سأبحث تحت السرير، يا أديليد. هناك ذلك الثقب في السجادة، فلعله أن يكون هناك تحتها».

ـ «لا جدوى من بحثك، يا دينبي، فأنا أعلم أنه ليس في هذه الحجرة».

ـ «إذن، أين يكون إن لم يكن في هذه الحجرة؟».

ـ «لا أعرف، ولكنني أعرف...».

ـ «أوه، كف عن هذا الهذيان.. كنت دائماً قادراً على المساعدة، يا نايجل. وأنت يا برونو، عد إلى فراشك. يبدو الطابع وكأنه غير موجود على أرضية الحجرة. سأفتش في الأدراج، وعلى الرفوف. وأنت يا أديليد يمكنك أن تحملي تلك الشظايا الملعونة بعيداً، هلا فعلت ذلك، ولا تتركيها في سلة المهملات المخصصة للصحف. والصينية. ولا تصفقي الباب اللعين بمثل ذلك العنف!».

وارتفعت ضجة أديليد وهي تهبط درجات السلم. وواصل نايجل مراقبته على حين أخذ دينبي يفتش خِزانة الأدراج، فزحزحها عن الجدار ونظر وراءها، ونظر خلف خزانة الكتب، ونظر خلف الكتب الموضوعة في الخزانة.

«ربما اندس الطابع داخل كتاب. وإذا حدث ذلك، فالله وحده يعلم متى سيظهر. ليس ذلك مهمّاً على كل حال. برونو، لا تستطيع أن تكون متفلسفاً حول موضوع هذا الطابع الملعون!».

ـ «إنه أفضل ما في المجموعة. وهو يساوي مائتين من الجنيهات».

ـ «فليكن، هذا لا يهم بالنسبة لك، أليس كذلك؟ يا للسيد المسيح! برونو، لا تجزع على هذا النحو، فقد قضيتُ يوماً مروّعاً، ولا أستطيع أن أحتمل كل هذه الضجة حول طابع. نايجل، إما أن تساعدني، أو أن تنصرف؟ برونو، أنا آسف. لا تَبْدُ مريعاً على هذا النحو».

twitter @baghdad_library

ـ «أنا أعرف أنكم تنتظرون رحيلي فحسب، أنتم تنتظرون فحسب. . .».

ـ «برونو، كف عن هذا! انظر. سأبحث في البسطة والسلالم، والطريق كله نازلاً حتى حجرتي. حاول أن تلم أشتات نفسك. إنك حتى لم تفتح «الإيفننج استاندارد».

ـ «أريد ذلك الطابع. . .».

ـ «لا تكن طفولياً على هذا النحو. سأستمر في البحث. ما عليك إلا أن تطالع الصحيفة بحق المسيح اقرأ عن خطر فيضان نهر التيمس. هذا سيصرف ذهنك عن الطوابع».

وغادر دينبي الحجرة، يتبعه نايجل، وأغلق الباب وراءه. وما إن بدأ في تفتيش أرضية البسطة المصنوعة من اللينوليوم حتى أحس بلمسة ناعمة على كتفه.

ـ «أوه، ابتعد عن هذا المكان، يا نايجل. هذا يوم من أيام أحلامك».

ـ «هل أستطيع أن أتحدث إليك لحظة؟».

ـ «كلا».

ـ «إنه عن الطابع».

فاعتدل دينبي. ودلف نايجل إلى حجرته الخاصة، يتبعه دينبي.

كانت حجرة نايجل تبدو للناظر عارية موحشة المظهر. فقد أزاح كل ما فيها من أثاث لصق الجدران، كما استبعد منضدة الزينة ووضعها على البسطة. وكان الضوء المركزي يظهر مربَّعاً من سجادة بنية مهلهلة في منتصف الحجرة، يحوطها قطاع من الألواح الخشبية الخالية من التجزيع، يتلوه قطاع آخر من ألواح أخرى من خشب الأرضية الرخيص المستهلك المجزع. وعلى خزانة الأدراج وضعت بعض الحيوانات الخشبية الهندية الملونة مع علبتين من المربى تضم زهوراً من النرجس وشقائق النعمان. وكان

النرجس قد أصابه الذبول فأضحى لونه ونسيجه كالورق الرفيع. وكان نايجل يقف على ساق واحدة في مركز السجادة وهو يلملم الخصلات الجانبية من شعره الطويل السبط الفاحم حتى تلتقي تحت ذقنه. وأومأ إلى دينبي أن يغلق الباب.

قال دينبي: «ماذا تفعل هنا؟ ترقص؟».

- «أعرف أين يوجد ذلك الطابع».

- «حقاً. وأين هو؟».

- «ماذا تفعل من أجلي لو أخبرتك؟».

- «لا شيء».

- «ستكون مديناً لي بشيء».

- «كف عن الهراء، يا نايجل. أين الطابع».

- «أخذته أديليد».

- «أديليد؟».

- «أجل».

قال دينبي: «هذا لا يمكن أن يكون حقاً. إنك تهذي، ويبدو أنك تعاطيت أكثر من اللازم من المادة الملعونة التي تتعاطاها أياً كانت».

- «صدقت. إنها لم تأخذه لنفسها، وإنما أخذته من أجل ويل بوس. وكانت هذه فكرته».

- «من أجل ويل بوس؟ ماذا على الأرض...».

- «كان يريد آلة تصوير».

- «يا للسيد المسيح! ولكن، لماذا تفعل أديليد ذلك من أجل ويل بوس؟».

- «من الأفضل أن تسألها».

- «نايجل، أهذا حق؟».

- «أجل، أجل، أجل. وأُشْهد الله على ما في قلبي».

twitter @baghdad_library

وغادر دينبي الغرفة، ووثب هابطاً من السلالم: «أديليد!» وكانت أديليد في حجرتها جالسة على سريرها وقد شردت ببصرها. وبدا عليها كأنها كانت تبكي.

«أديليد، نايجل يقول إنك أخذت ذلك الطابع، ولكن هذا شيء سخيف...».

- «إنه حق».

وحط دينبي على السرير بجوارها: «إنه يقول إنك أخذته من أجل ويل بوس».

- «أجل».

- «ولكن لماذا؟».

وهزت أديليد رأسها بتؤدة من جانب إلى آخر، وبدأت الدموع تنهمر على وجنتيها. وظلت شاردة البصر، غير ناظرة إلى دينبي. ولم تقل شيئاً.

قال دينبي بعد برهة: «طيب. أيا كان السبب فإنك تستطيعين بحق الشيطان أن تعيديه، وإذا كان ابن خالتك اللصِ الحقير قد باعه فإنه يستطيع - عليه اللعنة - أن يعطينا النقود أو أن نبلِّغ عنه الشرطة. سأكتب إليه خطاباً، وتستطيعين أن تأخذيه إليه فوراً. برونو يريد الطابع. وسأنبئه بأننا عثرنا عليه في مكان ما. كيف يمكن أن تكوني بهذه القسوة على الرجل العجوز؟».

وانخرطت أديليد في البكاء.

- «أقلعي عن هذا يا أديليد. كفاني ما لقيته اليوم. آسف، كنت فظاً، غير أن ما تحملته اليوم تجاوز طاقتي».

وشرعت أديليد في الصراخ. تصلبت في جلستها وهي ما برحت شاردة النظرة نحو الباب - ثم أطلقت سلسلة من الصرخات المنخفضة الثاقبة كأنها فقاعات تزاحمت في حلقها وأخذت تجاهد للانطلاق. على حين سال لعابها كالزبد على ذقنها.

فأدارها دينبي نحوه وصفعها على وجهها.

انقطعت الصرخات، غير أن دينبي شعر في اللحظة التالية بقبضتين تشدان على كتفيه بحيث أوشك أن يسقط من السرير، وكانت أديليد قد ألقت بنفسها على جسده بطوله، وأخذت تقرصه وترفسه وتعضه. ولما كان قد فقد توازنه على حين غرة فإنه لم يكن في حالة تسمح له بوضع يديه بينهما. وأحس بأسنانها ناشبة في رقبته. وفي اللحظة التالية تدحرج الاثنان معاً على الأرض.

وتمكن دينبي من النهوض، أما أديليد فقد رقدت في المكان الذي وقعت فيه، مستندة على أحد مرفقيها، والتف شعرها حول رأسها، وهي تتطلع إليه بوجه متقبِّض بالألم.

ـ «أديليد... أرجوك... ماذا حدث... لقد أصابك الجنون...».

قالت: «إنك تحتقرني. وأنت تنظر إليّ على أنني خادمة، وتعاملني كما تعامل عبداً، ولا يخطر على بالك أن تتزوجني. أوه، كلا. أنا مجرد بغي رخيصة، لا أصلح لشيء إلا للذهاب إلى الفراش فترة من الزمن. أنا مريحة، سهلة. وأنت لا تهتم بي حقّاً على الأطلاق. **أكرهك، أكرهك، أكرهك**».

وكان دينبي يرتعد. «أديليد، أرجوك، لا تتكلمي بهذه اللهجة. لا تعبأي بذلك الطابع. سندبِّر أمره غداً. من الخير أن تذهبي للفراش. هل أحضر لك شراباً ساخناً، وشيئاً من الاسبيرين أو أي شيء آخر؟».

ـ «**أكرهك**».

وقف متردداً عند الباب. ولكنه خرج، وأغلقه وراءه. وقصد مباشرة إلى الصالة، ثم غادر المنزل ليخوض في متَّصل مظلم من مطر هينِّ الأثر.

* * *

twitter @baghdad_library

نهضت أديليد من فراشها وهي تشعر بالكدمات والتصلب وبأوجاع في وجهها من شدة الصراخ. حدثت نفسها قائلة: «سأقتل نفسي». ونظرت إلى المرآة فجلبت إليها رؤية وجهها البشع مزيداً من الدموع. فاستندت إلى الجدار، وهي تنشج بالنحيب.

كان الوقت يقترب من الثالثة صباحاً دون أن يعود دينبي. أو لعله عاد ثم خرج مرة أخرى. وخلال الساعتين أو الثلاث التي أعقبت رحيله، استغرقت أديليد في بكاء تشنج داخل وسادتها بحيث لم تكن واعية على الإطلاق بما يدور حولها. وبعد وقت طويل خيِّل إليها أنها سمعت برونو ينادي. أماالآن فلم تكن تسمع سوى إيقاع المطر.

لم تكن تستطيع أن تفهم بعدُ ما حدث، أو لماذا حدث. كانت تتلهف إلى درجة الجنون للحصول على الطابع، وكانت تعرف ذلك حتى قبل أن تعطيه لويل. وقد قطعت الطريق كله إلى «كامدن تاون» **Camden Town** والطابع في حقيبة يدها، دون أن تحزم أمرها هل تعطيه له أم تعيده إلى مكانه. وبعد أن أوت الخالة إلى فراشها، شرعا يتشاجران كما جرت العادة.

إذ أبدت أديليد بعض الملاحظات الساخرة عن الغزل الذي تكلفه ويل مع السيدة جرينسليف. ذلك أن ذكرى هذا المشهد بدأت تعذِّب أديليد. كما كانت تنفر بوجه خاص من السهولة التي دخلت بها السيدة جرينسليف في المحادثة مع ويل. ذلك أن محادثة أديليد مع ويل كانت بالنسبة إليها أمراً عسيراً، بل إن مغازلتها لويل كانت محفوفة بالحرج، والعي، والمخاطرة. وعلى العكس من ذلك، يبدو أن السيدة جرينسليف وجدت الأمر كله هيِّناً ليِّناً إلى أبعد حد. وأنبأت أديليد ويل بأنه تصرف كما يتصرف خادم متملق وتكلف الابتسام مثلما يتكلفه طفل مدلّل. وثار ويل ثورة عنيفة، فأعلنت أديليد أنه لو اتصل هاتفياً بالسيدة جرينسليف فلن تراه مرة أخرى. وتظاهر

ويل بأنه لم يتأثر أدنى تأثر بهذا التهديد، وأعرب عن نيته في الاتصال هاتفياً بالسيدة جرينسليف من الآن فصاعداً. وفي نهاية المطاف، استحالت ثورتها إلى دموع الغضب والتعاسة العاجزة، فقذفت بالطابع على المائدة. وانتهى المشهد بأن أبدى ويل سروره والتفاته وحبه، ووعد بألا يتصل بالسيدة جرينسيلف أبداً بعد الآن.

كانت المسألة كلها ورطة وضيعة، بشعة، اختلطت فيها المواقف وتشابكت، ولم تعد خليقة حتى باستعادتها. كم بكت في تلك الأيام الأخيرة! وها هي تنتهي إلى هذا الجنون الذي لا بد أنه حطّم حب دينبي لها إلى الأبد. وحتى لو كان رحيماً بها الآن، فلا بد أن يرى فيها إنسانة مجنونة. وستكون أعصابه دائماً متوترة نحوها، مترقباً أن تعود مرة أخرى إلى ذلك الغضب الرهيب. لقد أخافت نفسها بكل تأكيد، ومع ذلك، كانت أديليد تعرف أنها ليست مجنونة، كل مَا في الأمر أنها دُفِعت على نحو ما إلى ما وراء حدود احتمالها.

فَتَحت باب غرفتها. وكان باب دينبي المقابل لها ما زال مفتوحاً، والحجرة مظلمة. فاجتازت المسافة، وأضاءت النور. كان الفراش ما برح مرتّباً، لم ينم فيه أحد، ولم تكن الستائر قد أسدلت على النافذة السوداء اللامعة التي تتساقط عليها قطرات المطر. كانت الحجرة موحشة، وواتى أديليد مزيد من الدموع فسارت إلى النافذة، وأسدلت الستائر، ثم أخذت اللحاف الويلزي من السرير، وأعادت إليه البطاطين في ترتيب دقيق، وسكبت دموعها على الملاءات، ووقفت أديليد تجول بعينيها في أرجاء الحجرة.

وهناك أبصرت خطاباً موضوعاً على قمة خزانة الأدراج. وكانت أول فكرة خطرت لها هي أن دينبي قد عاد بينما كانت تبكي بطريقة هستيرية، وترك رسالة لها. تقدمت إلى الرسالة، وأزاحت آلة الحلاقة الكهربائية

twitter @baghdad_library

جانباً. كان المظروف معنوناً باسم الآنسة ليزا ووتكين. ولم يكن قد أغلق بعد.

أنصتت أديليد برهة. المطر فحسب. وبعد برهة أخرى من التردد أخرجت الرسالة من المظروف.

عزيزتي ليزا

آسف على سلوكي ذاك السيء في مدافن برومبتون، فلعله أدهشك. لست كاتباً جيداً في تدبيج الخطابات، غير أنني لم أجد بدا من كتابة هذا الخطاب. أرجو أن تعرفي أن المسألة جدية. وليس معنى ذلك أن لدي أملاً على الاطلاق، ولماذا يراودني الأمل. ولكن المسألة ليست هيِّنة. قد تجدين هذا شيئاً غير مفهوم. فأنا لم أرك إلا مرات قلائل. ولكن يعلم الله - وأرجو أن تصدقي أن الأمر جاد، أن ما اعتراني شيء رهيب. أنا أحبك، وأرجو أن أراك، وأن أعرفك، وأطلب منك - من فضلك - أن تعتبري هذه إمكانية جديدة. سأسلك سلوكاً حسناً، وسأفعل أي شيء تريدينه. كل ما أتمنَّاه هو ألا تقولي إن هذا عبث. كيف تعرفين أنه عبث دون أن تحاولي؟ أنا أعرف أنني لست شيئاً بالقياس إليك، ولكنني أحبك بفظاعة، والمرء لا يخطيء في شيء كهذا. ولقد أحببت على هذا النحو مرة واحدة من قبل. هو شيء مختلف عن المشاعر العادية التافهة، ومجرد الرغبة في مضاجعة بعض النسوة. فأنا هنا أشعر بإحساس المصير. ينبغي أن تستمعي إليّ يا ليزا. وقد يخطر لك أن تسيئي الظن بي بسبب ما شاهدته تلك المرة الأولى على سبيل المثال، وتحسبيني شخصاً طائشاً، إلى حد ما، كل هذا لا يهم. أنا شخص نَزِق، ولكنني لست كذلك فيما يتعلق بك، وإذا اهتممت بأمري أي اهتمام فربما صفحت عني، وقد غيَّرتني فعلاً. لا تنظري إلى هذا كله على أنه هذيان مخمور أو شيء من هذا القبيل، إنه القلب يتحدث، ويعرف المرء متى يحدث هذا. أرجو أن تعترفي، وأتجاسر فأقول أن تحترمي هذه الحقيقة وهي أنني أحبك، وقابليني مرة أخرى، يا ليزا. ينبغي أن تفعلي

ذلك. ولا سبيل إلى اختيار شيء آخر. سأكتب مرة أخرى، وسأقترح موعداً للقاء. أرجو أن تفكّري فيّ تفكيراً جاداً. أحبك، يا ليزا، وكل ما عدا ذلك قد امحى تماماً.

عبدك

دينبي

وأعادت أديليد الرسالة داخل المظروف، ووضعت المظروف، مرة أخرى تحت آلة الحلاقة الكهربائية. ثم أطفأت النور وعادت إلى غرفتها، وأوصدت الباب. واستلقت متيبسة بلا دموع حتى أضيئت النافذة بنور الفجر.

twitter @baghdad_library

(١٩)

في هدوءٍ شديد فتح مايلز باب حجرة ليزا في الظلام.

كانت الوقت حوالي الثانية من صباح يوم السبت، وكان مايلز خلال اليومين السابقين يتناول وجباته، ويذهب إلى المكتب، ويقوم بعمله، ويتحدث إلى المرأتين بطريقة عادية. وقد أدلى بتعليقاته الرصينة المعتادة على صحف الصباح، ورحل في موعده المضبوط ليلحق بقطاره، كما عاد في موعده المضبوط أيضاً في المساء. غير أنه وسط هذه الآلية القديمة التي تسير عليها حياته كان في صميم قلبه يغلي في خميرة فوارة. راقب ليزا عن كثب. وكانت المسافة الفزيائية بينهما قد اتخذت دلالة جديدة مفزعة. اقتراب اليدين المجاور على مائدة الإفطار، تبادل كتاب، حركة فنجان، الالتقاء على درجات السلّم.. كانت هذه الأمور جميعاً معابر إلى القلق. والمنزل المألوف الذي سمّاه بيته، اختفى، وحل مكانه بناء من الحركات والآراء، والمسافات كانت ترهق جسده كأنها آلة للتعذيب.

وكان من المحال أيضاً ألا ينظر، وينظر. فكان يحملق فيها مضطراً، وكان يبدو له أنها ترد على حملقته. وكأن هناك مغناطيساً لا تعني مقاومته سوى العذاب المبرِّح ـ يجتذب عينيه نحوها. ويدغم عينيها بعينيه. ولم يكن يستطيع أن يمسك نفسه عن تلك النظرات التي أصبحت الآن حافلة بالمعنى على نحو مروِّع. وبقدر طفيف من التعمد النزق أحجم عن تغيير روتينه

اليومي المعتاد، ولم يبذل أية محاولة للانفراد بها. ولما كان كل منهما يغادر البيت ويعود إليه عادة في مواعيد مختلفة، وكانت ديانا باقية في المنزل دائماً، حيث تترك الأبواب مفتوحة لكي يتخللها النداء والنظر ـ فإنه لم ينفرد بها أبداً.

ومهما يكن من أمر فهناك اتصالات يمكن أن تجري، وأن تجري بكل تأكيد دون كلام. وما إن حلّ مساء يوم الجمعة حتى كان مايلز يعلم أن ليزا تعلم، كما كان يعلم أنها تعلم أنه يعلم. ولم تكن لديه حتى الآن أية فكرة على الإطلاق عما يجول في ذهنها عن هذا الموضوع، ولمّا كان مستغرقاً بكل تأكيد في ملاحظة التطور الأليم لمشاعره الخاصة فإنه لم ينظر في ذلك الأمر النظر الكافي. ولم يكن ـ فضلاً عن ذلك ـ مهيئاً بعدُ للاعتراف بأنه دخل موقفاً ينذر بوقوع الكارثة. ذلك أن تجربة الحب، أو إدراك أن المرء يحب، كما كان يبدو لمايلز في هذا الموقف ـ هذه التجربة في حد ذاتها، مهما كانت مؤلمة ـ فقد كانت أيضاً فَرَحاً شاغلاً. فهي زيادة في الحيوية والإحساس بالذات. وكان هذا الفرح الأسود ما فتىء يحول بين مايلز وبين التطلع إلى الأمام، أو يمنع من وضع أية خطة حقاً. كان يفكر: إنها لا تريد أن تخبر ديانا عن دينبي. ولكن ربما كان ذلك، أو كان بلا ريب مجرد أثر من آثار تكتمها العام وتحفظها اللبق، ما دامت لم تكن تستطيع أن تتنبأ بما يمكن أن تحدثه مشاهدة هذه الدراما الصغيرة من تأثير على الصحة العقلية لزوج أختها.

وفي وقت متأخر من مساء الجمعة، عندما أوت المرأتان إلى فراشهما قبل مايلز، وبينما كانتا بسبيلهما إلى الانسحاب، حدث شيء ما. كانت ديانا تتحدث إلى ليزا عند قاعدة السلم، وكان مايلز لا يزال في حجرة الجلوس، واقفاً بالقرب من النافذة التي كان يغلقها حينذاك. وعادت ليزا إلى حجرة الجلوس بحثاً عن كتاب، وهكذا كانا بعيدين برهة عن مجال الناظر من الصالة. تفرّس فيها مايلز. والتقطت ليزا الكتاب، وتوقّفت عن الحركة

twitter @baghdad_library

لحظة واحدة لترد فيها على نظرته. وأتى مايلز بإشارة من يديه، إشارة تنم عن الضراعة والاستسلام، بحيث لا سبيل إلى الخطأ في معناها. فنظرت إليه ليزا نظرة غُفْلا لا تدل على شيء، وقفلت راجعة إلى الصالة وهي تجيب على سؤال لديانا.

وصعد مايلز إلى مكتبه، كما اعتاد أن يفعل ذلك دائماً، ومضى الوقت، واشتد العذاب. وفي النهاية سار بخطى ناعمة صوب باب ليزا.

كانت الغرفة التي ينام فيها مايلز وديانا على نفس البسطة التي يوجد فيها مكتبه. أما الغرفة التي تنام فيها ليزا فكانت على بسطة منفصلة بحيث تنخفض بضع درجات. لم يكن مايلز إذن يخشى من إيقاظ ديانا التي كانت تنام في الحال نوماً عميقاً.

لم يطرق الباب، بل أدار المقبض في هدوء شديد، وخطا دون صوت من خلال الظلام الذي كان يسود الحجرة.

هذا الظلام المنحصر بشدة والسكون السائد خيِّل إليه لحظة وكأنهما يخنقانه، فوضع يده على حلقه. وكان وثوب قلبه العنيف يجعله يشعر بالغثيان والإغماء. وقف ساكناً، بعد أن تخلى عن مقبض الباب، محاولاً أن يتنفس تنفساً طبيعياً. ولم يكن في استطاعته أن يرى شيئاً، ولكنه بدأ بعد هنيهة يسمع الصوت الناعم لتنفس ليزا أثناء نومها. تحرك في هدوء شديد إلى الأمام وقد بسط كلتا يديه، وأخذ يتحسس العقبات بقدميه بحذر شديد. واستطاع أن يرى الآن بياض السرير، وأن يتبين في غموض شديد هيئة رأسها، وشعرها الفاحم منتشراً كالمروحة على الوسادة. كانت راقدة على ظهرها، وقد امتدت إحدى ذراعيها على اللحاف. ومدَّ مايلز يداً في اتجاه السرير وهو يرتجف بعنف إلى درجة أن خدشت أظافره الملاءة بصوت أشبه بالتمزيق. وما لبث أن أطلق آهة متنهدة، وسقط راكعاً على ركبتيه

بجانب السرير. وكان يستطيع أن يرى خطوط ملامحها الجانبية مرتسمة على النافذة. ولمس شعرها.

ـ «أوه! مايلز»، وتحركت بسرعة، وجلست نصف جلسة.

ووضع مايلز يديه متلمساً طريقه. وفي لحظة واحدة كانت قد طوقت عنقه بذراعيها وجذبت رأسه إلى صدرها.

ولم يعرف مايلز بعد ذلك كم لبثا على تلك الحال، بلا حراك تماماً. لعله كان وقتاً طويلاً. كانت لحظة من لحظات الموت الأسود المبارك. كما كانت أيضاً لحظة من لحظات اليقين المطلق.

قالت ليزا: «يا إلهي!».

ـ «أنا أحبك، يا ليزا».

ـ «أعرف ذلك. وأنا أيضاً أحبك».

ـ «أواه يا حبيبتي. . .».

ـ «أنا متأسفة، يا مايلز».

ـ «لا تكوني متأسفة. هذا شيء بديع».

ـ «لم يخطر على بالي قط. . لماذا فجأة الآن، يا مايلز، ماذا حدث؟».

ـ «لست أدري، وإنما أشعر أنني أحببتك منذ سنين، كل ما في الأمر أنني كنت أعمى لا أبصر هذا الحب. كنت ضرورية أشد الضرورة».

ـ «أجل، ربما، ولكن لم يكن الأمر على هذا النحو».

ـ «أعرف ذلك. هذا شيء مباغت. ويا إلهي، إنه شيء عنيف، يا ليزا. أشعر بأنني سأموت منه».

ـ «أهو شيء يتعلق بدينبي؟».

ـ «أنا أحمق، أحمق، يا ليزا. كنت قريبة مني أشد القرب سنين عديدة. فأخذتك على أنك شيء مفروغ منه. لم أكن أرى احتياجاتي. . .».

ـ «ولكن أكان هو؟».

twitter @baghdad_library

ـ «أجل، أظن ذلك. لا أنني تخيلت ذلك المعتوه. . . ولكنه جعلني أرى بغتة مدى حريتك».

ـ «ولكنني لست حرة، يا مايلز. لم أكن حرة أبداً. منذ أن التقيت بك».

ـ «ليزا، لا أحسبك تعنين. . . ».

ـ بلى. لقد أحببتك يوم زواجك. . . اليوم الذي التقينا فيه أول مرة».

ـ «يا لقلبي. . . ».

ـ «أنا آسفة. ولكنني أشعر بارتياح إذ أفضي إليك. . ولكنه كان أيضاً. . كفيلاً بالموت. إنها غلطتي منذ البداية، يا مايلز. ما كان ينبغي لي أبداً أن آتي للحياة هنا. لم أكن أتخيل أنه من الممكن أن تهتم بي أي اهتمام فيما عدا رغبتك في التحدث عن الفلسفة. ولم أحضر إلا لأنني لم أكن أتصور أبداً أن أكشف. . عما كشفت عنه الآن».

ـ «ليزا، اصفحي عني».

ـ «لا تكن سخيفاً».

ـ «كل هذه السنوات الضائعة. . أواه، يا حبيبتي. . . ».

ـ «ينبغي ألا تفكر في الأمر على هذا النحو. . . ».

ـ «أمن الممكن أن أضيء الحجرة؟».

ـ «كلا، لا داعي للنور بحق السماء. ديانا ليست مستيقظة، أليس كذلك؟».

ـ «كلا».

ـ «مايلز، إنه شيء رائع حتى على أنه الموت. لم أتخيل أبداً حتى في أشد أحلامي ضراوة أن أتمكن من لمسك على هذا النحو».

ـ «أواه يا ليزا، لا أستطيع أن أعبّر لك. . كلما فكّرت في أنك قد تعذَّبتِ. . وأنه كان من الممكن ألا أعرف أبداً. . . ».

ـ «ولكنك تعرف الآن، وينبغي عليّ أن أرحل. . ».

ـ «لا تقولي هذا. إنك لن ترحلي. لن أدعك تفعلين هذا. أتريدين قتلي؟».

ـ «مايلز، إنه شيء لا أمل فيه، ألا ترى ذلك؟ يا إلهي، أن أجدك على هذا النحو، وأن أمسك بك على هذا النحو، وأن أعرف أنه الموت في الوقت نفسه..».

ـ «ليزا، لا.. لا تبكي، يا قلبي. ينبغي أن نتمسَّك بهذا الموقف لأننا سعينا إليه. هناك طريقة.. ما هذه إلا اللحظة الأولى...».

ـ «إنها ـ عملياً ـ اللحظة الأخيرة، يا مايلز. حاول أن تواجه هذا يا عزيزي. ببساطة ينبغي ألا نخدع أنفسنا. والحق أنه من أجلك... كان ذلك شيئاً مباغتاً غريباً كأنه عاصفة سريعة. الشيء الحقيقي هو ديانا، كل هذه السنوات التي شاطرْتها فيها الفراش...».

ـ «ليزا، ليزا...».

ـ «ينبغي أن تتشبث بالواقع، يا مايلز. لا يساورك القلق من أجلي. أنا معترفة بجميلك إلى ما لا نهاية من أجل هذا، إنه نوع من الجوهرة بالنسبة لحياتي كلها، وسأكون إنسانة أشد ثراءً إلى أقصى حد. أنا معترفة غاية الاعتراف بجميلك، وسعيدة بأن تأتي إلي الآن على هذا النحو، في الليل. ولولا أنك أتيت على هذا النحو، فربما ما كان لي أن أخبرك أبداً. أنا سعيدة كل السعادة لأنك عرفت، حتى وإن يكن ذلك ألماً خالصاً أيضاً. ولكن، لا وجود لشيء أكثر من ذلك، لا شيء نفعله، أو نخطط له، مجرد هذا فحسب».

ـ «أنا لا أفهمك يا ليزا. ولن أستمع إليك. نحن الاثنان أخذنا على حين غرة. وعلينا أن نتفكر أمرنا».

ـ «سيكون التفكير مهلكاً. ينبغي ألا يكون ثمة تفكير. وأنت تعلم أين يمكن أن ينتهي بنا التفكير».

twitter @baghdad_library

ـ «يا للسيد المسيح!».
ـ «ها أنت ذا ترى، يا مايلز».
ـ «ليزا، أنا لا أعرف عنك إلا أقل القليل».
ـ «هذا أفضل».
ـ «قلت إنها عاصفة مباغتة. إنها لم تكن حقاً مباغتة على هذا النحو. الأشياء المباغتة يسبقها تمهيد. أتعلمين ما لاحظته منذ أمد بعيد، أننا نتشابه، أقصد جسدياً؟».
ـ «أجل. لاحظت أن كَلاً منا يشبه الآخر. ذلك لأني فكرت فيك كثيراً».
ـ «كلا، لأنك خُلقتِ من أجلي. أنت الإنسانة **الوحيدة**».
ـ «كلا، كلا، يا مايلز. أنت عاطفي وهذا وقت الليل الأسود. أنت لا تدري ما تقول. وما تقوله تجويف».
ـ «بارڤاتي».
ـ «وديانا».
ـ «ديانا كانت مختلفة. أنت تعلمين أنها لم تكن كذلك أبداً. لم يكن هناك شيء كهذا أبداً».
ـ «هكذا تعتقد الآن، ولكن...».
ـ «أحب أن أحدثك عن بارڤاتي. وأظنني مستطيعاً.. لم أكن في يوم قادراً على التحدث إلى... أحد سواك».
ـ «فكرتُ كثيراً في پارڤاتي. وأردت أن أرى صورة لها، ولكنني لم أحب أبداً أن أطلب منك ذلك».
ـ «كانت حاملاً عندما لقيت مصرعها».
ـ «أوه، مايلز...».
ـ «لم أخبر أحداً بذلك أبداً، حتى ديانا».
ـ «يبدو أن حكايتها معك ما زالت قريبة جداً؟».

ـ «أجل. وفي بعض الأحيان، يخيل إليّ أنني لم أستيقظ منها تماماً بعد. وعليّ أن أرجع، وأجعلها تبدو كأنها بالأمس، ولكني لا أستطيع. إنها كابوس دائم، وليست شيئاً واقعياً. وقد كتبت قصيدة طويلة عنها بعد ذلك».

ـ «أكان في هذا شيء من العون؟».

ـ «أجل. كان من الضروري أن. . . أحتفل بموتها. ولا أدري إن كنت تفهمين».

ـ «أجل، أعتقد ذلك».

ـ أشعر أحياناً يا ليزا وكأنني لم أَمُر حقاً بتجربة موتها على الإطلاق. لقد حوَّلتها شعراً، جعلتها شيئاً لا واقعياً، شيئاً جميلاً وكان لا بد من أن أفعل ذلك».

ـ «كلنا نفعل ذلك للموت إذا استطعنا».

ـ «ربما. ولكنه ما زال باقياً كنوع من الحاجز، من الزيف. وأظن أنه يمنعني من الكتابة. إنه أشبه بلعنة. ومع ذلك، أظن أن تجربته قد تكون رهيبة جداً. . . حتى الآن».

ـ «ربما عانيته. . . عندما يحين الوقت».

ـ «يمكنك أن تساعديني حينذاك. وأستطيع أن أعيش هذه التجربة مرة أخرى معك».

ـ «كلا، كلا، أنا آخر إنسانة. . لا ينبغي عليّ أن أمسّ هذا. . . هذا سبب آخر. . .».

ـ «ليزا، أنت الإنسانة الوحيدة التي يمكن أن أربط بينها وبين پارڤاتي. . . سيضفي هذا شيئاً من المعنى على كل شيء».

ـ «كلا. يجب عليك أن تفعل ذلك وحدك».

ـ «ليزا، لا يمكن أن تتركيني الآن بعد أن وجدتني، هذا شيء لا سبيل

twitter @baghdad_library

إلى تصوره. نحن شخصان ذكيّان. ونستطيع أن نتدبر هذا الأمر. أتعدينني بألا ترحلي؟».

ـ «كلا، لا أستطيع أن أعد بذلك، يا مايلز».

ـ «إذن، عديني بألا ترحلي غداً؟».

ـ «أعدك بألا أرحل غداً».

ـ «حمداً لله. سنتحدث في هذا الموضوع كما ينبغي غداً. . سنحيط بالموقف كله، يا ليزا. لا بد لنا من ذلك».

ـ «اذهب الآن يا مايلز، أرجوك. ديانا سوف تستيقظ».

ـ «فليكن. دعيني أقبلك. يا إلهي إنني لم أقبلك قط من قبل!».

وجعلا يكافحان برهة في شيء من الارتباك، وكل منهما يحاول أن يلتمس شفتي الآخر في الظلام الدامس.

ـ «اذهب، اذهب».

ـ «حبيبتي، لا تخوني هذا، لا تهجريه».

ـ «اذهب، من فضلك».

ـ «عديني بأنك ستحاولين. سيحاول كل منا. وسننجح».

ـ «اذهب، يا مايلز».

ـ «غداً، يا ليزا، قولي «غداً»».

ـ «غداً».

وخرج مايلز من الحجرة متعثر الخطوات. طغى الفرح على المشاعر الأخرى جميعاً. وركع على درجات السلّم بين البسطتين، وأغمض عينيه، وقد انتابه من الفرح دوار وانبهار.

وبعد دقائق قليلة تسلل صاعداً وفتح باب حجرة نومه.

كانت الستائر قد رفعت وانساب الضوء من مصباح الشارع خافتاً ينير الحجرة. وكانت ديانا راقدة على ظهرها وذراعاها ممدّدتان إلى جانبيها

خارج اللحاف. وما كاد مايلز يدخل حتى لمح ومضة منعكسة من عينيها المفتوحتين. فاقترب من فراشها، ونظر إليها. ثم وضع يداً على وجنتها. كانت مبللة بالدموع.

ـ «هاللو».

ـ «هاللو».

ـ «مايلز، لن تعود الأشياء إلى ما كانت عليه أبداً. أبداً، أبداً، أبداً».

خلع مايلز ملابسه، ودخل في الفراش. ورقد إلى جوار زوجته متصلباً مثلها، فوق ظهره بذراعين ممدّدتين. أبداً، أبداً، أبداً. ورجع إليه الفرح الأسود، وبسط جسده الممتد فوق مِخْلعة(*) الوجد.

(*) أداة تعذيب قديمة يُشَدُّ عليها الجسم (المترجم).

twitter @baghdad_library

(٢٠)

كان برونو يمسك براحة ليزا. وكانت الستائر مسدلة بحيث تحجب الوهج المنبعث من شمس الأصيل، فشملت الغرفة ظلال.

ـ «ها أنت ترين، إنني أحب أن أعرف ماذا أشبه».

ـ «ربما لم يكن هناك مثل هذا الشيء (الذي تشبهه)، يا برونو».

ـ «أريد أن أضعه في البؤرة، حقيقة ما أشعر به عن هذا الموضوع كله».

ـ «لا يشعر المرء بالضرورة بشيء واضح إطلاقاً عن الماضي. وما المرء نفسه إلا شيء ملتبس كل الالتباس».

ـ «أنا شيء ملتبس، يا عزيزتي، شيء عجوز ملتبس ملطخ بالوحل مشوّش التفكير».

ـ «كلنا كذلك، وعندما يحاول المرء أن تكون له ذاكرة واضحة حقاً فإنه يفعل ذلك عادة من أجل غرض محدد، للانتقام أو العزاء أو شيء آخر».

ـ «لقد ولّى كل شيء. . .».

ـ «دعه يولِّ».

ـ «ولكن، ماذا حدث حقاً؟ ماذا فعلت جاني لمورين؟».

ـ «لن تستطيع معرفة ذلك. فلعلك كنت فاصلاً قصيراً جداً في حياة مورين».

ـ «أوه، أظن ذلك».

ـ «تبدو خائب الأمل! غير أن المرء قد يكون بالنسبة لأناس كثيرين مجرد قوة عمياء».

ـ «غير أنني لم أكن فاصلاً قصيراً في حياة جاني. لقد حطمت حياتها».

ـ «تحدث الأشياء في العالم كما حدثت فعلاً. وأمعن الفكر تجد أن كثيراً منها كان عرضياً».

ـ «تقصدين. . . أن أتجرد من نفسي؟».

ـ «هذا السؤال لا يثار. فهناك كانت الأشياء التي حدثت. أما التفكير في أن المرء كان شريراً فإنه يجلب العزاء عادة».

ـ «كنت شيطاناً بما ارتكبته نحوها».

ـ «الكائنات البشرية ليسوا شياطين. إنهم متورطون أكثر من اللازم».

ـ «كان ينبغي أن أذهب إليها عند احتضارها».

ـ «ثمة أمور لا يستطيع المرء أن يصنع حيالها شيئاً. حاول أن ترسم حولها نوعاً من الخط الهادىء».

ـ «لا أستطيع أن أرسم حولها خطاً. إنها نفس. إنها هنا. إنها أنا».

ـ «إنك تحيا في نفسك أكثر من اللازم».

ـ «وأي مكان سواه أستطيع أن أعيش فيه، يا طفلتي؟».

ـ «في الخارج. أترك نفسك. إنها مجرد دمية متحركة. فكر في أشياء أخرى، فكر في كل ما هو خير».

ـ «دمية مُحرِّكة. أجل، أشعر بالارهاق من التلويح بذراعيّ».

ـ «إمعان الفكر في الماضي ما هو إلا وهم في أغلب الأحيان موضوعه: كيف كان من الممكن أن يربح المرء، والحسرة على أنه لم يفعل. وهذه الحسرة هي ما يخطىء فيه الإنسان فيحسبها ندماً».

ـ «أتعلمين، ثمة شيء يؤلمني أكثر مما يؤلمني امتناعي عن الذهاب إلى جاني».

twitter @baghdad_library

ـ «ماذا؟» .
ـ «الاستهزاء الذي لقيته من السكّان على تلك البسطة» .
ـ «تقصد . . . ؟» .
ـ «عندما اقتحمت جاني شقة مورين، وأوصدت خلفها الباب، تذكرين هذا، فقد أخبرتك بـه . . . كلا، لم أخـبرك بهذا، فقـد استبعدت هـذا الجزء لأنـه كـان بشعـاً. عنـدمـا أرغمتني جـاني عـلى أن أصحبهـا لـرؤيـة مـورين اقتحمت جـاني الشقة وأوصـدت البـاب في وجهي، غـير أني كنت أسمـع بكـاء مورين في الـداخل، فـأخـذت أطـرق البـاب، فـنـزل سكـان المنـزل الآخرون وجعلوا يستهزئون بي» .
ـ «مسكين يا برونو!» .
ـ «شيء كـان ينبغي أن يكـون بـلا أهميـة عـلى الإطـلاق، أصبـح أهم الأشياء جميعاً» .
ـ «ما كان لشيطان أن يشعر بهـذا. ألا ترى أنـك لا تستطيـع أن تتذكـر الأمر كله بوضوح تام؟» .
ـ «لو كان الله موجوداً لاستطاع المرء أن يترك الأمر كله لله» .
ـ «أتؤمنين بالله؟» .
ـ «كلا. أصغ إليّ. مايلز سيأتي لرؤيتك. كن هادئاً كل الهدوء معه، ولا تتوقع منه أن يفعل أي شيء من أجلك» .
ـ «أظن أنني أريـد منه أن يجتـاز نـوعـاً من الاحتفـال، أشبـه بـطقـوس استحضـار الأرواح. الشيء الغـريب أنني نـسيـت. نسـيت كـيف أثـارني بفظاعة!» وضحك الاثنان معاً.
ـ «على كل حال، كن عطوفاً عليه» .
ـ «أنت تحبين مايلز، أليس كذلك؟» .
ـ «أجل» .
ـ «إنه محظوظ. تلك الفتاة التي أتت من قبل، أليست أختك» .

ـ «بلى».
ـ «أتقيم معك؟».
ـ «أجل».
ـ «ولا يضيق مايلز بذلك؟».
ـ «كلا».

وسحبت ليزا يدا باردة لا خاتم فيها فوق الطيات الناعمة الرطبة اللحيمة من جبين برونو المتغضن، وأنزلتها على القبة اللامعة العظمية من الجمجمة حتى بلغت حَلقة شعره الحريري المنحول.

ـ «أنا لا أُرْعبك، يا عزيزتي؟».
ـ «بالطبع لا».
ـ «لا أجرؤ على النظر في مرآة. أنت تعلمين ذلك؟ لا بد أن رائحتي فظيعة».
ـ «كلا».
ـ «ما فتىء عجائز الناس يشعرون بالجنس، كما تعرفين».
ـ «أعرف».
ـ «ما أشد سعادتي حين أمسك بيدك».
ـ «أنا مسرورة. سأنبئك بشيء قد لا تصدقه».
ـ «ماذا؟».
ـ «إنك ما زلت جذاباً».

وتدفقت الدموع فوق نتوءات وجنة برونو وتسربت داخل الرقعة الضخمة التي اتخذت شكل المجرفة من الشعر الرمادي الذي بدأ يبدو أقل شبها بالشوك وأكثر شبهاً بالفراء. وكان نمو الشعر مؤلماً لأنه كان يشق طريقه إلى الخارج من خلال الطيات اللحمية والأخاديد في الوجه الذي اضطربت تضاريسه. غير أن برونو لم يكلِّف نفسه مئونة إقناع نايجل بتغيير

twitter @baghdad_library

رأيه فيما يتعلق بحلاقة شعر ذلك الوجه. إذ سرعان ما أصبح هذا الموضوع بلا أهمية.

- «يجب أن أذهب الآن، يا برونو».
- «سيفوتك دينبي. سيعود إلى المنزل خلال نصف الساعة».
- «لا تشغل بالك. أيزعجك حضوري دون إخطار؟».
- «كلا، فقد كان مفاجأة بديعة.. نوعاً من... الظهور».
- «أجل، ظهور شبح».

وبعد أن انصرفت الفتاة استلقى برونو على وسائده. وأخذ يحك وجهه الملتحي. وقد كان له شارب منذ زمن بعيد عندما كان مقبلاً على الزواج من جاني. ولكنه لم يرسل لحيته أبداً. ما أشد وخزها ودغدغتها! ومع ذلك، ربما كانت فكرة طيبة على كل حال. إذ تخفي ملامح الوجه المنتفخة المتورمة التي تدهور إليها وجهه. وهذا يجعله يبدو بمنظر أكثر إنسانية. وبالطبع لم تكن الفتاة تعني ما قالته، ولكن ما أروعها أن تقول هذا القول! كانت زيارتها مفاجأة سعيدة، فها هي الآن تطفو فجأة مجموعة كبيرة جديدة تماماً من الأشياء اللطيفة التي يستطيع أن يفكر فيها. وكان لاكتشافه أنه ما زال من الممكن وجود مفاجآت سعيدة وأفكار جديدة كل الجدة وقع حسن على نفسه. قال برونو لنفسه: ربما كان الطبيب جاداً، وربما عشت تلك السنوات على كل حال. ومدّ يده ليتناول «العناكب السوفييتية».

* * *

- «سأقتل نايجل».
- «ولكنه ليس هنا».
- «وتستطيعين أن تخبري ذلك الخنزير دينبي ما يمكنه أن يصنعه بنفسه. سأسوي حسابي مع ذلك الخنزير بعد أن أفرغ من نايجل».
- «لا تصرخ على هذا النحو، يا ويل».

ـ «كتب لي رسالة خانعة ملعونة يقول فيها أن أتعطف بإعادة الطابع، وأنه يسعده أن يرسل إليّ قرضاً بسيطاً على سبيل المساعدة!».

ـ «إنك لم تعطني الطابع بعد».

ـ «هذا هو الطابع المشئوم. ليتك لم تسرقي هذا الطابع الملعون إطلاقاً».

ـ «إنها كانت فكرتك، على كل حال!».

ـ «لا تواصلي ترديد هذا القول!».

ـ «انتبه لآلة التصوير، إنك تضربها بعنف على مائدة المطبخ».

ـ «إلى الجحيم بآلة التصوير. غلطتها كانت السبب في كل ما حدث».

ـ «ولم تكن غلطتك، على ما أظن».

ـ «اسكتي، يا آد، إلا إذا كنت تريدين أن يُدَقَّ رأسك».

ـ «ويل، كف عن هذا الصياح، **وانصرف** بحق السماء. أنت تعرف أنني لا أحب أن تكون معي في هذا المنزل».

ـ «الطريقة التي تتصرفين بها لن تجعلني ـ **عاجلاً** ـ **في أي منزل**».

ـ «فليكن، هذا الهبوط إلى الأرض يلائمني!».

ـ «أجل، إنه سيكون ملائماً، أليس كذلك، **وداعاً**».

وجذب ويل حزام حافظة آلة التصوير فوق رأسه، وقذف آلة التصوير بعنف على أرضية المطبخ الحجرية. ووثب خارجاً من الباب، ثم صاعداً على السلالم، وخبط الباب الأمامي وراءه بعنف. وذابت أديليد في الدموع.

وبعد برهة جففت كأساً كان قائماً على لوح التجفيف. واتجهت إلى مطبقية المطبخ. وكانت قد ذهبت صباح ذلك اليوم إلى «حانة البالون» Ballon Tavern، وابتاعت لنفسها نصف زجاجة من الجن. وأعانها ذلك قليلاً.

لم تكن قد رأت دينبي. وحرصت على إغلاق باب حجرة نومها وباب

twitter @baghdad_library

المطبخ وإيصادهما بإصرار. ولكنها سمعته في مجيئه وذهابه. وقد طرق على الباب مرتين ونادى باسمها، فلم ترد عليه. وبدأت تشعر بحاجتها اليائسة إلى الحديث معه، غير أنها لم تكن تحتمل أن تشاهد تلك النظرة المخيفة المشفقة مرتسمة على وجهه مرة ثانية. وكانت تشعر أنه ينبغي عليها قبل أن تراه أن يكون لديها شيء تواجهه به، وأن تضع خطة، وتتخذ موقفاً، ولكنها لم تكن تملك لا خطة ولا موقفاً، لم تكن تملك سوى الدموع والتعاسة الشاملة. وكانت مسرورة حين رأت ويل. ولكنهما تشاجرا عندئذ، طبعاً.

وبعد أن ارتشفت ـ برهة ـ مزيجاً من الجين والدموع، انحنت إلى الأمام، . والتقطت آلة التصوير من أرضية المطبخ. وأحست بجسدها ثقيلاً، جامداً، اعترته الشيخوخة. وتساءلت إن كانت آلة التصوير قد تحطمت. لا بد أنها تحطمت. ومع ذلك، عندما أخذت تهزها لم تصدر عنها خشخشة، فلعلها أن تكون سليمة. فعلقتها حول رقبتها، وسكبت مزيداً من الدموع.

وبعد فترة قصيرة سمعت وقع أقدام شخص ينزل السلم. وكانت قد سمعت شخصاً يصعد السلالم قبل ذلك بعد الظهر، ويدخل حجرة برونو، فحسبته نايجل، وإن كانت قد أخبرت ويل في شيء من الحيطة بأن نايجل لم يكن هناك. وتحركت إلى قاع السلم. أينبغي عليها أن تحذر نايجل من ويل؟

واجتازت ليزا ووتكين الصالة وخرجت من الباب الأمامي. ودون أن تتردد أديليد لحظة اندفعت وراءها.

ولحقت بليزا وهي تنعطف إلى «طريق آشبرنهام» Ashbirnham Road.

ـ «يا آنسة ووتكين. . ».

ـ «هاللو».

- «أمن الممكن أن تسمحي لي بكلمة؟».

- «أجل، بكل تأكيد. أرجو ألا يكون ذهابي مباشرة إلى برونو قد ضايقك؟ لم أحب أن أدق الجرس خشية أن يكون نائماً».

- «لا عليك من هذا. اسمعي. هناك شيء أريد أن أخبرك به».

- «نعم. عن برونو؟».

- «كلا. عن دينبي».

- «عن . . . دينبي؟».

- «أجل. أنا أعرف كل شيء عنك وعن دينبي».

فأسرعت ليزا خطاها قليلاً، واصطنع وجهها تعبيراً فاتراً جامداً، متسلياً نوعاً ما، مما أثار ثائرة أديليد. «أنا لا أدري أن هناك أي شيء يُعْرف عني وعن دينبي».

- «لا تتظاهري بهذا. أنت تعرفين أنه يتودد إليك. وقد كتب إليك رسالة».

- «حقاً».

- «أم تُراك تنكرين ذلك؟».

- «أنا أعترض على نبرة صوتك الوقحة العدوانية».

- «إذن، ما عليكما إلا إنهاء تلك العلاقة، هلا فَعَلتِ؟».

- «لا نية عندي في إنهائها. ويبدو أنك واقعة تحت تأثير نوع من سوء الفهم. غير أنني لن أقدم على مناقشة هذا الأمر معك، بكل تأكيد».

- «يمكن أن تتظاهري بضروب من الترفع، ولكني أراهن على أنك تتحرقين شوقاً إلى معرفة ما سأخبرك به».

- «إذا كان لديك شيء تقولينه، فقوليه».

- «ها أنت ذي كما قلت! قبل أن تمضي في علاقتك مع دينبي، هناك شيء ينبغي أن تعرفيه عنه».

twitter @baghdad_library

- «لا وجود لشيء - على حد تعبيرك - اسمه المضي في علاقتي بدينبي. فأنا لا أكاد أعرفه».

- «أراهن على أن هذه كذبة شنعاء. على أي حال، ابتعدي عن طريق دينبي. إنه عشيقي. ونحن نعيش معاً، وكنا عاشقين طيلة سنين».

- «لا أستطيع أن أتصور لماذا تتكلفين كل هذه المشقة لتفرضي عليّ هذه المعلومات. إنها ليست ذات أهمية بالنسبة لي، ولا تعنيني. أستطيع أن أرى أنك ثائرة، وأنا آسفة إن كنت فظة معك منذ لحظة. والآن، أرجوك أن تعودي. فقد يكون برونو في حاجة إليك».

- «أنا لست خادمتك، يا مدام. هل تصدقينني؟ إذا كنت لا تصدقينني، فاسألي دينبي، اسأليه فحسب».

- «ليست لدي أية خطط لرؤية دينبي، وأنت تثيرين ثائرتك بلا داع. ليس لدي أية نية للتدخل في ترتيباتك. والآن، كوني من اللطف بحيث لا تزعجينني أكثر من ذلك بهذا. نعمت مساءً».

وكانت المرأتان قد وصلتا إلى «طريق الملك» **Kings Road**. ومرقت ليزا مسرعة داخل حركة المرور، وعبرت الطريق، تاركة أديليد واقفة على حافة الطريق. ووقفت أديليد لحظة، ثم استدارت على مهل. ولم تلبث أن توقفت، وخلعت آلة التصوير التي كانت تتأرجح حول رقبتها، وألقت بها بعنف على الرصيف. وفي هذه المرة خرجتْ كل أجزائها الداخلية وتبعثرت في بالوعة المجاري. وهناك تركتها راقدة.

(٢١)

كان يوم الأحد. وكان مايلز يسير على الرصيف المزدحم في «فولهام رود» تحت المطر. وبعينين شاردتين تفتقران إلى التركيز كان يخطو خطىً جانبية متفادياً الحشود المتدفِّقة. وكان شعره الفاحم ملتصقاً برأسه المكشوف، وتساقطت قطرات المطر على وجهه كأنها الدموع. فلما بلغ المدخل المستتر لكنيسة سرڤيات Servite Church، دخله بحركة آلية، إذ كان بحاجة إلى مكان يجلس فيه ويفكِّر.

كان مايلز قد ذهب لرؤية برونو. عادت المياه إلى مجاريها، إذ قال إنه آسف، وهو يكاد يشعر بذلك حقاً. وقصَّ برونو حكاية مزعومة عن طابع مفقود عثر عليه دينبي ملتصقاً تحت سجادة السلم. ولم يذكر أيّاً من المرأتين. وجرى الحديث بينهما عشوائياً، متنقلاً من موضوع إلى موضوع على نحو وجده برونو طبيعياً تماماً. تحدثا عن المنزل الذي اعتادا الحياة فيه في شارع فوسيت Fawcett Street وقال مايلز إن شققه جميعاً مستأجرة الآن. كما تحدثا أيضاً عن المطابع وعن وظيفة مايلز وعن الحالة الاقتصادية. وتذكرا كلباً كان يسمى «سامبو»، وكان جزءاً من العائلة عندما كان مايلز طفلاً. وناقش مايلز فكرة عما إذا كان برونو يجب أن تكون له قطة ما دام يعرف شخصاً أنجبت قطته العَتابية(*) قُطَيْطات شديدة الجاذبية، فأجاب

(*) قصة رمادية الوبر مخططة ومنقطة بالسواد.

twitter @baghdad_library

بـرونو بـالنفي لأنه سيتعلق تعلقاً شديـداً بالقـطة، وسيكون من المؤكـد بعد ذلك أن تهرب أو أن تداس. وتناولت المناقشة الفْرق بين القـطط والكلاب. وتحدثا أيضاً عن العناكب. سار كل شيء في يسر تام. وكان بـرونو عقـلانياً كما ينبغي أن يكون، وكان أكثر مـا يكون اسـترخاءً، ويبـدو منظره أقـل ما يكون تنفيراً. ولم تُثر أية ذكريات بشعة، وإنما الذكـريات الـبريئة والحـزينة فحسب. ولم يكن مايلز قد تذكر «سامبو» منـذ سنين. وهكـذا غادر المنـزل وهـو أشد مـا يكون تـأثراً بـالرجـل العجـوز، وبـإحسـاس منعش غـريب التعاطف عن نفسه.

ومهـما يكن من أمـر فقـد كفَّ الآن فعـلاً عن التفكـير في بـرونـو. ومضى خـلال الدهليـز حتى دخل في النـور الداخـلي البارد الـذي يشيع في الكنيسـة فتناهى إليه صوتُ غناءٍ شاكٍ مُلحٍّ حزين، غير أنه بعد أن وقف برهة داخل الباب تبينّ أنـه لا وجود لشعـائر تؤدى هنـاك. لا بد أن المغنـين كانـوا جوقـة (كـورس) الكنيسة، يتـدربون في مكـانٍ غير مـرئي له في مصـلّىً جـانبي في الطرف البعيد. أما جسم الكنيسة فكان خالياً تقريباً، وإن كان يستطيع أن يرى هنا وهناك بين الأعمدة الجرانيتية البنية العنقـودية الشكـل ـ شخصاً أو شخصـين راكعينْ أمـامَ المحاريب المقـوّسة عـلى طول الجـدران الجانبيـة في سلسلة من التجـاويف الغنية بـالـظلال. وتـوقف النشيـد الـديني الـذي لا تصاحبه الموسيقى تاركاً وراءه سكوناً شديـد الوقـع. وكان مـايلز على معـرفة بـالمكان، فقـد أتى إليه في المـاضي للتأمـل. خلع معطفـه الـذي تسّـاقط منـه قطرات المطر وعلقـه أمامـه على ظهـر المقعد. ثم جلس وأخـذ يجفّف بمنديله وجهه وشعره.

مـاذا سيفعل في حكـايته مـع ليزا بحق مـا في الأرض جميعاً؟ لقـد تحاشتـه يـوم السبت فـانصرفت من عملهـا مبكراً، ورجعت إلى المنــزل في سـاعــة متأخرة. واحتال على رؤيتها لحظة هذا الصباح في الحـديقة، وعنـدئذ كـان

كل ما قالته له: «لا بد من رحيلي. لا تدع المسألة تبدأ، لا تدعها تبدأ». غير أن هذا كان محالاً، فقد بدأت فعلاً. وفي مساء السبت، بعد أن رابطت ليزا بإصرار وتصميم في حجرة الجلوس مع ديانا، انسحب إلى مكتبه. ماذا قالت المرأتان كل منهما للأخرى بعد انصرافه؟ ربما لم يكن شيئاً. وقبل أن يأوى إلى فراشه حاول أن يفتح باب ليزا، ولكنه كان موصداً.

كما أنه لم يتحدث إلى ديانا عن هذا الموضوع عقب تبادل وجيز جرى بينهما بعد أن أوى مايلز إلى فراشه في الساعات المبكرة من صباح السبت. وكانت ديانا قد شاهدت بالطبع ما حدث بينه وبين ليزا. فلا بد أنه كان أمراً جلياً لكل ذي عينين: تلك النظرات، وتلك التنهدات، تلك الارتعاشات، تلك اللمسات الحافلة بالمعنى. قالت: «كنت أعرف أن هذا سيحدث يوماً ما». ولم يصدقها مايلز. لم يكن يصدِّق بأن الإمكانية قد خطرت لديانا لحظة واحدة. قالت: «إنها خير لك مني، وينبغي عليكما أن ترحلا معاً». قال مايلز: «هراء يا ديانا. فأنا متزوج منك. والآن، اسكتي». ورقدا متصلبين جنباً إلى جنب وقد جفاهما النوم حتى انبلاج الصباح.

وفي البداية فكّر مايلز على هذا النحو: لما كان من المستحيل تماماً ومن غير المتصوَّر أن أفترق عن كلتيهما، فليست هناك مشكلة حقاً. والمشكلة الوحيدة هي كيف أتصرف بالضبط، كيف أحتال على هذا الوضع. فليس هناك ما يدعو إلى البحث فيما إذا كان من الممكن التصرف أو لا. ومن حسن الحظ أن مسألة الاختفاء لم تكن أيضاً موضع نظر. هذه الطريقة البسيطة إلى أقصى حد، بل التي بدت له أساسية - في النظر إلى المشكلة دامت معه مصحوبة بأحاسيس من الفرح المجنون، خلال الشطر الأكبر من يوم السبت. وكان من دواعي ارتياحه أيضاً أن يؤدي عمله، وأن يقوم

twitter @baghdad_library

بأنشطة إجبارية محايدة، وأن يفكر في ليزا بطريقة حالمة مجردة دون أن يتدبر أية خطة للفعل أياً كانت. أما مساء السبت فكان أقرب إلى الامتحان، وبخاصة تجربة ترك المرأتين معاً في حجرة الجلوس بعد مغادرته لها ـ وهما تقرآن في كتبهما. لم ترتفع عيون لتلتقي بعينيه وهو يحوم عند الباب. ظلَّ الرأس ذو اللون الفاتح والرأس ذو اللون الفاحم منحنيينْ في إصرار. وبعد أن تمشى في حجرة مكتبه مسافة تعادل نصف الميل تقريباً جيئةً وذهاباً، بحث فيها إمكانية التسلل إلى الطابق السفلي ليرى إن كانتا تتحدثان عنه، غير أن هذه الفكرة بدت له أيضاً أشبه بكابوس يثير الغثيان.

وبدأ الجانب الكابوس من الموقف كله يبدو أشد جلاءً. لقد أدرك وفكر في المشكلة حتى الآن من حيث علاقتها بنفسه، وكأنها قد انحصرت كلها داخل نفسه على نحو ما، فلم يبق منها شيء في الخارج. فكان عليه أن يقرر كيف يتعامل مع المرأتين وكيف يتصرف معهما بطريقة أو بأخرى: هذا الجانب ظل مُبْهماً، ولكن، لما كان من الواضح أنه لا بديل هناك، فلا بد أن ترتيباً ما سيكون ممكناً بلا أدنى ريب. وكان عليه أن يملك زمام الموقف. هذه الصيغة من الكلمات التي استخدمها مع ليزا تواردت عليه مصحوبة بجو من الارتياح، فكان يستطيع أن يلم شتات الموقف معاً، وألا يتركه يتساقط بدداً، وامتلاك الزمام هذا سيكون عناقاً يطوي بشدة ليزا وديانا معاً. وسيكون الحب انتصاراً.

ولكنه بدأ يرى الآن فحسب، بحيث جعلته اللمحة التي أبصرها يصرف بأسنانه ألماً ورعباً ـ هي شناعة الموقف المطلقة بالنسبة للمرأتين الأخريين. كانت ديانا تحبه، حباً عميقاً، كاملاً، فهي زوجته التي شاطرها الفراش أعواماً. وكم تحدث معها عن ليزا. وكأنهما كانا والديها. تحدثا في تكتم خيرٍ أسمى عن الراهبة الفاشلة، عن الطائر المهيض الجناح. وكان

القلق عليهـا يساورهمـا معاً، كـما كانـا يتبادلان النـظر في حيـاتهـا الجنسيـة ويتساءلان: تُرَى هـل كانت سحـاقية، ويضعـان كل أنـواع الخطط لحـمايتها والحدب عليها. كيف يمكن لديانا أن تتسامح مع هذا التغيير البشع المباغت في وضـع أختها؟ وكـانت الأختان متحـابتين. فـماذا يمكن أن يحدث الآن؟ وكيف تستطيع ليزا بآرائهـا المتزمتـة عن الواجب، وبحيـاتها التي لا تـرضى بـأنصاف الحلول، أن تتحمـل بـأن تصـير الأداة التي تقـوم بتحـطيم زواج أختها؟ إن رؤية مايلز المشوشة عن امتلاك زمام الموقف قد تغاضت ببسـاطة عن حقوق ديانا وضمير ليزا. كم كان سعيداً من قبل، وهو يحيا ببساطة في المنزل مع كلتيهما في حالـة من اللاشعـور، ومع ذلـك، كانت ليـزا تتعذب طيلة الوقت! بهذا حدث نفسه.

كانت هناك بعض الاستحالات المؤكدة. فهو لا يستطيـع أن يهجر ديـانا. ولم يكن لديه أدنى ميل لهجرانها. كان يحب ديانا ويحتاج إليهـا، فقد أنقـذته من عزلته، وكانت وفيّة لـه، وقائمـة على خـدمته، وكـان مرتبـطاً بها بكـل روابط الواجب، وبالحب الزوجي العميق حق الارتباط. وكـانت كل منهـما تختلف عن الأخرى. ومع ذلك كان يحبهمامعاً، ولكن بـطريقتين مختلفتـين. لماذا لا يكون هناك تدبير لموقف لا بد أن يكون شـائعاً كهـذا الموقف؟ وأيـاً كـان الأمر فقـد كان يعني ومـا زال، ما عـبَّر عنه لليـزا بقول: «إنـك أنت الوحيدة». لم يكن في هذا القول تجديف بذكرى پارڤاتي. فقد كانت پارڤاتي في الثالثة والعشرين، على حين كان مايلز في الخامسة والخمسـين. وستفهم پارڤاتي ما يعنيه. ومن الحق الصراح أن ليزا تلائمه، تلائم روحه على نحـو لم تكن عليـه ديانـا. ومن الحق أنه أدرك، بـألم جديـد رهيب، أنه لـو كان التقى بليزا قبل أختها لكان قد تزوجها.

ماذا لو أنه استأجر لليزا مكاناً لـلإقامـة في شطر آخـر من لندن؟ حينئـذ يستطيع أن يقسِّم الأسبوع بينهما. قـد يبدو الأمـر غريبـاً في البدايـة، ولكن

twitter @baghdad_library

سرعان ما تألفانه، فيبدو طبيعياً مع مرور الوقت. وكلما شرع مايلز في تصور التفاصيل، تمثلت له الفكرة على أنها بشعة تماماً. فما كان يستطيع أن يطلب من ديانا التي كرست حياتها كلها للعناية به ـ أن تنتظره، وأن تتحمل أياماً من الغياب عليها ألا تريد معرفة شيء عنها. بل لقد شعر شعوراً أقوى من ذلك ـ بأنه من البشاعة، لو أراد أن يعطي لليزا شيئاً، أن يكون هذا الشيء أقل من كل شيء. غير أن هذا بالضبط هو ما قرر منذ البداية أنه لن يستطيع الإقدام عليه وأخذت الإمكانيات الشنيعة التي لا سبيل إلى احتمالها تتشكل في خلفية ذهنه. ولما كان عاجزاً عن مواجهتها فقد قال لنفسه في اهتياج شديد: ماذا لو أنني هربت مع ليزا بعد كل شيء؟

يا رب ارحمنا، يا رب ارحمنا، يا رب ارحمنا. عادت الجوقة إلى الإنشاد، وكان إنشادها أشبه بصرخة طائر، صرخة ثاقبة، متكررة، ملحّة، ترتفع إلى الله بالضراعة. أو لعلها كانت أشبه بنوع من العمل، ضرب من الكدح المجاهد المعقد الوثيق الانتباه. ما أسعد هؤلاء الذين يؤمنون بأنهم قادرون على الصلاة، ووصول العون إليهم، أو عدم وصوله ـ المهم هو أن هناك من يستمع إليهم. لو وجد عقل شامل الحكمة حقاً يستطيع أن يضع بين يديه هذه الورطة الحالية، حتى لو شاء هذا العقل أن يحتفظ بسكينته فإن مجرد معرفة أن الحل السليم قائم من مكان ما، كفيلة بتهدئة أعصابه. أما الاحتمال المضاد وهو أنه لا وجود لحلٍ في الواقع، وأنه ليس من المهم كثيراً ما يفعله المرء، هذا هو ما كان يولّد الدافع إلى الصراع، وإلى أن يندفع المرء بشدة كالجواد المذعور الذي انقلبت عربته. وتراءت لمايلز بغتة رؤية للعالم في حالة من الفوضى (العماء): انطماس العالم المألوف، عالم الالتزامات المألوفة، من يدري، ربما كانت الواجبات العادية جميعاً أموراً زائفة، وكانت حيوات الناس المهمومة بالتوافه قائمة على الوهم؟

انحنى مايلز إلى الأمام وهو يضع يديه المتشابكتين فوق عينيه. وهنا

رجعت إليه تلك اللحظة ـ لا بوصفها ذكرى، بل بوصفها هلوسة ـ اللحظة التي تلقى فيها أنباء مصرع پارڤاتي. وكان أحد معارفه وقد شاهد القصة في الصحف، مع أسماء الضحايا، قد حضر إلى منزله، وصرف مايلز الرجل في الحال. ووقف وحيداً في الصالة ممسكاً بالصحيفة. وصدَّق الخبر على الفور.. فقد كان الأمل عذاباً فوق طاقته. وبدا لمايلز الآن ـ وقد بدأ فعلاً ـ حتى في تلك الثواني الأولى، أن يدبِّر كيف يخدع نفسه عن أي اعتراف تام بما حدث. وكان عذره مقنعاً حقاً: إذ كان من الممكن أن يدمِّر الاعتراف التام رشده. فتصرف كما يتصرف غيره من البشر، وإن يكن ذلك بجهاز مختلف، وأكثر نقاءً من وجوه شتى. فشرع في كتابة القصيدة خلال أيام ثلاثة، وأكملها فيما يزيد عن سنة. وتسرّب إليها ألمه غُفْلاً، لم يكد يناله شيء من الصقل والتهذيب.

كان الأمر يبدو غريباً بكل تأكيد كلما أمعن مايلز فيه الفكر. ففي خلال حياته كلها التي يبدو أنه ترك معظمها لعوامل النسيان، استبقى ـ عن اقتناع عميق ـ إيمانه بأنه شاعر. وكان قد نشر مجلداً يضم أشعار الصبا قبل وفاة پارڤاتي مباشرة. وواصل نشر بعض قصائده في الدوريات من حين إلى آخر فتجمّع له منها مجلّد صغير آخر. وكانت أعماله توجد في واحد أو اثنين من المجموعات الشعرية المختارة. غير أنه كان يشعر دائماً بأن هذه الأشياء كلها تمهيدات هزيلة. أما إلهامه الكبير، وملائكة شعره العظام فإنهم لم يأتوا بعد.

وهكذا، لم يفقد أبداً إيمانه. غير أن الشواهد كانت تبدو أن إيمانه يقوم على غير أساس. فقد أصبح مع مرور الأعوام أشد تبلداً في الإحساس، وأكثر حباً للملذات، وأقل وعياً. كل هذه الأعوام مع ديانا عائداً إلى البيت في القطار إلى الشيري والعشاء وآخر تنسيق للزهور تقوم به ديانا. وحتى مجيء ليزا تركه أيضاً دون شفاء من الغشاوة التي رانت على عينيه.

twitter @baghdad_library

ولم يحدث إلا متأخراً فحسب، حين بدأ في «دفتر اللطائف»، أن تحول إيمانه المُهَوَّش إلى أمل أشد حدة، أم لعله حتى هنا قد ضل في تفسير ما حدث؟ أكان هذا الاحساس الأشد حدة بالحياة، هذا الفهم المثير للوجود ـ ربما لم يكن راجعاً إلى حضور ليزا في المنزل ووعيه الذي ما زال خامداً بأنه يحبها؟ ربما كانت ليزا، لا الشعر ـ هي التي سيكتمل بها مصيره.

يا رب ارحمنا، يا رب ارحمنا، يا رب ارحمنا. يا سيدنا المسيح ارحمنا، يا سيدنا المسيح ارحمنا، يا سيدنا المسيح ارحمنا. وناجى مايلز نفسه قائلاً: ألن يكون في إمكاني أن أحل لغز نفسي. معاناة الحب، الحب المجنون L'amour Fou، أشبه كثيراً بحالة روحية. وكان أفلاطون يعتقد أن أي حب قادر على أن يسوقنا إلى حياة الروح: ربما كان ذلك لأن معاناة الحب تقنعنا إقناعاً شديداً بحقيقة الحب نفسه وسلطانه، ذلك الحب الذي لا تعرف الحياة الراكدة عنه شيئاً. غير أن معاناة الحب ترتبط أيضاً بإحياء الذات الشهوانية النهمة وتضخيمها. مثل هذا الحب يلتقي بالعذاب، والغياب، والفراق، والألم، بل إنه ينتشي بهذه المشاعر جميعاً: غير أن الشيء الذي لا يستطيع أن يواجهه هو الموت، الفقدان التام. هذه الرؤية هي التي يتقبلها أبداً والتي سيقذف بها بعيداً مهما كان الثمن، وسيعمل على تحويلها، وحَجْبها. أخذ مايلز يجاهد في الفكر: قال لنفسه: المفتاح موجود هنا في مكان ما، ولكن أين؟ أمن الممكن أن تتلاءم هذه الشذرات معاً؟ أنا لا أكاد أرى أي معنى على الاطلاق، إنني أهذي، أهرف بما لا أعرف.

وانزلق إلى الأمام على ركبتيه، وكأنه ينوء بضغط على كتفيه. وكان قد ركع في الكنائس من حين إلى آخر في الأعوام الأخيرة، وهو يشعر بشيء من الوعي بذاته، وبوعي واضح بأنه يرضى حاجة عاطفية أكثر صلة بالجنس منها بالفضيلة. غير أنه الآن لم يكد يشعر بما فعل. الحب والموت Eros and Thanatos: زوجان زائفان، وزوجان أصيلان. وفي تحويله لموت

پـارڤاتي إلى شيء يستـطيع أن يتحمـل تأمله، وفي استخـدامه لهـذا الغرض الموهبة الوحيدة التي يعتقد أنها مقدسـة، تصرف تصرفاً إنسـانياً، متسـامحاً، وإن بدا له الآن على نحو ما أن هذه الجريمة التي تكاد أن تكون محتومة، قد جعلت حيـاته كلهـا تسلك الاتجـاه الخـاطىء. حقـاً، لقـد أحب پـارڤـاتي بالطبع، أحبها بعاطفة الشـاب الشاملة التي لا تعـرف التخصيص، غير أن مثـل هذا الحب لا يمكن أن نتـوقع محـاربته للمـوت، وكـانت الهـزيمـة هي النتيجة الطبيعية. ولكن لماذا يبدو هذا كله الآن بغتة حيا كـل هذه الحيـاة، قريباً أشد القرب، مهماً إلى هذا الحد؟ أتراه مُنح فرصة ثانية؟ وحدث مايلز نفسه قائلاً: إنني أهذي، إنني أهذي.

كـان يعـرف، ويعـرف في خـوف ورعـدة ـ أن الفن الجيـد يصـدر عن الشجـاعة، والتـواضع، والفضيلة، وفي أشـد اللحـظات تثبيـطاً في تيقـظه الطويل شعر بفشله المتواصل في أن يكون ببساطة النتيجة الضرورية التي لا ترحم لتفاهته العامة ولدنيويته المهذبة الوديعة، وحبـه للطمأنينـة. كان ثمـة حـاجز لا بـد من اجتيازه، ولكنـه لم يستطع اجتيـازه، وكان هـذا الحـاجـز حاجزاً أخلاقياً. ألا يـزال من الممكن ـ على نحـو ما ـ شق قلبـه إلى نصفين وإلقاء أسوأ النصفين بعيداً؟ كان مايلز يعلم أن مثل هذا الأمـر لا يمكن أن يكون هيناً، أو حتى تصـوُّره. الكائن البشرى شرَك، مستنقـع، غابـة. ولا يمكن إلا أن تـأتي من مكان بعيـد جداً، كـالحلم، كالـرؤيـة الملحَّـة، تلك الصورة للحب الحقيقي، الحب الذي يسلِّم بالموت، الحب الـذي يحيا مـع الموت.

كان يفكِّر: ليزا، ليزا، لا أستـطيع ولن أتنـازل عنك. ولكن كيـف، وآه من كيف هـذه! كيـف يمكن أن يعيش المـرء هـذا كله، كيـف يمكن أن تـأتي إليه تلك الرؤية لنجدته، وهل يمكن أن تصل إليه في الحد الأقصى والملتوي الأخـير لاحتياجـه؟ ارحمنا يـا رب، ارحمنا يـا رب، ارحمنا يـا رب. وأخذ

twitter @baghdad_library

مايلز يصلي قائلاً: أغثني، أغثني، وهـو يضغط بيديـه يائسـاً على عينيـه. لم يكن يشعر في تلك اللحظة أن صيحته غير مسموعة. ولكنـه كان يعلم، في انقباضة عميقة من القنوط، أن الالـه الذي يصـلي له كـان مَلَكه الشعـري الخاص، وأن هذا المَلَك كانت تعوزه القوة لتقديم المعونة إليه الآن.

(٢٢)

كان دينبي يسير في «حدائق كمبسفورد». وكان الوقت حوالي العاشرة من مساء الأحد، والمطر ينهمر، ويظهر فجأة في ضوء المصابيح، غزيراً، يئز ويلمع كإبر الجرامُفون.

دينبي يمشي في حالة من الذهول، وقد حلَّ أزرار معطفه، والمطر يسيل من شعره، وينسكب على عنقه. أمضى يومه في حالة من الهياج المتصاعد، عاجزاً عن الأكل، يريد أن يكون مريضاً، دون أن يقدر على ذلك. أثار ثائرته أنه أضاع زيارة ليزا الأخيرة، ولم يكن يستطيع أن يسمع الرجل العجوز يتحدث عنها بهذا الهدوء ـ دون أن يزمجر. وكان قد بعث إليها بالبريد رسالتين أخريين. ولم يكن قد رأى أديليد التي كلما خطرت على فكره أوحت إليه بشعور بالذنب والخوف معاً. وكان قد أحس بشيء من الارتياح عندما طرق بابها دون جدوى. فكتب إليها كلمة يقول فيها إنه يأمل أن تكون في حالة أفضل، ولم يلبث أن وجد الورقة ممزقة إلى جذاذات صغيرة ملقاة على السلالم. والواقع أنه في يومي السبت والأحد ظل غائباً اليوم كله، ما دامت ليزا قد أخبرت برونو بأنها لن تأتي، فغادر المنزل مبكراً وعاد متأخراً، يتجول في الطرقات دون هدف، ويقضي كل لحظة ممكنة في الحانات. وكان الآن مخموراً تماماً.

twitter @ baghdad_library

وما إن جلس في حانـة «الأجراس الستـة» Six Bells في «طريق الملك» King's Road، حتى حاول أن يكتب خطاباً إلى ديانا، فكتب ما يلي:

عزيزتي ديانا

سوف تحسبينني مجنوناً، ولكنني أحب أختك. ولا أستطيع لهـذا تفسيراً. إنـه شيء مطلق. أرجـو أن تغفري لي مـا صنعتـه من عبث، لم يكن الأمـر جدِّياً، وما كان ينبغي أن يحدث. أما هـذه المسألـة الأخرى فجـادة تمامـاً. اصفحي عني وحاولي نسياني.

دينبي

حملق في الخـطاب برهـة من الزمن وهـو يرسم عليـه دوائر بكـأسه. ثم قام بتمزيقه. لم يكن في وسعه أن يكتب عـلى هذا النحـو إلى ديانـا. كانت النبرة السائدة عليه في غاية من الوضاعة. وما كان يستطيـع أن يطلب منهـا نسيانه، هذا حمق واضح. ثم حدث له مـا هو أهم من ذلـك. ماذا لـو أن مايلز اطّلع على الخطاب؟ كان رأي مايلز فيه سيئـاً بالفعـل دون حاجـة إلى هذه الإشارة عن ميله إلى العبث، وأسوأ من ذلك أن يكون هذا العبث مع زوجـة مايلز بـالذات. وبشيء من الحظ يمكن ألا يعلم مـايلز بهذه الحكـاية أبداً. ولاريب أن مايلز ينظر إلى ليزا على أنها أخته، وبالتالي سيعارض حبه لها في هذا السيـاق كمعارضتـه للحب الأول، وللأسبـاب نفسها. وحـدَّث دينبي نفسـه: وفي هذا أيضـاً سيكون عـلى حق، عـلى حق تمـامـاً، ولكنني أحبها، وهذا يجعل كل شيء مختلفاً تمام الاختلاف على نحو ما.

ومع ذلك، ما هو هذا الاختلاف؟ إن حبه لم يكن يستطيع أن يجعل منه شخصاً أكثر قبولاً، أكثر جدارة، أكثر رزانة. كيف يمكن أن يوضِّح أن هذا الحب قد شفاه من النزف؟ لو أن ليـزا لم تشاهـده وهو يقبّل ديانـا! غير أن الحقيقـة هي أن خطابـه إلى ديانـا يبدو خسيسـاً لأن الوقـائع نفسهـا كـانت خسيسة. وأخذ دينبي يستعرض نفسه شـاعراً بعـذاب الهوان أثنـاء سيره في

الشوارع الممطرة التي تهب عليها الرياح، منتظراً أن تفتح حانات المساء أبوابها. كان طيشه في إقدامه على حب هذه الفتاة خرافياً. فلم يكن يملك من الصفات ما يسترعي التفاتها إليه. وقد ظل واثقاً من قدرته على الفتنة ثقة مبهمة لا أساس لها ـ زمناً طويلاً حتى بعد أن أخذت أكثر مواطن جاذبيته ابتذالاً في الأفول. ولأن أديليد المسكينة أحبته، تخيل أنه يستطيع أن يحصل على النساء طرا بمجرد أن يطرقع بإصبعه. كان كهلاً بديناً أشيب الشعر، خشن ملامح الوجه من أثر إدمانه للخمر. كان مضحكاً، وكان مثيراً للشفقة، ولا فرصة لديه، ولا معنى لحبه، ودون اعترافه بالهزيمة الفورية سيطيل من عذاب لا غَناء فيه.

غير أن الحب لم يُعر لهذا النوع من الحجج أذناً صاغية أبداً، ولو للحظة واحدة، وهكذا تعايش تواضع دينبي مع ثقة قوية في نفسه تعايشاً غريباً. ولم يسعه إلا أن يشعر بنفسه ـ لا سيما بعد أن فتحت الحانات المسائية أبوابها منذ ساعة أو ساعتين ـ مُقْبلاً على مغامرة رائعة زاخرة بالآمال. هذا الإحساس بالمغامرة، وقد تصاعد بمزيد من الكؤوس ـ ساق قدميه الآن في اتجاه «حدائق كمبسفورد».

وقف دينبي في المطر يترنح قليلاً بينما أخذ يراجع ويعيد مراجعة رقم المنزل. لم تكن هناك أنوار في الواجهة. ومن غير المحتمل أن يكونوا قد أوَوْا إلى مضاجعهم. كان شعوره بالزمن مشوّشاً إلى حد ما، غير أن الحانات ما برحت مفتوحة، ومن ثمّ، لم يكن الوقت متأخراً جداً. ارتقى درجات السلم حتى بلغ الباب، فوضع يده عليه. والآن بعد أن أصبح هنا بالفعل، أفاق قليلاً بفعل الخوف والانفعال. ماذا يظن أنه صانع بحق السماء؟ انحنى كثيراً، واختلس النظر بحذر خلال صندوق الخطابات. وفوق رأسه امتد شعاع من الضوء من حجرة مضيئة مغلقة. واعتدل دينبي في وقفته وشرع يدق السطح الأملس الملون من الباب. ورفع يده، ولكنه لم يجد من نفسه الشجاعة للمس المطرقة.

twitter @baghdad_library

قال لنفسه: لا أظن أنني سأحاول التحدث إليها على كل حال، فأنا سكران تماماً. لن أثير فيها إلا الاشمئزاز حين أبدو لها في هذا المظهر. وفضلاً عن ذلك، هناك مايلز وديانا. وعندما أمعن الفكر، قال لنفسه: فليكن لها مزيد من الوقت للتفكير فيّ. وسأنتظر حتى ترد على رسائلي. وما برح يتعمق الفكر حتى قال لنفسه: بالوضع الحالي للأمور، ما زلت أستطيع أن آمل وأن أتخيل. ولو رأيتها، ربما وَأَدْتُ الأمل. وابتعد عن الباب. غير أن إحساسه بقُرْبها سمَّره في مكانه مغناطيسياً كأنما التفَّت حول عنقه أنشوطة. لن يتحدث إليها، ولكنه لم يكن يستطيع الابتعاد عنها. فوقف لحظة وقد استبدت به الحيرة. ليته يستطيع أن يراها دون أن يراه أحد!

وكانت المنازل في كمبسفورد تشكِّل شرفة واحدة دون فجوات بينها. وشرع دينبي يرتد على آثاره قَصَصاً صوب «طريق برومبتون القديم» Old Brompton Road. لا بد أن هناك طريقاً يلتف من الخلف. فسار إلى جوار بعض حظائر السيارات، واستعرض ظهر الشرفة التي تناثرت فيها النوافذ المضيئة على هيئة قوس في الظلمة الممطرة التي تخفق بالومضات حيناً بعد حين. وانحدرت الحدائق التي تحيط بها الجدارن لتلتقي بأعدادها المقابلة في «إيردلي كريسنت» Eardley Crescent. لم يكن هناك ممر، أو بوابات خلفية. وقدّر دينبي ارتفاع أقرب جدار. وفي اللحظة التالية كان قد اعتلاه. وشعر حينذاك بأنه يستطيع أن يتسلق سور كنيسة القديس بولس. وانزلق إلى الأرض خائضاً في الوحل، متخبطاً عبر حديقة مظلمة حتى تسلق الجدار التالي. وجلس لحظة منفرج الساقين. ما هذا الذي يفعله؟ أجل، ولكن كان ينبغي عليه أن يعد المنازل، وها هو يشرد عن العدّ فعلاً. وفتح شخص وراءه إحدى النوافذ فسقط داخل دغل شائك شديد الكثافة في الحديقة التالية. فاستجمع شتات نفسه خارجاً وهو يسمع صوت سراويله وهي تتمزق بهدوء. ويبدو أن شوكة طويلة انغرست في لحم فخذه

الناعم. تخبط بشكل واضح فتوقف برهة ليسترد إحساسه بالاتجاه. ثم واصل سيره في طريق مستقيم حيث أنارت نافذة لا يحجبها ستار بقعة من الحشائش الخضراء التي لطمها المطر؛ جدار آخر، أو لعله جداران، ثلاثة جدران.

وبدا له أن كمية متزايدة من قوالب الطوب والدبش كانت تتساقط من أعلى الجدران لتثقل عليه، وتستقر في حذائه وجيوبه. وفيما هو يتعثر قُدُماً إلى الأمام اصطدمت ساقه بشيء، استنتج من الطريقة التي انقلب بها وتكسر بالتالي أنه تمثال قزم خبيث يضع على رأسه قلنسوة حمراء. هذا شيء لا يمكن أن يوجد في حديقة مايلز. أين هو إذن؟ والتمس الجدار التالي وهو يلهث قليلاً، ويقتلع نفسه من غصن متين من نبات الوستارية(*) فرقع بصوت مرتفع تحت قدميه. وأحس فجأة بأنه واهن منهك القوى، وأن إحساس القديس بولس قد ولّى تماماً. وفي ركبته اليمنى التي خبطها خبطة سيئة دون أن يفطن لذلك ـ ألمٌ نابض. فوقف وسط المرجة وهو يتنفس نَفَساً عميقاً، محاولاً أن يستخرج الشوكة بهزات والتواءات معينة، وكان يبدو أنها ما زالت تنفذ داخل فخذه. ثم تعرف في الضوء المعتم المنبعث من باب المنزل التالي ـ على المدخل المعروش المقوس، وعلى الروابي المحدّبة التي تكسوها الشجيرات، وعلى الرقعة المنبسطة اللامعة من الرصيف المبتل. وخرجت الشوكة أخيراً.

وكانت النافذة الفرنسية التي يبدو هيكلها في الضوء المنبعث من الداخل قد أُسدل عليها الستار بإحكام. وشعر دينبي بأنه لا بد قد أحدث ضجة كبيرة منذ لحظة خلت، فتقدم إلى الأمام بأقصى ما يستطيع من الهدوء، متخطياً الحشائش إلى الرصيف. ويبدو أن نعال حذائه كانت

(*) Wistaria نبات معترش ذو زهر عنقودي أزرق أو أبيض أو أرجواني.

twitter @baghdad_library

تلتصق بالرصيف المبلل، وكلما انتزعت نفسها منه أحدثت صوت شَفْط طفيف. غير أن أزيز المطر المنتظم ابتلع هذه الضوضاء الضئيلة. ولم يكن ثمة فرجة ظاهرة على جانبي النافذة، ولكن كان يبدو أن هناك ثغرة دقيقة متروكة في الوسط حيث أخفقت الستائر في الالتقاء. ولمست يد دينبي الباحثة الزجاج فارتعش من ملمسه الهش، وأَقَرَّ نفسه على ساقين منفرجتين. وانحنى إلى الأمام ابتداءً من خصره، وقد همَّت عيناه بالخروج من محجريهما، محاولاً أن يختلس النظر من خلال تلك الثغرة. وانتقل نقلة أخرى حذرة إلى الأمام فأصبح قادراً الآن على رؤية ما بداخل الحجرة. كان مشهداً ترفرف عليه السكينة والدعة. كان كل من مايلز وليزا وديانا عاكفين جميعاً على الكتب. وكان مايلز وديانا يجلسان في مقعدين وثيرين كل منهما على أحد جانبي المدفأة، على حين اشتعلت نار هادئة كل الهدوء من وقود خشبي. وتحكّم دينبي في تنفسه، وبيد قوية احتوى نبضات قلبه العنيفة التي أخذت سرعتها تتزايد فعلاً.

أما مايلز ـ الذي كان مولّياً نصف ظهره لدينبي ـ فقد رفع رأسه عن كتابه، ونظر أولاً إلى رأس ديانا المحنيّ، ثم إلى رأس ليزا المحنيّ أيضاً. وفيما كانت ديانا ترفع رأسها عاد مايلز بانتباهه إلى كتابه. ونظرت ديانا أولاً إلى رأس مايلز المنكب على الكتاب، ثم إلى رأس ليزا المنكب على الكتاب. وعندما شرعت ليزا في رفع رأسها عادت ديانا بانتباهها إلى كتابها. ونظرت ليزا أولاً إلى رأس ديانا المحني، ثم إلى رأس مايلز المحني. وحينما بدأ مايلز يرفع رأسه مرة أخرى عادت ليزا بانتباهها إلى كتابها. وساد صمت عميق. وأخذ دينبي يرمق ليزا. وكانت ساقاها مثنيتين تقريباً تحتها وشعرها الغزير الفاحم يتدلى إلى أسفل ليمسح صفحات الكتاب. وكانت ترتدي ثوباً تحتانياً من الأزرق البحّاري له ياقة القميص، وتحيط عنقها بوشاح أخضر. وخطر لدينبي أن هذه هي المرة الأولى التي يراها دون أن تكون مرتدية معطفها البني. وكانت هذه أول مرة يشاهد فيها واحداً من

ثيابها، وكانت أيضاً المرة الأولى التي يلمح فيها توتر جسدها داخل ملابسها، ويلاحظ الانسياب الحريري لركبتيها اللتين تغطيهما الجوارب، ويتأمل ساقيها. وكانت تضع قدميها في خفَّيْن ناعمين من الأزرق والأخضر. وأحاط دينبي بالثقل الملفوف لجسدها، واندفاعة نهديها ضد ثوبها الأزرق البحاري، وانحناءة ردفها الملساء الممتدة، ونحافة كاحلها العظمية، وما يمكن أن يكون عليه الأمر إذا ركع على الأرض، وتناول في يده بهدوء شديد إحدى هاتين القدمين المتنعلتين تلك النعومة. وأغمض عينيه برهة. وحين فتحهما أدرك أن ديانا كانت تنظر بتعبير مرتاع إلى الثغرة الموجودة في الستار مباشرة.

استدار دينبي وابتعد بسرعة عن النافذة وهو يطأ الأرض الناعمة والنباتات اللينة الرطبة. وتعثر منتقلاً من الرصيف إلى الحشائش، وبخطوات واسعة هادئة تراجع داخل الحديقة. وكان السياج الكثيف متطاولاً فوقه، فعَبَر من خلال الفضاء الأسود القائم في منتصفه ليدخل السياج الصغير الموجود بين السور والجدار. وتخبط خلال كومة من مادة لزجة مبتلة ربما كانت بقايا نار مطفأة. وبدت نوافذ المنازل المضيئة وكأنها عيون غامضة جوفاء توجِّه إليه الاتهام وتحاصره جميعاً. وبصيص منتشر من النور كشف له عن الحائط، وعن الخطوط المحددة للسقوف ومداخن المدافىء والأشجار، والخطوط الشاحبة للمطر على مهاد من سماء لندن السوداء المائلة إلى الحمرة. وأخذ يتحسس الجدار، كان يبدو أطول مما كان، فحاول أن يستجمع قوته لتسلقه، غير أن ذراعيه كانتا ضعيفتين كقطعة من العجين، فسقط بعنف فوق ركام الرماد اللزج.

وفجأة تشكل شخص على قُرْب شديد منه.

- «دينبي، أهذا أنت؟».

- «ديانا!».

- «هش. لم يرك الآخران».

twitter @baghdad_library

ـ «ديانا، أنا شديد الأسف. . .».

ـ «تكلم همساً، لا ترفع صوتك! كيف جئت إلى هنا؟».

ـ «تسلقت الجدران».

ـ «من الأفضل أن ترجع متسلقاً للجدران!».

ـ «أجل، بالطبع، يا ديانا. كنت أحاول التسلق عندما وصلتِ».

ـ «أنت أحمق مطلق. ما كان ينبغي أن تأتي ليلاً على هذا النحو».

ـ «ديانا. كنت أنوي الكتابة إليكِ. . .».

ـ «شكراً لله على أن مايلز لم يرك. والآن، إذهب في هدوء بحق السماء. ألا تستطيع الصعود؟».

ـ «كلا، فهذا صعب إلى حد ما. المسألة ـ يا ديانا ـ هي أنني كنت أنوي الكتابة. . .».

ـ «لا تكتب، أيها الأبله. تستطيع أن تراني بسهولة أثناء النهار. ما عليك إلا أن تتصل هاتفياً».

ـ «ديانا، أريد أن أشرح. . .».

ـ «لا أستطيع أن أتصور ما حدث لك. ظننت أنك أصبت ببرد في قدميك، أو شيء من هذا القبيل. والآن، أراك في هذا الوضع!».

ـ «ديانا، ينبغي عليّ. . .».

ـ «هل أنت سكران؟».

ـ «أجل».

ـ «إذن، انصرف. حبيبي دينبي، لست غاضبة عليك حقاً. كل شيء على ما يرام. أحسستَ فجأة أنك يائس، وشعرت بأنه لا بد لك من أن تراني. أفهم ذلك جيداً. والآن، أرجو أن تذهب بحق السماء!».

ـ «ديانا، أنا. . .».

ـ «لا أريد أية مشاكل، يا دينبي، كل ما ارجوه هو أن تذهب».

- «فليكن. كل ما في الأمر أنني أشعر بضعف شديد. ولا أستطيع أن أتسلق الجدار الملعون».

- «من المستحسن أن تقف على شيء. ثمة صندوق خشبي هنا في مكان ما. انتظر لحظة».

- «ولكن، كيف سأخرج من باب الحديقة المجاورة؟».

- «لا أعبأ بكيفية خروجك من باب الحديقة المجاورة. ما أريده هو أن تخرج من هذه الحديقة».

- «أيزعجك أن آخذ الصندوق معي؟».

- «أوه، دينبي! هنا...».

- «هش. ديانا، يخيل إليّ أنني سمعت شخصاً يتحرك هناك فوق..».

- «لا أحد هناك. لم يرني أحد حين خروجي. أيمكنك أن تساعدني على رفع الصندوق؟».

وانحنى دينبي إلى الأمام. وكان يستطيع أن يرى ذراع المهرج من المعطف المبتل قريباً منه. ويبدو أن الصندوق كان مدفوناً إلى نصفه في الأرض. فخرج بصوت مكتوم، وبقعقعة من الحجارة.

- «هش!».

وتخبط دينبي بالصندوق، ووضعه على حافته مستنداً إلى الجدار. وشرع في الصعود.

- «دينبي، هذا جنون من أوله إلى آخره».

- «أخشى أن يكون أشد جنوناً عما تعلمين، يا عزيزتي».

- «كن على حذر، لا تكسر كاحلك، من فضلك».

- «لقد ابتلت ثيابك تماماً، يا ديانا. من الأفضل أن تدخلي. أنا الآن على ما يرام».

- «أين يدك؟».

twitter @baghdad_library

وبسط دينبي راحته في الظلام، فأحَس بيديْ ديانا تتشبّثان بها في عنف، فجاوبها بضغطة من يده، وانسحب بسرعة بعيداً.

وفجأة أضاء نور ساطع مدخل السور، وتركز على دينبي الذي كان بسبيل رفع ساقه إلى قمة الجدار. قال صوت مايلز: «ماذا يجري هنا بحق السماء؟».

تراجعت ديانا بسرعة، وسحب دينبي ساقه، ولكنه ظل واقفاً على الصندوق. وغطى عينيه اللتين انبهرتا بأشعة المصباح.

قال مايلز: «ما هذه المهزلة؟ ماذا تصنع في حديقتي، بحق الجحيم؟».

هبط دينبي من الصندوق ببطء: «ألا تفضلت بإبعاد هذا المصباح عن وجهي؟».

وانخفض المصباح الكهربائي كاشفاً عن خطوط من قطرات المطر، ودائرة من الحشائش المهملة، وتربة متناثرة، ورماد النار الخامدة. واستطاع دينبي الآن أن يتبين شكل مايلز، مستقياً تماماً تحت مظلة كبيرة سوداء.

قال دينبي: «آسف».

فقال مايلز: «إنك لم تجب على سؤالي. ماذا تصنع هنا؟».

- «كنت أريد أن أرى فحسب...».

- «تعني أنك كنت تتجسس؟».

- «كلا، الواقع أنني لم أكن من الشجاعة بحيث أطرق الباب، ومن ثمّ، فقد تسلقت الحائط و...».

- «أيها الوغد الحقير الملعون، تتسلق جدارنا، وتحطم ورودنا!».

- «ثم رأتني ديانا و...».

- «أين رأتك ديانا؟ عَمَّن تتحدث؟».

قالت ديانا بصوت واضح فاتر: «كان ينظر من خلال نافذة حجرة الجلوس، خلال ثغرة في الستار». وكانت قد تراجعت ووقفت في الظلام بالقرب من الجدار الآخر.

فرفع مايلز البطارية في اتجاهها كاشفاً عن جوربين قاتمين تناثر عليهما رشاش المطر، وخُفَّينْ تلبسهما في حجرة النوم موحلينْ.

ـ «لماذا لم تخبريني بحق الجحيم؟».

ـ «لم أكن واثقة ممن يكون».

ـ «تقصدين أنك خرجت بمفردك لمواجهة دخيل؟».

ـ «لا عليك، أعني أنني كنت أعلم حقاً أنه دينبي، ولكن...».

ـ «يبدو أن كل شخص هنا قد أصابه الجنون».

قال دينبي: «أرجو المعذرة، أعتقد أنه يجب عليّ أن أذهب حقاً». وتسلق الصندوق مرة أخرى.

ـ «كلا، لن تذهب. ستبقى حتى أخبرك. بشيء أو شيئين».

ـ قال دينبي: «لا أشعر بأي مزاج للمحادثة». وشرع في رفع ساقه.

ـ «أنت ثمل، أليس كذلك؟».

ـ «بلى. والآن، يجب حقاً أن أرحل».

ـ «أنا أعلم لماذا أتيت إلى هنا هذه الليلة».

قالت ديانا: «مايلز...».

وأنزل دينبي رجله.

قالت: «مايلز». أظن أنه من المستحسن أن نتحدث...».

وهبط دينبي متثاقلاً من الصندوق وقال: «ديانا، لا تقولي أي شيء. كل شيء سيكون واضحاً فيما بعد.»

قال مايلز: «أجل، يا ديانا، ألا ذهبت من فضلك؟ ادخلي أرجوك، ولا تخبري ليزا بأي شيء. سأتصرف مع هذا السكير المأفون».

وبحركة وداع مستسلمة خفيفة تلاشى معطف المهرج في الظلام.

ورسمت البطارية دائرة ساطعة على الأرض بينهما.

قال مايلز: «أريد أن أقول لك شيئاً. وأرجو أن تكون من دماثة الخلق بحيث تتصرف تبعاً لذلك».

twitter @baghdad_library

ـ «ماذا؟».
ـ «كنت تريد أن تراها، أليس كذلك؟».
وحاول مايلز أن يستجمع ذهنه. عمَّن كان يتحدث مايلز؟ «بلى، كلا».
ـ «أنت مرتبك. ولا أستغرب أنك استحييت من طرق الباب».
قال دينبي: «لم أكن أريد أن أتسبب في أية متاعب. أية... متاعبة».
ـ «لا تقلق، فإنك لا تقدر. وإن كنت أعترف أن سماجتك مرتفعة القيمة».
ـ «ماذا تعني بأنني لا أقدر؟».
ـ «لأنك ستبتعد، وستبقى بعيداً».
قال دينبي: «إني لأتساءل هل يفهم كل منا الآخر تماماً؟ كنت أريد أن أرى ليزا».
ـ «أعرف. ولكنك لن تراها. وتستطيع أن تكف عن مضايقتها بخطاباتك الوقحة».
ـ «يا للسيد المسيح! إنها لم تطلعك على رسائلي، أتراها فعلت ذلك؟».
ـ «كلا. ولكنها قالت إنك كتبت إليها أكثر من مرة».
ـ «فليكن، ولماذا لا أكتب لها بحق الجحيم؟ ليس في الأمر جريمة أن يحب المرء شخصاً ما. وما هذا الاهتمام كله الذي تبديه من أجل هذا الموضوع؟ ليس هذا من شأنك تماماً، أليس كذلك؟ إنك لست أباها. بل إنك لست أخاها أيضاً. إنها امرأة ناضجة، وهي حرة».
ـ «إنها ليست حرة. هذه هي المسألة».
ـ «ماذا تقصد؟».
ـ «إن عواطفها مشغولة. وهي شخص ملتزم. إنها تحب شخصاً آخر».
استند دينبي إلى الجدار. وكان المطر يلطم وجهه ويتسلل هادئاً إلى عموده الفقري، بارداً في أول الأمر، ثم صار أدفأ عندما بلغ منتصف ظهره.

ـ «أأنت واثق؟».

ـ «أجل، أنا واثق، آسف إن كنت أبدو عقلانياً، ولكن يجب أن تعرف هذا. إذن، لعلك تظل بعيداً من الآن فصاعداً».

تنفس دينبي بعمق. وغض من بصره محملقاً إلى الدائرة المضيئة من رماد الخشب النديّ المائل إلى اللون البنفسجي. «انظر، يا مايلز، لقد سمعت ما تقول. ولكنني أحبها. أعني أنني أستطيع أن آخذ هذا منك...».

ـ «تحبها!».

ـ «أجل. هل ليزا مخطوبة فعلاً..؟».

ـ «ليزا ليست من شأنك. وحتى لو لم تكن مرتبطة فعلاً... فإنها لا يمكن أن تتصور شيئاً من الاهتمام بك. والتفاتك إليها لا يسبّب لها إلا الارتباك. وأثق بأنه سينقطع الآن».

ـ «لا أظن أنك تستطيع أن تصدر إليّ أمراً في الموضوع على هذا النحو، إنك تعرف...».

ـ «أنا أعرف ما تفكر فيه عن هذا الموضوع. كل ما في الأمر أنني أُخطرك بما أعرف. وأظن أن هذا النوع من المطاردة المخمورة للفتيات تسلية ظريفة منتظمة تضيِّع فيها وقتك. فليكن، ولكنك أخطأت هذه المرة في اختيارك لليزا. وأقترح أن تنتقل إلى الفتاة التالية».

ـ «أنا جاد، عليك اللعنة».

ـ «أنت شخص مضجر. والآن، تستطيع أن تذهب. ابتعد عن أرضي. وامض من حيث جئت».

ارتشعت دائرة الضوء المسلّطة على الأرض، ثم انطلقت إلى أعلى، فستر دينبي عينيه في مواجهتها. فهبطت الدائرة مرة أخرى، وأطفىء النور، وما برح ظل المظلة باقياً.

ـ «استمع إليّ من فضلك...».

twitter @baghdad_library

ـ «لم يعد ثمة ما يمكن قوله. سأدخل، حالما أراك فوق الجدار».

ـ «عليه اللعنة، لن أكتفي بما تخبرني به عما تفكّر فيه ليزا. سأتصرف وفق ما أراه مناسباً».

ـ «إذا اتصلت بها بعد ذلك فسيكون تصرفك أشبه بالأوغاد».

ـ «إنها ليست بحاجة إلى حمايتك. ماذا يهمك من هذه المسألة، بحق السيد المسيح؟».

ـ «مايلز، ما المسألة؟».

وانتصب ظل معتم تحت المدخل المعروش، وأخذ يتلاشى في ظلمة السياج كلما اقترب من مايلز. وبدأ المطر يئز بقوة متزايدة. وبسط دينبي يديه. ثم أخذ يضغط راحتيه راجعاً بهما بعنف على السطح الخشن الصلب للجدار.

ـ «ليزا!».

ـ «من هناك، من الذي تتحدث إليه؟».

ـ «دينبي».

ـ «خيِّل إليّ أنني أسمع ضجة».

ـ «قلت له أن يرحل. عودي إلى الداخل، يا ليزا».

ـ «انتظر لحظة».

وملأت الصمت فورةٌ من المطر كأنها تنهيدة طويلة.

ـ «مايلز، أود أن أتحدث لحظة إلى دينبي. أمن الممكن أن تتركنا؟».

ـ «ليزا، لا تكوني حمقاء! إنه ثمل».

ـ «أرجوك، يا مايلز».

ـ «قد يرتكب هذا المعتوه أي شيء».

ـ «كلا، كلا...».

ـ «إذن، تعالي في الداخل. فلا داعي لهذا البلل والتحدث في الظلام».

ـ «كلا، هنا. إذهب أنت يا مايلز. لن أمكث أكثر من لحظة واحدة، أرجوك».

ـ «ستبتلين تماماً. كما أنني لا أحب أن أتركك على الإطلاق».

ـ «دقيقة واحدة فحسب، يا مايلز».

ـ «فليكن لك ما تشاءين. سأرجع إلى الشرفة. نادي عليّ إذا احتجت إليّ. إليك، خذي هذه المظلة والبطارية».

ـ «أنا لا أريد المظلة، ولا البطارية. اذهب فحسب، لمجرد دقيقة واحدة».

وسار مايلز متثاقلاً عبر الطريق المعروش وهو يغرز المظلة، ووقع قدميه يمكن أن يُسْمع وطؤه على الحشائش.

انفصل دينبي عن الجدار، وترنح إلى الأمام. ولم يلبث أن تهاوى إلى حد ما، وألقى بنفسه إلى حد ما ـ على ركبتيه فوق رقعة الأرض الرطبة اللزجة من التربة والرماد. «ليزا، ليزا...».

ـ «انهض من فضلك. لماذا أتيت إلى هنا؟».

ـ «أردت أن أراك. ونظرت من خلال النافذة. يا للسيد المسيح...».

ـ «هل أسرفت في الشراب؟».

ـ «كلا».

ـ «انهض، إذن».

ـ «ليزا، أريد أن أقول لك إن الأمر جاد، رهيب، مطلق».

ـ «آسفة...».

ـ «ليزا، أنبأني مايلز أنك تحبين شخصاً ما. وقال إنك مخطوبة».

ـ «يا إلهي...».

ـ «إذن، فهو شيء حقيقي؟».

قالت بعد لحظة من الصمت: «أجل، إنه حقيقي».

twitter @baghdad_library

وقام دينبي متئداً على قدميه. كان من العسير عليه أن ينهض، فقد كانت ركبته تؤلمه إلى أقصى حد. قال في صوت فاتر: «لن أتخلى عن الأمل، على كل حال».

- «لا تفعل ذلك. كل ما أردته هو أن أشكرك على رسائلك. أنا معترفة بجميلك. ويعلم الله أنني لا أريد أن أجرح مشاعرك. ولكن، أرجوك أن تحاول الامتناع عن التفكير فيّ على هذا النحو. فليس لدي شيء أمنحه لك، ولن يكون ثي هذا التعلق أي خير. أرجوك أن تصدِّق هذا. فأنا لا أريدك أن تبدد وقتك على شيء لا جدوى منه تماماً، شيء لا خير فيه على الإطلاق».

قال، رافعاً صوته: «لا تقولي أكثر من ذلك، لا تقولي أكثر من ذلك. اصفحي عني».

«تعال من خلال المنزل. لا داعي لأن...».

كان دينبي قد اعتلى قمة الجدار فعلاً. أما كيف أجتاز الحدائق المجاورة فأمر لم يستطع أن يتذكره فيما بعد. ربما طار. وهناك شخص صاح وراءه. لم يكن ليزا. وسقط من الجدار الأخير على الدرب المجاور لحظائر السيارات، تعثر ثم وقع. وتخبط عند باب إحدى الحظائر، حتى هبط بكل ثقله على الأرض. وهناك زحف، ثم نهض، وخرج إلى الرصيف المبتلّ الذي تضيئه المصابيح.

وقف هنيهة في الظلمة الممطرة بين عمودين من أعمدة المصابيح، مشوش الفكر، قد أصابه الدوار، وهو يترنح قليلاً على قدميه، ويرجع ببصره إلى حدائق كمبسفورد. ثم همّ بالسير متمهلاً في اتجاه «طريق برومبتون القديم». وتوقف مرة أخرى، ونظر إلى الوراء. ولم يلبث أن ركّز بصره بحدة. ظهر خلفه شكل قاتم من ناحية الشارع، وأخذ ينساب الآن بهدوء في الاتجاه المقابل صوب «طريق ووريك» Warwick Road. وتفرس

دينبي بمشقة خلال خطوط المطر. كان هناك شيء مألوف في الشكل النحيف وفي المشية المنسابة.

شرع دينبي يعود بسرعة إلى الطريق الذي جاء منه. فحث ذلك الشخص خطاه. وأخذ دينبي يعدو، وكذلك فعل ذلك الشخص. جرى دينبي بأقصى سرعته فلحق به قبل أن يصل إلى «طريق ووروبك» تحت عمود مصباح، وأطبق عليه بشدة من ياقته.

«نايجل!».

تلوّى نايجل وكافح وحاول الإفلات، غير أن دينبي أحكم قبضته عليه.

«نايجل، أيها الخنزير، إنك تتجسس! كنت هناك في تلك الحديقة!».

- «أنت تخنقني، دعني!».
- «هل كنت هناك في تلك الحديقة؟».
- «أجل، أجل، كف عن هذا، كف عن هذا...».
- «وسمعت كل شيء!».
- «إنك تقتلني».
- «أيها الجاسوس الحقير!».
- «أرجوك، أرجوك، أرجوك...».

وأخذ دينبي يرج نايجل الهزيل - الذي أصبح الآن بلا مقاومة - رجاً عنيفاً جيئةً وذهاباً، ثم قذف به بعيداً عنه. وترنح نايجل، وانزلق فوق الرصيف المبلل المنحدر، ثم سقط، واصطدم جانب رأسه بعمود المصباح في طرقعة مسموعة. رقد بلا حراك. وتوقف دينبي لحظة، وكان قد شرع في السير بعيداً - حتى أبصر نايجل يتحرك وينهض من سقطته. والتفت دينبي مرة أخرى، وواجه عصف المطر والريح، سائراً بخطى مضطربة وسط الشارع.

twitter @baghdad_library

(٢٣)

كان نايجل راكعاً إلى جوار سرير أخيه التوأم. وكـان «ويل» مستغـرقاً في نوم عميق. وثمة رذاذ من المطر يتساقط في هدوء، دون انقطاع عـلى زجاج ضـوء السماء. وإنـارة شـديـدة الخفـوت تنبعث من الشـارع الـذي تضيئـه المصابيح تكشف عن هيكـل السرير القـديم ذي الأعمدة النحـاسية، عـلى حين كان وجـه ويل الضخم المستـدير الـذي انتفخ وتصـاعدت إليـه الدمـاء من أثر النوم، يبدو ثقيلاً على الوسـادة، وشفته العليـا التي يمتد فـوقها شـاربه تختلج اختلاجاً طفيفاً.

وكشفت مـلاءات السرير المـطروحة أيضـاً عن ذراع يمنى مرتـدية منـامة منقطة باللونين الأرجواني والأبيض، وعن يد متدلية فوق حافة السرير، وقدم يسرى سمينة ضخمة تطل من رقعة أخرى من المنامـة الأرجوانيـة البيضاء. وأخذ نايجل يتأمل ملياً وضع اليد والقدم، مسلحاً بحبل طويـل، وشريطين سميكين من المطاط المثقوب، وعصا ملساء طولها حوالي عشرين بوصة.

وقرر أن يبدأ بـالقدم. فـوضع العصـا وأحد طـرفي الحبل في هـدوء على الأرض، واقترب بالطرف الآخر إلى باطن قدم أخيـه المكتنزة بـاللحم ذات الـرائحة وقـد بدت وكـأنها تنظر إليـه بتعبير وقـح. وكان الحبـل ينتهي بعقدة منزلقة أنشوطة مخيطة في شريط المطاط المثقوب داخل منـطقة العقـدة. وبدأ نايجل يسحب الأنشوطة بحـذر شديـد فوق القـدم البارزة الـوقحة دون أن

يجعلها تحتكّ بباطن القدم. وفيما كان شريط المطاط ينزل على الملاءة لمس الحافة الخشنة للكعب لمسة خفيفة، فنظر نايجل حواليه بسرعة. ظهرت ابتسامة خافتة على وجه «ويل»، ولكنه واصل نومه، وهو الآن يطلق شخيراً خفيفاً كأنه صوت رشفات صغيرة. وتململ قليلاً، محرِّكاً ساقيه، وعندما فعل ذلك دفع نايجل الذي كان يمسك بالجانب الأعلى من الأنشوطة مرفوعاً بيده اليسرى ـ دفع بيده اليمنى عميقاً داخل المرتبة، وسحب العقدة المنزلقة برفق فوق كاحل ويل. ثم وضع الجزء الأعلى من الأنشوطة بخفة شديدة عبر الساق التي تغطيها المنامة، وهو يلاحظ ثانية وجه ويل الذي استمر في ابتسامته قليلاً منتفضاً بين شخرة وأخرى.

وبعد أن نهض نايجل بهدوء من وضعه الراكع رفع الآن الطرف الآخر من الحبل عن الأرض، وبعد أن تأمل القضبان النحاسية عند قدم السرير لحظة أو لحظتين مدَّ الطرف المتحرر من الحبل بين القضبان إلى الوراء، وحول عمود السرير النحاسي القائم عند الجانب البعيد من السرير. ثم أمسك بطرف الحبل مضموماً وعالياً، وخطا جانباً دون أن يحدث صوتاً إلى رأس السرير، ودس الأنشوطة الثانية باسورتها من المطاط المثقوب خلال القضبان القائمة عند رأس السرير عبر قضيبين آخرين، ثم إلى الخارج ثانية حول عمود السرير النحاسي على الجانب القريب من السرير. وكان المعصم أقل صعوبة. فقد أمسك نايجل بالجزء المركزي من الحبل بيده اليمنى جيداً، ثم أطبق على المعصم بالعقدة المنزلقة المتأرجحة، وخاطر بشد العقدة شداً مُحْكماً حتى لامست طرف الكم لمساً خفيفاً وهي تحيط به.

كانت الآلة قد اكتملت الآن تقريباً. فألقى نايجل بالمركز المتحرر من الحبل فوق كتفه، والتفت مرة أخرى إلى القدم حيث أحكم شد العقدة بعناية فوق عظْمة الكاحل بالضبط. وقام بتسوية الحبل عند رأس السرير وقدمه، إذ جذبه أسفل الأعمدة نحو المرتبة، ثم وقف بعيداً، وهو يسحب

twitter @baghdad_library

الحبـل من منتصفه بـانتـظام نحـوه. والتقط العصـا ووضعهـا متقـاطعـة مـع الحبل، ثم شرع هادئاً متعمداً ـ في تقصير الحبل بلفِّه حول العصا.

استيقظ ويل بثورة غضب وتساؤل. فتراجع نايجل وهو يشد الحبل بقوة، وبلفّـه على نحـو أسرع. استحكمت الأنشوطتـان، وانقبضت الاسـورتـان المطاط بشدة، وانجـذب معصم ويل وكـاحله بإحكـام لصق القضبان عنـد رأس السرير. وصرخ ويل.

ـ «هس، ويل، وإلا أيقظت خالتك».

ـ «عليك اللعنة، لقد فعلتَها مرة أخرى!».

قال نايجل: «إنها أكثر براعة هذه المرة. وأشك في أنك ستكون قادراً على التخلص منها».

ـ «أيها الوغد!».

ـ «المطاط هو الشيء الجوهري. وكان ينبغي أن أفكر فيه من قبل».

ـ «فك الحبل، بحق السيد المسيح، إنك تكسر معصمي».

ـ «أشك في ذلك. أرجو المعذرة حين أناور بهذا المقعد فحسب».

وظـل «نايجـل» محتفظاً بـالحبل مشـدوداً في إحدى يـديه حتى وصـل بيـده الأخرى إلى المقعد الخشبي المستقيم الـظهر الـذي كان مستنـداً إلى الجدار. وانحنى فـوقه وأدخـل العصـا خـلالـه، ولفّهـا بحيث أصبحت مستقـرة بـين القضيبين الخشبيينْ الموضوعين تحت قاعدة الكرسي.

ـ «نـايجل، فـك الحبل قليـلاً، عليـك اللعنـة، القضيب اللعـين يقـطع معصمي، وسيفتح شرياناً».

ـ «أذكر أنني سمعت حكايـة كهذه من قبـل. ما كنتُ لأنـاضل لـو كنتُ مكانك، فهذا يجعل الأمور تسير إلى الأسوأ».

وكـان ويـل الـذي تمـدد بـين رأس السريـر وقـدمـه قـد لـوى جسـده، ونـاضل بيـده اليسرى لتلتف بالقضبـان النحاسيـة حتى يصـل إلى معصمـه

الأسير الأيمن. وتشبثت أصابعه بغير قوة بالسطح المشدود للأسورة المطاط.

«هذا الشيء الملعون سيوقف دورتي الدموية. أتريد أن تقتلني؟».

- «ليس تماماً. كف عن النضال، يا ويل، فتشعر بأنك أحسن».

- «فك الحبل، إنك تمزقني إلى شقين».

- «قل من فضلك».

- «من فضلك، أيها النذل».

وحرك نايجل المقعد قليلاً إلى الأمام.

- «هذا لا يكفي».

- «ارقد ساكناً، وأرخ عضلاتكِ، وانصت إليّ».

- «كيف أستطيع الإنصات وأنا أعاني أشد الآلام بشاعة؟».

- «أنت لا تعاني أشد الآلام بشاعة. الألم قابل للاحتمال. انصت إليّ».

- «إذهب إلى الجحيم».

- «إذا عوملت مثل هذه المعاملة فهذه غلطتك، لأنك كنت عنيفاً أشد العنف. هذا شيء كان لا بد أن تفهمه منذ أمد بعيد لو كنت قادراً على التفكير. وبالطبع يحبس رجال العنف في الأقفاص، ويشدُّون على المخالع (آلات التعذيب) بأيدي الرجال الذين هم أقل عنفاً ولكنهم أكثر ذكاءً. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلهم ينصتون».

- «لن أنصت إليك أبداً، حتى لو صرختُ ساعة كاملة. فك وثاقي، كاحلي يتحطم».

- «كلا، إنه لن يتحطم. ها أنت تنصت يا ويل. رجال العنف ينصتون في النهاية، لأن هذا الإنصات من مصلحتهم. هل تتذكر ذلك الزمن الذي كنا فيه في العاشرة من عمرنا، وعلقتك من معصميك في سقالة في أحد مواقع البناء، لأنك لم تكن تفعل ما أريد؟».

- «أجل، وأتذكر ما صنعته بك عندما أنزلتني!».

twitter @baghdad_library

ـ «هذا حق، ولكنك فعلت أيضاً ما أريد».
ـ «وكان هذا غباء مني أيضاً. لقد كنت دائماً منحرفاً مجنوناً».
ـ «ها أنت ترى، لقد نسيت تماماً أنك من المفروض أن تتألم».
ـ «لم أنس. سوف تقتلني يوماً ما بحيلة من حيلك اللعينة. أشعر بالدماء تنزف من معصمي. أتستطيع أن ترى؟».
ـ «لن تتمكن من الإمساك بي بهذه الطريقة، يا ويل. سأضيء النور، إن لم يكن في هذا ما يزعجك. فأنت منظر مسلٍّ».

أمال نايجل مقعده قليلاً، وأضاء النور الكهربائي. وكشفت لمبة كهربائية غير مغطاة فوق السرير «ويل» وقد تمدد والتوى بين معصمه المكبَّل وكاحله المقيّد. كما أظهرت منامته المفكوكة الأزرار صدره القوي المصقول الذي يجري إلى مركزه جدول من الخصلات المفتولة الفاحمة السواد. وانتفض ويل مرة أخرى، محاولاً أن ينشب يده المتحررة في معصمه المقيَّد. ثم رقد ساكناً لاهث الأنفاس، جاحظ العينين، وقد أدار وجهه المحتقن بالدماء كله ناحية نايجل، وومضت أسنانه التي يصرّ عليها تحت شاربه. «لقد أحكمت شد الحبل مرة أخرى، عليك اللعنة».
ـ «قليلاً، من المحتمل. هناك».
ـ «إذا أتيت بهذه الحيلة مرة أخرى، فسأقتلك».

ـ «كلا، كلا. أعترف بأن المرة الأخيرة لم تكن كافية. غير أن الضرر الذي ألحقته بنفسك في محاولتك للتملص كان خطأك أنت. فلو أنك أخلدت إلى السكون واستمعت إلى ما أريد أن أقوله لك، لما أصابك أي ضُرٌّ على الإطلاق».
ـ «كان ينبغي أن توضع في صندوق مليء بالفحم».

ـ «لا تكن أحمق. منذ أن كنت طفلاً وأنت تستخدم قبضتيك ضدي. غير أن ذكائي وألمعيتي جعلانا متساويين. أريد أن أخبرك بشيء مهم، في

صالحك تماماً ـ إن أردت الحق. ولمّا كنت أعرف أنك ستندفع نحوي كالثور المجنون إن لم أتخذ احتياطاتي، فقد قررت أنه لا بد من ربطك مرة أخرى».

ـ «أنت تستمتع بهذا الضرب من الألاعيب».

ـ «ربما كُنت كذلك يا ويل. ولكن ينبغي أن تحاول النظر إليها على أنها شكل من أشكال المودّة الأخوية».

ـ «يا للسيد المسيح!».

ـ «الدم أكثف من الماء، يا ويل، لا سيما دماء التوأمين. أنت النصف الآخر من نفسي، نصف غريب مشئوم وحشي، هو النصف الأدنى ما في ذلك ريب، ولكنه مرتبط بضرورة إكتوبلازمية (عضوية)، إذا أطلق عليها «الحب» كان اسماً ضعيفاً كل الضعف».

ـ «لقد أبغضتني دائماً، يا نايجل».

ـ «أخشى أن تكون غبياً، ولا تفهم إلا قليلاً».

ـ «أنت تحقد عليّ بسبب ذلك الطابع الملعون».

ـ «هذا عقاب روتيني، يا عزيزي ويل. ولا بد لي من أضع بعض الحدود لأفعالك الشائنة».

ـ «أنت دائم الاضطهاد لي».

ـ «دفاعاً عن النفس. ولأنك أيضاً بحاجة إليّ، وإن لم يكن ذلك إلا قليلاً. فأنت تحتاجني كما يحتاج الرجل الفظ إلى الملاك، أو كما يحتاج الظهر الرقيق إلى السوط، والعنق الضارع إلى سكين المقصلة. كل تجاور للمادة الوحشية والروح يقتضي العذاب».

وزحزح نايجل المقعد بوصة إلى الوراء، فصرخ ويل.

ـ «كف عن ذلك يا نايجل، كف ذلك، سيغشى عليّ من الألم!».

ـ «هراء. إليك، أهذا أفضل؟ والآن، هلا كففت عن التلوي بنفسك، والإصغاء إليّ ما لا بد لي من قوله».

twitter @baghdad_library

ـ «من الذي لكمك على وجهك؟ يسعدني أن أرى من فعل ذلك».

وكان جانب من وجه نايجل مصاباً بكدمة قاسية، وقد استحالت زرقتها بفعل الظل إلى اللون البنفسجي حَوْل العين.

ـ «إنه دينبي».

ـ «دينبي؟ ولماذا دينبي بالذات؟ ليس معنى ذلك أن الأمر يهمني. سأجعل عينك الأخرى سوداء عندما أخرج من هذا الذي أنا فيه».

ـ «لا داعي لذلك. أصغ إليّ يا ويل. هل تصغي أم تريد أن أشد وثاقك أكثر من ذلك؟

ـ «ها أنذا أستمع إليك، أيها الوغد، هات ما عندك، وخفف من وطأة هذا الحبل قليلاً، هلا فعلت».

ـ «أرجوك».

ـ «أرجوك».

ـ «فليكن، والآن اسمتع إليّ. إنه يتعلق بأديليد».

ـ «بأديليد؟ ماذا عن أديليد؟».

ـ «إنك تحب أديليد، أليس كذلك؟».

ـ «إن كنت أحبها فليس هذا من شأنك. أنا أعلم أنك كنت تطاردها. وحاولت أن تستولي عليها عندما عدت من لندن».

ـ «كلا، لم أفعل شيئاً من ذلك».

ـ «ابتعد عن أديليد، وإلا تخلصتُ منك حقاً. هذه الفتاة تخصني، سأستحوذ عليها. سأنالها ولو كان لا بد لي من قتلها في هذه العملية. وفضلاً عن ذلك فإنها تحبني».

ـ « هكذا تتخيل، ولكن، ماذا لو كان هناك شخص آخر؟».

ـ «ماذا تعني بقولك «شخص آخر». ليس من الممكن أن يكون هناك من يطارد أديليد، إنها لا ترى أحداً، ولا تذهب إلى أي مكان».

ـ «لأنها ليست في حاجة إلى ذلك. كل شيء يحدث في المنزل».

- «ماذا تقصد بحق السماء؟ يا للسيد المسيح، أتقصد...».
- «كلا. دينبي».
- «ماذا تعني، بدينبي؟ لا تعذبني!»
- «دينبي عشيق أديليد، وأديليد عشيقة دينبي. وظل الأمر على هذا الحال سنواتٍ طوالا. كنت أحسبك تعلم».

وسكنت حركة «ويل»، وهو يتنفس بعمق، ثم قال بهدوء شديد: «نايجل، أطلق سراحي من هذا الحبل. وأعدك وأقسم بأنني لن أوذيك».

نهض نايجل وسحب العصا من بين قوائم المقعد. وفكّ عقد الحبل، وزال التوتر. واستدار «ويل» بجفاء، ثم بدأ يجلس على السرير، وأخذ يزمجر ويشد القيد المطاط المحكم حول معصمه. وساعده نايجل على التملص منه، وكذلك فك وثاق الكاحل. وجعل «ويل» يدلك جسمه عند موضعيْ المعصم والكاحل اللذين أحاطت بهما دوائر زرقاء، وهو يزمجر بصوت خافت. قال: «أنا لا أصدقك، يا نايجل».
- «إنه الحق».
- «أثبت ذلك».
- «اسأل أديليد. وحتى تفعل ذلك انظر إلى هذا. أنت تعرف خط دينبي».

وناول نايجل ويل قطعة من الورق تمزقت بالطول والعرض ثم أُلصقت أجزاؤها من جديد. وكانت الورقة تقول: «حبيبتي أديليد، أعتقد أنني سأقضي الليلة في فراشي، وليس في فراشك، لأنني سأعود متأخراً. نامي وأحكمي عليك الغطاء، يا صغيرتي. حبيبك د.» أخذ ويل في دراسة الورقة بعناية، ولم يلبث أن أطلق صرخة ثاقبة، واستدار ثم انكفأ على وجهه في الوسادة.

- «هس، لا تحدث مثل هذه الضجة...»

twitter @baghdad_library

ونهض «ويل» ثانية وقد أنقبضت ملامح وجهه، وأخذ فكه يرتعش وهو يئن ألماً وغضباً: «سأقتل هذا الرجل وسأقتلها هي أيضاً».

ـ «لا تكن مخبولاً، يا ويل...»

ـ «سأقتلها. قلت: سنوات. سنوات وهي تعبث بي بخيوط مشدودة إليها كل هذا الوقت، وتقسم بأنه لا وجود لشخص آخر، وتجعلني أقدم لها الهدايا، وألثم يديها».

ـ «نعم، أعرف ذلك، ولكن استمع إليّ مع هذا...»

ـ «وقولها إنها لم تُخْلق للزواج! أجل، إنها لكذلك، تلك العاهرة المنكودة! وقد وضعت حياتي تحت قدميها. سأقطعها إلى شرائح. وسأقتله. سأذهب الآن، وأجدهما في فراشهما حبيبتي أديليد! يا للسيد المسيح! سأموت من هذا. أين ثيابي؟»

ـ «كُفَّ عن هذا يا ويل، وأنصت. لقد أخفيت ثيابك على كل حال، ولن تجدها. استمع إليّ فحسب..»

ـ «إذن سأذهب عاريا. ابتعد عن طريقي، يا نايجل. لقد دفعتني إلى الجنون».

ـ «الباب موصد. اجلس. اجلس».

وتخلى ويل عن مقبض الباب الذي كان يهزه. ووقف لحظة جامداً، بينما أخذت عيناه تدوران في محجريهما، ثم انهار على السرير بطوله كاملاً وانبعثت منه آهة، وهو يدفن وجهه بين يديه: أواه يا أديليد، أديليد، لقد أحببتك، أحببتك حباً جماً».

واقترب منه نايجل بمقعده واحتضن كتلة الشعر الغزيرة الفاحمة والكتفين اللذين كانا ينتفضان بنشيج جاف.

ـ «كفاك يا ويل. لن تستطيع أن تفعل الليلة شيئاً. وعليك أن تتروى في الأمر. أنت تعرف الحقيقة الآن، وهذا يمدك بالقوة عليهما معاً. ترَوَّ في

الامر، ولا تحاول ان تؤذي آديليد. ودعها للسماء، ولهذه الأشواك التي تسكن جنبها أن تَخِزَها وتلدغها. أما فيما يتعلَّق بدنيبي فسوف نفكِّر في طريقة لعقابه. سأُعينك. وسنفعل هذا معاً».

انقطع ويل عن النشيج، ونهض جالساً وهو يثني ويفرك معصمه الأيمن، كانت عيناه بليدتين أخلتهما التعاسة من كل تعبير، وفمه نصف فاغر يسيل منه اللعاب. «كلما فكرت أنها. . . »

ـ «حتى هي. لم أكسر معصمك، على ما أظن؟»

ـ «بعد أن كنا أطفالاً معاً وكل تلك الأشياء. كنت أظن. . . كأن إنساناً قد خانته أمه».

ـ «كل إنسان تخونه أمه».

ـ «وثقتُ بها ثقةً مطلقة. ولم أكن أعتقد أن لها حياةً أخرى. سنوات، كما قلتَ. مع ذلك الخنزير السمين. سأمزقه إرباً. وكانت تحبني حباً شديداً عندما كانت فتاة. ما كان أجملها حينذاك، وما أشد براءتها. كنا سعداء حينذاك».

ـ «ثلاثتنا. . واعتدنا أن نسير ذراعاً في ذراع، أتتذكر!»

ـ «وكانت هي في الوسط».

ـ «وكانت لنا جولات في الحرب حول أعمدة المصابيح».

ـ «وكنتَ الفائز دائماً».

ـ «أتتذكر ذلك اليوم الذي تحدثنا فيه إليها عن الجنس؟»

ـ «ولم تكن لتصدِّقنا!»

ـ «يا إلهي! كل شيء شديد الوضوح، شديد القُرب».

ـ «وموقع البناء، والأرض الخراب التي اعتدنا أن نقطف منها زهور القرنفل».

ـ «وتسلق السقَّالات».

twitter @baghdad_library

ـ «وسرقة قوالب الطوب الأحمر».
ـ «ولعبة الفرنسيين والإنجليز».
ـ «وخطوات جدتنا».
ـ «إنها تنتمي إلى بداية حياتنا حين كان كل شيء حسناً».
ـ «قبل أن نهرب».
ـ «قبل المسرح».
ـ «قبل تلك الأشياء الفظيعة جميعاً. . التي تعرفها».
ـ «أعرفها. . كانت بمعزل عن هذا كله، كنت أشعر أنها تحتفظ بهذا الجزء المبكر في مكان ما، تحتفظ بطفولتنا، تحتفظ بها من أجلي».
ـ «تحتفظ بها في أوج نضارتها، في أوج طهارتها».
ـ «أتراك تسخر مني، يا نايجل؟»
ـ «كلا، كلا، لا عليك. . لقد وعدت. . .»
ـ «هل أتت أديليد لتراك، أتت إلى مكانك، بعد أن عدت إلى لندن؟».
ـ «كلا».
ـ «كانت في تلك الفترة شغوفة بك. فحسبت أنك تسعى إليها».
ـ «كلا، حقاً».
ـ «إذن، فما هو دافعك إلى إخباري بكل هذا؟ ماذا فيه مما يخصك؟ إنك تحبها وتحاول أن تنزغ بيننا!»
ـ «كلا!».
ـ «إنك لا تستطيع أن تنالها، ولا تريد أن أنالها أنا أيضاً».
ـ «كلا، أقسم على ذلك».
ـ «إذن، فلماذا؟ أهو مجرد جنون؟ أو رغبة في إلحاق الأذى بي؟ أو رغبة في إيذاء دينبي؟»
ـ «مجرد جنون».

ـ «أنت تمقت دينبي. وتحقد عليه لسبب ما؟ أهذا هو الحق؟ لماذا ضربك، على كل حال؟»

ـ «كلا، يا ويل، ليس هذا هو السبب، ليس هذا هو السبب على الإطلاق».

وأخذ المطر المتزايد يدق أبواب السماء المعتمة. وينحدر عليها في سيل منهمر. وحملق الشقيقان كل في عينيْ الآخر، جلسا متقاربين معاً وقد تلامست ركبتاهما في حجرة البدروم المضاءة بنور ساطع.

twitter @baghdad_library

(٢٤)

كانت زجاجة الويسكي فارغة تقريباً.

وكان دينبي يجلس على فراشه وقد دفن وجهه بين يديه. وأديليد جالسة على الأرض، مولِّية ظهرها لخزانة الأدراج، وقد انتفخ وجهها، وأغمضت عينيها من كثرة البكاء. أما ثغرها الذي كانت تتنفس منه بصعوبة فقد ظل فاغراً. ومن حين إلى آخر كانت تنتفض، ومن شقَّيّ عينيها تنسكب دمعتان كبيرتان أخريان. وكانت ترتدي بلوزة فوق تنورتها ولكن دون قميص تحتها.

ستائر النوافذ نصف مسدلة؛ والساعة تشير إلى التاسعة من مساء اليوم التالي، والظلام يسود في الخارج بالفعل، والسماء تنهمر مدراراً وبعنف. وثمة ريح عاتية قوية تهب على المطر حتى أوشك أن يكون أفقياً، وتحمله في فورات حادة مدمدمة تصفع النوافذ، وكأنها فرقعة حفنات من الحصى الصغير تُلْقى على الزجاج.

وارتفع صوت بعيد ينادي: «دينبي!»

زمجر دينبي وفرك وجهه عميقاً بين راحتيه.

«دينبي!»

نهض دينبي، ودون أن ينظر إلى أديليد خطا فوق ساقيها المبسوطتين، وشرع في صعود درجات السلّم. وكان يشعر بأنه متيّبس الجسم، نابض بالألم مرضوض في كل مكان منه.

«دينبي!»

دفع دينبي باب حجرة برونو لينفتح على مصراعيه، وأطل داخل الحجرة، مقطباً من أثر الضوء، ومختلساً النظر من تحت يده إلى برونو. وكان المصباح يلقي ضوءه على السرير المفتقر إلى الراحة والنظام الذي ينقلب رأساً على عقب طيلة اليوم.

«دينبي، ما الحكاية».

ـ «لا حكاية هناك. ماذا تريد؟».

ـ «لماذا تنظر إليّ على هذا النحو؟».

ـ «على أي نحو؟».

ـ «كأنك لا تستطيع أن تراني على الوجه الصحيح».

ـ «لقد أفرطت في الشراب. ماذا تريد؟».

ـ «أين نايجل؟».

ـ «لا أدري».

ـ «لم يحضر إلى هنا طوال اليوم. ولم يكن هنا الليلة الماضية».

ـ «لا أهمية لذلك. حاول أن تنام، يا برونو».

ـ «الوقت مبكر للنوم. كما أنني لم أتناول الشاي. ناديت وناديت فلم يأت إليّ أحد».

ـ «سأعد لك الشاي».

ـ «دينبي، لا تنصرف ـ من فضلك، اغلق الباب. سوف تصفح عن نايجل، أليس كذلك؟ لن تغضب عليه؟».

ـ «أتوقع أن يكون نايجل قد رحل عنا».

ـ «نايجل؟ إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك. لا يستطيع أن يتركني...».

وارتجف صوت برونو متصاعداً. كان يرقد في منخفض من سريره المُشْعث، ولا يظهر من ملاءات السرير سوى رأسه الضخم ويدٍ شبيهة

twitter @baghdad_library

بالمخلب. كشّر دينبي في وجهه فوق حدبة القفص الذي يضم قدم برونو. وكان يبدو أنه شارد في مكان بعيد.

ـ «سأحضر الشاي الآن. أتريد شيئاً آخر معه؟».

ـ «لا تذهب، يا دينبي. المطر رهيب جداً، وكذلك الريح. يخيل إليّ أنني سمعت شخصاً يصرخ في أسفل السلم منذ هنيهة قصيرة».

ـ «أتوقع أن تسمع ذلك».

ـ «ماذا كانت هذه الصرخة؟»

ـ «أديليد تصرخ ضاحكة. أتريد أية شرائح أو أي شيء آخر؟ سأحضر لك الإيفننج استاندارد».

ـ «ما اسم تلك الفتاة؟».

ـ «ما اسم أي فتاة تقصد؟»

ـ «تلك الفتاة التي تأتي. أعني زوجة مايلز..».

ـ «ليزا».

ـ «إنها لم تأتِ اليوم».

ـ «أنس تلك الفتاة يا برونو».

ـ «ماذا تعني بأن أنساها؟».

ـ «لم تعد لها أهمية بعد الآن».

ـ «ماذا تعني بأنه لم تعد لها أهمية بعد الآن؟ ماذا قال لك الطبيب، هل اتصل بك هاتفياً؟».

ـ «كلا، بالطبع لا».

ـ «قال لك إنني انتهيت، ففصلت نايجل، وقلت لتلك الفتاة ألا تجيء...».

ـ «كف عن هذا يا برونو. لم يقل الطبيب شيئاً».

ـ «بالطبع، لم يعد للأمر أهمية إذا كنت سأموت...».

ـ «برونو، اسكت. إنك تهذي. سأحضر لك شيئاً من الشاي».

- «لا أريد أي شاي».

- «إذن، اذهب إلى النوم، سأطفىء النور».

- «لا أستطيع أن أنام مع هذه الضجة، مع الريح التي تهز النوافذ. أهو مطر أم سيل؟».

- «مطر. وإن كان يبدو كالسيل».

- «دينبي، لا تذهب بعيداً عني. اجلس مع الرجل العجوز برهة قصيرة. كنت وحدي طيلة اليوم. وكل ما فعلته هو أنك قذفتني بصينية وجبة الغداء».

- «آسف».

- «اجلس إلى جانبي، أرجوك، يا دينبي أرجوك».

- «لا أستطيع. إنني سكران».

- «أرجوك. . .».

- «تريد النور مضاء أم مطفأً؟».

وبصعوبة ركّز دينبي عينيه على الرأس المتدلي على الوسادة، والذقن الملتحي الغائص بعمق في الملاءات، والجسد المنكمش الذي استطاع بمشقة أن يرفع البطاطين ليكشف عن وجوده، واليد البنية النحيلة التي تبسط مخالبها قليلاً في توسل.

«أمن الممكن أن تسوِّي فراشي يا دينبي؟ رتِّب الوسائد على أي حال». واجتاز دينبي الحجرة، وضرب الوسائد بغير حماسة، ورجع إلى الباب.

«أتريد النور مضاء أم مطفأً؟».

- «دينبي، أنا خائف، لا تذهب».

وشاهد دينبي أن الدموع بدأت تسيل على وجه برونو ملتمسة طريقها عبر الأخاديد المضرجة بالحمرة، والغضون المنتفخة تحت عينيه.

- «اذهب لتنام يا برونو، هلاّ فعلت». وأطفأ دينبي النور، وأغلق

twitter @baghdad_library

الباب. ثم توقف عند قمة السلّم وأرهف أذنيه للسمع، ولكنه لم يسمع أي صوت صادرٍ عن حجرة الرجل العجوز. فنزل إلى مجموعة السلالم التالية حتى بلغ حجرته. ولم تكن أديليد قد تحركت من مكانها.

اتجه دينبي إلى الزجاجة وصَبَّ ما تبقّى من الويسكي في كأسه. ثم جلس متثاقلاً: «من الأفضل أن تذهبي إلى فراشك يا أديليد». وكان المطر يقصف النوافذ كسلسلة من الانفجارات المنبعثة من مدفع رشاش. وكانت الريح تعوي، ثم ارتفعت إلى أن تكون صراخاً، وعادت إلى العواء من جديد.

ـ «أحبك، أحبك، أحبك».

ـ «كفى يا أديليد، ها هنا فتاة طيبة».

ـ «هل فكَّرت مرة في أن تتزوجني، هلِ فكَّرت في هذا لحظة واحدة؟».

ـ «لا أدري. كفِّي عن هذا، لقد أخذتُ منه ما يكفي».

ـ «كنت تعلم أنه لا يمكن أن يدوم. كنت تسرِّي عن نفسك بي فحسب. أخذتني إلى أن تلتقي بشيء أفضل، شيء جاد شيء من طبقتك».

ـ «لا شأن للطبقة بهذا الأمر».

ـ «أتظن ذلك؟ إذن، لماذا تشعر بأنك تستطيع أن تعاملني كما تعامل القذارة، تخرج من حياتي، كما دخلت فيها؟».

ـ «كنت سعيدة بما فيه الكفاية حين دخلت».

ـ «هذا الذي تقوله شيء وضيع عفن».

ـ «فليكن. اتفقنا، والآن فلنكف عن الكلام».

ـ «لم تكن تفكر أبداً في أن حبنا حقيقي».

ـ «بل فكرت يا أديليد، كل ما في الأمر أنني لم أكن أعرف أن هذا سيحدث، لم أفكِّر».

ـ «لم تفكِّر! بالطبع إنك لم تفكِّر، إنما أخذت ما أردت فحسب».
ـ «إذا كان في هذا ما يرضيك فأنا أعرف أنني نذل مطلق».
ـ «إذن، أرجو أن تكون سيعداً معها، بعد أن حطَّمتني، وسلبتني كل حياتي».
ـ «قلت لك بالفعل إنها لا تهتم بي، ولديها شخص آخر، وهي لا تريدني، وطلبت مني أن أختفي من حياتها».
ـ «لا أصدِّق كلمة واحدة مما تقول. وإنك لتقول هذا لكي تبعدني عن طريقك. وغداً سوف ترسل إليّ أمر الفصل من الخدمة».
ـ «لا تكوني سخيفة يا أديليد. ولا تبدأي كل هذا من جديد».
ـ «لست سخيفة. أنا مجرد خادمة ـ خادمتك. أنسيت ذلك. أنا عاملة مأجورة».
ـ «قلت هذا كله من قبل».
ـ «وكنت مسرورة بأن كون خادمتك مسرورة.»
ـ «اذهبي إلى الفراش، بحق السيد المسيح».
ـ «كلما فكّرت كيف كنت أعبدك! لن تعرف أبداً كيف كنت أعبدك!».
ـ «في هذا ما يبينِّ أنك كنت حمقاء».
ـ «أخذت حبي، وكنت مسروراً بما فيه الكفاية بأن تناله، والآن ها أنت ذا تدعوني بالحمقاء!».
ـ «آسف، لم أكن أقصد...»
ـ «على كل حال، لقد أخبرتُها. لقد أخبرتها».
ـ «عمَّ تتحدثين، بحق السماء؟».
ـ «أخبرت تلك العاهرة المتكبرة بما كان بيني وبينك. لم تكن تعرف هذا، أليس كذلك؟ قلتُ لها إننا كنا عاشقيْن. أخبرتها بأننا كنا عاشقين منذ سنين وأنبأتُها أن تبتعد عن طريقنا».

twitter @baghdad_library

- «يا للسيد المسيح!» وقام دينبي من مكانه، ووقف محنيّ الظهر، محدِّقاً في زجاجة الويسكي الفارغة. «متى كان هذا؟».

- «الأسبوع الماضي».

- «وماذا قالت؟».

- «تظاهرت بعدم الاكتراث».

- «أديليد، يؤسفني أنك فعلت ذلك».

- «وأنا مسرورة لأنك آسف».

- «لا لأنها يمكن أن تفكِّر فيّ على نحو أسوأ... على أي حال، إنها تستطيع.. ولكن هذا لا يهم بحال من الأحوال».

- «كل ما في الأمر أنك لم تشر إليّ - أنا الإنسانة الصغيرة - بشيء، أليس كذلك؟ ظننت أنك تستطيع التخلص مني، أن تكنسني تحت السجادة».

- «لا عليك، لا عليك. ليس في ذلك أية أهمية. لا شيء يهم».

- «لقد أحببتك حباً شديداً...».

- «لا تبدأي في البكاء من جديد، فأنا لا أطيق ذلك».

- «أحببتك حباً شديداً، وكنتُ سعيدة كل السعادة. سعيدة كل السعادة...».

وأخذت أديليد تشهق بالبكاء.

- «اذهبي إلى الفراش.. وإلا سوف أخرج..».

- «سأقتل نفسي. لن أستطيع الآن الاستمرار في الوجود. سأقتل نفسي».

واتجه دينبي نحو الباب.

وفجأه انبعث صوت مختلف من النافذة. استحالت قعقعة رذاذ المطر إلى دقٍّ أكثر انتظاماً وأشد إلحاحاً. وقف دينبي متصلباً، وكفَّت أديليد عن البكاء. وعاد الطَرْق ثانية، أعلى هذه المرة وهادفاً، ومتوعداً، على خلفية من عويل الرياح. وحملق كل من أديليد ودينبي إلى الآخر، ثم إلى النافذة.

كان المكان الممتد بين الستائر نصف المسدلة خاوياً. فخطا دينبي خطوات واسعة عبر الحجرة ورفع الستائر وهو ينحني إلى الأمام وينعم النظر. ثمة يد تُرَى بوضوح، تضغط على الزجاج من الخارج. وصرخت أديليد. واستطاع دينبي أن يرى الآن شخصاً ضخم الجثة واقفاً قبالته مباشرة في الظلام السائد في الخارج. وفي اللحظة التالية تناهى إلى سمعه صوت زجاج يتحطم، فزحف دينبي متراجعاً حين أخذت شظايا اللوح الزجاجي تنهمر وراءه داخل الحجرة.

استدار دينبي حوله، ووثب فوق ساقي أديليد، وأخذ يعدو على درجات السلم صاعداً كل درجتين في خطوة واحدة. وفتح الباب الأمامي على مصراعيه. ومن خلال الستار المتأرجح بفعل المطر المندفع شاهد شخصاً مسرعاً يبلغ ركن الطريق ويختفي فوراً. وقف دينبي لحظة على حافة المطر، والريح المبللة تهب على وجهه، وقلبه يخفق بشدة. وحين همَّ بإغلاق الباب رأى أنه كان واقفاً على مظروف. فالتقطه، وهبط درجات السلم متباطئاً عائداً إلى حجرته.

كانت أديليد قد نهضت ووقفت متشبثة ببلوزتها عند حلْقها. وكانت الريح الباردة تهب من خلال الفجوة الواسعة المشرشرة في زجاج النافذة المحطمة. «من كان ذلك الشخص؟».

ـ «لست أدري. وأياً كان فقد ترك هذه الورقة وراءه.. إنها موجّهة إليّ». وفتح دينبي المظروف وقرأ ما يلي:

«أنا أعرف حياتك مع أديليد. كانت لي، ولكنني أرفضها الآن بوصفها امرأة تافهة. تستطيع أن تحتفظ بها. كل ما أريده هو أن تخبر هذه العاهرة ـ التي مصيرها جهنم ـ أن تبتعد عن طريقي إذا أرادت الاحتفاظ بنظراتها. أما أنت فسوف أعاقبك بطريقتي الخاصة. أتحداك أن تدخل معي في

twitter @baghdad_library

مبارزة. وستكون أسلحة المبارزة هي المسدسات. ولك أن تختار المكان. فإذا رفضت التحدي فسوف أدمغك بأنك جبان، وسأنشر علاقتك الدنيئة بخادمتك، وسأضطهدك في بيتك وفي مكان عملك بكل طريقة أستطيع أن ألجأ إليها، حتى أجعل حياتك شقاءً. أما إذا قبلت التحدي فسأبذل أقصى ما في وسعي لقتلك أو تشويهك.

ويل بوس

قرأ دينبي هذه الرسالة العجيبة بحاجبين مرفوعين، ثم ناولها لأديليد.

نظرت إليها أديليد فسقطت من يديها على الأرض. ودست أصابعها في فمها لتكتم صرخة صادرة منه. ثم جاء صوتها كفقاعات تترى. «لقد فقدته، لقد فقدته؛ لقد فقدته، الرجل الوحيد الذي أحبني حقّاً!».

(٢٥)

وقفت ليزا عند باب حجرة الجلوس مرتدية معطفها البني وقد رفعت ياقته. وإلى جوارها على الأرض استقرت حقيبة ملابس كبيرة من الصوف المخطط بألوان مختلفة. وامتلأت الحجرة بضوء مطير مشمس أضفى عليها تألقاً عجيباً. وكان مايلز يقف بجوار النافذة.

ـ «أغلقي الباب، يا ليزا.»

وأتت ليزا بحركة تدل عن التساؤل وهي تشير وراءها إلى الصالة.

قال مايلز: «إنها في الطابق العلوي. وعلى كل حال فإنها لا تظن أنك ستغادرين المنزل دون رؤيتي!»

ـ «لا أريد أن أضيف أي شيء.. أي شيء...»

ـ إلى ألمها؟ الأمر سيان. وماذا عن ألمنا نحن؟»

قالت ليزا: «من الخير ألا نتكلم.» ثم أغلقت الباب.

ـ «ولكننا تكلمنا. كان هذا شيئاً جوهرياً.»

ـ «ربما. ولكن أحد الأشياء الحسنة هو أننا لم نتكلم بأكثر مما هو جوهري.»

ـ «أنت تعاملين هذا الشيء.. بالجراحة.»

ـ «إنها الطريقة الوحيدة.»

ـ «قد تكون الطريق الصحيحة. ولكنني لست متأكداً حتى من هذا. من المؤكد أنها ليست الطريقة الوحيدة.. هذا شيء يخالف الطبيعة.»

ـ «ما هو صحيح يخالف الطبيعة في معظم الأحيان.»

twitter @baghdad_library

ـ «يا إلهي، إنك تجعلين الدم يتجمد في عروقي، ياليزا.»

ـ «أعرف ذلك. أنا أحبك يامايلز»نطقت هذه الكلمات بفتور.

ـ «وأنا أحبك، أحبك بفظاعة. وسأحبك دائماً إلى آخر يوم في حياتي. وسأفكر فيك طيلة الوقت.»

ـ «ليس طيلة الوقت، يا مايلز.»

ـ «وإذا كنت تتخيلين أن هذا هو خاتمة القصة فإنك تخطئين خطأ شنيعاً. لا يمكنك أن تتخلصي من شيء بهذا الحجم على هذا النحو الفاتر.».

ـ «لا أشعر بفتور يا مايلز. والآن، سأذهب لإحضار ديانا.»

ـ «لا، لا، لا، ليس بعد.»

واجتاز مايلز الحجرة متجهاً صوب الباب. وما إن بلغه حتى عادت ليزا فدخلت الحجرة. ووقف كل منهما في مواجهة الآخر.

ـ «ليزا، اخلعي معطفك.»

ـ «كلا.»

ـ «ليس الوقت متأخراً جداً لاتخاذ قرار آخر. لن يكون الوقت متأخراً جداً أبداً، ومن المؤكد أنه ليس متأخر جداً الآن.»

قالت: «لا داعي للكلام، لا داعي للكلام. فكلما تكلمنا أكثر كان عذابنا أكبر فيما بعد. ونحن نعلم أنه لا وجود لسبيل آخر للفعل على الإطلاق.»

ـ «لم نناقش هذا الأمر إلا قليلاً.»

ـ «أنت تعرف كيف تكون المناقشة في حالة كهذه.»

ـ «أواه يا ليزا، نحن نتصرف كالمجانين.»

ـ «أرأيت، المسألة ميئوس منها، يا مايلز، فلتنظر إليها على هذا النحو. قبل أن تحبني، أو بالأحرى قبل أن تعرف أنك تحبني، كان من الممكن

بالنسبة لي أن أعيش هنا. وكان الأمر مؤلماً، ولكنه كان حسناً أيضاً. كانت حياة سهلة القياد. ولكنها الآن تعذيب بالنسبة لي، وتعذيب لديانا. وأنت تعلم أنك لا تستطيع أن تهجر ديانا. وعلى كل حال، إنك تحبها، ولا تستطيع أن تنفق علينا في منزلين. هذا شيء لا أحتمله حتى لو رضيتما به أنت وديانا. ما عليك إلا أن تراه، ترى النموذج، ترى الآلة. أنك لا تستطيع أن تناضل الضرورة.»

ـ «أهناك شيء آخر، شيء لم نفكر فيه؟»

ـ «لا شيء.»

ـ «أستطيع أن أترك ديانا. لم نبحث حقاً...»

ـ «إنك لا تستطيع. مايلز، هذا هو بالضبط نوع الكلام الذي لا ينبغي أن نخوض فيه. يجب أن نستمر في التصرف كما يتصرف الناس، ونحن نستطيع. لا أحد يموت من الحب. كل شيء يبدو الآن جنوناً واشتعالاً. ولكننا سنشعر أننا أفضل خلال ستة أشهر، وإن كان المحبون يكرهون الاعتراف بهذا.».

ـ «لن أشعر بأنني أفضل خلال ستة أشهر، يا ليزا. ولا أظن أنك تدركين مدى أهمية هذا لكل منا. إنه شيء انتظرته طيلة حياتي.»

ـ «لقد أدركته يا مايلز. وأنت تعلم كم أحبك. وقد أنتظرتُ أنا أيضاً. وعشت أعواماً مع هذا الحب. ولم أكن أعرف أنه سينتهي على هذا النحو. وحتى لو كنت أعرف فإنني كنت سأحب وأنتظر. غير أننا لا نستطيع أن نلقي بأنفسنا في الهلاك، هلاك ديانا، وهلاكك، وهلاكي. كيف يمكن أن نعيش معاً، وأن نتخلى عنها؟ أفي إمكانك أن تقرض الشعر، وهل في إمكاني أن استمر في فعل الأشياء التي أفعلها من أجل الناس، لو أننا عشنا مع فعلة من ذلك القبيل؟»

ـ «قلت إننا نغالي في الأشياء. وربما كنا نبالغ بشأن ديانا. من يدري، ربما أصبحت على ما يرام، أحسن...»

twitter @baghdad_library

ـ «أنت متزوج من ديانا، وهي قد منحتك حياتها. ليس هذا مجرد حِسْبة.»
ـ «ياإلهي، أنا أعرف أنها ليست مجرد حسبة..»
ـ ها أنت ترى الموقف بالنسبة لي الآن. لو أننا رحلنا معاً فسوف ترى حالة ديانا.»
ـ «المسألة ليست أنني لا أستطيع أن أواجهها يا ليزا، الآن بعد أن وقعت. لم أكن أصدق ذلك من قبل، وهذا هو ما جعلني أسمح لك بأن تجادليني على هذا النحو، قائلة إن الأمر كله كان محتوماً. والآن بعد أن أصبح هناك شيء لا يُحْتمل ينبغي احتماله، علمت أن هذه الحجة لا بد أن تكون مخطئة. لا بدمن وجود بديل. وأشعر بأنك لا يمكن أن ترحلي، كل ذلك الطريق الطويل بعيداً...»
ـ «صدّق هذا، يا مايلز، صدّق هذا. انظر، ها هي تذكرة الطائرة. لندن كَلْكُتّا.».

وفتحت ليزا حقيبتها، وأخرجت منها تذكرة الطائرة الحمراء وعرضتها عليه، ممسكة بها بيديها الاثنتين.
ـ «متى؟»
ـ «من المستحسن ألا تعرف. مايلز، أنا أحبك إلى درجة اليأس وأحبك في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى. أكاد أصاب بإغماء من هذا الشعور. أحبك حباً جماً، وأنا استطيع أن أرى الآن أنك بدأت تصدّق أنني راحلة. ينبغي أن نحتفظ بهذا الحب نقياً حتى لو قتلناه. ألا ترى ذلك؟»
ـ «الحب والموت. هذا شيء لا يبدو لي موغلاً في الرومانسية، يا ليزا.»
ـ إنه ليس رومانسياً، يا مايلز. هذا هو الموت الحقيقي. **سوف ينسى كل منا الآخر.**».
ـ «كلا، كلا، كلا. إنك تضحين ـ من أجل ديانا ومن أجلي ـ بالكثير جداً..»

- «أنا لا أضحي بشيء من أجل ديانا أو من أجلك. . أنا أبذل هذه التضحية في سبيل حبي. فأنا لا أستطيع - مع كل هذا الحب - أنا أفعل شيئاً آخر.»

- «تقصدين قبول أي حل وسط؟»

- قبول أي حل وسط. الشيء الوحيد هو الشيء المستحيل. . لو كنت التقيت بك قبل. . .»

- «يا إلهي، يا إلهي، قبل، أول. . لماذا يكون مستحيلاً، إنه لا يمكن أن يكون مستحيلاً. . .»

- لن أبقى هنا. أكثر من ذلك.»

- سنلتقي مرة أخرى.»

- لن نلتقي مرة أخرى.»

- ستذهبين إلى بلد پارڤاتي.».

- لقد أردت هذا دائماً.»

- «وهناك حقاً تلك الوظيفة؟»

- «أجل. دبرت كل شيء مع مؤسسة الشعب لإغاثة الطفولة. وسأبدأ بالعمل في مكتب المؤسسة في كلكتا، ثم في مكان آخر من البلد. ومن الضروري أن أتعلم الهندية. سأكون مشغولة إلى أقصى حد.

- «أما أنا فلن أكون مشغولاً. سأبقى هنا مع أحزاني. . . سأشتاق إليك.»

- «ستكتب شعراً. آمن بذلك. - يا مايلز - وحاول رؤيته، وتقبَّلْه.».

- «لا أستطيع. إنه لن يغيّرني يا ليزا. أشعر أنني مشلول تماماً بهذا الموقف.»

- «إن لك آلهتك يا مايلز. وقد يكافئونك.»

- «إنهم لا يمنحون جوائزهم على شيء من هذا القبيل.»

- «لا يمكنك أن تعرف ذلك.».

twitter @baghdad_library

- «أستكتبين إليّ؟»
- «كلا.»

وبسط مايلز راحته نحوها، وسحب أصابعه من كم المعطف حتى وصلت إلى دفء معصمها. وبتؤدة شديدة أخذها بين ذراعيه. وقفت بلا حراك بين ذراعيه، ولم تفعل شيئاً سوى أن أمالت رأسها على كتفه. قالت من خلال سترته: «كان الخطأ خطأي يا مايلز، أن أحضر إلى هنا على الإطلاق. كان ينبغي عليّ ألا أجيء. ثمت أسرار لا سبيل إلى الاحتفاظ بها.»

- «أحبك. لم يكن سرك فحسب.»
- «لقد أحببتك بعدوى الحب.»
- إنه ليس جذاماً. أواه ياليزا، لن ينقص منه شيء. فليكن لديك شيء من الرحمة...» وبدأ يلثم جبينها ووجنتيها. تملصت منه برفق. «ما كان لنا أن نُجري هذه المحادثة يا مايلز. حاول أن تساعد ديانا، أليس كذلك؟ ستكون هذه مهمتك، ومن ثم لن تكون عاطلاً عن العمل. عليك أن تعينها إيجابياً. فلها ألمها الذي يختلف عن ألمنا. كل ما ينبغي عليّ هو ألا أتحدث عن ذلك.»
- «ليزا، لا تتحدثي بهذه النغمة الرهيبة وكأنك تحكمين علينا بالإعدام.»
- «والآن، ينبغي عليّ أن أرحل حقاً. سأنادي على داي.».

«كلا، كلا، كلا، أرجوك.. لا بد أن هناك مزيداً من القول، ياليزا... لم نرتِّب أي شيء.. ولا أعرف أين ستكونين. سنلتقي مرة أخرى خلال أيام قلائل، عندما يتاح لنا الوقت لإمعان الفكر في هذه الأمور. ليس في إمكاني أن أدعك تذهبين.»
- وفتحت ليزا الباب ونادت: «ديانا.»

ونزلت ديانا درجات السلم على مهل. كانت ترتدي بعناية، بل بأناقة، ثوباً من التويد الأزرق. وتحلت بقرطين وبدا عليها أنها كانت تبكي.

ـ «سأرحل الآن، ياداي. لا تغضبي مني. ولا تنسي أن تذهبي لرؤية برونو.»

قالت ديانا بصوت متوتر وهي تحملق في أختها: «برونو، أيضاً، يريدك أنت، لا أنا».

ـ «سرعان ما يريدك أنت. ما عليك إلا أن تمسكي بيده، وتربِّتي عليه، أعني أن تربِّتي عليه حقاً. . .».

ـ «سمعاً وطاعةً».

ـ «داي، أيمكنك أن تسيري معي حتى المحطة؟ كلا، يا مايلز لا تأت معنا. ستصحبني داي وحدها إلى المحطة سأحضر لك معطفك يا عزيزتي، فما برح المطر يتساقط قليلاً».

اجتازت ليزا الصالة وتبعتها ديانا ببطء دون أن تنظر إلى مايلز الذي وقف يراقبهما في مدخل الباب. وفتح باب الصالة كاشفاً عن شارع زاخر بضوء المطر الأزرق.

ـ «وداعاً، يا مايلز».

وأغلق الباب. وهكذا ذهبتا. ورجع مايلز إلى حجرة الجلوس وجلس.

قال لنفسه: لن يكون هذا نهائياً. والآن، أتيح الوقت لأن **أفكِّر**. وتحرك الأمل في نفسه مخفِّفاً لآلامه. ونظر إلى الخارج من خلال النافذة إلى الحديقة الغارقة في المطر حيث كان شيء من الرذاذ يتساقط عبر الهواء المتألق. لم تكن لتخبره بمكان إقامتها، ولكنه يستطيع أن يعثر عليه. فلعل ديانا تعرفه. وعلى كل حال فإنه يستطيع أن يطير دائماً إلى كلكتا. لم تكن تعاني الموت حقاً، ولم تكن راحلة حقاً إلى الأبد. وحدث نفسه قائلاً: لا. لا، لا. **لن أقبل حكم الإعدام الذي أصدرته ليزا.**

twitter @baghdad_library

(٢٦)

كان برونو نائماً. وكان رأسه الضخم ـ الذي بدا أضخم من حقيقته بتأثير اللحية المشعثة التي لم يدركها التهذيب ـ يتدلى الى جانب في وضع غير مريح؛ وكان فمه فاغراً، وشيء من اللعاب فوق الشفة السفلى يظهر وسط ما ينمو من شعر رمادي باهت. وكان يسحب نَفَسَه ـ شهيقاً وزفيراً ـ بتنهيدة طويلة تصحبها انتفاضات. وكانت يداه المليئتان بالبقع القاتمة وبمفاصلهما المتورّمة ترتعشان وتتشبَّثان قليلاً بسطح اللحاف الرفيع الكالح. وتساءلت ديانا: أتراه يحلم؟

كان قد سأل عن ليزا. فأخبرته ديانا بأن ليزا رحلت. فسأل عما إذا كانت سترجع، وعما إذا كان مايلز قد رحل أيضاً. ويبدو أنه كان يتخيل أن ليزا متزوجة من مايلز. فأجابته ديانا في شيء من الإبهام. وكان سلوكه شكساً شارداً، فقال مرتين وبصوت مرتفع كأنه لا يشعر بوجودها: «مسكين برونو، مسكين برونو.» واستطاعت أخيراً أن تُجري ما يشبه المحادثة، ودار الكلام بينهما عن المنازل المتعددة التي عاش فيها، وعن مزايا مختلف أنحاء لندن. وتحدثا عن التغير الذي طرأ على لندن، وعما اذا كانت في أناقة روما أو باريس. وأبدى برونو شيئاً من الحيوية. ولم تستطع ديانا الإقدام على التربيت عليه كما نصحتها ليزا، ولكنها بشيء قليل من الوعي الذاتي تناولت يده التي تركها تمسك بها ـ وأخذت تضغط عليها شاردة من حين إلى آخر. وشعرت بأن فزعها الجسدي منه قد قَلَّ عن ذي قبل،

غير أن رائحته كانت لا تطاق، فانتابها حدس مرعب بأجزائه الداخلية وبفَنَائه الخليق بالشفقة. كان ثمة شيء شديد الغربة ومثير للعطف في هذا الجسد النحيل الهزيل الواهن، الذي لا يكاد يكون ملحوظاً تحت الملاءات، وكأنه يبذل أقصى ما في وسعه لكي يتلاشى فوراً دون أن يترك شيئاً سوى الرأس. وانقضت ساعة من فترة العصر في شيء يشبه الكلام. ولم تكن تريد المجازفة بلقاء دينبي الذي لم تكن تشعر بعدُ بأنها مهيئة للقائه، وهمَّت بأن تقول إن الوقت قد حان لانصرافها عندما استسلم برونو فجأة للنوم. وما برح ممسكاً بيدها.

ارتبكت ديانا وتساءلت مباشرة إن كان قد مات. حرَّرت يدها من يده بحذر ونهضت. كان تنفسه يبدو منتظماً مطَّرداً. وحتى عندما حركت المقعد وهمَّت بالقيام على قدميها، كانت تستطيع أن تقيس شدة انتباهها الى برونو بمقدار العنف المباغت لتعاستها حين تذكرت ما كان بين مايلز وليزا. وقفت برهة تنظر الى برونو حتى تحول الى طيف، وكاد أن يكون لا مرئياً. ثم ما إن بدأت تلتمس طريقها الى الباب حتى شاهدت زجاجة ضخمة من الحبوب المنومة قائمة ـ واضحةً ومنفصلة كأحد تفاصيل صورة فلمنكية ـ على قمة خزانة الكتب ذات السطح الرخامي. وكانت تعرف ما هي تلك الحبوب لأن برونو ذكرها رداً على سؤال لها عن كيف ينام. ووقفت ديانا ساكنة مرة أخرى وهي تحملق في زجاجة الحبوب.

وجدت ديانا نفسها ـ حتى الآن ـ عاجزة تماماً عن مناقشة الموقف مع مايلز. وكان قد قام بمحاولة أو محاولتين فاترتين للإشارة اليه، ولكن، يبدو أنه شعر بالارتياح حين أدارت رأسها بعيداً بحركة تنم عن شيء من التسليم الحيواني، ورفضت الإجابة. وفي اليومين اللذين أعقبا رحيل ليزا عاشا في المنزل معاً كشخصين مصابين بالجنون، كل منهما مستغرق تماماً في جحيم عاصفة من أفكاره الخاصة. ومع كل هذا استطاعا أن يلتزما بسلوك

twitter @baghdad_library

على درجة معينة من السويَّة. ذهبت ديانا لتسويق حاجياتها، وذهب مايلز إلى عمله. وكانا ينامان في فراش واحد، أو بالأحرى يأرقان ساعات جنباً الى جنب صامتين بلا حراك. وكانت ديانا تبكي في هدوء دون أن تمسح دموعها، فتبلل الوسادة. وأما أثناء النهار فكانا مؤدبين إلى أقصى حد، يراعي كل منهما مشاعر الآخر، ويلتزمان بالدقة الشديدة والرسميات في كل شيء. وكان التغيير الواضح الوحيد الذي طرأ على نظامهما يتعلق بمسألة الوجبات. فبنوع من الاتفاق الضمني المتبادل تخلى كل منهما عن التظاهر بالأكل الجاد. ومن حين إلى آخر كانت ديانا تمد نوعاً من «البوفيه» في حجرة الطعام، ويلتقط كل منهما عرضاً ـ دون أن يجتمعا معاً ـ ما يكاد يقيم الأود.

وكذلك لم تتحدث ديانا مع ليزا في أية مناسبة. ولم تعلِّق بشيء الى أختها، كما لم تحاول ليزا أن تتكلم معها وان كانت قد أخذت راحة ديانا مرتين، وضغطت عليها ووضعتها على وجنتها، على حين نظرت اليها ديانا نظرة جوفاء دون استجابة. وتكهنت ديانا بأن ليزا قد عزمت على الرحيل بعد زيارةٍ مايلز الليلية مباشرة. ثم أخلدت الى الصمت خلال الفترة التي كانت ترتِّب فيها لوظيفتها في الهند. وأعلنت عن رحيلها صباح اليوم الذي غادرت فيه المنزل، وكانت ديانا تستطيع أن ترى أن دهشة مايلز لم تكن تقل عن دهشتها. وفي سيرها الأخير إلى المحطة كانت ليزا فاترة، عملية، تتحدث بسرعة، على حين احتفظت ديانا بصمتها. وكانت ليزا تحاول اقناعها بأن عليها أن تمنع مايلز من محاولة العثور عليها (أي على ليزا) قبل رحيلها الى الهند، وبأنه سيبوء بالفشل بكل تأكيد إن هو حاول. ولم تخبر ديانا بالمكان الذي تقصده. وعندما بلغتا المحطة تحدثتا مرة أخرى عن برونو. وتعانقتا بعيون مغمضة، وضمَّتْ كل منهما الأخرى ضماً شديداً. ولم تلبث ليزا أن ولَّت.

وتسكعت ديانا في الشوارع في ذلك اليوم، وفي اليوم التالي. وجلست على الأرائك في المتنزهات وفي أفنية الكنائس. واستعرضت الموقف في ذهنها مرات لا حصر لها، محاوِلة أن تجد سبيلاً الى التفكير فيها يكون أقل تعذيباً، ولكنها لم تظفر بشيء. بدأت باعتقادها أن مايلز وليزا سيهربان معاً. وهي تعتقد الآن أنهما قد وضعا حبهما على الصليب نهائياً وبشكل محدد ـ من أجلها. ولم يكن هذا واضحاً لأول وهلة، مما كان له أسوأ الأثر عليها. وعندما فكرت أنهما قادران على الهرب اتخذت حكماً لم يكن يبدو أنه يمس أمانتهما كثيراً بقدر ما كان مبنياً على ذلك الشيء العارم الرهيب الذي هو حبهما. وقدّرت ديانا جسامة تضحيتهما حق قدرها، مثلما أدركت عندما تلقت صدمتها العنيفة الأولى أن ما لم يكن قابلاً للتفكير قد وقع، وأن حياتها تغيّرت تماماً. كانت ترهب عن يقين هذا الشيء، الهائل، المنطلق، الوحشي، الموجود في المنزل، عندما أبصرت في لحظة معينة مايلز وليزا ينظر كل منهما الى الآخر عبر مائدة الغداء. لم تكن تنبأت بشيء كهذا. ذلك أن الشفقة التي شاطرتها طويلاً مع مايلز نحو ليزا جعلتها عاجزة عن رؤية شقيقتها قادرة ـ وبتفوق ـ على فتنة زوجها.

ولم يستطع خيالها المروّع الخائف أن يألف الآن بديلاً عن ذلك. فما إن قلّ خوفها المريع من هروب مايلز حتى بدا لها الآن أن قبول تضحيتهما أسوأ كثيراً وأشد عسراً. لعل من الأفضل أن تكون ضحيتهما، فإن ذلك يبرر على الأقل، ويجعل من الغيرة المسرفة والسخط اللذين لا تستطيع الكفّ عن الشعور بهما أمراً قابلاً للتحمل، لا سيما وأن الشعور بهما لم يقل، بل تزايد وهي ترى الآن مايلز بعينيه الذاهلتين في حدائق كمبسفورد وهو يتجول ويرتعد داخل جدران المنزل مثل حيوان حبيس في قفص. وكذلك بالنسبة لها تغير المنزل، وتغيرت الحديقة تغيراً تاماً، وأصبح كل منهما سجناً، ووحشة. إنه لا يستطيع أن يتوقع منها أن تكون ممتنة، حتى وإن

twitter @baghdad_library

كـان قد سَلَك ـ بمعنى مـا ـ سلوكاً لا غبـار عليـه. هـذا السلوك المنزّه عن الخطأ عذّبها أكثر من أي شيء آخر وكان الموقف يتطلب منها ـ على نحو ما ـ الاعتراف بالجميـل بطريقـة مهينة لهـا الى أقصى حد. كيف كـانا يتحـدثان عنها؟ حاولت ألا تراقبهما. فهما يستطيعان أن يقضيا معاً أياماً خارج المنزل، على حين تجلس هي في البيت منتـظرةً حكمها عليهـا. . «إنـك لا تستـطيع أن تهجر ديانا المسكينة». «ديانا المسكينة يمكن أن تحطم قلبها». «وهي على كل حال، زوجتك يا مايلز، وليس لها شيء سواك». «إنها ليست قويـة، يا ليـزا، ومستقلة مثلك». ما أعجب مـا تغـيرت مـواقعهـما الآن هي وليـزا! الآن، أصبحت ديـانا هي الـطائر المهيض الجنـاح الذي سيمـرغ ريشـه في التراب بعد ذلك إلى الأبد.

قـالت ديـانـا لنفسهـا: لـو أنهما رحـلا لكـان من الممكن أن أعيش. بالطبـع، سيكون هـروبهما شيئـاً شنيعاً. وحـاولت أن تتخيل المنـزل خاويـاً فجأة، محروماً من ذلك الحضـور الحيواني الحبيب المـألوف. غـير أن كل مـا كانت تشعر به هو الشقاء الأجوف لـزواجها الـذي أصابـه التحول الى غـير رجعة. «لن تعود الأشيـاء إلى ما كـانت عليه أبـداً، أبداً». ولكنهـما لو هـربا فـإن كل الـطاقة، وكـل الكبريـاء، وكل الاحسـاس بالـذات. . كـل هـذا سيكون في صفٍّ البقاء. سـأريد حينـذاك أن أبينّ لهـما وللعالم أجمـع، كيف أستطيع البقاء على أحسن وجه. وسأشعـر عندئـذ بأنني أقـل مرارة. وربمـا تمكنت من البحث عن العَـوْن، ووجدتـه في أمـاكن أخـرى. أمـا بـوصفي زوجة، مستبقاة، منتصرة، فـإني لا أستطيـع أن استنجد بـأحد، وبخـاصة نفسي. سـأخسر في كـل سبيـل أطـرقـه. لقـد سَلَبْتـه مني، ودمَّـرت حبنـا الزوجي، ولم تعد لي حيـاة جديـدة، وإنما الشكـل الميت لحياة قـديمة. لقـد تصرّفـا التصرف السليم، وبهذا وحـده انخفضت أسهمي تمـامـاً. وخُتِمت آلامي ومـرارتي داخل نفسي إلى الأبـد. لم يعـد لـدي مصـدر أستمـد منه الطاقة، ولا سبيل إلى نموٍّ للوجـود، يمكّنني من أن أحيا هـذا الدور البغيض

للزوجة التي من أجلها خططا معاً التضحية بحبهما العظيم. وبهذا بلغت مذلتي نقطة الانعدام. وسيبدأ مايلز إن عاجلاً أم آجلاً في الحديث عنها. سيتحدث بعطف ولطف، محاولاً أن يجعلني أشعر بأن حبه لي شيء حقيقي. ولكنني أرى ذلك الشيء، حبهما. لم نكن مايلز وأنا متحابين على هذا النحو أبداً.

لقد قرَّرا ألا يهربا معاً. ولكن، ماذا لو أن ديانا هي التي هربت، وتركت كلًّا منهما للآخر؟ أكان في ذلك الموقف على نحو ما، وفي مكان ما، مَخْرج من دائرة الألم؟ وبغشاوة على عينيها تكاد تعميها بحثث في هذا المخرج. من الممكن أن ترحل إلى الخارج في مكان ما دون أن تترك عنواناً. غير أنهما لن يعتقدا ـ تمام الاعتقاد ـ أنها رحلت الى الأبد. سيبحثان عنها بحبٍّ معاً. وعلى أي الأحوال فإن ديانا لا تملك من المال شيئاً، ولا مهارة لديها لاكتسابه. وبإحساس واعٍ بالجنون خطر لها أيضاً أن تقصد دينبي. لو أنها ذهبت الى دينبي، هلْ سيشعر مايلز وليزا حينذاك بالاقتناع، بالتحرر؟ وظلت ديانا محتفظة ـ أثناء انشغالاتها الرهيبة جميعاً ـ بفكرة دينبي على سبيل الاحتياط. إذ استبقت في نفسها شعوراً نحوه، نوعاً من الامتنان، والمودة، احساساً عنه بوصفه اجازة تقضيها بعيداً عن مايلز. هنا على الأقل ثمة مكان جديد للحب. وأدهشها أن مايلز لم يُشر إليها بشيء عن زيارة دينبي المخمورة، واعتبرت هذا السكوت منه شيئاً غريباً. وليس من شك أن عذابه الشديد قد أحال أنشطة دينبي الى شيء غير مرئي. ومع ذلك، هل هناك حقاً أي معنى في الفرار إلى دينبي؟ ربما لم يعرف ببساطة ماذا يصنع بها. وعندئذ ينتهي الأمر إلى ورطة لن تكشف إلا عن تعلقها الذليل الذي لا رجعة فيه بمايلز. أليست هناك طريقة أخرى؟

نظرت ديانا إلى زجاجة الحبوب المنومة، ثم رجعت ببصرها إلى برونو. كان مستنداً الى الوسادة قليلاً، في الوضع الذي اتخذه عندما كان يتحدث

twitter @baghdad_library

إليهـا، ورأسه مـائـل إلى جـانب. ولم يكن من اليسـير أن يتبـين المـرء ـ حتى حين ينظر إلى وجهه الكامل ـ متى تكون عيناه مفتوحتـين ومتى لا تكونـان. لعله يراقبها الآن في هدوء؟ وعادت ديانا إليه، وتحركت إلى جانب السرير. حبست أنفاسها وانحنت فوقه. كـانت عيناه، وسط ثنـايا اللحم السمينـة ـ مغمضتين بإحكـام، والنَّفَس المتأوه قليـلاً يصدر عن الفم، والشفـة السفلى الحمراء المبللة تنبسط وتنقبض وفقاً لإيقاع التنفس.

وقفت ديـانا وسط الحجـرة في منتصف الطريق الى البـاب، وأطلت من النـافذة عـلى قطعـان السحب الرمـادية السمينـة التي كـانت تمـر في أمـواج متـدافعة سريعـة مضطربـة خلف مدخنـة محطة الـطاقة. وجـاس في نفسها خوف عليل ارتفع الى حلقومهـا. كانت من القـوة بحيث تستطيـع أن تمحو سنوات العذاب جميعاً. لقد أحبت مايلز، وما برحت تحبه حباً تاماً مُعَذِّباً. ولكن، ألم يعد المستقبل الآن سوى الزمن الـرمادي الـطويل الـذي يستغرقـه انـطفاء الحب؟ لن يغفـر لها أبـداً بسبب تلك التضحية. ولن تصفـح عنـه أبداً. سيراقب كل منهما الآخر وهو يتحـول الى الفتور. ولكنهـا لو انسحبت من المشهد، لو أنها رحلت، رحلت نهائيـاً، عندئـذ ستكون المُحَـافظة عـلى الحب: حبـه، وحبها، وحب ليزا. أليس في هذا ـ بكل وضوح، وبالنسبـة اليهم جميعاً ـ الإجابة والإجابة الوحيدة؟

حبست ديـانا أنفـاسهـا حتى أوشكت أن تـترنـح. واتجهت الى البـاب، وتناولت زجاجة الحبوب المنومة، ثم فتحت الباب.

وعـلى البسطة، خـارج الباب بـالضبط، كان يقف رجـل هزيـل فـاحم الشعر.

قالت ديانا: «أوه!»، اذ بدا سكون ذلك الشخص وقربه المبـاغت منذراً بالشر، غريباً كل الغرابة.

قال برفق: «أرجو معذرتك. لم أكن أقصد تخويفك. كنت أنصت لأرى ان كان هناك أحد مع برونو».

أغلقت ديانا الباب، ودست زجاجة الحبوب في حقيبة يدها. «كنت أتحدث اليه، ولكنه استغرق في النوم».

- «اسمي نايجل. وأنا الممرِّضة. نايجل الممرضة. وكان من المفروض أن أقول الممرضة الذكر (الممرض)، كما يقول الناس النساء الكُتّاب Women Writers، وان كنت لا أرى لماذا يفعلون ذلك، حيث أن عدد النسوة من الكتاب أكبر من عدد الرجال الممرضات. ألا توافقين على ذلك؟»

قالت ديانا: «أخشى ألا يكون هناك بد من انصرافي»، وهمّت فعلاً بالنزول على السلالم. ولكنها قبل أن تصل إلى الباب الخارجي انطلق نايجل كالسهم فسبقها الى الصالة. وهو يقف الآن مولّيا ظهره للباب.

«لا تذهبي فوراً».

قالت ديانا: «انني في عجلة من أمري».

- «ليس الآن بعد».

وقفت مترددة في مواجهته. كان وجهه ممتقعاً، يكاد يغلبه النعاس، وهو يستند مرتبكاً إلى الباب بأن بسط عليه ذراعيه. أحسست بالاضطراب والفزع. «افسح الطريق، من فضلك».

- «كلا، أيتها السيدة جرينسليف».

- «أنت تعرف من أنا...»

- «أعرفك جيداً. تعالي هنا لحظة. أريد أن أتحدث اليك، أرجوك».

وأمسك بحزام حقيبة يدها ودفعها برفق في اتجاه الحجرة الأمامية. كانت الحجرة تفوح برائحة التراب والرطوبة وعدم الاستعمال، وكانت الستائر نصف مسدلة. «هذه حجرة الجلوس، ولكن، ما من أحد يأتي هنا

twitter @baghdad_library

أبـداً، كـما تستـطيعـين أن تـري. اجلسي من فضلك». ودفـع ديـانـا بـرفق فـوقعت فوق الأريكـة البنِّية المخملـيـة، وأثارت سحـابة من الغبـار جعلتها تعطس. ورفع نايجل الستائر ليسمح بدخول ضوء الأصيل البارد المعتم.

ـ «ماذا تريد؟»

ـ «هناك شيء ينبغي أن تعرفيه».

ـ «ماذ؟»

ـ «دينبي يحب شقيقتك».

حملقت فيه ديانـا وهو يـزرع الغرفـة جيئة وذهـاباً في مـواجهة الشبـاك. قالت: «أعتقد أن الأمر قد التبس عليك، ان دينبي لا يكاد يعرف أختي».

ـ «إنه يعرفها بما يكفي لأن يُجَنَّ غراماً بها».

ـ «أظن أنك تخلط بين أختي وبيني. ليس دينبي... على كل حـال هذا شيء لا يخصك».

ـ «أنا لا أخلط بينك وبـين أحد. انـه كان يميـل اليك. ثم التقى بليـزا فشُغِف بها حباً».

ـ قالت ديانا: «أنت مخطىء». وشرعت في النهوض.

ـ «اذن، ألق نظرة على هذا». ودفع نايجل في يـدها بقصـاصة ممـزقة من الـورق أعاد تـركيبها بـاستخدام الشريط الـلاصق. وكانت المسـودّة الأولى لرسالة دينبي الثانية الى ليزا.

قرأت ديانـا الرسـالة، ومـا إن فرغت من قـراءتها حتى سقـطت من بين أصابعها على الأرض. استندت بظهرها على الأريكـة، وشردت ببصرها الى الأمام. كانت هذه علامة لا ريب فيها. كانت تعلم الآن، وتعلم بوضـوح تـام، أن حب دينبي كان من الممكن أن يحـول بينها وبـين الانتحار. ولكن الآن... هـا هي ليزا قـد أخذت دينبي أيضـاً. تشبثت ديانـا بحقيبة يـدهـا شـاعرة بـوجود زجـاجة الحبـوب في داخلها. قـالت لنفسهـا: سـأذهب الى

البيت، كلا، سأذهب الى فندق، وأفعلها في الحال. هذه هي النهاية. دينبي أيضاً. لقد ضمّت ليزا العالم كله اليها. وانحدرت دمعة على وجنتها. وكانت قد نسيت وجود نايجل.

كان قد جلس الى جانبها. «حسبت أنه ينبغي أن تعرفي في حالة ما اذا كانت هذه المعرفة تؤدي الى شيء من الاختلاف».

قالت: «إنها لا تؤدي الى أي اختلاف»، وهي تكفكف دمعتها. وهمَّت بالنهوض.

- «انتظري. لدي شيء آخر أود أن أقوله».

- «عن ماذا؟»

- «عن مايلز وليزا. ينبغي ألا تستسلمي لليأس».

- «كيف عرفت كل تلك الأمور؟»

- «لأنني إله. ولعل هذه هي الصورة التي يظهر بها الاله الآن في العالم، شخص مجنون ضئيل لا ينظر إليه أحد، وينحيه الناس جانباً، ويلقونه على الأرض، ويطأون فوقه. أو ربما كنت إلها زائفاً، أو واحداً من ملايين ملايين الآلهة المزيفة الموجودة. لا أهمية لذلك. الاله الزائف هو الاله الحقيقي. وعلى أي دين يمكن أن يتسلق الانسان».

قالت ديانا: «دعني أذهب»، وكان نايجل قد أمسك بها من كتفيها.

«ينبغي ألا تكوني حقوداً. ينبغي ألا تغضبي عليهما. ينبغي ألا تكون هناك ذرة من الحقد، أو ذرة من الغضب. هذه رسالة، هذه هي الرسالة. أن نجعل هناك سماءً جديدة، وأرضاً جديدة. وفي استطاعتك أن تفعلي ذلك. إنه شيء ممكن، إنه شيء ممكن».

- «دعني أذهب. ليس هذا من شأنك.».

- «إنه من شأني. فأنا أحبك».

twitter @baghdad_library

ـ «لا تكن سخيفاً، إننا لم نلتق من قبل أبداً».
ـ «لقد التقينا. كنت أقوم بطلاء القضبان. وكان الطلاء في شعري».
ـ «ولكن، كان هذا شخصاً آخر... بكل تأكيد...» ووضعت ديانا راحتها على وجهها. وشعرت بأنها على وشك الجنون.
ـ «وفضلاً عن ذلك، أنا أحب الناس جميعاً».
ـ «إذن، لا يمكن أن يكون ذلك حباً. أبعد يديك عني، من فضلك».
ـ «ولماذا لا؟ ألم أنبئك بأنني إله؟»
ـ «أعتقد أنك مجنون بلا ريب... أو تعاطيت شيئاً من العقاقير...»
ـ «ربما. هل أستطيع أن أدعوك ديانا، ديانا؟ أتعرفين أنك جميلة؟» وجعل نايجل يزحف بذراعيه حول ظهر كتفيها. ناضلت ديانا، ولكنه كان قوياً بدرجة تثير الدهشة.
ـ «أتريدني أن أبدأ في الصراخ؟»
ـ «لن تصرخي. وفضلاً عن ذلك، من تُراه يهب لانقاذك؟ برونو؟ كل ما أردته هو أن أحتضنك على هذا النحو الحبيب أثناء حديثي معك».

وحاولت ديانا ـ وقد كُبِّلت ذراعاها ـ أن تقاوم بركبتها. وتعالى مزيد من سحب الغبار من الأريكة العتيقة. وأخذت ديانا تعطس ثانية، على حين اشتدت قبضة نايجل عليها. وانسابت دموع العجز والتعاسة على وجهها. وكفَّت عن النضال.

«هوِّني عليك، هوِّني عليك، لا تقاومي نايجل المسكين، إنه يحبك. وينبغي أن تصفحي عن مايلز وليزا».

تركت ديانا دموعها تناسب برهة. وكانت عاجزة عن مسحها من شدة احتضان نايجل لها. فقالت أخيراً: «كيف؟»

ـ «دعيهما يطآنك في الطريق الذي يسلكانه. ربما فَعَلا الشيء الصحيح، وإن كانا قد فعلاه بشيء من الزهو والكبرياء، وهما يمتطيان صهوات الجياد.

إن لكبريائهما ضروراتها الصغيرة. انظري واغفري».

قالت ديانا: «هناك أيضاً كبريائي»،

- «تنازلي عنها. دعيها تسقط كما يسقط الحجر الثقيل».

قالت: «لا يكاد يعنيني أنهما فعلا الشيء الصحيح. إنهما أقْدما على تضحية عظيمة. وما عليّ إلا أن أكون ممتنَّة. وهذا ما لا أستطيعه. إن كلا منهما يحب الآخر بفظاعة».

- «كل منهما يحب نفسه أكثر. وحبهما لنفسيهما ولحياتهما لم يترك لهما سبيلاً آخر. إنهما لم يضحيا بشيء. وإنما قررا أن يفعلا فحسب ما فيه ازدهارهما».

قالت ديانا: «لا أستطيع مناقشة هذه المسألة معك». غير أنها لم تحاول الآن أن تسحب نفسها بعيداً عنه.

«إنك تناقشينها معي، يا عزيزتي. الشيء الرهيب هو أن أحداً لن يموت من هذا! مايلز سيزدهر، وأنت سترعينه بحنان، كما ترعين طفلاً».

«كان من الأفضل أن يهربا معاً. وسيندم لأنه لم يفعل ذلك دائماً، وسوف يحتقرني. لم يعد من الممكن أن يقوم بيننا حب بعد الآن. وليس في إمكاني تحمّل أفكاره، أفكاره عنها، وأفكاره عني».

- «الكائن البشري لا يكاد يفكر في الناس الآخرين أبداً. إنه يتأمل أطيافاً تشبههم، أطيافاً اختلقها تتمشى مع أغراضه الخاصة. إن أفكار مايلز لا تستطيع أن تمسَّك. وأفكاره تدور حول مايلز هذا أيضاً يجب أن تبصريه وأن تغتفريه. سيكون مسروراً بنفسه وسترينه مبتسماً».

- «ولكن، ماذا عن نفسي؟»

- «هذا هو ما يبكيه الجميع. استرخي. دعيهما يطآنك. أحبيهما ودعيهما يطآنك. أحبِّي مايلز، وأحبي دينبي، وأحبي ليزا، وأحبي برونو، وأحبي نايجل».

twitter @baghdad_library

وكانت ديانا قد أسندت رأسها الى كتف نايجل. وأخـذت دموعهـا تجف فوق وجنتها، وعلى سترته. «لا أظن أنني أعرف كيف أفعل ذلك».

ـ «تعرفين كيف تحاولين فعل ذلك. كل إنسان يعرف هذا».

ـ «كان كل شيء غاية في الجنون. دينبي وليزا أيضاً. كل شيء يبدو الآن كأنه حلم، كابوس، اختلط فيه كل شيء وفارقه الوضوح».

ـ «إنـه في معظمـه حلم، يـا ديـانـا. أجـزاء صغـيرة منـه هي وحـدهـا الواضحة، ولا يتلاءم بعضها بالضرورة مع البعض الآخر. وعندما نتعذب نتصور كل شيء وكأنه آلة ضخمة. غـير أن الآلة ليست إلا وهمـاً اخترعتـه آلامنا».

قالت: «لقد بدا حقاً كالآلة». وهمّت بالجلوس، وجعلت تدفع بشعرهـا الى الوراء. وكان نايجل قد أرخى قبضته.

ـ «ها أنت ترين، لقد مرَّ كل شيء فعلاً».

تـراجعت في جلستها إلى الـوراء، وتطلعت إليـه. كـانت هنـاك كـدمـة أرجوانية تميل الى الزرقة تغطي جانباً من وجهـه، وتحيط بقتامـة عينه نصف المغمضة. «ماذا فعلت بنفسك؟»

ـ «اصطدمت بقطعة من العالم الحقيقي. وفي هذا ما يمكن أن يضر».

ـ «يا لنايجل المسكين. . . »

ـ «ودعيني آخذ هذه بعيداً. إنك لن تحتاجي إليها».

وقبضت يـد نـايجـل الـذي أخـذت تفتش في حقيبتهـا ـ عـلى زجـاجـة الحبوب المنومة، وأفرغ الحبوب منها ووضعها في جيبه.

مسحت ديانا وجهها وهي تسوِّي دمـوعها الجـافة عـلى بشرتها. «كـلا، لا أظن أنني بحاجة إليها. ولكنني لا أعرف السبب. كـان كلامـك معي مجرد هراء».

ـ «طبعاً، طبعاً. أنا الكاهن الذي يتحدث بالهراء، عن دين كله هـراء! الطبيب الزائف ليس طبيباً، أما الإله الزائف فهو نوع من الإله، يا ديـانا، دعيني أصحبك إلى بيتك».

twitter @baghdad_library

(٢٧)

أضاء دينبي النور. وكانت الحجرة الكبيرة السفلى من المطابع العفنة بما يفوح منها من روائح يختلط فيها الحبر والورق وأكوام القصاصات التي تراكمت عبر السنين ـ تبدو موحشة، باردة، تفتقر إلى النظام، وتشيع فيها الفوضى، وتعوزها اليقظة، ومع ذلك كانت ساكنة سكوناً غريباً، ومتنبهة على حين غرة، على خلفية من صفٍّ من النوافذ السوداء العارية من الستائر. وكانت تبدو دائماً غريبة كل الغرابة بدون نشاط العمال فيها وما يحدثونه من ضجة صاخبة. وكانت الساعة تشير الى حوالي الخامسة صباحاً.

شرع دينبي في اجتياز الحجرة. وفي طريقه توقف بجانب المطبعة الألبيونية (الإنجليزية) القديمة التي وصلت في اليوم السابق على الأمس من مدرسة الفنون. كان الحديد الزَّهْر باهتاً، صدئاً إلى حد ما. كانت بحاجة إلى الطلاء، والزيت، والحب. وحتى في هذه الحالة المتواضعة من عدم الاستعمال كانت شيئاً يتسم بالقوة والجمال. «كوب، لندن ١٨٢٧». Cope London 1827. وربت على الزهرة الحديدية الضخمة التي توضع كثقل مضاد، وعندما هز العمود، تحركت المطبعة في يسر، وصمتٍ، وقوة هادئة. فتركها ومضى في طريقه عبر الحجرة.

وفي الجانب البعيد من الحجرة كان هناك باب يؤدي إلى مجموعة من الدرجات الحجرية. وهذه الدرجات تفضي إلى أسفل حيث يوجد رصيف

ضيق لم يعد الآن مستخدماً، وينتصب عليه سُلَّم يؤدي إلى النهر، أو في حالة المد المنخفض إلى ضفاف التيمس الموحلة. أدخل دينبي المفتاح في قفل الباب، ثم فتحه، وتطلع إلى الخارج. كان يستطيع أن يرى الآن في السماء إيحاءً خافتاً جداً بالنور، عتمةً رمادية في مقابل السواد الكثيف تحتها. وحاول أن يتبيّن ملامح المداخن التي تعلو محطة الطاقة المواجهة له، ولكنه لم يعثر لها على أثر. وعلى الجانب الآخر من المياه استرعت أنظاره نافذتان أو ثلاث ينبعث منها الضوء، فخطر برونو على ذهنه لحظة، وإن كان يعلم أن «شارع الاستاد» لا يمكن أن يُرى من المطابع. وبدا له الآن أن صفحة النهر يمكن أن تصبح مرئية. أو لعلها كانت وهماً. ولعل هناك أيضاً صوتَ خرير خافت للنهر، أو ربما كان همساً منتظماً في أذنيه. وشاعت في الجو رائحة ناعمة باردة من الوحل والماء. ما زال في الوقت فسحة قصيرة قبل أن يأتي المد المنخفض.

ارتد مايلز إلى الداخل وألقى نظرةً على ساعته. ثم خلع معطفه فارتعد، ومن ثمّ، عاد إلى ارتدائه مرة أخرى. وكان الجو البارد يجعل كتفه المرضوضة تنبض بالألم. فاتجه إلى حجرة خشبية صغيرة متداعية خصصت كمكتب، وكانت تبرز إلى الخارج مثل كوخ ملحق بالحجرة الرئيسيّة، فأضاء النور داخلها. وكانت حجرة المكتب التي يستخدمها دبني وجيسكين تفتقر إلى النظام، والخطابات مكدسة على المكتب، وبعضها لم يُفضّ بعد. ذلك أن دينبي لم يكن قادراً على أن يعمل بنفسه، أو أن ينيب عنه أحداً لأداء واجباته. والجدران كانت مغطاة بالإعلانات القديمة التي تعلن عن تخفيضات الأسعار والحفلات المسرحية التي انقضت منذ ستين عاماً. فتح دينبي صوان الأكواب، وصب لنفسه كأساً من الويسكي الصِّرف. كان يشعر بتوتر مضحك في أعصابه.

كان قد قَبِل التحدي السخيف الذي وجهه إليه «ويل بوس» للمبارزة

twitter @baghdad_library

لأسباب كانت تبدو وجيهة في أوانها، ولكنها لم تعد الآن على شيء من الوضوح بحال من الأحوال. كان يعرف ـ بالطبع ـ أن «المبارزة» ستكون مهزلة، شيئاً أعده التوأمان للمسرح بمسدسات مسرحية حُشِيت برصاص زائف، ودبِّرت لإشاعة الاضطراب في نفسه وإذلاله. ومع هذا كله بدت الآن يوصفها محنة مخيفة، شيئاً عنيفاً لا سبيل إلى التنبؤ به، حدثاً عليه أن يقوم فيه بدور سريع ارتجالي، وربما وجد فيه صعوبة للتصرف بحزم، واستحالةً للتصرف بوقار. وشعر بأنه أسلم نفسه تماماً لأيدي رجال يضمرون له العداء.

ومع ذلك فإن هذا التسليم لنفسه كان ما فكرّ لأول وهلة أنه يريده. كان يبغي أن يصبح ضحية لحَدَثٍ عنيف. كان أسيراً لكلمة «يعاقب» التي استخدمها ويل في رسالته، وبدا لدينبي أن التوأمين اللذين ربط بينهما الآن في تحالف واحد كانا أداة في يد قَدَرٍ موجَّهٍ ضده، ومع ذلك فإنه قَدَرُه بلا أدنى شك. وكانت فكرة المبارزة هي فكرة إنهاء لحياته، إنهاء زائف بالطبع، كما كان دينبي يعرف ذلك في شيء من الإبهام، ولكنه ـ على كل حال ـ نوع من الكارثة الصغيرة المفتعلة التي قد ترمز إلى ختام حقبة من الزمن.

كان يعلم أن ليزا قد رحلت. إذ ذهب إلى «حدائق كمبسفورد» وأطلعته ديانا على حجرتها الخاوية. وقالت له ديانا إنها رحلت إلى الخارج بلا عودة. ولم يسأل دينبي عن التفاصيل. ولكنه لم يفترض أنها ذهبت إلى الخارج بمفردها. ووقف صامتاً مع ديانا في الحجرة الشاغرة. ولم يدرك أن ديانا قد علمت بما كان بينه وبين ليزا إلا بعد انصرافه. لا بد أن مايلز قد أخبرها. وذهب إلى مكتبه في اليوم التالي واليوم الذي يليه. واعتنى ببرونو كالمعتاد، ورجع إلى إطعامه حين حانت وجبة الغداء. ولم يلبث نايجل أن عاد بعد غياب ثلاثة أيام، واستأنف عمله. وأصبح نايجل ـ الآن فحسب ـ حضوراً معادياً له، ملاكاً نحيلاً ساخراً يحاكمه. وتحدث إليه دينبي في شيء من

الحـرج والاعتذار، ثم ارتـد مجفلاً من ابتسـامتـه. أمـا أديليـد فقـد حـزمت حاجياتها في حقائب عدة، كان عليها أن تفكها يومياً بحثاً عن أشياء تحتـاج إليها. وكانت قد أعلنت عزمها على الرحيل، ولكنها لم ترحل بعد. وكـانت تمضي الشـطر الأكبر من كـل يوم بعيـداً عن المنزل. وامتـلأ المطبـخ بـالأواني القذرة والطعـام الفاسـد. واحتفظ دينبي بطبق مستعمـل تحت صنبور المـاء الساخن في كل مرة كان عليه أن يطعم بـرونو. أمـا هو فكـان يتناول وجبـاته في الحانات.

وكان دينبي يشعر بأسف شديد على أديليد. وما كان يبدو أمـراً طبيعياً، بسيـطاً، لذيـذاً، حين كـانت الأمور تسـير سيراً حسنـاً، بدا لـه الآن أشبه بجريمة. غير أنه لم يستطع أن يتبين بـوضوح تـام لماذا كـان جريمـة. لم يكن السبب هو ما تقوله أديليـد عن عدم رغبتـه في الزواج منهـا لأنه يعتقـد أنها أدنى منه. اذ كان لا يعتقد ـ حسبما لاح لتفكـيره ـ أنها أدنى منه. كـل ما في الأمر أنه لم يكن ليتزوج أية امرأة يحبها على هذا النحو البسيط المألـوف. ولم يكن ليتزوج ليندا أيضاً. لعل جريمته هي أنه ترك نفسه يُحَبُّ كل هذا الحب الذي يتجاوز كثيراً ما يشعر به من حب. وربما كانت جـريمته تكمن في أنـه سمح لشخص ما أن يلتزم، وأن يرتبط ارتباطاً تامـاً نظير حب من الـدرجة الثانية. لم يكن السبب أنـه كان غـراماً عـابراً عـلى وجه الـدقة، بـل ان له طابعه الخـاص من الواقـع، هو حب منـزلي، ينتمي ـ كما تنتمي روح منـزلية متواضعة ـ الى المنزل الذي يقع في «شارع الاستاد»، إلى المطبـخ وحجرات النـوم الكائنـة فيه. ومـع ذلـك كـان شيئـاً ضعيفـاً بـائسـاً تحـطم في الحـال عندما لمسه ما كان يبدو لدينبي الآن أنه دخول جديـد في حياتـه لواقـع كان قد نسيه بصورة تدعو إلى الخجل.

ولكن، ما هو ذلك الواقع؟ كان يحدث نفسه أحيـاناً بـأن ليزا لا بـد أن تكـون شخصية من عـالم الأحلام، طيفـاً، وكلما مضى الزمن ازداد إدراكـه

twitter @baghdad_library

لهذا، حتى سيبدو له في النهاية انه لم يلتق بها أبداً ـ في واقـع الأمر، وأنها لم توجد حقّاً على الاطـلاق. لقد اختلت قـواه العقلية لحـظة لأنه التقى بفتـاة تشبه «جوين»، فتاة جادة، شديدة المراس، ذات شعر فاحم، وثغر مفكّرٍ لم يشاهده سـوى ست مرات في حيـاته كلهـا. لقد أصبـح مخبولاً لأنها ذكّـرته فجأة بما كانت عليه جوين، وبما كـان عليه هـو، وبما كـان ينبغي أن يكون عليه، منذ أمد بعيد، خلال زواجه. ليست ليزا سوى ملاك الذاكـرة، وما هي إلا تذكير بما فَقَده.

غير أنه كـان يعرف حقـاً أنها لم تكن مجرد طيف. لم تكن جـوين بُعثت من بـين الأموات. إنها تختلف كـل الاختلاف عن جـوين. كـما كـان هـو مختلفـاً أشد الاختلاف عن الرجل الذي تزوجته جوين. كان رجلاً أكبر في السن، وأشد بدانـة، وأكثر إدمـاناً للخمـر من الرجـل الذي أحبتـه جوين حبـاً لا تعليل له. ولكنه ربما كان أيضاً رجلاً أكثر حكمة، وهذا الايحاء تغلغل على نحو ما الى أعمق شطر من آلام دينبي. حملت إليه السنين شيئاً خيِّراً ـ وإن يكن بالامكان على أقل تقدير. هذا الخير المُبْهم الضئيل يبدو أنه كان يُعـاني وينبض بالألم داخله، كلما فكَّر تفكيراً مهوّشاً، وإن يكن قويـاً ـ عن كل مـا كان يمكن أن يكون عن حياة أخرى تماماً مع ليزا. وبدا له، أنه على الرغم من طريقته العَـرَضية في الـوجود، وسلوكـه السيء نحو أديليـد، واستعداده العام للقيام بدور الأحمق ـ بدا له على الرغم من كل هـذا أنه وَجَـد شيئاً في العالم، بذرة صغيرة من الفهم جعلتها تلك اللمحة من ليزا عـلى حين غـرة شيئاً مضيئاً حيّاً. وأحس في شيء من الغموض بانقسام وجـوده، وبمدى مـا كان متّسماً بـالغلظة والابتذال، وبضـآلة مـا لم يكن وقيمتـه. غـير أن هـذه الأفكار عندما راودته لم تكن واضحة تمام الـوضوح لـذهنه أبـداً؛ وأمضى معظم أيامه في غيبوبة البؤس، مفكِّراً في ليزا والرجل الآخر، شـاعراً بـآلام جثمانية من الحنين والغيرة جعلته يلهث، ويتخلى عن محاولة استجماع شتات نفسه.

وكانت إمكانية تلك «المبارزة» المجنونة بالنسبة لحالته اليائسة - نوعاً من الخلاص. وبدت له صورة لشيء مدمّر مخبول، ولشيء مناسب وضروري أيضاً. كان قلبه الخافق المحروم في شوق إلى الضرورة. وكم كان يسعده أن يُقْبض عليه، وأن يودع في السجن، ويجلد بالسياط، وأن يُحاكم. وفي أحلامه الآن، كان صوت امرأة يتردد صداه في إحدى قاعات المحاكم الضخمة - مستعرضاً سيئاته التي ترجع إلى طفولته المبكرة، كل شيء يمكن أن يثبت أن موقفه الحالي كان محتوماً، يخفّف من آلامه. إذ لم يكن يكفي أن يكشف له ذهنه العقلاني عن استحالة نجاحه بتاتاً. وهذه الاستحالة هي ما كان في حاجة إلى إثباته. وهكذا استمر تعذيب الأحداث له. لو أنه التقى بها قبل ذلك؛ لو لم يكن هناك ذلك الرجل الآخر؛ لو أنها لم تشاهده وهو يقبّل ديانا؛ لو أنه كان الشخص المختلف والأفضل الذي يبدو له أنه قد يكونه بسهولة. لقد تقبّل، بل رحّب بفكرة المبارزة لأنها بدت منتسبة إلى النظام الآخر للأشياء، النظام القانوني، الضروري للأشياء.

ولكنه الآن، وهو يرتجف في هذا المكتب البارد الصغير الضيق، تحت الضوء الكهربائي، والأشياء المألوفة جميعاً تبدو غريبة مخيفة، اتخذ جنون تلك الخطة طابعاً مختلفاً أشد كآبة. ومنذ اللحظة التي سمع فيها الطَرْق على النافذة، واستلامه لرسالة ويل الطنانة، لم يعد دينبي يفكر في شيء سوى نفسه. فكر في المواجهة من حيث علاقتها بنفسه، بوصفها شيئاً سيحدثه، أو يفعله. ولم يفكر في «ويل» إلا بوصفه فاعلاً أعمى قدِّر عليه على نحو ما أن يؤثر فيه. والآن، وهو يصب لنفسه كأساً آخر من الويسكي، فكرَّ في ويل بقدرْ أكبر من التروِّي. حقاً، إنه لا يعرف سوى أقل القليل عنه. والشيء المؤكد الوحيد الذي يعرفه عن ويل هو درجة كراهيته. ولكن، كيف ستدفعه هذه الكراهية إلى التصرف على وجه التحديد؟ لقد أحب ويل أديليد منذ طفولتها.

twitter @baghdad_library

وكان يتصورها دائماً الفتاة النقية الحلوة التي حُجِزَتْ له على نحو ما. هذا هو ما استنتجه دينبي من انهيارات أديليد الدامعة بعد تسلمه للرسالة. كيف يشعر ويل حيال رجل غِرٍّ عَرَضاً وبلا جدِّية بامرأة أحلامه، وما هو المصير الذي يراه مناسباً لمثل هذا الرجل؟ واتضح لدينبي الآن بما لا مجال للشك فيه أن ويل يرمي إلى إذلاله بطريقة أو بأخرى. فهل اقترح ساعة الفجر، والمكان المهجور، لغرض آخر في نفسه؟ ربما وصل هو ونايجل بصحبة رجال آخرين، وأوثقوا دينبي، انهالوا عليه ضرباً بالسياط؟ لقد سمع عن أشياء مثل هذه.

وضع الكأس، وخرج إلى الورشة الرئيسية. كانت النوافذ أشد شحوباً. فأطفأ الأنوار، وأصبح قادراً الآن على رؤية الضفة الأقرب إليه، وصفحة المياه تلتمع وتتحول إلى رقائق رمادية ذات شحوب شديد مائل إلى الاصفرار. أما الضفة المقابلة فقد غشيها ضباب يبدو أنه يرتعش ويتموج، ويُخْرج شعاعاً منتشراً أصفر، يكشف عن شاطىء النهر المغطّى بالحطام أسفل المطابع، في ضوء الصباح الخافت، وإن يكن صافياً بصورة مرعبة. وانتفض دينبي.

تناهى إلى سمعه صوت وراءه، فاستدار إليه بحركة خاطفة. كان قد ترك الباب الخارجي مفتوحاً، كما تم الاتفاق على ذلك. كانا شخصين يقفان عند الجانب الآخر من الحجرة، أحدهما طويل ونحيف، والآخر أقصر، وأشد امتلاءً.

قال دينبي: «صباح الخير». ولم يشأ أن يضيء النور الكهربائي مرة أخرى، إذ كانت الإنارة كافية للتعرف على زائريه. ودقَّ قلبه بعنف.

بقي «ويل» عند الباب، وكان يحمل حقيبة كبيرة تحت ذراعه. أما نايجل فقد تقدّم على أطراف أصابعه، أو منزلقاً عبر أرضية الحجرة.

وعندما بلغ النافذة كان دينبي يستطيع أن يرى وجهه بوضوح تام.

ـ «لا أحد معك؟»

ـ «كلا. رأيت الاستغناء عن شخص ثانٍ»!

قال نايجل: «هذا شيء يخالف العرف قليلاً، كما تعلم». ووقف برهة محملقاً في دينبي. وكان وجهه يبدو منبسطاً، يشع بانفعال بهيج، على حين كانت الكدمة الأرجوانية ما برحت مرئية بطول وجنته وتحت عينه.

قال دينبي بصوت مرتفع: «أليس هذا كله شيئاً سخيفاً. أظن أنه ينبغي أن ننسى وأن ننصرف إلى منازلنا. لست أدري لماذا أتيتُ على الإطلاق».

تحرك ويل من الباب إلى الأمام. وتوقف على بُعد خمس خطوات، ووضع الحقيبة في مستوى الصينية الخاصة بإحدى آلات الطباعة بالألوان، ثم ألقى على دينبي نظرة مفعمة بالحقد البارد الشديد.

قال دينبي: «فليكن، افعلا ما تشاءان. العبا لعبتكما الصغيرة. ولكن دعونا نفعلها بسرعة. أريد أن أعود إلى المنزل». وحدّث نفسه قائلاً: هذا الرجل في المسرح، ومع ذلك، فإنه شديد اللهفة أيضاً بشكل مريع. لا أستطيع أن أفْلت الآن. ولو حاولت أن أذهب فسوف ينقضّ عليّ. وعلى كل حال يبدو أنه لا يوجد سواهما فحسب.

قال نايجل: «فلننزل إذن. المد منحسر، أليس كذلك؟ كانت فكرتك حسنة أن تدور المبارزة هنا».

فتح دينبي الباب فامتلأ المدخل بهواء بارد تفوح منه رائحة المياه. كان يستطيع أن يشم رائحة البحر. أخذ نفساً عميقاً، وهبط درجات السلم وهو يترنح قليلاً ويمسح بيده على الجدار. اجتاز الرصيف، وأخذ ينزل متئداً من السلّم الحديدي إلى ضفة النهر. وما كاد يخطو على الوحل اللينّ المليء بالحصى حتى كان يستطيع أن يرى حذاء ويل الضخم ذا النعل

twitter @baghdad_library

المطاط والرقبة الطويلة ـ على الدرجات العليا من السلَّم.

كانت الرقعة المنبسطة من الشاطىء التي تمتد حوالي عشرين قدماً من قاعدة الجدار إلى المياه، مضاءة الآن إضاءة واضحة تماماً بنور ما زال خافتاً، وإن يكن على شيء من التوهج يبدو صادراً عن ستار الضباب المعلَّق الآن في مركز النهر والذي يتخذ شكل القنطرة على الشاطىء، ليحصره في كبسولة من الغيم المتألق. والسكون الذي يبدو أيضاً صادراً عن الضباب، أمسك بالمشهد في وضع ثابت، مما جعل دينبي يجفل من وقع خطواته المتنقلة فوق الحصباء اللزجة إلى حد ما. وقف محملقاً إلى حافة المياه. لم يكن المد قد انحسر بعد، وكان النهر ما زال يجري رخاءً إلى مصبه. وكان خط صقيل من الوحل يعكس النور الضارب إلى الصفرة. وفوقه كان السطح أقل انتظاماً، وعراً، صخرياً، تتناثر فيه حقائب البلاستيك وإطارات السيارات القديمة والزجاجات الخضراء، وقطع باهتة وإطارات السيارات القديمة والزجاجات الخضراء، وقطع باهتة جداً، وملساء نظيفة من الأخشاب الطافية التي احتفظ بها التيمس لنفسه منذ عهد بعيد. وجعل الضوء الواضح المتوهج هذا المشهد المشوّش يبدو محدَّد المعالم، هادفاً، وكأنما وجد المرء نفسه بغتة متجولاً وسط عمل من أعمال الفن.

كان ويل ما زال واقفاً إلى جانب السلّم، مسنداً حافة الحقيبة إلى إحدى درجاته، وهو يتحسس مشبك الحقيبة. وتقدم نايجل بحركته الرشيقة المنزلقة حتى بلغ دينبي. وسقط الضوء على وجهه الذي ارتسم عليه ما يشبه الابتسامة المنحوتة على الآثار.

ـ «كيف تحب أن نبدأ؟ ألديك أية رغبات خاصة؟»

قال دينبي: «أي شيء تريدونه،»

ـ «هناك امكانيات شتى...»

ـ «عليك أن تقرر. كل ما يعنيني هو أن نفرغ منها».

ـ «ما يريده ويل هو النظام الذي تقيس فيه عشرين خطوة في المنتصف ورسم خط على كل جانب. ثم يقف كل منكما على بعد عشرين خطوة أخرى وراء الخطّين. وعندما أعطي الكلمة تستطيع أن تسير إلى الأمام حتى تصل إلى الخط، وأن تطلق النار في أية نقطة قبل أن تصله أو بعد الوصول إليه. ولن أصدر أمراً بإطلاق النار، وإنما عليك أن تطلق عندما تريد ذلك».

قال دينبي بصوت خفيض: «انظر يا نايجل، ألا يمكن أن نوقف هذه المهزلة؟ ألا يمكن أن يتحدث ويل معي فحسب؟ أنا أعرف بما يشعر به. . . »

ـ «أتريد أن تعتذر إليه؟»

ـ «كلا! أعني أن يدور بيننا نوع من الحديث المتحضر. . »

ـ «هذا محال. أنت لا تفهم. إن ويل لا يستطيع أن يتحدث معك، إنه لا يستطيع. » وكان نايجل قد وضع يده على ذراع دينبي، وكانت أسنان نايجل يصطك بعضها بالبعض الآخر.

ـ «هذا كله جنون مطبق. . . »

ـ «انتظر هنا. سأنقل لويل ما تقول».

وأخذت خطوات نايجل تسحق، وتمتص، وتتحرك بعيداً فوق الحصى، وكان في استطاعة دينبي أن يسمع همس الأصوات. وأحس بخفة في ذهنه، وهو إحساس شبيه بما يشعر به في مستهل السُّكْر المفرط. ويبدو أن المشهد التفصيلي البشع كان ينحرف قليلاً إلى أحد الجوانب. وعاد نايجل إلى جواره، وألقى بشيء في يده.

ـ «خذ. أنت تعرف كيف تطلق مسدساً، أليس كذلك؟»

رفع دينبي يده التي كانت تمسك بمسدس جميل للمبارزة له ماسورة

twitter @baghdad_library

طويلة دقيقة. وكان مقبضه الأملس الدافىء في يده فعلاً ـ مصنوعاً من خشب نفيس مُجَزَّع بني يميل إلى اللون الوردي. وكانت الماسورة وكعب المقبض مزينين بطبقة فضية محلاة بالزهور. وتفرس دينبي مفتوناً في هذا الشيء الغريب الثقيل الوزن.

ـ «انظر بمحاذاة الماسورة. ومن الأفضل أن تكون ذراعك مستقيمة. إنه لا يرتد كثيراً».

قال دينبي: «إني على يقين من أنك وأخاك تمتِّعان نفسيكما».

ـ «إنه محشو. وإذا أردت ألا تصيبه فأطلق في الخلاء.. وتذكر أنه ليس من الضروري أن تمشي حتى تبلغ الخط».

ـ «ينبغي أن تكون في الأفلام!»

وفحص دينبي سلاحه، فقد كان على معرفة بالمسدسات، وكان يلعب أحياناً بها. كان المسدس محشواً حقاً. رصاصات زائفة، ولكنه محشو. ويبدو أن التوأمين يريدان تنفيذ مشهدهما المسرحي حتى النهاية.

ـ «سأرمي منديلاً على الأرض، وبعد ذلك يمكن أن تطلقا النار حين تشاءان».

ـ «كل ما نحتاجه الآن هو أن يكون معنا جراح».

ونظر إليه نايجل تلك النظرة المنتشية المشرقة، ثم جعل يقهقه، وهو ينزلق بعيداً.

كان الضوء يتزايد. وانتقل ويل إلى الجانب الآخر من السلَّم الحديدي. وراقب دينبي نايجل وهو يذرع الشاطىء، ويقيم العلاقات بقطع الأخشاب الطافية. وهبَّ نسيم بارد بينما انحسر الضباب قليلاً دون أن يكشف عن الجانب الآخر من النهر. ورفع دينبي ياقة معطفه. وناجى نفسه قائلاً: ماذا لو كان هذا كله حقيقياً، وربما كنت ذاهباً للموت.. ليزا، أين أنت الآن؟

قال نايجل: «إلى الوراء، هنا، من فضلك». وأعاد دينبي إلى ما وراء الخط الذي رسمه في الوحل الحجري. وفي نهاية طريق طويل أمامه كان يستطيع أن يرى ويل، متخشباً، مستقيم القامة، متكتلاً، ضئيلاً، كرة صغيرة مركّزة ذات دلالة متوعِّدة. وكان يستطيع أن يرى بقعة أرجوانية هي بلا شك وشاح ويل، أو لعلها قميصه.

قال نايجل: «ستون خطوة بينكما. والخط التالي هناك، مرسوم بالقطع الخشبية، وهذا الخط ينبغي ألا تجتازه، ولكنك تستطيع أن تطلق النار قبل أن تصل إليه». ولمست يده كم معطف المطر الذي يرتديه دينبي، ثم جمع شيئاً من تلك المواد، وأشار إليها بإصبعه.

قال دينبي: «آسف لأنني دفعتك للاصطدام بعمود المصباح. لم أكن أقصد ذلك». وبدأ طلٌ لطيف من المطر المغلف بالضباب يتساقط. وانتشرت شبكة من دبابيس المطر اللامعة فوق شعر نايجل الفاحم.

- «لا عليك. حظ سعيد. إذا كنت أول من يطلق النار فتنحَّ جانباً، لأن المجازفة تكون أقل. ما زال الضوء مذبذباً إلى حد ما، ومن المحتمل أن يخطئك».

وابتعد نايجل. فقال دينبي لنفسه: هذا الاستعراض يرمي إلى إخافتي. إنهما يريدان انهياري، أن أفقد أعصابي، وأن أتوسل إليهما أن يتوقفا، وأن ألوذ بالفرار. كل هذا مضحك. ومع ذلك وجد أنه يرتعد.

عاد نايجل إلى نقطة الوَسَط، في منتصف الطريق بين ويل ودينبي، وقد نشر منديلاً أبيض فوق رأسه. وكان الخطان اللذان يوضّحان العشرين خطوة في المركز تميزهما القطع الخشبية بوضوح. وأطلق زورق على صفحة النهر صغيرة من بعيد. ولوَّح نايجل بالمنديل ناحية الأرض.

وكان ويل قد شرع يسير ببطء شديد إلى الأمام، رافعاً مسدسه بعناية

twitter @baghdad_library

بذراع ممتدة، ومركِّزاً عينه على الماسورة. وحملق دينبي. ثم أخذ يتحرك هو أيضاً وكأنه مسوق إلى ذلك بخطٍّ من القوة المغناطيسية يمتد بينه وبين غريمه. وكان قلبه يخفق ويتواثب بسرعة لا متجانسة. فوضع يده اليسرى على صدره. قال لنفسه: هذا مسرح، مجرد مسرح. غير أن قوة المشهد جعلته ممثله فعلاً، وألفى نفسه يرفع المسدس، ويتحسس موضوع الزناد. كانت حماقة ما بعدها حماقة، ولكنها كانت رهيبة أيضاً، لا تخلو من فخامة هزلية، قطعة من التمثيل الصامت الفاحش الحقير. فلنفرغ منها إذن. هكذا قال لنفسه. وبحركة غريزية أبعد المسدس عن ويل الذي كان يتقدم متباطئاً، وإن يكن لا يزال بعيداً، وما كاد يخفض الماسورة في اتجاه النهر حتى ضغط على الزناد.

وتسببت انتفاضة المسدس ورجعُ الصدى الذي يصم الآذان في حادث آخر. إذ اختفت زجاجة خضراء كانت راقدة على الوحل بعد أن تناثرت إلى شظايا محدثةً فرقعة مدوِّية.

وقف دينبي ساكناً تماماً، وأصداء انطلاق الرصاصة ما زالت تهدر في أذنيه، وقد أخذ يحملق في موضع الزجاجة. إذن، فقد كان المسدس محشواً بحق، بعد هذا كله.

ألقى المسدس الذي التف حوله دخان أبيض فسقط محدثاً صوتاً مكتوماً في الوحل الرمادي اللامع. وانحنى ليلتقطه مرة أخرى فشاهد أن ويل ما زال يقترب منه في خط مستقيم تحت تلك القبة المغلقة من النورانية الذهبية. وحاول دينبي أن يفكر فحدث نفسه قائلاً: لا بد أن أفعل شيئاً بسرعة، يجب أن أوقفه، المسألة كلها خطأ في خطأ. فحاول أن يتحرك، غير أن أطرافه بدت أثقل من أن تنتقل من مكانها. وقف مشلولاً يراقب مفتونا الجسم على المسدس المسدَّد إليه وهو يتضخم شيئاً فشيئاً. أجل، إنه يرتدي قميصاً بنفسجياً.

قال دينبي لنفسه: ماذا لو قتلني هذا الرجل؟ إنه يريد قتلي، ويتمنى موتي. كان ينبغي أن أعرف أن المسألة لم تكن تمثيلاً لمسرحية. ولكن، لا بد أن يعرف أنني لا أضر أحداً، ولم أكن أقصد إيذاءه، يجب أن أشرح له أن المسألة كلها خطأ، وينبغي ألا أموت خطأً. من سيفهم؟ ورفع يده. وحاول أن ينقل قدمه، ولكنها بدت وكأنها مغروسة في الوحل. وقف هنا بيد مرفوعة، كالاشارة، كالطوطم. وكان المطر آخذاً في الازدياد.

وصل ويل إلى خط القطع الخشبية وتوقف، مسدداً مسدسه بعناية. وكانت المسافة بينهما حوالي ثلاثين ياردة.

قال دينبي لنفسه: لا بد من إيقافه، لا بد من أن أناديه. غير أن جسده صار متصلباً بالخوف وتوقع الإحساس بضغط الرصاصة. وبدا عقله وكأنه يطفو فوقه في مجال آخر. ورأى نفسه ميتاً راقداً فوق شاطىء التيمس وقد استقرت رصاصة ويل في قلبه. وطاف بذهنه: إنني أموت من أجل فتاة لا أحبها، أنا أموت لأنني أخفقت في الحب، أموت وأنا على شفا الحب. لم أكن جديراً به. وحاول أن يزيد الحركة، أن يتنحى، أن ينحرف جانباً كما نصحه نايجل. ولكنه لم يستطع الكَفّ عن النظر إلى ويل الذي ما برح يسدِّد على هدفه، واضحاً وبكل تفاصيله في قطع ناقص من الرؤية المشرقة.

«كلا، كلا، كلا!» شيء أسود انطلق عبر مركز المشهد، شيء يطفر، مهتاجاً، نايجل يلّوح، ويصيح، ويمد ذراعيه. طَفَر أمام دينبي، راقصاً في الوحل المختلط بالحصى، وقدماه ترشّان الحصباء.

«ابتعد عن الطريق، عليك اللعنة!»

وبينما كان ويل يصيح اندفع دينبي إلى الأمام، وطَوَّق نايجل من خصره، وأخذا يتأرجحان معاً. ومن فوق كتف نايجل كان دينبي يستطيع أن يرى المسدس المسدَّد ثابتاً في تقدمه. ولف دينبي قدمه حول كاحل

twitter @baghdad_library

نايجل وألقى به متعثراً على الأرض. وصاح ويل مرة أخرى، وأطلق النار.

وبينما كان دينبي يسمع صفير الرصاصة التي مرقت بجوار رأسه، شلّ الانفجار أطرافه فجلس متثاقلاً على الأحجار. أما نايجل فقد كان راقداً بطوله الكامل، يحملق في دينبي. ثم أغمض عينيه، وعلى وجهه ارتسم تعبير بالغبطة. وتلاشى صدى الطلقة، وساد صمت غريب في شدته.

وصل دينبي إلى كتف نايجل وفي نيته أن يهزه، غير أنه لم يجد من ذراعه عزماً، فبقي منحنياً هناك، محملقاً في الوجه المنتشي بالحبور. وتناهى إلى سمعه وقع أقدام تسحق الحصى.

قال ويل، وما برح المسدس الذي ينبعث منه الدخان متدلياً بلا حراك إلى جانبه: «من منكما الذي أصبته»، كان وجهه ممتقعاً، وفمه فاغراً مرتعشاً.

قال دينبي: «لا أحد منا، لحسن حظك»، وهمّ بالنهوض.

ـ «نايجل، نايجل..» وركع ويل على ركبتيه بجوار أخيه. وفتح نايجل عينيه: «هاللو، ويل. ظننت أنني صعدت الى السماء».

ـ «أأنت بخير، أيها الأحمق الملعون؟»

ـ أجل. ولكن انظر. إنني ألمح الشرطة».

ظهر شخص يرتدي البذلة الرسمية على الرصيف التالي الذي كان مِلْكاً لطواحين علف الماشية. وعلى مبعدة كان شخص يصيح. استدار دينبي وشرع في السير في الاتجاه المقابل على الضفة المنحدرة. ثم قرّر أن من الحماقة أن يمشي، فأخذ يعدو. وكان الضباب ينحسر فتمكن من أن يرى الآن من خلال ستار المطر المنير صفّاً من الزوارق التجارية، وملامح الجسر، وصفحة النهر التي جعلها المطر ملساء تارة، منقورة تارة أخرى.

وكانت المياه تلعق قاعدة الجدار المشيد بالطوب الأحمر أسفل فناء

الكنيسة. وشاطىء النهر قد اقترب من نهايته، وقَدَما دينبي تخوضان في الماء فيتناثر حولهما، وأدركت سمعه صيحات ترتفع من ورائه. فانغمس في طرطشة وحشية أعمق، ثم، بإحساس مباغت من التحرر السعيد أسلم نفسه لنهر التيمس، وقد ضاع منه مستقر قدميه، فارتمى الى الأمام في المياه العميقة. وعَبَر تحت مؤخرة الزورق الأخير، وأصبح الشاطىء من ورائه مطموس المعالم.

انتشر الآن سكون مفاجىء وساد الصمت. وطفق دينبي يسبح على مهل، بطريقة الصدر (بريست)، فلا يكاد يحرك صفحة المياه الهادئة. ولم تكن هذه المياه تبدو باردة. وأخذه المد الذي ما زال متدفقاً ـ برفق معه. وشعر بخفة غريبة هانئة، وكأن آثامه جميعاً، بما في ذلك الآثام التي نسيها منذ أمد بعيد ـ قد غُفِرت له فجأة. انقشع الضباب، وخفَّت حدة المطر. وأخذ شعاع شاحب ضئيل من أشعة الشمس يتوهج من ورائه، وشاهد أن قوس قزح كاملاً قد ظهر في الأفق، معلَّقاً فوق لندن، عابراً نهر التيمس من الشمال إلى الجنوب. وسبح دينبي متجهاً إليه. استمر سابحاً تحت «جسر باترسي» Battersea Bridge.

twitter @baghdad_library

(٢٨)

مـطر، مطر، مـطر. . . ووقفت أديليد في حجـرة نومهـا وقـد أضـاءت النـور. أحسَّت بالخـوف. فالـظلام قد انتشر في الخـارج زمناً طـويـلاً حتى أصبـح من العسير الآن أن يعـرف المرء هـل الـوقت مسـاء أم ليـل. فـالمـطر أشاع الظلمة في فترة العصر كلهـا، وتوقفت سـاعتها. لا بـد أن الليل قـد حلَّ الآن.

وكان هناك إنذار آخر بـالفيضان. غـير أن هذا الإنـذار سبقته إنـذارات كثيرة دون أن يحدث شيء. وكان من العسير فحسب ـ تحمل الـظلام وهذا الدق العنيف المتواصل على النوافذ. صار المنزل مريعاً بالنسبة إليها، وكأنمـا استـولت عليه روح شريـرة. لم تكن تستـطيـع أن تتحمـل حتى النـظرة إلى المطبخ. وكانت تخشى نايجل، وتخشى دينبي، وتخشى برونـو. وكانت تخـاف أن يشرع برونو في الموت فجأة حـين لا يكون هنـاك أحد سـواها. اذ كـان الآخرون يأتـون ويذهبـون سراً. وربمـا ذهبوا ذات يـوم ولم يعودوا. كـانت تريد أن تـذهب هي نفسها، وحـزمت حقائبهـا منذ أيـام، غير أنها لم تكن تمتلك الإرادة للانتقال، ولم يكن هناك مكان تنتقل إليه.

وظلت أديليد تردد لنفسها: لا أستطيـع البقاء هنـا. يجب أن أذهب إلى فندق. ولكنها لم تكن تـريد أن تنفق مـالها عـلى أحد الفنـادق. ولم تكن قد نزلت في فندق طيلة حياتها، كما لم تكن تعرف كيف تختار فندقاً تذهب إليـه. وطاف بذهنها: ينبغي أن أعثر على وظيفة أخرى. غير أن هـذه الفكرة كـانت

كـابوسيـة. وشعرت أنها عـاجزة عن العمـل تماماً، وعن رؤية أنـاس جدد. شعرت بأنها عاجزة عن الحياة بعد الآن. وفهمت أخيراً أن الشخص الذي أحبته دائماً كان ويل. وذلـك العنف المأفـون الذي كـان يثير أعصـابها كثيراً اندمج الآن على نحو مغناطيسي بالقوى المهيمنة عـلى طبيعتها. فـاستجابت، وأذعنت، ولكن بعد فوات الأوان. أما السنوات التي قضتها مع دينبي فقد بـدت لها حُلُمـاً وهمياً. ولـو أنها عرفت هـذا السيد منـذ طفولتهـا لما وضعت سلطتـه عليها مـوضع الشـك أبداً. وإلى جـانب الواقـع الغُفـل كـان سحـر دينبي يتـلاشى هباءً منثـوراً. نسيت أديليـد حبهـا لـدينبي. وخيِّـل إليهـا أن عـطفهـا عليـه كـان لسبب آخـر لا تستـطيـع أن تفهمـه الآن. وكفّت عن الشعور بالعداء نحو دينبي، وإن كانت لا تزال شـديدة الحـرص على تجنب لقائه. ولم تكن تشعر بأنه استغلها استغلالاً جائراً. ذلك أن إحساسها بأنها ند لدينبي، من خـلال عدم اكـتراثها الجـديد بـه ـ قد أزال من نفسهـا كل إحساس بالضغينة. وإنما انصب غضبهـا على نفسهـا، لنَزَقهـا وعماهـا. أما حبيبهـا الوحيـد فكـانت تستحـوذ عليـه تحت قـدميهـا أعـوامـاً اثـر أعـوام، وها هي الآن تفقده تماماً

جلست أديليـد على حـافة سريـرها وانخـرطت في البكـاء. وكـانت قـد استعرضت في ذهنها مئات البروفات (التجارب) لمشـاهد الصلح، والارتمـاء عليـه، وتقبل غضبـه، وتلقِّي عفوه. ولكنهـا كانت تعلم حقـاً أنه من غـير المجدي محاولة رؤيته، إذ كانت تعرفـه حق المعرفـة. فهو قـادر على التهجم عليها، وعلى إيـذائها، وليس في هـذا كله شيء من روعة العنف المتخيَّـل. سيكـون الموقف قبيحـاً، نهائياً، مهينـاً. وخَـطَر لها أن تـطلب من نـايجـل الشفاعة لها، بل فكرت أن تطلب ذلك من «الخالـة». غير أنها كـانت تعلم أن ويل يمقت نايجل، كما أنها لم تكن تجرؤ على الاقتراب من «الخالـة» خوفـاً من الالتقاء بويل. فكتبت إليه رسـالة تقـول فيها: أرجـوك، اصفح عني،

twitter @baghdad_library

أعرف الآن أنني أحبك. بيد أنها كانت تبدو بعيدة عن الواقع، ركيكة، لا تشبه بحال تلك القوة الرهيبة التي تشعر بها الآن صاعدة من تحت قلبها. ولم ترسل هذا الخطاب بالبريد إلا لكي تفعل شيئاً فحسب، كما يضيء الكافر شمعة في كنيسة. لن يصفح عنها أبداً، وسيبغضها إلى الأبد.

«أديليد!»

هكذا كان يناديها من قبل، ولكنها لم تلتفت إليه. وها هي تنهض الآن متبلدة الإحساس، وترتقي السلّم.

- «أديليد!»

- «ها أنذا قادمة، ها أنذا قادمة، لا تَصِحْ».

كان الجو بارداً في حجرة برونو. وكان الضوء الرئيسي والمصباح مضاءين. أما النافذة التي لم يُسْدل عليها الستار فكانت خواءً لامعاً أسود حافلاً بدقات المطر المنتظمة كدقات الطبل. وكان سرير برونو تشيع فيه الفوضى، وإحدى وسائده قد سقطت على الأرض. أما هو فكان يرقد منحرفاً على السرير، ورأسه متدلٍ على نحو أخرق صوب أحد جوانبه، وكأن رقبته كانت مكسورة. وثمة كتاب عن العناكب يسقط ثقيلاً على الجانب الآخر من السرير.

- «ما الحكاية»؟

- «أين ذهبوا جميعاً؟

- «لست أدري».

- «أين دينبي، أين نايجل؟»

- «لست أدري».

- «المطر في غاية الفظاعة».

- «أتريد شايا أو شيئاً آخر؟»

ـ «كلا. أشعر بأنني عَفِن. أتستطعين ترتيب وسائدي يا أديليد؟ لم يعد أحد يرعاني. من الممكن أن أموت، دون أن يفطن إلى ذلك أحد».

كتمت أديليد أنفاسها، وأمسكت بعظمة كتفه النحيلة المجردة من اللحم، وألقت بالوسادة الشرود وراء ظهره. وسوَّت البطاطين واللحاف. وقام برونو في شيء من المشقة بترتيب ذراعيه فوق اللحاف، وهو يشد ـ إلى معصميه ـ كمي منامته ذات الخطوط الحمراء والبيضاء.

ـ «أمن الممكن أن تناوليني ذلك الكتاب؟ وتسدلي الستائر؟»

سحبت أديليد الستائر عبر النافذة، وألقت بالكتاب على السرير. «أتريد شيئاً آخر؟»

ـ «أيمكنك أن تشعلي المدفأة الكهربائية؟ الجو كالشتاء هنا».

ـ «لو لم تنتشر في فراشك تلك الفوضى لما شعرت بمثل هذه البرودة».

ـ «أطرافي كلها تؤلمني، ولهذا لا أستطيع أن أبقى ساكناً. أديليد، تقول الإذاعة إن التيمس قد فاض بمائه».

ـ «إنهم يقولون هذا دائماً».

ـ «هناك عاصفة ثلجية شمالية غربية تهب، والفيضان فوق السد عند تيدنجتون «Teddington».

ـ «لا تشغل بالك.»

ـ «أيمكنك إحضار الإيفننج استاندارد؟»

ـ «إنها لم تأتِ بعد».

ـ أديليد، أمن الممكن أن تحملي إليّ زجاجة من الماء الساخن؟ أشعر ببرودة شديدة، ويؤسفني إزعاجك».

ذهبت أديليد إلى الحمام، وملأت زجاجة من صنبور الماء الساخن. جففتها متعجلة بمنشفة وحملتها وهي تكتم أنفاسها مرة أخرى حين دستها عند قاعدة السرير تحت قفص الأقدام. «أيمكنك أن تصل إليها؟».

twitter @baghdad_library

ـ «أجل، إنها شديدة السخونة».

ـ «سألفها بشيء ما».

ـ «كلا، لا تزعجي نفسك».

ـ «أتريد بطانية أخرى؟».

ـ «كلا، كلا، لا أستطيع تحمل ثقلها. أديليد، هل يمكنك أن تخرجي لتنظري إن كان الفيضان قد جاء حقاً؟»

ـ «لا تكن أحمق. سيحذروننا لو جاء حقاً. إنه مجرد مَدٌّ مرتفع. إنهم يجعلون من الحبَّة قُبة دائماً».

ـ أديليد، أرجوك، اخرجي وانظري. يا إلهي، ليت دينبي يعود!»

ـ «لا أدري ماذا تقصد بأن أخرج وأرى! لا شيء يمكن أن أراه سوى المطر. ولو خرجت في هذا الحال لا بتللت حتى الجلد».

ـ «إذن، اتصلي هاتفياً بأحد، هلا فعلت، اتصلي بالشرطة. . أرجوك يا أديليد. . .»

ـ «لا أستطيع أن أتصور ما يدفعك إلى هذا القلق. فليكن، سأتصل».

أغلقت أديليد باب برونو ونزلت على درجات السلّم. كانت الدرجات تبدو أشد إظلاماً عن المعتاد. وفي الصالة تخبطت بحثاً عن دليل الهاتف، وأخذته إلى حجرة الجلوس للبحث عن الرقم. كانت حجرة الجلوس تبدو خاوية، خرقاء، والنوافذ الأمامية الضخمة المقوّسة تبدو سوداء هادرة. وتبينت أديليد أن تيّاراً من المياه يشق طريقه من النافذة ويترك بقعة طويلة قاتمة على السجادة. فرجعت إلى الهاتف ورفعت السماعة وبدأت في إدارة القرص، ثم أدركت أنه لا وجود للحرارة في الهاتف. كان الهاتف معطّلاً. فانزلت السماعة ورفعتها مرة أخرى. ما زال الهاتف ميّتاً.

تركت أديليد الهاتف ووقفت في عتمة الصالة وهي تحشو ثغرها بيدها. ثم ذهبت لتفتح الباب المؤدي إلى الشارع، ولكنها أغلقته بسرعة

مرة أخرى حين اندفعت نحوها هَبَّة من المطر العنيف صائحة في وجهها من الظلام. كان المطر غزيراً بحيث حجب مصابيح الشارع، وسادت الظلمة في الخارج. وجال بخاطرها: لو أن أحداً يمكن أن يمد يد المساعدة، لو أن أحداً جاء! كان الجيران جميعاً من العجائز، فضلاً عن أنها لا تكاد تعرفهم. لو أن دينبي أتى! وفجأة أصبحت الوحدة، والضجة، وبرونو المذعور - أصبحت أموراً لا تطاق. وقالت أديليد لنفسها: سأخرج فحسب حتى حانة «كنجز آرمز» King's Arms في طريق «تشين ووك» Cheyne Walk. فهناك يمكن أن تجد أنواراً ساطعة وأناساً يطلقون النكات ويضحكون على فزعها. وهتفت على برونو في الطابق الأعلى قائلة: «كل شيء على ما يرام. الشرطة يقولون إن كل شيء على ما يرام. وسأخرج لحظة لألقي نظرة فحسب. لن أغيب طويلاً».

ارتدت معطفها، وتلفعت بوشاح فوق رأسها، وأمسكت بمفتاح القفل في يدها، ثم فتحت الباب. وما إن خرجت حتى كان من الصعوبة بمكان أن تغلق الباب وراءها مرة أخرى. كان مجرد ثقل المطر والرياح التي تهب منحرفة تضغط على الباب بعيداً عن متناول يدها. فجذبته ناحيتها، وهبطت درجات السلّم القلائل، وبدأت المسير في الشارع. كانت ميازيب الصرف تفيض بالمياه والأرصفة غارقة في مياه المطر. وكان الطريق أشبه بجدول من الماء، والمياه تتسرب داخل حذائها. وبعد أن سارت خطوات قلائل توقفت وقد ابتلت حتى جلدها بالفعل. وكان الهواء عبارة عن سواد حالك يغلّف المطر الكثيف، ومن ثمّ كان من الجنون أن يمضي المرء خلال هذا الطوفان. ولكنها فكّرت حينئذ مرة أخرى في الأضواء والضحكات التي تموج بها حانة «كنجز آرمز»، فهرولت مسرعة في طريقها.

وفي الوقت الذي بلغت فيه منعطف «طريق كريمورن» Cremorne Road، كانت تلهث إرهاقاً ورعباً وقد التصقت ثيابها بجسدها فعرقلت

twitter @baghdad_library

حركاتها. ويبدو أن المياه أحاطت بكاحليها. فقد كان من الصعب أن يحدِّد المرء شيئاً مع هسيس المطر وطرطشاته. وعلى مسافة بعيدة، فيما وراء ستار الوابل المنهمر، كانت تستطيع أن تسمع الآن هديراً غريباً مرعباً. فوقفت على الناصية متجهة ببصرها إلى «تشين ووك»، غير أن المطر كان من الغزارة بحيث لم تكن ترى شيئاً. ونادى عليها شخص ما عند عتبة الباب، ثم أغلق الباب بعنف في وجه المطر. واستطاعت أديليد الآن أن تشعر بالماء يقطُر عند كاحليها، متحركاً بقوة أشد. وظهر رجل من الظلام يعدو أو يحاول أن يعدو. صاح مشيراً إليها، «لا تنزلي إلى هناك!».

صاحت أديليد: «ماذا يحدث؟» وطغت الضوضاء تقريباً على صوتها.

«إن المياه تجتاح جدار السد. لا تذهبي إلى هناك، ارجعي! الشرطة..» واختفى الشخص، وهو يغوص وينثر الماء ويتواثب في تيار الماء المتصاعد.

«أوه، أوه، أوه!» وبكت أديليد لنفسها خوفاً وقد شرعت تعدو راجعة على عقبيها إلى الطريق. ولم يعد ما تفعله شيئاً يشبه الركض فعلاً، بل كان أشبه بالخوض، إذ كانت كل قدم تهبط تقبض عليها المياه المتحركة، وانخلعت فردة من حذاء أديليد فقذفت بالأخرى.

وأخذت تتشبث بالقضبان وهي تلهث - ثم بدأت ترفع قدميها إلى أعلى، وتنثر الماء، مُعْوِلة من الذعر. وكان ثمة شخص في نافذة تقع في الطابع الأعلى ينادي عليها بطريقة هستيرية. وما إن بلغت أديليد بابها الأمامي الخاص حتى صعدت السلالم التي لم يصل إليها التيار ودفعت بالمفتاح مهتاجة داخل القفل. حدث شيء ما. كانت ترى وميض المطر، ولمعاناً منتشراً من المياه الدّوارة، ورقائق صغيرة من الضوء تتحرك في الظلام. أما الآن فلم يكن هناك سوى سواد حالك، وكأن شريطاً من المخمل التف حول رأسها. فتحت الباب على مصراعيه بدفعة قوية، وتخبطت في سيرها إلى الداخل. ومضت هنيهة قبل أن تدرك ما حدث.

انطفأت الأنوار داخل المنزل. لا بد أن الفيضان اكتسح محطة القوى الكهربائية.

وكان لا بد لأديليد من أن تميل بجسدها على الباب لتغلقه، وهي ما برحت تبكي لنفسها من فرط الخوف. وكانت تستطيع أن تسمع صوت برونو منادياً عليها من الطابق الأعلى بما يشبه الصراخ. والظلام في الداخل كثيف خانق. وتحسست طريقها إلى السلالم.

ـ «أديليد، أديليد، تعالي بسرعة، الأضواء..».

وبيدين تمتدان أمامها تخبطت حتى بلغت باب برونو.

ـ «أديليد، ماذا يحدث؟ أهناك فيضان!»

اجتازت الحجرة، وأخذت تلتمس يده في الظلام. كان إحساسها أشبه بمن يمسك عدداً قليلاً من العيدان الجافة. «كل شيء على ما يرام إنه ماء المطر فحسب. لا بد أن محطة الطاقة قد غمرتها المياه». لم تكن تريد أن تفزع الرجل العجوز. فلو أصابه الذعر لكان في ذلك انهيارها.

«إنك لم تتصلي بالشرطة على الإطلاق، سمعت...»

ـ «بلى، لقد فعلت. كل شيء على ما يرام».

ـ «كلا، إنه ليس كذلك. هذه الضجة ليست من مجرد المطر. لا بد أن التيمس قد طغى على السدود. وسيأتي إلى الطابق السفلي. اذهبي وانظري. واحضري بعض الشموع، فالحال مريع في الظلام...»

تحسست أديليد طريقها إلى الباب، وهبطت درجات السلم وهي تمسك بالدرابزين على كلٍّ من الجانبين. حدثت نفسها قائلة: «إنها المياه فحسب، ولا يهم لو أنها دخلت، فسنكون آمنين في الطابق العلوي. لو أن الضجة لم تكن بهذه الفظاعة! ليت دينبي يأتي! ولكن، من يأتي في مثل هذا الوابل المنهمر. وخطر على بالها أن هناك بطارية في درج المائدة الموجودة في الصالة. ويبدو أن إحساسها بالاتجاه والمسافة قد فارقها تماماً فأخذت تتعثر

twitter @baghdad_library

هنا وهناك، حتى عثرت على المائدة، ووضعت أصابعها على البطارية. أضاءتها ووجّهت أشعتها إلى السلالم التي تؤدي إلى حجرة نومها، وإلى المطبخ. وكان ثمة صوت غريب جديد صادر هناك من أسفل، قرقرة وهسيس. وأشار الضوء إلى أسفل، في الظلام، ثم تلاشى. وهبطت أديليد بضع درجات من السلم. فكشفت دائرة الضوء عن صفحة المياه المتحركة. حملقت أديليد مذعورة، مفتونة. ثم طاف بذهنها خاطر فصاحت: ملابسي، حاجياتي!

وخاضت في الماء الذي بلغ الآن إلى عمق كاحلها عند قدم السلّم، واقتحم حجرة نومها. وكانت هناك حقيبتان للثياب على الأرض، وأخرى على السرير، فأمسكت بحقيبة يدها، وتناولت الحقيبتين الأخريين من الماء، وبدأت تكافح بهما صاعدة السلّم، وممسكة بالبطارية المضيئة لِصقْ فخذها. وتمكنت من نقلهما درجة درجة حتى بسطة الطابق الأرضي. وارتفع صياح برونو. فلم تعبأ به، وإنما اندفعت نازلة من السلالم لتدرك الحقيبة الثالثة. ماذا يمكن أن تأخذ غير هذا؟ معطفها. انتزعته من الشماعة، وأخذت تتعثر به محاولة أن تضعه فوق معطف المطر المبتل والمتشبث بجسدها. وكان ذلك مستحيلاً. كانت ذراعاها أشبه بالعجين، وكانت تنتفض وتنتحب من البرد. فسحبت الحقيبة وكوّمت المعطف ومئزرها المنزلي وصعدت إلى البسطة، ثم ركضت نازلة مرة أخرى. كانت هناك شموع في مكان ما من المطبخ، ولكن أين؟ وقفت على السلم وهي تسلط بطاريتها على سباق المياه الذي يجري تحتها تماماً. لم تستطع أن تتبين ما إذا كانت المياه آخذة في الارتفاع. إذ كان صوت ذلك الهسيس المقرقر قريباً منها الآن كل القرب، فقد استنتجت أنه صادر عن المياه التي توجد في الشارع وهي تنصبّ من درجات السلّم إلى أسفل عند جانب المنزل وإلى الفناء الخلفي الذي كان أدنى من مستوى الشارع. فلا بد أن تكون المياه داخلةً من تحت الباب الجانبي.

ينبغي عليها أن تجد أشياءً، وأن تنقذ أشياء، هذا هو ما فكرّت فيه أديليد. خاضت في المياه وهي ترغم ساقيها على مقاومتها، ودخلت حجرة دينبي وسلطت البطارية على النافذة محاولة أن ترى ما يدور في الفناء، غير أنها لم تستطع أن تشاهد شيئاً من وراء الزجاج. فشقت طريقها إليها، ورفعت مزلاج النافذة. كان الهسيس والهدير يملآن الحجرة بضوضاء صاخبة، وفي الخارج، لم يكن ثمة ضوء. فألقت أديليد بضوء البطارية في مستوى منخفض خارج النافذة. وانتابها إحساس غريب قارص في يدها.

وأدركت أنها تلمس الماء. كان الفيضان يتصاعد إلى الفناء، وبلغ مستوى أعلى مما بلغه داخل المنزل. فأصبح الفناء أشبه بالبِرْكة. وأخذت أديليد وهي في حالة من الهياج تحاول إغلاق النافذة مرة أخرى، ولكنها استعصت عليها، وفارقت القوة يديها. ولن يمضي زمن طويل لكي تصل المياه التي في الخارج إلى مستوى قاعدة النافذة. وطفقت تبكي، بل تصرخ، وهي تشد المزلاج، ثم رجعت إلى الحجرة وهي تسلط بطاريتها. وعلى منضدة الزينة وجدت فرشة كبيرة للشعر يستخدمها دينبي، تنظر في هدوء عجيب، عادي، منفصل عن الجَلَبة السائدة على الأشياء المحيطة بها. تناولتها، وبضوء البطارية الذي كان يومض بضراوة من يدها اليسرى، بدأت تخبط على إطار النافذة المفتوحة. وتعالى صوت تحطيم الزجاج، وشعرت بالشظايا تتناثر من حولها.

تراجعت أديليد مذعورة عن النافذة. وأحست بألم حاد في إحدى قدميها، فجلست فجأة على سرير دينبي. وما كادت تفعل ذلك حتى كشف لها ضوء البطارية المهتز عن شيء كان يطفو فوق الماء على كثب من إحدى سيقان السرير. كان الصندوق الخشبي الأسود الضخم الذي يضم مجموعة الطوابع.

«أديليد! أديليد!» كان صوت برونو ينفذ على نحو ما من الهدير

twitter @baghdad_library

الصاخب الذي يبدو أنه استحوذ على المنزل.

وحاولت أديليد أن تلتقط الصندوق بإحدى يديها، ثم استخدمت يديها الاثنتين، ووضعته على سرير دينبي. وعادت إلى الجلوس، ورفعت قدمها المجوربة. كان يبدو أن شظية من الزجاج استقرت في باطن القدم، ففحصت قدمها وهي تمسك بالبطارية بعناية، وجعلت تتحسس بيدها موضع الألم في حذر. ولم تلبث أن صبغت الجوربَ المبتل بقعة سريعة حمراء. حملقت أديليد مذعورة، ثم انخرطت في النُّواح. وكانت يدها الباحثة قد تجمدت من البرد.

وأدركتها صيحة برونو مرة أخرى: «أديليد، أنقذي الطوابع!»

سلطت أديليد البطارية على الصندوق الخشبي. كان منبعجاً في بعض جوانبه، وكان عدد من الأدراج مفتوحاً، ومن الممكن رؤية وجوه الطوابع المألوفة الملونة داخل أغلفتها من السيلوفان. وسقط شيء ما على عيني أديليد. كان الوشاح الذي يساقط منه الماء، والذي نسيت أن تزيحه عن رأسها. فدفعت به إلى الوراء. وكانت تستطيع أن تسمع نفسها وهي ما زالت تنوح وسط الظلمة الهادرة التي تشمل الماء المتدفق والمطر الجارف. وكان جسدها ينتفض من البرد وقدماها انكمشتا إلى كرتينْ من الألم. حدَّقت في الطوابع. وخطر على بالها: ماذا لو حملت بعض هذه الطوابع إلى ويل؟ هل سيصفح عنِّي حينذاك؟ يمكن أن أزعم بأنها ضاعت في الفيضان. وكان من الممكن فعلاً أن تضيع. ولو لم أكن هنا لضاعت جميعاً. إنه الطوفان، إنها نهاية العالم على كل حال، ومن ثمّ، لا قيمة لما يفعله المرء. صوَّبت البطارية، ومدَّت يدا مبتلة مرتبكة من البرد. أين طوابع رأس الرجاء المثلثة؟ آه لو كانت تعلم أيها الأقوم! قالت لنفسها: احمليها إلى الطابق الأعلى. وفي الطابق الأعلى، ثياب جافة، واستردي الدفء مرة أخرى، وفكرِّي فيما ينبغي صنعه. نهضت، فأحست بالألم الحاد في قدمها

مـرة أخرى. وحـاولت أن تفتـح الصنـدوق ـ وهي تبكي وتقف عـلى قـدم واحدة ـ ولكنه كان ثقيلاً جداً.

«أديليد، الطوابع، الطوابع!» وبدا الصوت الصارخ أقـرب إليها فجـأة.

وبإحدى ركبتيهـا فوق السريـر، حاولت أديليـد أن تسحب الأدراج من الصندوق، غير أن الأدراج بدت وكأنها مربوطة من الخلف، فكـانت تخرج إلى حـد معين، ثم تتـوقف. وبيدين مـرتبكتين من الـبرد جـذبت المظاريف السيلوفان دون جدوى، فقد كانت مربوطة هي الأخرى.

وبغتـة تنـاهى إلى سمعهـا صـوت جـديـد من الـطرطشـة والتـدفق تـردد صـداه، وقبض شيء ما عـلى أديليد من سـاقهـا. فتخلَّت عن الصنـدوق، وتشبثت بنهاية السرير. لا بد أن المياه المتراكمة اندفعت من خـلال النافـذة المفتوحة. صرخت أديليد، واندفعت صـوب الباب. كـان من المحال الآن أن تـرفع قـدميها من الميـاه المتسابقـة. فـاستجمعت نفسهـا حـول البـاب، وسقـطت في اتجاه السـلالم، وهي تتشبث بالـدرابـزين. وتمكنت من وضـع قـدمها عـلى أدنى درجة من السلَّم. وكـانت البطاريـة المضاءة قـد التصقت براحة يدها، فأبصرت لحمها المضيء كأنه من المرمر وهي تمد يدها أمامها.

«أديليد، الطوابع، أنقذي الطوابع!» وكانت صرخة برونو الرهيبة فوقها تماماً.

ومـا إن بلغت الدرجـة التاليـة من السلَّم حتى تمكنت من نقل البـطاريـة، وتسليط أشعتها إلى الأمام فوق رأسها. ومنذئذ، أطلقت صرخة حادة. كان برونو واقفاً على قمـة درجات المـطبخ مستنـداً إلى عمود الـدرابزين. ولم يكن مرتدياً سوى سترة المنامة، وساقاه النحيلتان اللتـان تشبهان سيقـان حشرة، مثنيَّتين عند الـركبة. والـرأس الضخم المنتفخ يتـأرجح فـوق الكتفين، وقـد خـططه الضـوء إلى مكعبـات ضخمـة، وكـأنـه رأس خشبي في كـرنفـال (مهرجان). كـان برونـو يتـأرجـح، وينثني إلى الأمـام، ويـداه النحيلتـان

twitter @baghdad_library

المعـروفتان تتشبثـان بالـدرابزين، وركبتـاه متداعيتـان. وفي اللحظة التـالية سقط على أم رأسه، بحيث اصطدم رأسه بكتفها. ألقت أديليد البـطارية. وَوَقعت مباشرة إلى الوراء، وفوقها بـرونو، في صخب المـاء الأسود المتـدفق إلى أسفل.

(٢٩)

قال مايلز: «يستطيع المرء ـ كما تعلمين ـ أن يسمع بالفعل طقطقة مناقير العصافير (طيور السنونو) أثناء اصطيادها للذباب. أنصتي».

قالت ديانا: «لقد بكَّرت في الحضور هذا العام. وأود لو بقيت معنا هنا ولم ترحل إلى مكان آخر».

ـ «أنا لا ألومها. فهي تقصد بيتاً هادئاً من بيوت الريف».

كان مساءً مشمساً تماماً، من تلك الأمسيات الريفية التي استعارت شيئاً من شدة الخريف، حين تموج الأشياء النامية بالألوان ويبدو أنها تتنفس السكون. وكان مايلز وديانا يسيران ببطء شديد خلال «مدافن برمپتون» Brompton Cemetery. اقتربا الآن من المركز، حيث أخذت الأصوات الصادرة من «طريق فولهام» Fulham Road و«طريق برمپتون القديم» Old Brompton Road تتخافت حتى استحالت طنيناً بعيداً كطنين الحشرات. وجلس مايلز وديانا على مقعد، وقد لفَّ مايلز ذراعه حول كتفها.

ـ «ما أجمل الهدوء هنا، إنه أشبه بالريف. أنا لا أرى سبباً يدعو العصافير إلى عدم البقاء هنا».

ـ «أتشعرين بدفء كافٍ، يا عزيزتي؟»

ـ «أجل، يا مايلز. الشمس دافئة، أليست كذلك؟ ما أشد خضرة كل شيء، كأنه مرجة مائية عظيمة».

ـ «أظن أن المرء ينسى كل شيء عن الأخضر في الشتاء».

twitter @baghdad_library

ـ «المرء ينسى أشياء كثيرة جداً. وكل ربيع عبارة عن مفاجأة».
ـ «كل ربيع عبارة عن مفاجأة».
ـ «مجرد نمو الحشائش ثانية شيء في غاية من الروعة. انظر إلى الضوء الذي يعلوها هناك».
ـ «كيف كان برونو حين رأيته اليوم؟»
ـ «كما كان دائماً. لم يعرف من أنا. وأظن أنه لم يعد يعرف دينبي بعدُ. وهو يتحدث من حين إلى آخر حديثاً يبدو معقولاً إلى حد ما، ولكنه لا يترابط مع أي شيء. يبدو أنه يعيش في الحاضر فحسب».
ـ «مكان طيب للعيش، يا ديانا. إنها لمعجزة بقاؤه حياً حتى هذا الخريف».
ـ «يقول الطبيب إن بقاءه لم يعد الآن طويلاً. إنه يحيا في نوع من العزلة الرهيبة.. كما رأيت».
ـ «إنه جدير بالشفقة».
ـ «كلا، ليس جديراً بالشفقة. كل ما في الأمر أنه معزول».
ـ «لم يسأل عن الطوابع حتى الآن؟»
ـ «كلا، شكراً لله».
ـ «يسعدني أنها ضاعت».

أُتْلفت مجموعة الطوابع في الفيضان. ومن الجليّ أن الصندوق تَسَرَّب طافياً من النافذة. وعندما انحسرت المياه عثروا عليه في الفناء مقلوباً، وقد فُقِدت بعض أدراجه. أما الطوابع التي بقيت في الصندوق فقد أصابها التلف تماماً.

اعتصر مايلز برفق كتف زوجته. كان كل ما حدث له مؤخراً أمراً لا يتوقّعه تماماً. يا لها من شيء معقّد على نحو مخيف هذه الحياة ـ حياته ـ التي يمكن أن تثير دهشة صاحبها إلى غير حد! أحس مايلز كأن كل شيء قد

انعكس ظهراً لبطن (أو بطناً لظهر) على نحو ما. الشكل واحد تقريباً، غير أن اللون مختلف، والملمس مغاير. انقلب العالم القديم إلى عالم جديد أو لعله كان يُرى حقاً للمرة الأولى.

بعد أيام عدَّة من رحيل ليزا عاش في حالة من الألم الجثماني المتوتر بشدة. لقد ترك ليزا ترحل، تركها تمشي بعيداً في الشارع، وحَسِب حينذاك أنه يتعذب. لم يكابد رحيلها كتجربة إلا بعد أن مضى يوم عليه، وكأن الأنباء بحاجة إلى وقت معين لكي تتغلغل في جسمه. وعندما صنعت ذلك أخيراً بدأ الألم الحقيقي. فلم يعد يستطيع أن يأكل أو ينام. ولم يحاول الذهاب إلى عمله، وإن كان يغادر منزله كل صباح كأنه ذاهب إليه. كان يسير في الشوارع على غير هدى اليوم كله. وذات يوم مَرَّ بديانا على الرصيف في «طريق وورويك Warwik Roand»، واستطاع أن يلمح من وجهها الباطني المتوتر أنها كانت مشغولة مثله. ولكنها لم تره. وفي الأمسيات كان يجلس في حجرة الاستقبال متظاهرة بالقراءة. أما ديانا فكانت تنصرف إلى فراشها في حوالي الثامنة. وكان مايلز الذي لم يستطع إقناع نفسه حتى الآن بمشاطرتها الفراش، يستلقي على السجادة المفروشة أمام المدفأة، ويظل متخشباً لا يغمض له جفن خلال ساعات الليل. وبدأ يفكر فعلاً في أنه يمكن أن يموت من مجرد افتقاره إلى النوم.

خطر له أول الأمر أنه يبحث عن ليزا، **لا بد له** من العثور على ليزا. ولم يستطع أن يتصور كيف تركها تذهب بعيداً عن ناظريه. منزلان. كان من الممكن أن يكون ذلك حلاً. وكان يستطيع أن يفرض عليها ذلك. وسأل ديانا أين تقيم، ولكن من الواضح أن ديانا لم تكن تعلم. وكذلك لم تكن مؤسسة إغاثة الطفولة تعلم شيئاً. وقالوا إن عنوانها القادم هو مكتب المؤسسة في كلكتا. وتخيل أنه وجدها، وأنه ربما التقى بها في الشارع، أو أوقفها في المطار. وتخيل ذات مساء ذلك الصوت الناعم، صوت مفتاحها

twitter @baghdad_library

في باب المنزل، في «حدائق كمبسفورد». «مايلز، لقد عدت. لم أجد مفراً من ذلك. لن أفارقك مرة أخرى أبداً». وتخيل لقاءً في الهند، ودائرة الوجوه السمراء المتعجبة من ضحكة ليزا وبكائها بين ذراعيه. ومع ذلك فإنه لم يتردد على وكالات السفر، ولم يَغْشَ مطار لندن. بل إنه لم يكتب إليها. كان ثمة شيء ضئيل جداً في داخله يعتقد أنها ولَّت، وأنه فَقَدها حقاً، وانحنى لاحتواء هذه القطعة الصغيرة القاسية من الاعتقاد، وهو يكابد عذاباً جسدياً أليماً.

كل هذا دون أن يتحدّث إلى ديانا إلا لماما. وكانت ديانا تمضي وقتاً متزايداً في حجرة النوم، في الفراش بكل تأكيد، ويبدو أنها كانت تبكي كثيراً. وفي مرة أو مرتين بذلت محاولات جديرة بالرثاء لكي تبتسم له عندما يلتقيان على درجات السلَّم، غير أن وجه مايلز كان عاجزاً عن الابتسام؛ وذات مرة حين لمست ذراعه ضارعة جفل بعيداً عنها وكأنه تلقّى صدمة كهربائية. وانصرفت عنه ديانا، وذهبت إلى المطبخ، وانخرطت في العويل. وأدرك مايزل أنه على شفا الجنون بسبب حاجته إلى النوم، ولكنه لم يكن يملك من الإرادة ما يدفعه إلى فعل شيء في هذا الشأن. انتظر صابراً، مستسلماً، أن يقوم جسده المرهق بارتكاب شيء من العنف الرحيم تجاه عقله المعذّب. وفي حوالي اليوم الخامس، عند المساء، ألقى نفسه في حالة لا يستطيع أن يقول عنها إن النوم قد واتاه، بل الأحرى أنها دخول في غيبوبة الوجد. إذ كان يستطيع أن يرى ما حواليه من أشياء بمزيد من الحيوية، ولكن يبدو أنه قد انسحب من تلك الأشياء المحيطة به ليستقر في حالة من العجز المتباعد الشبيه بالحلم.

واستيقظ فيما بعد من لا شعور لم يكن يبدو شبيهاً بالنوم. كان الوقت ليلاً، والقمر ساطعاً في حجرة الجلوس، حيث كان يرقد على الأرض. وخيِّل لمايلز أنه لا بد أن يكون ميّتاً. وبدا له كأنه يشاهد نفسه راقداً

هنـاك، وكأن روحـه قد فـارقت جسده، وظلت واقفـة كحارس طـويل إلى جانبها. استلقى في ضوء القمر محاولاً أن يتذكر من يكون، وما حدث لـه. ولم يلبث أن تـذكر. قُتِلتْ بـارڤاتي أمس في تصـادم جـوي. وتـذكّـر كيف فارقها متأخراً في المـطار. كانت لهـا طريقـة خجلى في التلويـح، بيد واحـدة صغـيرة نحيلة تَرِّفُّ إلى جـانب شعرهـا، ثم تمرق مسرعـة لتزيـح ضفيرتهـا الثقيلة فوق كتفها. وكانت ترتـدي الساري الأحمـر الموشى بـالذهب الـذي تحبه بوجه خاص. ولا تزال غاية في النحافـة، لم يُعْلـن بعد الـطفل الـذي تضمه أحشاؤها عن وجوده. أخذت تلوِّح؛ وكان يستـطيع أن يـرى ومضة ابتسامتها ثم ذهبت من خلال باب الخروج. هذه أول مرة يفترقان فيها منذ سنين. «سأعود بسرعة، يـا حبيبي، سأعـود بسرعة»، وجعـل يردد لنفسـه هذه العبارة، كما قالتهـا له، وهـو ينظر إلى بـاب الخروج الخـالي. وها هي الآن قد ماتت، تحطمت وتناثرت فوق سفح أحد الجبال، خرجت من هـذا العـالم تمامـاً، ولم تعد مـوجودة في أي مكـان، ببارڤـاتي وطفله. أشاح مـايلز بـوجهه عن نـور القمر، وأراح جبينـه على السجـادة، وهنـاك رقـد مفتـوح العينين، وهو يحملق ويحملق في حقيقة موتها. لقد فـارقت هذا العـالم تمامـاً إلى الأبد. ولم يعد لها وجود على الاطلاق.

وفي الصباح وجدته ديانا ما زال راقـداً هناك، مشلولاً في ظـاهر الأمـر، وعاجزاً عن الحركة. فأرسلت في استدعاء طبيب، وأقنعت مايلز أن يحجـل حتى يصعـد إلى السرير. وبعـد هنيهـة بـدا أكـثر رشـداً. وأخـذ يشكـو كـما يشكو المريض العادي، وتقبّل زجاجات المياه الساخنـة، والحساء، وأصبـح معتمداً كل الاعتماد على ديـانا، فـلا يستطيـع أن يتحمل غيـابها عنـه لحظة واحـدة، وإن لم يكن يتحـدث إليهـا إلا لمـامـا. وأخـيراً بــدأ يتكلم. كـان يتحدث إليها يوماً بطوله، يومين كـاملين، عن بارڤـاتي، فأفضى إليهـا بكل شيء، عن الطفل، كل شيء، كل شيء يستطيع أن يتـذكره منـذ البدايـة.

twitter @baghdad_library

وصف لها بالتفصيل كيف التقى بارڤاتي أول مرة، حين كانت تمتطي دراجتها في شارع «استعراض الملك» King's Parade، وجال بذهنه حينذاك، لو أن الساري البديع الذي ترتديه هذه الفتاة التف حول عجلة الدراجة، إذن لتقدم إليها وتحدّث إليها. وكان أن التف الساري حول عجلة الدراجة، وهرع مايلز لمساعدتها حتى تخلّصه من العجلة، وطلب منها أن تتناول الشاي معه، ولكنها أبت. وبعد يومين التقى بها مرة أخرى في اجتماع سياسي فقبلت دعوته هذه المرة. أخبر ديانا بكل شيء يستطيع أن يتذكره، حتى الطريقة التي كانت تلوِّح بها وتزيح ضفيرتها عند باب الخروج في المطار. وأخبرها عن وقوفه وحيداً في صالة المطار لا يحمل سوى الجريدة اليومية. وكانت ديانا تنصت إليه والدموع تنحدر على وجهها.

تحدثا بعد ذلك عن ليزا. قصت عليه ديانا طفولتهما وما كانت عليه ليزا حينذاك. وعثرت على بعض الصور الفوتوغرافية القديمة، وعرضتها عليه. وجرّهما الحديث إلى زواجهما، ولماذا حدث، وكيف كان أمره. «لقد أوقعتك في الحب، يا مايلز. لم أكن مثل بارڤاتي، أو مثل ليزا». «أنت أوقعتني في العودة إلى الحياة. وربما كنتِ الوحيدة التي تستطيع ذلك». وتحدثًا عن غراميات مايلز، وهل أحب ليزا حقاً منذ زمن بعيد، وهل كان سيتزوجها لو أنه التقى بها قبل ديانا. وكان حديثهما يدور بأصوات هادئة كأنهما عجوزين يتحدثان عن أشياء وقعت منذ عهد بعيد، في الماضي الغابر. وهنا فحسب بدأ مايلز يفطن إلى أن هناك تغييراً قد طرأ، وأن العالم يبدو مختلفاً تمام الاختلاف، وأنه قد انعكس بطناً لظهر.

لم يكن الألم أقل. أو لعله صار أقل ما دام يستطيع أن يسلك سلوكاً سوياً: يأكل وجباته، ويذهب إلى العمل. كان حاله كأنما بقى الألم هناك، غير أنه قد نما إلى شيء أكبر من كل ما هو حوله بحيث يستطيع الآن أن يحْتَوِيه في يسر أكبر. لم يعد الآن يُحْني جسده ويرهقه. احتضنه داخل نفسه

برفق، بل بحنان، كأنه بيْضة نفيسة. وكان يجلس مشدود القامة في قطار الأنفاق، ويجلس هادئاً إلى مكتبه في العمل، مراعياً ألمه، تاركاً لجسده مهمة احتضانه بعناية، بخفة. وكان يفكر كثيراً في بارڤاتي، وكثيراً جداً في ليزا. كان طيفاهما يرحلان معه حيثما ذهب. وعانى فقدانه لهما كأنه فقدان واحد، بلا تسرية أو عزاء، وكان يبدو كأن عينيه مفتوحتان عليه، وتتسّعان كلما حدّق فيما حدث، واحتضن بيضة الألم العظيمة التي تنمو داخله.

وفي أثناء هذا الوقت كان يسمع ديانا تخبره في كثير من الأحيان أن يتركها ويلحق بليزا. فكان يصغي لكلماتها دون أن يرد عليها إلا بأن يبتسم ويهز رأسه. لم تعد لهذه الكلمات الآن أية صلة بالتطبيق، أو بنموذج حياته اليومية. كان يعرف الآن أن ليزا استحالة، ولا بد أن تكون استحالة. هذا هو دورها حقاً، مهمتها، خدمتها التي تسديها إليه. لن يكف مطلقاً عن حبها، ولكنه كان يشعر بأنه لن يلتقي بها مرة ثانية. أصبح الآن مُكرّساً لشيء واحد، منفصلاً، منسحباً إلى الأبد وراء مِشْواة، خلف ستار. وله أن يتعبد لفضيلتها الباردة دون أن يراها بعدُ أبداً. وتذكر سلبيتها الرائعة في آخر ظهور لها: «لا داعي للكلام». «هل ستكتبين إليّ؟ «كلا». لا شك أن تفكيره كان يتغير فعلاً. والفتاة التي عرفها طيلة تلك السنوات العديدة، الفتاة العليلة المحرومة، الصامتة، قد طُمِست صورتها فعلاً بشيء آخر سواها. مَلَكٌ بارد طويل، مهيب قوي كرمح من الصلب، أخذ يتجسد في مادة، لن يتخلى عن مؤازرته بعد الآن أبداً. مَلَك الموت، موت بارڤاتي في أغلب الظن.

كان مايلز يعرف بالطبع ما سيحدث بعد ذلك. فابتسم ابتسامته المستسرة، ابتسم منفرداً، وابتسم لديانا، وابتسم من خلال ديانا حين حرضته بأن الوقت لم يكن متأخراً جداً للذهاب إلى ليزا. لم يعد في عجلة من أمره الآن، إذ كان بين يدي سلطان آخر. ففي أمسيات الربيع

twitter @baghdad_library

المشمسة الدافئة، كان يجلس في الخميلة الصيفية الصغيرة متغاضياً عن قلق ديانا عليه بسبب رطوبتها. وحين يكون الطقس بارداً أو ممطراً كان يجلس في نافذة مكتبه مراقباً للسحب الرمادية السريعة، المتساقطة فوق قمة «قاعة معرض إيرلز كورت» Earls Court Exhibition Hall.

وعندما يسود الظلام كان يجلس هناك في الظلمة مُتطلعاً إلى سماء لندن الحمراء المتوهجة. وحينئذ تتحول أفكاره إلى شيء مبهم، طاف، دافىء، وتبدأ في التحلل عندما تتحرك الظلمة تحتها وتنتقل، فتشرع في السقوط منفصلة بعضها عن البعض الآخر متحوِّلة إلى صور.

وبدأ مايلز بكتابة الشعر. كان يكتب في يسر. مقطوعات هائلة مكثفة، ومقطوعات طويلة معقدة، كانت تصل إليه كاملة. والصور ترِفُّ من حوله، حتى أوشكت أن تعميه بكثرتها. ثمة نعمة من اليقين في إحساس الانسان بالحب. وهناك نعمة من اليقين في الفن، ولكنها نادرة جداً. أحس بها مايلز الآن وهو يستمع في شعره لأول مرة إلى صوته الخاص يتكلم، لا صوت إنسان آخر. وعرف أن اللحظة التي يستطيع فيها أن يسمي نفسه شاعراً بكل تواضع ـ قد جاءت أخيراً. وكان قد انتظرها وقتاً طويلاً كافياً، وحاول الانتظار مخلصاً. ومع ذلك، يبدو له الآن أنه لم يعرف ببساطة كيف ينتظر، وأن محاولاته لإعداد نفسه للعبادة العظيمة التي دخلها الآن، كانت كلها محاولات خاطئة. أرهق نفسه، وشد أعصابه، وخدش بأظافره في اهتياج سطوح الحياة، على حين كانت الحياة العظيمة الأخرى تراقب وتبتسم. أما ما تيسر له الآن، وما أتاح له أن ينفذ من خلال الحاجز إلى العالم الحقيقي، فهذا أيضاً كان مايلز يعرفه، غير أنه الآن وقد بدأ عمل حياته، كان يتحاشى نظرته. وبمزيد من العمق والهدوء، كان يعرف أنه حين تفارقه هذه السَّورة ـ إذ إنها لا يمكن أن تدوم إلى الأبد ـ فإنها ستفارقه بعد أن تتحرك له أدوات حرفته جميعاً.

شرعت ديانا ومايلز في المسير عائدين على أعقابهما خلال الجبانة، وقد أحاط كل منهما خصر الآخر بذراعه. سارا على مهل شديد كأنهما زوجان عجوزان. وتألقت شمس المساء على التعريشات اللامعة من الحشائش الجديدة، وسرى أريج ثري من الأرض الرطبة في الهواء الدافىء. وغشيت الأوراق الصغيرة كأنها الغمام طريق أشجار الليمون.

قالت ديانا: «أعتقد أنه لا بد لك من نار كهربائية في الخميلة الصيفية. ولن يكون من الصعب تدبيرها».

- «الأيام الدافئة في طريقها إلينا الآن».

- «أجل، ولكن المكان رطب هناك. وإذا استطعنا أن نجعله دافئاً حقاً، يمكنك أن تعمل فيه أثناء الشتاء أيضاً».

- «سيكون هذا شيئاً أحبه، وبخاصة إذا أمطرت السماء بَرَداً!»

- «وبخاصة إذا أمطرت السماء برداً. ينبغي عليّ أن أجعل المكان كله مُحَصَّناً ضد تيارات البرد بالطبع. ما اسم تلك المادة التي تضعها حول الأبواب والنوافذ لختمها؟»

- «لا أستطيع التذكر».

- «سأسأل تاجر الحديد والأدوات المعدنية غداً».

twitter @baghdad_library

(٣٠)

تساقطت دموع أديليد في الدُّرج المفتوح فأحدثت بقعاً رطبة على الخليط الوردي والأزرق الذي تتألف منه ثيابها الداخلية. وعندما اعتدلت انسكبت الدموع على كم بذلتها السوداء الجديدة التي كانت مصنوعة من (الكورديوري) قماش قطني متين مضلَّع مخمَّلي الزغب بحيث كان يحمل سطحاً رمادياً من الغَيم الرقيق كأنه حرير متموج الألوان. كفكفت دموعها بيدها آملة ألا تترك أثراً على النسيج النفيس. وأمعنت النظر إلى نفسها في مرآة منضدة الزينة. لم تكن حجرة الفندق مزوَّدة بمرآة طويلة. وبدت البلوزة البيضاء ذات الثنيات الكثيرة (المكشكشة) ـ وكانت جديدة أيضاً ـ في المقاس الخاطىء على كل حال، فقد ابتعاتها في عجلة من أمرها. وأبت الثنيات أن تبرز بأناقة عند عنق السترة، وإنما ظلت متغضنة مختلطة في الداخل، فإذا حاولت أن تشدها إلى الخارج، جنحت البلوزة عند الخصر. غير أن الأوان كان قد فات الآن لإصلاحها، أو إصلاح العقد الأزرق المؤلف من حبات ڤينيسيوية (نسبة إلى فينيسا) الذي لم يكن يبدو في مكانه الصحيح فوق قمة البلوزة. كان ينبغي لها أن تدرك أنه لم يكن بالطول المناسب فخلعت العقد وأسقطته في حقيبة ملابسها. ثم عدلت المرآة، وتراجعت إلى الوراء، وشرعت تصعد في حذر على أحد المقاعد. بهذه الطريقة تستطيع أن ترى انعكاس نصفها الأسفل، وأن تشاهد التنورة السوداء المنسوجة من القيطان، والجورب النيلون الشفاف، والحذاء الأسود المصنوع من الجلد المدبوغ الذي يزينه ابزيم من الصلب. قالت لنفسها:

من المؤكد أن مظهري يليق بجنازة.

ونزلت محاذرة مرة أخرى. وكانت أديليد تخشى السقوط دائماً، وتشعر بشيء من الدوار كلما وقفت على مقعد. وتناولت قبعتها المخملية الصغيرة السوداء، وشرعت تنفض الغبار من عليها ممسكة بها جيداً بعيداً عنها، وهي تنحني قليلاً إلى الأمام حتى تسقط الدموع على الأرض، لا على حُلّتها أو قبعتها. جال بخاطرها هذا الخاطر: كيف يمكن أن تمضي في البكاء هذا الزمن الطويل، إن المرء ليعتقد أن المدد يمكن أن ينفد. من أين تأتي هذه الدموع؟ وتصورت مخزناً دَمْعياً هائلاً، دموع حياة بأكملها: وما إن فكّرت في عدد الدموع التي سوف تسكبها بلا ريب، تضاعف الجدول المتدفق. لقد بكيت كثيراً في الأيام الأخيرة، سأتلف عيني، هذا ما طاف بذهنها، إن هذا يغيِّر منظري على نحو دائم. حقاً، ينبغي أن أكف، ولكن كيف؟ ودرست وجهها في مرآة. كانت عيناها منتفختين تنزّان بالدموع، وتحيط بهما دوائر كبيرة من البشرة المتورمة. كان وجهها كله أحمر، منتفخاً وساخناً، وسطحه لامعاً بالدموع الجافة، والتي لم تجف بعد. يا إلهي، إنني أبدو بشعة، كيف يمكن أن أضع أية مساحيق فوق هذا؟

وشرعت تمشط شعرها وهي تسقط الكسرات الصغيرة من الشعر المحلول من حين إلى آخر في سلة المهملات التي وضعها الفندق. وكان يبدو أن شعرها يتساقط أكثر من المعتاد. كما أن لونه لم يكن هو اللون الصحيح. ولم تجد مفراً من أن تذهب إلى مصففة شعر غريبة، فصبغته لها الفتاة بلون بني أفتح كثيراً. وتساءلت إلى أي حد كان ذلك ملحوظاً. ولم تكن قد اعتادت بعد على أن يكون شعرها قصيراً، فكانت تصاب بصدمة كل صباح من النظر في مرآتها، والجزء الطويل من الشعر المقطوع تحمله معها أينما ذهبت. وقد اقترحت عليها مصففة الشعر أن تبتاعه منها، غير أن أديليد لم تكن ترضى بذلك، وإن كان الشيء المقطوع الغريب يصيبها

twitter @baghdad_library

بالفزع. وربّتت على رأسها الجديد. وكانت تأمل أن يجعلها الشعر القصير تبدو أصغر سناً، غير أنها تدرك الآن أنه جعلها تبدو شعثاء مشوَّشة. ولم يستقر عزمها: أتدفع بالخصلات القصيرة البنية الفاتحة وراء أذنيها، أم تتركها معلّقة. وفي الحالتين كان شعرها يبدو سيئاً. لعلها أخطأت خطأً رهيباً حين قصَّت شعرها، ولكنها كانت تعرف حق المعرفة لماذا فعلت ذلك.

نظرت أديليد في ساعتها. لم تكن قد فرغت بعد من حزم حقائبها. تستطيع أن تترك الحقيبة الكبيرة عند البوّاب في الطابق الأرضي. وشرعت في ترتيب ملابسها الداخلية في الحقيبة الأصغر. فتّشت الأدراج جميعاً، وراجعت دولاب الملابس. كما بحثت في السرير غير المرتّب فوجدت منديلين مبللينْ. عليها أن تتذكر شراء بعض المناديل الورقية. لم تكن قد نزلت في فندق أياماً طويلة، غير أن الملاءات كانت تبدو رمادية متّسخة. كل شيء على أهبة الاستعداد، باستثناء وجهها. وكانت قد عدلت عن فكرة طلائه بالمساحيق على أمل أن تقدر على الكفِّ عن البكاء. والآن، لم تكن ترى مناصاً من وضع المساحيق، وأن تثق في أنها ستمنعها عن البكاء على نحو ما. انحنت انحناءة عميقة على حوض الغسيل، وغسلت وجهها بالماء البارد برهة من الزمن، ثم جفّفته، وبدأت تسوِّي عليه طبقة من كريم الأساس. وخفَّفت لمسات أناملها من حرارة وجنتيها المحترقتين فأغمضت عينيها لحظة. والآن جاء دور البودرة. وفيما كانت تهم باستعمال أحمر الشفاه اللؤلؤي الوردي على شفتيها المتورمتين، انحدرت دمعتان كبيرتان محدثتين أخاديد طويلة عميقة فوق منحنى وجنتيها الذي رشته رشاً خفيفاً بالبودرة. قالت أديليد: «عليك اللعنة!» وانزلقت يدها فهبط أحمر الشفاه إلى ذقنها. وحدثت نفسها قائلة: ينبغي عليّ أن أغسل وجهي وأن أبدأ من جديد. كلا، لن أفعل. فلم يعد من المهم حقاً أن أبدو بأية صورة كانت. ثم

رددت لنفسها: لم يعد من المهم حقاً أن أبدو بأية صورة كانت. وأحسست بأن هذا القول صادق، وأنه علامة على التغييرات العظيمة التي طرأت على حياتها. وانتزعت مهابة هذه الفكرة دمعتين كبيرتين أخريين. وحاولت أن تمسح الطلاء الشارد بمنديلها فلم تستطع أن تزيله تماماً، غير أن اللون الوردي المطموس امتزج امتزاجاً جيداً بوجهها المتضرج بلون الدم. وبرفق مسحت وجنتيها، وارتدت قبعتها. ودق جرس الهاتف ليعلن لها أن سيارة الأجرة قد وصلت.

حملت أديليد الحقيبتين ونزلت بهما درجات السلّم الضيقة عابرة النباتات التي يعلوها الغبار والموضوعة في جفانٍ من النحاس، وعهدت بالحقيبة الكبرى إلى البواب. استقلت سيارة الاجرة، وقالت لنفسها: يا إلهي، سوف أبدأ الآن حقّاً في البكاء من جديد. وقد فعلت. وبينما كان الناس الذين يجلسون في السيارات المجاورة يراقبونها في فضول، أسلمت نفسها للنحيب، على حين كانت سيارة الأجرة تزحف ببطء خلال حركة المرور في شمالي لندن. وأخيراً وصلت. وجففت أديليد وجهها بمنديل مبلل بالدموع، وحاولت أن ترش عليه شيئاً من البودرة، ولكن يبدو أن البدّارة كانت مبتلّة هي أيضاً. نقدت سائق التاكسي أجرته من حقيبة يدها الجلدية السوداء الجديدة، واجتازت الرصيف المزدحم بين موقف للصحف وكومة من أقفاص الفاكهة كان قد تم تسليمها فوراً للبقال. وتدحرجت حبة من الطماطم على الرصيف، ثم تفسّخت لتكشف عن باطنها الرطب الأحمر عند قدميها. تحاشتها أديليد، ودخلت من الباب الضيق المعتم، وصعدت السلالم إلى المكتب الموجود في الطابق الأول. طرقت الباب ودخلت.

كانت الخالة والتوأمان موجودين فعلاً. وكانت الخالة ترتدي معطفاً أسود مسرفاً في الطول، تحيط به ياقة من الفراء، وتضع على رأسها قبعة يبدو أنها

twitter @baghdad_library

مصنوعة كلها من ريش الطاووس. وكانت تضع أيضاً دبوساً ضخماً من اللونين الأحمر والأخضر، وعدداً من الخواتم اللامعة. أما التوأمان فكان كل منهما يرتدي حلة سوداء، على حين وضع ويل وردة حمراء في عروة سترته، ووضع نايجل وردة بيضاء. وتقدَّم المسجل للترحيب بأديليد.

قالت أديليد: «هاللو» وهي تتجاوزه بنظرها إلى التوأمين.

تقدم نايجل ولثمها على خدِّها في شيء من الارتباك، وقد علت شفتيه ابتسامة. أما وجه ويل فكان مُرْعداً. كان قد طَرَّ شاربه على هيئة فرشاة الأسنان الهتلرية. اتجه إلى أديليد وقبَّلها، على الوجنة أيضاً. قال: «يا للسيد المسيح، إن وجهك ساخن». وقالت الخالة (بالروسية): «Moya meclaya devoushka» فقال ويل: «اسكتي، أيتها الخالة». وأحست أديليد أنها على وشك الإغماء، ولا بد من أن تجلس.

قال المسجِّل في شيء من الحياة: «ينبغي الآن إذن أن نتذكر لماذا اجتمعنا هنا، هذا شيء ينبغي علينا. والآن دعوني أرى أيكما أيها السيدان هو الذي سيتزوج؟ فلا ينبغي أن أزوِّج السيدة بالشخص الخطأ، أليس كذلك؟»

قال ويل: «أنا العريس. بالله يا آد، كفِّي عن البكاء، وأغلقي صنابير المياه، هلا فعلت؟ أليس لديك أي وقار؟ أي إنسان سيحسبك مسوقة إلى الإعدام».

قال مسجل العقود: «أعتقد أننا جميعاً نشعر بمثل هذا يوم زواجنا، ها ها».

وابتسم نايجل.

أما الخالة فقالت بلغتها الروسية العجيبة «Svadba, Soodba, Slooshba».

وقال ويل: «فأفئي كما تشاءين كالشاة السوداء أيتها الخالة. والآن، يا أديليد، استجمعي أشتات نفسك معاً. أنت لا تريدين أن تفسدي كل شيء، أليس كذلك؟»

وناحت أديليد: «كلا، لآ.. لآ».

قالت الخالة: «يا توشا ya tosha» وأخذت تعطس.

«كفى طشطشة، يا خالتي، وأنت يا آد، تصرفي كما يتصرف الإنسان العاقل، وإلا غضبت عليك. تعالي واجلسي هنا إلى جانبي، هيا تعالي. والآن، كفّي عن هذا، وإلا أعطيتك شيئاً يستحق البكاء!»

تقدمت أديليد. وكانت قد أزاحت قبعتها جانباً في جهادها مع منديلها، وأفسدت طلاء شفتيها مرة أخرى. وكان تنفسها ينبعث كالفحيح من شفتيها المرتعشتين. وبدأت الدموع تنحدر على وجه الخالة. أما نايجل فكان يبتسم.

قال المسجل: «أعتقد الآن أن كَلّاً منكما يعرف الإجراءات. هذا حفل صغير في غاية من البساطة، ولكنه يتمتع وراءه بسلطان القانون ومهابته، وقوة إلزامه لا تقل عن زواجكما في كاتدرائية».

انتحبت أديليد، ووضعت منديلها المبلل على ثغرها. وما زال نايجل يبتسم، ولكنه مسح دمعةً عن عينه.

«أولاً يجب أن أراجع اسميكما، من فضلكما، الاسمين بالكامل وأسماء آبائكما. أنت، أديليد آن دو كريسي...»

وانهمرت الدموع على وجه نايجل، دون أن تفارق الابتسامة شفتيه.

ـ «وأنت، ولفريد ريجينالد بوس..»

قال ويل: «يا للسيد المسيح!» واصطبغ وجهه باللون الأحمر، وامتلأت

twitter @baghdad_library

عيناه وفاضتا بالدموع. «يا للسيد المسيح! آسف، يا آد».

«واسم أبيك. . . أوه يا عزيزتي. . أوه يا عزيزتي. . » واهتز القلم في يد المسجل الذي بدأ يبحث عن منديله.

* * *

توقعت أديليد آلاماً وشدائد في حياتها الزوجية، وكان لها ما توقعت. لم يتحسن طبع ويل الحاد مع مرور الأعوام، ولم يفعل سوء الهضم المزمن الذي نَجَمَ عن حياته غير المنتظمة في المسرح ـ لم يفعل شيئاً في تخفيف سورات غضبه التي تنتابه من حين إلى آخر. استكانت أديليد في بداية الأمر في شيء من الخنوع. ولكنها لم تلبث أن تعلمت فيما بعد كيف ترد على صياحه. وكانت تشعر دائماً بالخجل والإرهاق بعد مشاجراتهما. أما ويل فلم يكن يبدو عليه أنه يتذكر حدوث أية مشاجرة. ولكن، إذا كانت أديليد قد تنبأت حقّا بالجوانب السيئة فإن من الحق أيضاً أنها لم تعرف كيف تتنبأ بالجوانب الحسنة. كانت قد تزوجت ويل وهي في حالة من القنوط المُطْبق لأنها كانت تشعر أن ويل هو قَدَرها. بل إنها لم تراودها فكرة السعادة فيما يتصل بزواجها. ومع ذلك كانت فيه السعادة أيضاً. ذلك أن أديليد لم تدرك مسبقاً مدى استمتاعها بوجودها في الفراش مع ويل، وكيف يمكن أن يخفف هذا الاستمتاع السبيل لكل منهما تخفيفاً عظيماً. كما أنها لم تكن تحلم ـ وهي تبكي وتوقّع لأول مرة باسمها الجديد: أديليد بوس، لم تكن تحلم في الأيام المشمسة التي جاءت مؤخراً، رغم طبع ويل المشاكس، عندما كان توأماها الطويلان يمثلان على مسرح أوكسفورد (باسمين مستعارين هما بينيديك وموركوشيو دون ذكر اسميهما الحقيقيين) بأن ويل سيكون واحداً من أشهر الممثلين وأكثرهم شعبية في انجلترا، وأن أديليد ـ التي تغيرت كثيراً ـ ستصبح «الليدي بوس».

وأقرب من هذا في الوقت كانت الدهشة التي أصابتها حين توفيت

الخالة، وظهر أن جواهرها تساوي عشرة آلاف من الجنيهات، وكأنها هبة مالية من السماء للزوجين الجديدين. كما أن مذكرات الخالة ـ حين ترجمت إلى الإنجليزية، نالت رواجاً منقطع النظير، وأصبحت كنزاً من المعلومات بالنسبة للمؤرخين فيما يتعلق بالأيام الأخيرة من العهد القيصري. وظلت أديليد ويل يرددان أنهما سيتعلمان الروسية ذات يوم حتى يتمكنا من قراءة مذكرات الخالة في لغتها الأصلية، ولكنهما لم يفعلا ذلك قط. ومهما يكن من أمر فإن بينيديك أصبح خبيراً روسياً، وصار مركوشيو عالماً في الرياضيات.

twitter @baghdad_library

(٣١)

كان دينبي جالساً على حافة سريره. وكانت الساعة العاشرة مساءً. وجدران الحجرة ما زالت رطبة إلى حد ما، غير أنه تمكن من تجفيف الفراش بزجاجات من الماء الساخن. وفي الأيام الدافئة كان يضع الفراش في الشمس. وكانت الكهرباء قد انقطعت عدة أسابيع، إذ كان المنزل كله في حاجة إلى أسلاك جديدة. ومن حسن الحظ أن الحكومة كانت هي التي ستدفع تكاليف ذلك إذا ملأ الاستمارات اللازمة. ومن حسن الحظ أيضاً أن الجو كان دافئاً على غير عادته في مثل هذا الوقت من السنة.

ولم تُعانِ الحجرة كثيراً. وكانت إزالة الأوحال من الأرضية هي أصعب شيء. إذ كانت كمية الأوحال التي جلبتها المياه معها أمراً خرافياً. والسجادة أصبحت بلون الوحل، على كل حال، كما لُطِّخت الجدران بلون قاتم حتى ارتفاع أربعة أقدام من الأرض.

ولم يكن من المستحسن إعادة ديكور المكان إلا بعد أن تجف الجدران. وبشيء من الحظ كانت الحكومة هي التي ستدفع تكاليف ذلك أيضاً. واعتاد دينبي أن ينام في الطابق العلوي. غير أنه كان يتساءل عما إذا كان يستطيع الليلة الانتقال إلى حجرته الخاصة. ذلك أنه لم يكن يحب البقاء في الطابق العلوي. وإن كان بالطبع أقرب إذا عنَّ لبرونو أن يستدعيه أثناء الليل. ويبدو أنه كان ينام نوماً أفضل، ومن المؤكد أنه كان ينفق قدراً كبيراً من وقته نائماً.

انقطع دينبي عن الذهاب إلى المطابع، وكان يقضي أيامه الآن في المنزل. فلا بد من بقاء أحد مع برونو. أما نايجل فقد اختفى ببساطة من الساحة تاركاً وراءه معظم متعلقاته، وشعر دينبي بأنه ليس هناك ما يدعو إلى استخدام ممرضة أخرى في هذه المرحلة. وكان الطبيب مندهشاً لأن برونو ما زال على قيد الحياة هذا الزمن الطويل. أما ديانا فكانت تأتي تقريباً كل يوم في أواخر العصر، على حين كان دينبي يخرج لاستنشاق الهواء، وزيارة الحانة أثناء جلوسها مع برونو. وكان يستطيع أحياناً أن يسمعها وهي تتحدث إلى برونو، أثناء خروجه من باب الصالة، غير أنه لم يسألها قط عما كانا يتحدثان. بل إنه لم يكن يتحدث إلى برونو هو نفسه إلا لماماً، فيدور الحديث بينهما عادة عن أمور مباشرة، كالطعام والطقس وحجرة برونو. وكان برونو يستطيع أن يتحدث عن هذه الأمور حديثاً معقولاً، غير أن خلفية ذهنه كانت تبدو أقرب للجنوح، وكثيراً ما فاجأه دينبي ناظراً إليه بتعبير ينم عن الحيرة، وكأنه لا يعرف من كان دينبي هذا، دون أن يريد السؤال عن ذلك. كما كانت ديانا أيضاً مصدراً للحيرة، وإن كان دينبي لا يدع أية فرصة دون ترديد «ديانا، كما تعلم، هي زوجة مايلز». غير أن دينبي لم يفسِّر هويته الخاصة، إذ لم يكن يريد أن يذكِّر برونو بابنته جوين.

واستطاع دينبي أن يحقق بينه وبين ديانا علاقة حزينه وإن كانت تتسم بالعذوبة كالعلاقة التي يمكن أن تقوم بين رجل وزوجته التي طلقها منذ أمد بعيد. فكانا يتبادلان القبل على الوجنات، ويضغطان على الأيدي. وربطت بينهما رعايتُهما لبرونو برباط من الوقار والشجن. «كيف حاله اليوم؟» «ليس سيئاً جداً. لقد تناول شيئاً من الحساء». وكان دينبي يعرف أن ديانا تخشى أن يموت برونو حين تكون معه بمفردها ولا يكون دينبي حاضراً. ولم تبح بهذا أبداً، غير أن دينبي كان يعرف ما تعنيه حين تسأله في قلق: «لن تغيب وقتاً طويلاً في الخارج، أليس كذلك؟» كان هذا غريباً

twitter @baghdad_library

رهيباً، هذا الانتظار للموت. وفي كل صباح كان دينبي يسائل نفسه إن كان برونو قد مات في هدوء أثناء الليل، ثم يشاهد ـ بصدمة من الألم والارتياح، أن ملاءات السرير ما زالت تعلو وتهبط قليلاً. وقد انتهى به الأمر خلال هذه المرحلة الأخيرة ـ إلى أن يحب برونو حباً مجرداً يكاد يكون لا شخصياً، واستطاع أخيراً أن يقيس ذلك الفرق الشاسع، تلك المسافة الممتدة بين الحضور والغياب. كان حضور برونو في المنزل شيئاً واقعياً، إيجابياً إلى أقصى حد، مؤثراً تأثيراً عميقاً. ومع ذلك كان من المحال أيضاً عدم الشعور به بوصفه تدنيساً، إذ كان دينبي يتطلع بخوف ممتزج بشيء من الشوق إلى الوقت الذي يعود فيه إلى المنزل، ويخلع معطفه، ويخرج زجاجة الويسكي في منزل يخلو تماماً من برونو. ومع ذلك، بين تلك اللحظة وبين «الآن»، كان يقوم ذلك الشيء الرهيب الذي لا سبيل إلى التنبؤ به، والذي لا بد من تحمله.

كان برونو قد تغيّر جثمانياً أيضاً منذ سقوطه. إذ أقلع عن وضع طقم أسنانه المزيفة، فانهار الشطر الأسفل من وجهه. وكان يبدو أن رأسه ينكمش بوجه عام إذ بدأ اللحم المكتنز الذي جعل وجهه يبدو منتفخاً وغريباً كل الغرابة ـ بدأ يتهدل ويترهل صوب العظام. والحلقة التي أحاطت بقاعدة الجمجمة من الشعر الفضي الخفيف سقطت تقريباً، من كثرة الاحتكاك بالوسادة، بحيث أوشكت الجمجمة أن تكون صلعاء تماماً. عينا برونو وحدهما هما اللتان بقيتا على حالهما، ضيقتان رطبتان، مليئتان ـ على نحو مفزع ـ بالحيرة والتأمل، ونوع خارق من الذكاء. وبهاتين العينين الحائرتين المعاديتين، المذعورتين نوعاً ما، كان يستعرض الأشخاص الذين يقومون على خدمته. ولم يكن وجهه المنكمش ينفرج بابتسامة إلا لديانا وحدها في بعض الأحيان. فكانت عيناه تتغضّنان بشيء يشبه السرور.

وقام مايلز بزيارته مرتين أو ثلاثاً. فكان يدير محادثاته مع برونو من

جانب واحد تقريباً. وذات مرة مَرَّ دينبي بالباب فسمع مايلز يتحدث عن صرصار الليل، دون أن يسمع رد برونو. وكان مايلز يحمل معه جواً من اللامبالاة التامة. بل كان يبدو مبتهجاً ويقترب من برونو بنوع من المرح كان يثير دينبي إلى أقصى حد. وكان يوجه استفسارات سريعة عما قاله الطبيب. وقصارى القول إنه كان يتصرف كرجل يؤدي واجباً، ويشعر بالسرور من نفسه لأنه يفعل هذا. ويبدو عليه أنه لا شأن له تماماً بهذا الألم وبهذا السر الذي هو على وشك الوقوع. فكان يترك المنزل وهو يبتسم خفية ويدندن لنفسه. وقرر دينبي أنه يمقت مايلز. وتلك العاطفة الغريبة التي بدت له في يوم ما أنها أشبه بالحب، والتي كان مايلز يوحي بها إليه - تلاشت تماماً. بل لم يعد يرى أن مايلز يشبه جوين. كان يراه أشبه بفأر كبير مبتسم. كما أحس أيضاً بكراهية مايلز المتزايدة نحوه، وسأل نفسه: ترى هل تحدثتْ إليه ديانا؟ من المحتمل أنها لم تفعل.

واستمع دينبي إلى أنباء زواج أديليد بشيء من الحزن والارتياح. والآن، بعد أن لم تعد صرخاتها تصم أذنيه، أصبح قادراً على تذكر مفاتنها. كانت فتاة صديقة حلوة بالنسبة له خلال تلك الأعوام، وأحس بامتنان يخالطه شيء من الخجل، يود لو استطاع أن يعبِّر لها عنه بطريقة ما. فخطر له أن يمنحها خمسين جنيهاً هدية عُرسها، ووصل به الأمر إلى كتابة إذن الصرف (الشيك)، غير أنه لم يستطع بعدئذ أن يحزم أمره عما إذا كان من المناسب أن يرسله إليها أم لا. وعندما تسوء الأمور دون بصيص من الأمل لا يدري المرء كيف يتصرف. وفي نهاية الأمر لم يبعث بإذن الصرف، فربما لم يفعل ويل حينذاك سوى أن يمزقه ويرده إليه جذاذات من الورق.

أسدل دينبي الستائر. وكان الظلام قد ساد في الخارج، والليلة لم يظهر فيها القمر، ورذاذ من المطر يتساقط. وذهب ليتأكد من أن باب الملحق مفتوح بسنادة حتى يتمكن من سماع برونو إذا نادى عليه. وكان الرجل

twitter @baghdad_library

العجوز مستغرقاً في نوم عميق عندما ذهب دينبي ليراه مبكراً. أوه، دعه يَمُتْ أثناء نومه! بهذا تضرع دينبي بقلب حزين متألم. دعه يَمُتْ بسلام أثناء نومه حتى لا يعرف. ولكن، ليس هذه الليلة، ليس هذه الليلة. يا لبرونو المسكين! وسحب دينبي الملاءات والبطاطين، وتحسس الفراش متسائلاً إن كان جافاً بما فيه الكفاية لكي ينام عليه. كان يبدو أنه على ما يرام. ولم يكن دينبي يشعر مطلقاً بأن منزل «شارع الاستاد» هو بيته، غير أنه كان يحب حجرته الصغيرة بالمنظر الموحش الذي تطل عليه في الفناء. ولم يكن هذا الفناء الآن سوى رقعة من الوحل الرمادي ينضجه الطقس الجاف ويقوم بتشقيقه، ويجعله الطقس الرطب غراءً سميكاً. وكان دينبي يعتزم إزلته دون أن يعرف كيف يمكن أن يتم هذا.

جلس مرة أخرى على السرير، ونظر إلى نفسه من مرآة منضدة الزينة. رجل بدين بكمية كبيرة من الشعر الأبيض، وأسنان سليمة إلى حد ما. وتنهد. ليته لم ير ليزا، وليته ما منح تلك اللمحة التي كشفت له الغطاء عن شيء آخر، عن شعوره بأنه ما زال حيّاً في حقيقة الأمر، أو عما لا يدريه! كان في غاية من السعادة بمضاجعته لأديليد، سعيداً كل السعادة بمغازلته لديانا. هاتان المخلوقتان تنتميان إلى العالم المألوف المبتذل وإلى وعيه العادي المعتم. فكان لقاؤه بليزا هو التحول المفاجىء من شفق الفجر إلى ضوء النهار، من رمادية الألوان إلى الألوان جميعاً، من الظل إلى المادة والشكل. كان قد نسي شكل تلك الأشياء جميعاً. من يدري، ربما نسيها مرة أخرى. أو لعله أن يجتازها جميعاً ليخرج منها إلى بحيرة ساكنة مترامية الأطراف تشرق عليها الشمس في غشاوة من الغيم، مع شيء من الاختلاف. ربما استطاع حنيئذ أن يبلغ نوعاً من السكينة، سكينة رجل عجوز، سكينة التقاعد الحميم بلا ملائكة. وبلا نساء أيضاً. طافت هذه الأفكار بذهنه. أمن الممكن أن يعثر الآن على فتاة أخرى؟ بعد أن رأى ليزا، لم يعد يريد ببساطة شيئاً من هذا.

وتساءل، تُرى أين هي الآن، في سكن من النعيم لا سبيل إلى تخيله مع رجلها الآخر! لم يكن يستطيع أن يفكر فيها بوصفها منتمية إلى هذا العالم، ومقيمة في نفس المكان الذي يقيم فيه. وتصورها مكنونة داخل بيضة مُشِعَّة في إحدى المجرَّات الخارقة للمألوف، مطوية في ثنايا شيء متصل من الزَّمكان (الزمان ـ المكان) يلفها بعيداً عن هذه الأرض. وكانت هذه الصورة المبهمة ضرورية بالنسبة إليه لتخفف ما كان يمكن أن يكون درجة عرجاء من الغيرة والشهوة. فإذا لم يكن ثمة مكان للامكانية فلا مكان أيضاً للاشتياق. كانت ليزا رؤية، طيفاً، ولم تكن إمكانية. ومع ذلك، ورغم اجتهاده لرفض هذه المعرفة، كان يعلم أن ما رآه، وما لمسه، يا إله السموات! ـ كان امرأة حقيقية يمكن أن تحبه.

أحس دينبي أنه على وشك البكاء. منذ سنوات كان عاجزاً عن استدعاء الدموع. ولكنه وجد نفسه الآن ـ في الأيام الأخيرة ـ يذرف الدَّمْع في أواخر المساء، وفي الصباح المبكِّر. كانت الدموع غريبة، مهدِّئة في عذوبة، وإن تكن مثيرة للأعصاب قليلاً، وكأن جسده يعاني من تغيير جثماني غريب. ينبغي عليه أن يكون حريصاً على ألا يراه برونو في هذه الحالة من البكاء. قام وذهب إلى الباب لكي ينصت لحظة. لم يكن ثمة صوت في الطابق العلوي. ثم خطر له أنه قد يكون من المستحسن أن يصعد ويتأكد من أنه أغلق الباب الأمامي، وارتقى درجات السلم على أطراف أصابعه. حمداً لله، إن برونو المسكين ينام ليلاً.

وعلى ممسحة الأقدام رقدت رسالة، لا بد أنها جاءت مع التوزيع الثاني للبريد. ولمح دينبي في الحال أن الخط لم يكن مألوفاً، وبدا له فوراً أن الرسالة لا بد أن تكون من ليزا. وفي عجلة مرتعدة فتح المظروف. كانت الرسالة طويلة إلى حد ما، ويبدو أنها من نايجل. أوصد دينبي الباب، وثبَّت السلسلة، ونزل السلالم في هوادة مرة أخرى. جلس هنيهة محملقاً في

twitter @baghdad_library

حزن إلى لا شيء، ممسكاً بخطاب نايجل مطوياً في يده. لو لم تكن هناك تلك الآمال اللامجدية الشجية، تلك الظلال المباغتة الجوفاء للإمكانيات، تلك الشروط اللامتحققة من الرغبة التي لا رجاء منها!! أغمض عينه فانسكبت دمعة على خده. ثم أخذ يقرأ رسالة نايجل.

دينبي الأعزّ

أرجو أن تحاول الصفح عني لتقصيري في أداء الواجب، وفي رحيلي الذي لم أخطرك به، وانقطاعي عن العمل دون مشورة أو استئذان. وإنه ليؤسفني أن أترك برونو، وما كنت أعتزم ذلك قبل حلول النهاية. وأرجو أن يكون هادئاً، وأن أبعث إليه بحبي إذا كان لا يزال يتذكر نايجل، وإن كنت أثق ـ رأفة به ـ ألا يكون لي ذاكراً. وما دام نايجل لم يكن موجوداً بحق أبداً، بمعنى ما، فمن المحتمل أنه لا يخلف صورة للذكرى، ولا يترك وراءه ظلاً. أكتب هذا لأتحدث إليك، ولو مرة واحدة، ما دمت أجد متعة لذيذة في فعل ذلك (انظر أسفل الصفحة)، ولأنني أشعر أن من واجبي محاولة تفسير سبب رحيلي/ هذا، وأمور أخرى.

الحب شيء غريب. ولا ريب إطلاقاً في أنه هو ـ وهو وحده ـ الذي يجعل العالم يدور. وهو نشاطنا الوحيد الذي له دلالة. وكل ما عداه غبار، ورنين أجوف، وحنق للروح. غير أنه من جهة أخرى صانع للمتاعب على وجه اليقين. ويا له من حالم يتعالى فوق المستحيل! ويا له من معانق لأقدام ما لا سبيل إلى بلوغه! وإنها لفكرة عبقرية أن يسمح لأي إنسان بأن يحب أي إنسان آخر وبالطريقة التي يشاء. ولا شيء في الطبيعة يمنع هذا. يمكن أن تنظر قطّة إلى مِلك، والوضيع يمكن أن يحب الطيِّب، والطيب يمكن أن يحب الوضيع، والوضيعُ الوضيعَ، والطيبُ الطيبَ. هيا بسرعة: والضوء العظيم قد يومض كاشفاً عن الواقع تارة وعن الوهم تارة أخرى. وكثيراً من الأحيان ـ واأسفاه يا دينبي الأعز! ـ قد يحب المرء منفرداً، في الأنا وحدية، في انحصار غرور، على حين يتغذى الكتمان على سويداء القلب. هذه ليست مسألة تقاليد. الحب لا

يعرف التقاليد. أي شيء يمكن أن يحدث، ومن ثم لا توجد على نحو ما، على نحو رهيب رهيب ـ أية مستحيلات. آه، لقد فكرت في هذا أيضاً، يا عزيزي ولم يكن فيه الشطر الأقل من معاناتي. كان من الممكن أن تحبني. كان ذلك ـ وأسفاه! ـ ممكناً من الناحية المنطقية. غير أن الذي جعلني أرحل لم يكن مجرد إحساس باحتمال وقوع ما يمكن تصوره، وإنما معرفتي بأن حبي العظيم هو أيضاً مُدَمِّر عظيم. ولو كنتُ القديس الذي أردت أن أكونه، إذن لأحببتك، وجعلتك تعلم هذا الحب، ولمكثتُ قريباً منك، ولم ألحق بك أي أذى على الإطلاق، بل لأحطت بك كالهواء الذي لا يضر، وجعلتك لا تكاد تلحظ مقدار حبي لك. وكما هو الحال فإن سطوة ذلك الشيء الملائكي التي لا سبيل إلى التنبؤ بها، ما إن تنطلق مرة من مخبئها المظلم حتى تجرنا. . إلى أين؟ لست أدري، ولكن إلى أسفل. وسيكون عليك أن تمثِّل دوراً بغيضاً. وأنا. . .

وحب حياتي العظيم الآخر هو. . ولكنك تستطيع أن تتكهن بمن يكون. وأن أراكما أمامي يصوِّب كل منكما مسدسه المحشو إلى الآخر ـ كان ذلك بالنسبة لي تمثيلاً لمسرحية خيالية. وكيف أصبحتما ـ حين انتهى الأمر إلى هذا ـ صلصالاً بين يديّ، أستطيع تشكيله كما يحلو لي على نحو مطلق. كم كان يسيراً عليّ أن أجعلكما تتصرفان كما أشاء بالضبط! ولكن، لا ينبغي أن أفكر في قدرتي الشبيهة بالإلهية ـ ففي هذا الطريق يكمن العذاب الممكن ـ المستحيل الذي اعتزمت إنهاءه. كان حدثاً عظيماً. . ألم يكن كذلك، أعني مبارزتنا؟ وعدم معرفتي بالنتيجة كان عذاباً سماوياً، عجلة حظ روسية (روليت) للروح. اصفح عني.

وقررت أن الطريقة الوحيدة للتعامل مع نفسي كما أنا الآن هي أن أرحل من انجلترا. وقد أخبرني صديق كيف أستطيع الحصول على وظيفة في الهند، مع مؤسسة إغاثة الطفولة، وأنا ذاهب إلى كلكتا. لن أترك عنواناً، ولن أوقع بأي اسم. أنا روح تتمنى لك الخير، وستتمنى لك الخير أيا كان الوقت الذي تحفظه ذاكرتك، طويلاً كان أم قصيراً. ألثم قدميك.

twitter @baghdad_library

حدّق دينبي في الخطاب. لقد سبّب له ألماً من نوع جديد غير مألوف. كان يود أن يعرف أن نايجل كان يحبه. ولكن، ماذا تراه كان فاعلاً بهذه المعرفة، بحق السماء، أكان من الممكن أن يمثل ذلك «الدور البغيض»؟ أجل، أي صانع للمتاعب كان هذا. كل إنسان يتوق إلى الحب، ولكنه نادراً ما يكلل سعيه بالنجاح. نايجل أحب دينبي الذي أحب ليزا التي تحب. . ما أشد الحزن والجنون الذي يكتنف هذا كله! يا إلهي، إنني أشعر بوحدة بشعة، هكذا كان يفكر. إن صوت الحب، حتى وإن لم يكن الصوت الصحيح ـ جاءه بنبرة لا يخطؤها من ذلك العالم الحقيقي الذي لا سبيل إلى الوصول إليه. ويبدو أن عينيه اغرورقتا بالدموع مرة أخرى. قال دينبي بصوت مرتفع: «يا للجحيم!» طرح الدموع جانباً، وخلع سترته ورباط عنقه. من الأفضل أن يذهب إلى الفراش، وأن يغرق كل هذا الرثاء لنفسه في نسيان مُحْتَرم. وكانت التعاسة والشراب قد جعلا منه نئوماً عميق النوم. وقف برهة ينصت للمطر الذي ازداد شراسة، ويصغي للريح التي أخذت تقصف زجاج النافذة. وفك واجهة قميصه الأمامية.

وفجأة انبعث صوت حاد غريب منتظم على مقربة منه. وقف دينبي مشلولاً، متشبثاً بقميصه. وبعد لحظة جاء الصوت مرة أخرى، مرتفعاً، يتردد عدة مرات. شخص ما يدق بلهفة على النافذة. قال دينبي لنفسه: ويل! من المؤكد أنه ويل، أتى ليصفّي حسابه على الوجه الأكمل. وقف ساكناً تماماً. وعاد الطَّرقْ مرة ثانية، مُلِحّاً، سائلاً، عنيفاً. وخطر لدينبي: إنه سوف يهشم الزجاج بعد دقيقة واحدة. ماذا أفعل؟ استدعي الشرطة؟ أتظاهر بأنني لست هنا؟ أمن الممكن أن يراني من فرجة في الستار؟ يا إلهي! لماذا ينبغي أن يحدث هذا؟ أحس دينبي بأنه مرهق عجوز. وأراد أن يمضي إلى الفراش. إذ لم يكن يريد أن يُرْغم على القتال مع شاب نصف مخبول. كان هذا كله سخيفاً. وصاح قائلاً: «من هناك؟» لا جواب، الدق على

النافذة فحسب، متكرراً مرة أخرى، ضارياً، حاداً. وتردد دينبي. ثم تحرك صامتاً، خارجاً من الحجرة إلى المطبخ. وهناك تناول سكيناً طويلاً مقوَّساً، ثم وضعه ثانية. عاد على عقبيه، وذهب إلى النافذة. «من هناك؟» دق، دق، دق، دق. سحب دينبي الستائر، ولكنه لم يتمكن من الرؤية في الظلام والمطر. ثم جذب مزلاج النافذة بعنف شديد، وتراجع عبر الحجرة.

وفي مرة واحدة ظهرت ساق طويلة بحذاء موحل إلى أقصى حد فوق إفريز النافذة. ولكنها كانت ساق امرأة. قالت ليزا: «ساعدني، ألا فعلت؟»

* * *

أغلق دينبي النافذة، وسحب الستار مرة أخرى. كانت ليزا جالسة على السرير، وقد خلعت معطفها، وبدأت تتخلص من حذائها. وكان شعرها الذي كان مكشوفاً ـ قد التصق برأسها، وتجعد على هيئة زخارف عربية (أرابيسك) منسدلة تحت عنقها.

قالت: «أنا آسفة للحضور على هذا النحو، وكان ينبغي ألا أفعل ذلك لو عرفت كمية الوحل التي سأجلبها معي. ولم أشأ أن أدق الجرس بسبب برونو. ألا أحضرت لي منشفة؟»

وذهب دينبي إلى المطبخ وعاد بمنشفة. فشرعت تجفف وجهها وشعرها. ورقف دينبي عند النافذة متكئاً على خزانة الأدراج، محملقاً فاغر الفم. ألم مفرط في حدته اخترق مركز جسده كقضيب من الحديد المحمى، وأرغمه على البقاء متصلباً متسمِّراً في مكانه لا يريم.

قالت ليزا: «آسفة لوصولي دون إخطار». وكانت قد فركت شعرها فتحول إلى كتلة من الخصلات الصغيرة المجعدة حاولت الآن أن تعيدها إلى النعومة. «هل أستطيع استعارة مشطك؟»

twitter @baghdad_library

وناولها دينبي المشط ـ وهو يتحرك بحذر شديد من جراء الألم، وانحنى متيبِّساً. وبدأت أسنانه تصطك فأغلق فمه وهو يصرف بأسنانه في الوقت نفسه.

كانت ليزا تمشط شعرها، ولم يكن هذا العمل هيِّناً. قالت: «يا لها من ليلة عاصفة!»

فقال دينبي: «يا إلهي! يا للسيد المسيح!»

ـ «اجلس، يا دينبي. اجلس على ذلك المقعد عند النافذة. ألا فعلت؟ كيف حال برونو؟»

جلس دينبي وهو ما زال متصلباً. وجعله الألم يتأوه. فوضع يديه على وجهه، وتأوه مرة أخرى. قال في صوت خفيض متعثر: «لماذا أنت هنا؟»

ـ «قلتُ كيف حال برونو؟»

ـ «بخير. كلا، إنه يحتضر، ولكن في هدوء تام. لماذا أنت هنا؟»

قالت ليزا: «سأشرح لك. وينبغي أن أبدأ بالاعتذار. ربما كان من الأفضل أن أكتب إليك. غير أنني قضيت وقتاً طويلاً في شك عميق، ولما اتضحت الأمور أخيراً وجدت أنني أريد رؤيتك في الحال، وأن أشرح لك، كما قلت.» وكانت تتحدث بشيء من الفتور، وهي تحملق فيه، دون أن تكف عن تمشيط شعرها.

قال دينبي: «إنك لا تدرين ما فعلت».

ـ «ليس بعد. ولكن، قليل من الوقت سيكشف كل شيء».

ـ «أعني، مجيئك على هذا النحو لرؤيتي. هذه الفعلة تجعل كل شيء أسوأ ألف مرة. ليس هناك ما يدعو إلى الشرح. ولم أكن أشكو. بل لم أكن أبحث عنك. وليس هناك ما يمكن أن تفعليه على الإطلاق. كل ما عليّ هو أن أعانيه. يا إلهي، كنت أتمنى ألا تحضري!»

قالت: «أخشى أنه لا مفر من تحملك للشرح. إنه شيء ضروري... من أجلي».

قال دينبي: «لا وجود لأي تفسير. كل ما في الأمر أنني أحببتك كالأحمق المخبول. كل إنسان يستطيع أن يحب أي إنسان. الوضيع يمكن أن يحب الطيب. القطة تستطيع أن تتطلع إلى مَلِك، إلى ملكة، أميرة، ملاك. لم يكن أمامي إلا أن أصرف بأسناني وأبقى إلى النهاية. أنا لا أريد تعاطفك، أو تفسيراتك اللعينة!»

كانت ليزا تتطلع إليه بنظرة عابسة فيها شيء من الفضول، وثغرها ممطوط كأنما ليعبِّر عن ازدراء طفيف. واستحال وجهها إلى لون وردي متوهج بعد مجاهداتها مع المنشفة. أما شعرها الذي فرغت من تمشيطه وإعادته إلى النعومة فقد تموج رطباً على عنقها، مسوداً من أثر المطر. وسحبت إلى أعلى قدماً بجوربة مبتلة وطوتها تحتها، وسوّت الوسائد وراء ظهرها على الجدار. وعندما أراحت نفسها قالت: «الآن أريدك أن تصغي».

قال دينبي: «أنا أميل إلى أن أطلب منك الانصراف». وشعر بشيء عجيب يشبه الغضب.

«كلا، ستجد نفسك عاجزاً عن ذلك، على ما أظن».

قال لنفسه: إنها على حق. يا إلهي، يا إلهي لماذا كان عليّ أن أتحمل هذا؟

قالت ليزا: «سأهم بالكلام، وربما سألتك بعض الأسئلة. سأبدأ بسؤال. عندما أتيت تلك الليلة إلى حدائق كمبسفورد، هل أخبرك مايلز أنني أحب شخصاً ما. هل تعرف من يكون ذلك الشخص؟»

ـ «الشخص الذي تحبينه؟ كلا.»

ـ «إنه مايلز».

twitter @baghdad_library

غضَّ دينبي بصره إلى الأرض. ومال بتؤدة إلى الأمام واضعاً مرفقيه على ركبتيه، ووجهه في كفَّيه. وقال لنفسه: ينبغي ببساطة ألا أشرع في البكاء، فلو شرعت، لن أستطيع أن أتوقف. مايلز. مايلز، وأخلد إلى الصمت.

قالت ليزا: «متأسفة. كنت أعرف أن هذا يجرحك، ولكنه شيء ضروري. كنت ولا أزال - أحب مايلز، أحببته عندما التقيت به أول مرة، يوم زواجه من ديانا. وكنت أحبه طيلة تلك الأعوام كلها، وتخيلت أنني أستطيع الحيلولة دون معرفته بهذا الحب أبداً».

ظل دينبي صامتاً يضغط بيديه على عينيه.

«غير أنه اكتشف هذا الحب - على كل حال - منذ زمن قصير، أو بالأحرى أنني كاشفته. وكان ينبغي عليّ ألا أفعل ذلك، غير أن الامتناع كان عسيراً جداً، أقصد من الناحية النفسية، لأنه وقع في غرامي أثناء تلك الفترة»

واعتصم دينبي بصمته.

وبنفس الصوت الفاتر الدقيق المطرِّد استطردت ليزا قائلة: «لم أكن أعلم كم من الوقت أحبني. غير أن تخميني الخاص هو أنه لم يحبني حقّاً إلا في وقت متأخر جداً».

رفع دينبي رأسه. وهناك، لاحت دموعه فلم يحاول أن يداريها. «لعنة الله عليك، لماذا تعذبينني بقصة الحب المشئومه هذه؟»

- «من الضروري أن أجعل هذا أمراً واضحاً تمام الوضوح. أنا أحب مايلز، ومايلز يحبني».

قال دينبي: «اخرجي من هنا، هلّا فعلت»؟

ودون أن تلتفت لمقاطعته استرسلت قائلة: «وعلى كل حال، بقيت هذه الحقيقة وهي أن مايلز متزوج من ديانا».

قال دينبي: «هذا كابوس. ما معنى هذا كله؟ أواه يا ليزا، أنت قاسية لا تعبأين بمشاعر أحد، أو لعلك لا تدركين نوع الحال التي أنا فيها. ليتني لم أرك مرة أخرى، ولم أتحدث إليك ثانية! فربما التأم الجرح عاجلاً. والآن، ها أنت تأتين وتتحدثين عن مايلز، عن مايلز بالذات دون الناس جميعاً. لا بد أنك مجنونة حتى توقعي الأذى بشخص ما على هذا النحو».

قالت: «متأسفة. ولكنك سترى أن هذا كان ضرورياً».

- «ما وجه الضرورة فيه؟ إذا كنت تريدين رؤية مدى قوتك فها أنت ذي تشاهدينها. ولو كنت تريدين أن تتفرجي على رجل استحال إلى..»

- «كف عن هذا، أرجوك، واستمع..»

- «لقد دبرت أمري بحيث أجد نوعاً من السكينة هنا مع برونو. لا أعني السكينة، وإنما أن أكون واقعياً. بدأت أدرك أنك.. ببساطة شيء مستحيل. وها أنت الآن تفسدين كل شيء. المسألة هي أنك لا تستطيعين إدراك ما صنعت، حين أتيت إلى هنا، حين أتيت إلى حجرتي..»

- «بالطبع، أخذتَ تتماثل إلى الشفاء...»

- «لم أكن أتماثل إلى الشفاء! فأنا لن أشفى أبداً! أوه، عليك اللعنة، عليك اللعنة، عليك اللعنة!»

- «كف عن الصياح على هذا النحو. هل ستنصت إلى ما جئتُ لأخبرك به؟ أنا في حاجة إلى مساعدتك».

- «أساعدك على الاستحواذ على مايلز، على ما أظن! أوه، يا للسيد المسيح، ليزا، إنك لا تعنين أن.. لا يمكن أن تقصدي...» وجلس دينبي مشدود القامة محملقاً فيها، وقد انقبض وجهه بالألم.

- «ماذا تظن؟»

twitter @baghdad_library

ـ «عندما رأيتك أول مرة يا ليزا، كنت، يـا إلهي، كنت أضم ديانـا بين ذراعيّ. أي أمل لديّ ـ على الاطلاق ـ في إقناعك بـأنني أحبك، وأن حبي هـذا جاد، مختلف، رهيب؟ أنت تحسبـين أنني مجرد رجـل يطارد النسـوة. وتظنين أنني مهتم حقاً بديانا اهتمامي بك. تريدين مني أن أشغل ديانا، أن أُبْعـدها، حتى تستـطيعي أنت ومـايلز. . أنت، شيطانـة مـريـدة!» ونهض دينبي. رافعاً يديه في مزيج من اليأس والوعيد.

ـ «اجلس، وكف عن الصياح في وجهي».

ـ «هذا من عمل الشيطان. أنت تدفعينني مباشرة إلى الجنون. أتـريديني أن أقتلك؟».

ـ «إنك في غاية الغباء. . ولن تجرؤ على لمسي!»

ـ «لمسك. . . إنني أود أن أخنقك!» وتأوه دينبي واستدار جانباً، ثم اتكأ على خزانة الأدراج وهو يغطّي وجهه: «أواه يا ليزا، ليزا، ليزا. . .»

ـ «أريد منك أن تصغي إليّ، وأن تفكِّر. لو أنك استخدمت عقلك، لما قلتَ ما قلتَه الآن. أنا لا أريدك أن تأخذ ديـانا بعيـداً عن مايلز. فـأنت لا تستطيع أن تفعل ذلك على كل حال».

وتأوه دينبي مرة أخرى.

«عرف مايلز وأنا على الفور أنه لا مستقبل لنا معـاً. أي نوع من النـاس تحسبنا؟»

قال: «من الناس المتحابين».

ـ «الحب الرومانسي ليس مطلقاً».

ـ «الناس المتحابون يعتقدون ذلك».

ـ «هـذا شرط مغالى في قيمتـه. وفضلاً عن ذلـك فـإن المـرء يُشْفى. حتى أنت تماثلت للشفاء!»

ـ ألم أُشْفَ، ولم تشفي أنت. قلت إنك أحببت مايلز سنين طويلة».

ـ «الغياب يشفي».

ـ «على كل حال ستجدين أنت ومايلز سبيلاً. فكل منكما على حظ وافر من الذكاء».

ـ «اسمع. لم يكن هناك، ولا يوجد الآن شيء نستطيع أن نصنعه بحبنا. ولا يستطيع مايلز أن يتخلى عن ديانا. إنه متزوج من ديانا، وقد وهبتْ ديانا حياتها كلها لمايلز. وبعد أن صارحته بحبي، وتذوقت حبه، لم أستطع البقاء في المنزل..»

ـ «ثمت منازل أخرى في لندن...»

ـ «لا من أجل مايلز وأنا. ما كنا نستطيع أن نعيش على ذلك النحو».

ـ «كان من الممكن أن تحاولا. هل ذهبتما إلى الفراش معاً؟» وكان دينبي يقف مولياً ظهره لها، متفرساً في فرشاة شعره.

ـ «لا بالطبع لا».

ـ لا أرى لماذا كان هذا بالطبع. لستما قدِّيسينْ».

ـ «كلا. ولكننا شخصان باردان نهتم بذاتيْنا. ولم نكن نريد أن ندخل سباقاً في التدمير والجنون».

ـ «فليكن، ولكني ما زلت أنتظر أي الجوانب من اهتمامكما البارد بذاتيكما حَمَلك إليّ بهذه القصة التي لا تطاق فعلاً!»

ـ «كما قلت لك، قررنا أنه لا بد من أن نفترق، وقررت أنه من الأيسر لكل منا لو رحلت في الحال، فوجدت لنفسي وظيفة في الهند، في كلكتا، مع مؤسسة إغاثة الطفولة».

قال دينبي: «فلماذا لستِ في كلكتا؟ لماذا أنت في شارع الاستاد في مخدعي، جالسة على فراش وقد خلعت حذاءك؟»

ساد الصمت بينهما. وأخيراً رفع بصره. كانت تنظر إليه بشدة قوية

twitter @baghdad_library

غريبة. وبعد هنيهةا، واصلت حديثها: «قررت ألا أذهب إلى الهند. كان قراراً صعباً، وحاسماً أشد الحسم».

ـ «إذن، فأنت ذاهبة إلى مايلز بعد هذا كله، ففكرت أن تمري عليّ أثناء طريقك، وأن تخبريني بكل شيء عن هذه العلاقة!»

ـ «كلا، لست عائدة إلى مايلز».

ـ «إذن، ماذا أنت صانعة؟»

قالت ليزا: «هذا يتوقف في شطر منه عليك».

جلس دينبي في تؤدة شديدة على مقعده بجوار النافذة. تفرس فيها بضراوة وصرامة. «ليزا، ما هذا الذي تتحدثين عنه؟»

نظرت إليه الآن نظرة أقرب إلى العداء، قالت: «أريد أن أجعل كل شيء واضحاً كالبلّور. وليس من السهل أن أجعل كل شيء واضحاً».

ـ «أقول إنه ليس واضحاً!»

ـ «لا أريدك أن تكون مخدوعاً بحال من الأحوال».

ـ «أبدو كأنني مقتول وليس مخدوعاً».

ـ «أريد أن أوضِّح الأمر فيما يتعلق بمايلز. .»

ـ «لقد أوضحته بما فيه الكفاية! ماذا تريدين يا ليزا، أتريدين أن تستخدميني لإثارة الغيرة في قلب مايلز؟»

قالت. «إنه لشيء غريب. ظننت أن رؤية مايلز لك وأنت تتحدث إليّ ذلك اليوم في الجبانة ـ هي التي جعلت مايلز يدرك فجأة أنه أحبني. . عندما شاهد أن شخصاً آخر يمكن أن يحبني».

ـ «تستطيعين أن توفّري عليّ ذكرياتك المؤثرة، إذن فهذا هو ما تريدينه؟»

ـ «كلا. ليست لدي أية مشروعات تتعلق بمايلز».

قال دينبي: «هذا محال. أنت تحبينه، وهو يحبك، كما شرحت ذلك

عشرات المرات. هذا محال. لا بد أنك تعتزمين الرجوع إليه».

- «كلا».

- «إذن، ماذا تريدين مني أن أفعل؟»

وللمرة الأولى منذ وصولها أظهرت ليزا شيئاً من الاضطراب. تنهدت، وغضت من طرفها، ودفعت بشعرها إلى الوراء، وهي تحوِّل بأناملها الحلقات المبللة فوق عنقها إلى خصلات جافة بنية قاتمة. «قررت ألا أرحل إلى الهند..»

- «استمري».

- «أمضيت كل هذه السنين.. في ذلك المنزل... محبة لمايلز، عارفة أين ينام.. كل ليلة..»

- «اختصري هذا الجزء».

- «كان من الممكن أن أواصل هذا - كما ترى - إلى غير حد، وظننت أنني سأواصل إلى غير حد.. لولا ذلك الذي حدث فجأة، حبه لي على ذلك النحو، ومكاشفتي له..»

- «ليزا، لا تراوغيني مرة أخرى. لا أستطيع احتمال ذلك».

- «عندما اعتزمت الرحيل تخيلت أنني الشخص نفسه، الشخص الذي كنته من قبل. كان الشخص الذي كنته من قبل هو الذي قرر الذهاب إلى الهند...»

- «استمري، استمري».

- «وجدتُ أنني لم أعد ذلك الشخص بعد الآن؟»

- «عمَّ تتحدثين بحق السماء؟»

قالت وهي تنظر إليه مباشرة مرة أخرى: «وأحب أن تعرف أيضاً أنني أؤمن ايماناً مطلقاً بأنك تحبني، وأن هذا الحب - على حد تعبيرك - جاد، مختلف، رهيب».

twitter @baghdad_library

حملق فيها دينبي، وأحس أنه على وشك الإغماء، فانزلق من المقعد إلى الأمام. قال بخشونة: «يا للسيد المسيح. أنت تريدين مني أن أعزِّيك».

كانت ليزا تنظر إليه بتركيز شديد. «هناك شيء ـ أجل ـ يمكن أن يوضع على هذا النحو. وكما قلتُ إنه من الصعب إلى أقصى حد أن يتوخى المرء الدقة. تلك.. التجربة.. مع مايلز غيَّرتني. قد يكون ذلك إلى الأسوأ، هذا ما سوف يبيِّنه الزمن. كل ما في الأمر أنني وجدت نفسي غير قادرة على الابتعاد.. وعلى أن أكون وحدي. لم أعد أريد الرحيل.. بعد ذلك».

قال دينبي: «أواه يا ليزا!» ووضع يده فوق عينيه قائلاً: «هذا ليس بخير. قد أموت من هذا».

ـ «محتمل، ومن المحتمل ألا يكون».

انحنى دينبي إلى الأمام وهو يتفرس فيها. «استمعي إليّ الآن. إنك ببساطة تخدعين نفسك. قلت إنك لا تستطيعين الرحيل وأن تكوني وحدك. فليكن، ولكن ما معنى أن تأتي إليّ وأنت لا تحبينني، وإنما تحبين شخصاً آخر سواي؟ ألا تدركين أنه لا يوجد سوى دواء واحد لوحدتك، وأنه ليس ما تفعلينه؟ إنك لا تحبينني. ومن الممكن أنك لا تعرفينني. وربما تشعرين بالامتنان في هذه اللحظة فحسب لأنني أحبك. ربما استطعت أن أبدد حزنك، وأن أسرِّي عنك، لفترة قصيرة، أياماً، أو ربما أسابيع. ثم تذهبين بعد ذلك لمايلز. وحينذاك قد أقتل نفسي. أو مايلز. أو أنت».

قالت ليزا بحذر وهي تنحني إلى الأمام بتركيز مماثل: «كلا. لقد تروَّيت في هذا كله. ولا بد أن تصدقني بأنني لن أعود إلى مايلز. لا بد أن ترى. مايلز هو الرجل الوحيد المستحيل تماماً».

ـ «لا أرى ذلك. لا شيء مستحيل عندما يحب الناس. أنت مجنونة،

مجنونة على نحو مطلق. ومن الجلي أنك لم تفهمي ماذا تصنعين هنا. إنها نار عظيمة، يا ليزا، إنها قاتلة».

قالت ليزا: «أريد أن أُشْفى من مايلز، وسأشفى منه. وأعرف كيف أفعل ذلك. سأعاني من الألم. وسأسبب آلاماً، أعرف ذلك. مايلز يشعر أنني إما أن أكون في دير للراهبات، أو ميتة. وطمأنينته تعتمد على رؤيته لي بوصفي شيئاً لا سبيل إلى بلوغه، بوصفي ملاكاً. وسأسيء إليه إساءة شنيعة إذا تبيَّن أنني لست سوى إمرأة على كل حال».

- «ثم سيأتي إلى هنا ويأخذك».
- «كلا. وإنما سيكف عن حبي».
- «إذن، فالمسألة كلها طلب للمعونة من أجل شفاء مايلز!»

- «لا تكن أحمق يا دينبي، استمع، ألا يمكنك أن تتصور أنني قد أهتم بك وأجدك جذّاباً وأن شيئاً ما قد حدث ذلك اليوم في الجبَّانة، وتلك الليلة في الحديقة؟ أنا ممتنة لأنك تحبني، ولكن ليس هذا هو كل ما في الأمر، أن يشعر المرء بأنه مطلوب يعني الكثير، ولكن ليس هذا هو كل ما في الأمر. إنني أحب مايلز، ولكن أستطيع أن أراك أنت أيضاً. ما كنت أجيء على هذا النحو لأي شخص كان لأطلب منه العزاء والعون. فكَّرت فيك أياماً وأسابيع. وتفكيري فيك جعلني أقرر ألا أرحل إلى الهند. أيبدو من الغريب بعد هذا كله أن أبتغي إسعاد شخص ما، وأن أكون سعيدة أنا نفسي؟ فكّرت في الطريقة التي ركعت بها على ركبتيك في الرماد المتناثر في الحديقة، وكيف كنت في تلك اللحظة أرغب رغبة شديدة في أن ألمسك. في كل تلك السنوات التي عشتها في «حدائق كمبسفورد» فقدت غريزتي للمحافظة على الذات. كنت أعيش في قفص مظلم. أما الآن فقد خرجت منه. كان شيئاً أليماً، هذا الخروج، وسيظل أليماً ردحاً من الزمن، غير أن هذا الألم بسيط نظيف بحيث يستطيع المرء أن يحيا به. لست مجنونة

twitter @baghdad_library

يا دينبي. لم أكن من قبل أعقل مما أنا عليه الآن، عاقلة ببرودة، عاقلة **عقل المصلحة الذاتية**. أنا امرأة. وأنا أنشد الدفء والحب، والعاطفة، والضحك، والسعادة، كل الأشياء التي عشت بدونها. لا أريد أن أعيش فوق آلة التعذيب».

ـ «إنك لا تعرفينني على الإطلاق. . . »

ـ «لقد أبصرت قلبك. وأنت لا تعرفني. أنت تتخيل أنني طيبة. غير أن سنوات إنكار الذات هذه لا تثبت شيئاً. وأنت تظن أنني. . شبيهة بشخص آخر».

ـ «قال: «كلا، كلا. أنا أستطيع أن أراك. أستطيع أن أراك **أنت** ».

ـ «إذن دعنا نثق كلٌّ منا في الآخر».

قال دينبي: «انتظري لحظة، قبل أن أبدأ في الصراخ. ما هذا الذي تقترحينه؟»

ـ «شيئاً بسيطاً كل البساطة. . أن يحاول كل منا معرفة الآخر معرفة أفضل، وعلى سبيل المثال، يمكنك أن تدعوني للعشاء في الخارج».

ـ «**أدعوك. . . للعشاء. . . في الخارج**! سأصاب بالجنون. لا شك أنني كذلك». قال دينبي هذا، وأخذ ينشج بالبكاء ضاحكاً. «لا جدوى من ذلك يا ليزا. هذا كله خيال في خيال. قد تهجرينني، وفي هذا مصرعي».

ـ «إذن، لو آثرت أن تُقْدم على هذه المجازفة. . » ومدت ليزا ساقاً طويلة، وجعلت تدلِّك كاحلها. ثم دفعت بقدميها في حذائها، وتناولت معطفها.

ركع دينبي على ركبته ودفن رأسه في حجرها. وبابتسامة كدرة حزينة، ظافرة، ربتت على الشعر الأبيض الجاف.

(٣٢)

كـان برونـو يصحو من نـومه. حمـداً لله، إن الـوقت لم يكن ليـلاً. أمسى الاستيقاظ الآن مختلفاً. فقد كان ضرباً من الدخـول في الألم أشبه بـدخول هـادىء بـطيء جـداً في ميـاه دافئـة. لم يكن الألم جثمانيـاً، وإن يكن الألم الجثماني موجـوداً. وفي بعض الأحيان كـانت تنتابـه أوجـاع مبـاغتـة مـع إحساس بأن شيئاً باطنياً يقبض ويبسط. غير أن هذه كانت قصيرة، نادرة. وإنما كان هناك ذلك الإحساس العام غـير المستقر بـالتململ الأليم المستمـر المثير للجسد الذي لم يعد يستطيع أن يجـد الراحـة الآن، بل إن النـوم كان يأتيه كسحابة متلهفة تجر أضواءها الشفقية على أطراف معقودة متوترة. هذا الألم الآخر كان ألم العقل، أو بالأحـرى ألم الكائن كله، وكـأنما كـان العقل والجسد الحيوانيان اللذان قُدِّر عليهما العذاب يندمجان في فـطرة تكاد تكـون شفافة، غـير أنها واقعة في المكـان، وتموج عشـوائياً بمخـاض الوعي. هـذه العودة من النوم إلى هذا الوعي الاكتوبلازمي كانت دائماً ضرباً من البؤس. إذ يقول لنفسه: ما زلتُ هنا.

فقـدت الأيام نمـوذجها الـذي تسير عليـه. هنـاك الحسـاء، اللحـاف، الحسـاء، اللحاف. وهنـاك الظلمـة والنور، والمـطر فوق النـافـذة، وضـوء الشمس الذي كان أسوأ من كل شيء والذي يظهر رمادية الملاءات القـذرة المجعّدة، والبقع على ورق الحائط ومقبض البـاب النحاسي المتغضِّن الـذي لم يعـرف التنظيف منـذ أعوام. كـان برونـو يعـرف أنـه عـاجـز عن التفكـير

twitter @baghdad_library

السليم. لعل ذلك راجع إلى تلك الحبوب الأخيرة التي أعطاها له الطبيب من أجل تسكين الألم. كانت حبوباً جديدة ذات لون مختلف. وكان يشعر كأن مركز عقله يحتله صندوق ضخم أسود يشغل المكان كله تقريباً، وعليه أن يشق طريقه حوله. ولم تكن أسماء. الأشخاص فحسب، بل أسماء الأشياء أيضاً، تفلت منه، تحوم على الشمال تارة، وعلى اليمين تارة أخرى كأنها طيور مفزّعة كلما استدار برأسه. وكان يدير رأسه في الواقع بتثاقل وتحير باحثاً عن منطقة من الوضوح يعلم أنها لا بد أن تكون قريبة منه لأن في مقدوره أن يشاهد نورها على نحو ما، ولكنه لا يشاهدها هي.

وكان الناس يأتون ويذهبون. وكثيراً ما كان دينبي وجوين يجلسان معه معاً، ويتحدث كل منهما إلى الآخر أحياناً، وإليه أحياناً أخرى. كان يحب هذا. وقد كان هناك شاب فاحم الشعر، غير أن هذا كان منذ أمد بعيد. وأراد برونو أن يسأل عن هذا الشاب، ولكنه عجز عن تذكر اسمه. وسمع نفسه قائلاً: «الشاب، الشاب..» وبدا أن أحداً لم يفهم شيئاً. جاء مايلز وتعرف برونو على مايلز، وعرف اسمه، ونطق اسمه، غير أنه لم يتحدث إليه. وكانت زيارات مايلز أشبه بوجود المرء داخل السينما. مايلز يتحرك، مايلز يتحدث، مايلز يؤدي دوره، وبرونو يراقبه. وعندما كان مايلز يميل إلى الأمام ويتحدث بشدة غير مألوفة كان برونو يومىء برأسه ويحاول أن يبتسم. وكان من العسير أن يبتسم الآن بسبب ذلك الألم الإكتوبلازمي، ولكن بقدر كبير من المشقة كان يستطيع أن يبتسم، وإن كان يتساءل: هل هذا الشيء الغريب هو ابتسام حقاً؟ وكانت هناك امرأة ذات شعر باهت، ووجه مشرق غاية في العذوبة، كانت تمكث معه الآن وقتاً طويلاً. ولم يكن برونو يعرف من تكون.

انقضى الزمن وبرونو يراقب انقضاءه، ووجهه منقبض بنوع من المكر. لم يكن الزمان مرئياً له من قبل أبداً. كان الناس يأتون إليه حاملين له

أشيـاءً: الحساء، واللحف، و«الإيفننـج استـانـدارد»، وكتـابـه في مجلدين: «**عناكب الصيد الكبيرة**». فكان ينظر إلى الصور في الصحيفـة المسائيـة وفي كتاب العناكب، ولكنه كان شارداً لا يستطيـع التركيـز حتى بعد أن يقـترب بنظارته من الحروف المطبوعة. وإذا استيقظ ليلاً أخذ يتأوه، وجعل الـوقت يمر بالتأوه وكأنه يلقي بتأوهـاته في كـأس صغير أو عِـدْل من الزمن يؤخـذ منه فيها بعد. وكان يئن أحياناً بما يبدو ساعـات بطولهـا. وكان دينبي أو جـوين يـأتيان فيتحـدثان إليـه، ويزيحـان الملاءات، ويـرتِّبان وسـائده. فـإذا انصرفا عاد إلى التأوه والأنين مرة أخرى.

هذا ما كان من شأن الحـاضر. وهناك في مكـان آخر تمـاماً كـان يوجـد الماضي، واضحاً تمام الوضوح، متألق الألوان، ممتداً بالقرب منـه على نحـو مختلف من الامتـداد. كان يشـاهد أفـلاماً، ولم يكن ذلـك شبيهاً بـالتذكـر تماماً. وذات يوم أبصر قبر سامبو في حديقة منزل تويكنهـام Twickenham، ومايلز يسير نحوه متباطئاً. وكانوا قد وضعوا حجراً عادياً صغيراً ليميزوا بـه قبر الكلب. وكانوا يعتزمون نقش اسمه عليه، ولكنهم لم يفعلوا ذلك أبـداً. وكثيراً ما كان يرى أمه وهي تمشط شعرها الطويل في ضوء المصباح تارة، أو في ضوء الشمس وهي تنادي خـلال أستار من أوراق الشجـر الذهبيـة تارة أخـرى، «برون، بـرون، أين أنت يا حبيبي؟» وشـاهـد ذات مـرة مـورين مرتدية تنورة قصيرة جداً وترقد مستغرقة في النوم في عُشٍّ من الريش. هـذا لا يمكن أن يكون ذكرى. **عشرة سنتات لكل رقصة، هذا هو ما يـدفعونـه لي، يعلم الله كم يبخسـون من قـدري**. ورأى جـوين في سروال ريـاضي وبضفائر طويلة تمسك كتاب: «كيندي لـلاتينية الأوليـة». وكان متعـوداً على مساعدتها في واجباتها المنزلية. وشاهد الصفحة بخط يـدها الـطفولي الكبـير جنبـاً إلى جنب مـع خـطه الـدقيق الصغـير Amo, amas. amat (أحب، تحب، يحب). يبدأ اللاتيني حيث يبدأ كل شيء.

twitter @baghdad_library

ولكن أين ينتهي كل شيء، أين ينتهي؟ جال هذا التساؤل بفكر برونو.

قال لنفسه: أنا أموت، ولكن ما شكل هذا الموت؟ أهو هذا الألم فحسب، هذا الخوف؟ فقد كان هناك خوف، خوف من شيء ما. أيكون الموت حين يأتي شيئاً أشد إيلاماً من العذاب الجسدي بصورة لا سبيل إلى تخيلها، هل يمكن للمرء أن يجرِّب الموت، هل يستغرق زمناً طويلاً؟ ومع ذلك لم يكن هذا الشيء المقبل هو الذي يخافه برونو حقاً. كان يخاف شيئاً حاضراً معه، هشاشة وجوده المتأوِّهة التي ترهب الانمحاء كل هذه الرهبة. أما ذلك الشيء الذي يتأوه ليلاً فكان مختلفاً وأقل رعباً. كان ثمة شيء فيه قادر على معاناة أفظع كثيراً، شيء ينبغي عليه أن يتحايل لينتزعه من الوعي التام. وينبغي عليه ـ بشطر من عقله أن ينأى بنظره عن هذا، وألا يدع بنية شخصيته تتحطم بما لا تستطيع احتماله. لا بد من أن تنفعه هنا عادة قديمة من الاستقامة، عادة أنشئت لمعالجة أمور مختلفة تماماً، ولا بد من تملقها لمساعدته الآن على نحو ما. هناك الدموع. ولم يكن برونو يعبأ بالدموع، فهي نوع من التأمل. ذرف الدموع وهو يشاهد حركة الزمان البطيئة، والصور الملونة. لم يكن هذا هو الرعب. لا بد أن يبقى الرعب في ركنه. وعليه أن يلعب مباراة البقاء إلى النهاية. هذا واحد من الأشياء المهمة.

وناجى برونو نفسه قائلاً: هناك شيء آخر مهم، أو لعله الشيء نفسه؟ ما هو هذا الشيء الآخر. إنه شيء ينبغي أن أفعله. وإذا كان الاله موجوداً فإنه سيفعله من أجلي. وكان برونو قد رأى حلماً عن الإله. كان الإله معلَّقاً فوقه على هيئة عنكبوت جميل من فصيلة Erisus niger، يتأرجح على نحو خفيف جداً جداً فوق خيط ذهبي يكاد أن يكون لا مرئياً. وأدلى الإله بخيط آخر صوب برونو، وجعل الخيط يهتز جيئة وذهاباً فوق رأس برونو تماماً. وبينما ظل برونو يمسك به كان لا يفتأ ينقطع.

وكانت لمسة الخيط الهشة الخفيفة مصحوبة بإحساس جسدي أليم، إلا أنه كان لذيذاً. وفجأة بدأ العنكبوت يتضخم ويتضخم حتى استحال إلى وجه والد برونو. وكان يملأ صفحة السماء كلها بوجهه.

سيفعلها الإله من أجلي، ولكن الإله غير موجود، بهذا فكَّر برونو مليّا. وبدأ يفكر في النساء. شاهد مورين جالسة في المقهى ولوحة الشطرنج أمامها على المائدة، وهي تحملق في القطع الحمر والبيض وتحرك واحدة منها بين حين وآخر. **كانت لها عينان زرقاوان، وما كنت أعبأ أبداً بالعيون الزرق، غير أنها ذات عينين زرقاوين، ومن ثم فإن هذا هو ضعفي الآن.** وكانت مورين تضع على رأسها قبعة صغيرة مستديرة حمراء على هيئة ناقوس من اللونين الأحمر والأبيض شدَّتها جيداً على أذنيها. لماذا لم يخطر له من قبل أن القبعة كانت تتلاءم مع قطع الشطرنج؟ هل فعلت ذلك عن عمد؟ لا بد أن يسألها يوماً ما.

قال بصوت مرتفع: «يجب أن أسألها».

ـ «ما هذا يا برونو؟»

ـ «يجب أن أسألها».

وجاءت المرأة ذات الشعر الباهت وجلست على سريره وأخذت يده بين يديها معاً كما كانت تفعل ذلك في كثير من الأحيان. وكان وجهها البيضاوي الكبير العاجي البشرة يبدو حزيناً مرهقاً. وقد شاهدها مرتين وهي تبكي بهدوء عندما ظنَّت أنه نائم. من تكون؟ وتساءل عن سنها. لم تكن التجاعيد قد ظهرت بعد في محياها، ولكنه لم يكن وجه امرأة في ريعان الشباب.

ـ «ماذا في الأمر يا برونو، أيها القلب العزيز؟».

قال برونو: «ذبابة في خيوط العنكبوت».

twitter @baghdad_library

كان عنكبوت ضخم من فصيلة Araneus diadematus قد نسج بيتاً أنيقاً عند ركن من النافذة في الخارج. وكان من المعتاد أن يُرى رأسه معلَّقاً إلى أسفل في صرة النسيج أو جالساً في شقٍّ بجانب النافذة في تعريشة صغيرة منسوجة من الخيوط، ومرتبطة بمركز البيت بخيط متين بارز. وكان برونو قد أخذ يراقبه عدة أيام، لم يقع فيها على فريسة. والآن، كانت هناك ذبابة منزلية ضخمة تناضل في النسيج، والعنكبوت يندفع نحوها.

ـ «هل أنقذ الذبابة؟».

ولم يكن برونو يدري أيريد إنقاذ الذبابة أم لا. وكان العنكبوت قد أدرك الذبابة فعلاً وألقى بخيط حولها، وهنا فتحت المرأة النافذة ووضعت يدها داخل النسيج، فحطمت بذلك تماثلها الجميل. انسحب العنكبوت وتدلت الذبابة الأسيرة من أحد الخيوط.

ـ «فات الأوان. احضريهما هنا معاً. في الإبريق، في الفنجان».

فصلت المرأة الذبابة في الإبريق، وبصعوبة أشد أمسكت بالعنكبوت في الفنجان. وأحضرتهما معاً إلى برونو.

كانت الذبابة تكافح في وَهن، محركة سيقانها ورأسها. وكانت أجنحتها قد تهشمت فعلاً على جسمها بواسطة الخيط الذي حاصرها. أما العنكبوت فكان ثائراً يحاول أن يتسلق الجانب الزَّلق من الفنجان. وظلّت المرأة تحرك الفنجان بحركة دائرية خفيفة عكس اتجاه العنكبوت، وبذلك كان يعود فيسقط إلى القاع مرة بعد أخرى. وبعد برهة سكنت حركته.

ـ «يا له من عنكبوت سمين!»

قال برونو: «لستِ خائفة. معظم النساء يَخَفْن منه».

ـ «أنا لا أخاف من العناكب. بل الأحرى أنني أحبها. كما أحب الذباب أيضاً».

- «إنه لشيء محزن. انظري إلى الصليب، الصليب الأبيض الكبير على ظهره. كانوا يقولون في العصور الوسطى إنه مقدس بسبب هذا الصليب».

- «أتظن أنه من المستحسن قتل الذبابة؟»

تروَّى برونو في الأمر. لقد تدخلا في الطبيعة وهما الآن في حيرة. «أجل وضَعي العنكبوت في بيته».

وأسقطت المرأة الذبابة على الأرض، وداست عليها، كما أعادت العنكبوت بعناية إلى مسكنه. وهرول العنكبوت مباشرة إلى تعريشته، وانكمش هناك حتى أوشك أن يكون خفياً.

- «اتركي النافذة مفتوحة، من فضلك».

وامتلأت الحجرة بهواء الصيف المبكر الدافىء. وكانت رائحة الشوارع المُتربة، ورائحة التيمس الخاصة، ونوع آخر من الرائحة العطنة المتخمرة، وإن تكن باردة منعشة. . كانت هذه الروائح تختلط بأريج مُبْهم ينبعث من الزهور.

وطافت الخواطر بذهن برونو: بم يشعران؟ هل عانت الذبابة من الألم حين أحيط بأجنحتها وتهشمت بفعل الخيط القوي؟ هل أحس العنكبوت بالخوف عندما كان في فنجان الشاي؟ ما أشد غموض الحياة في تلك المواقف المتطرفة! ولكن، هل يقل السر حين يعود الانسان من الأطراف إلى المركز؟ ربما لو كان الإله موجوداً لنظر إلى خَلْقه من عَلٍ بهذه الحيرة نفسها وتساءل. بم يشعرون؟

ولكن، ليس هناك إله. أنا الآن في مركز المدار الكبير لحياتي، حتى تَقْطع الخيط يدٌ خرقاء. عشت ما يقرب من تسعين عاماً، ولا أعلم شيئاً. وراقبت طقوس الطبيعة الرهيبة، وعشت داخل غرائز وجودي البسيطة، وها أنا في النهاية خِلْو من الحكمة. أين يكمن الفَرْق بيني وبين تلك

twitter @baghdad_library

المخلوقات الضئيلة المتواضعة؟ العنكبوت ينسج بيته ولا يستطيع أن يكون شيئاً آخر. وأنا أنسج وعيي، هذا الثرثار المُجْبر، هذا الصوت الكسول المتسكع الذي لن يلبث أن يصمت. غير أن هذا كله ليس سوى حلم. الواقع في غاية من القسوة، ولقد عشت حياتي في حلم، وفات الآن أوان الاستيقاظ.

قال برونو: «ماذا كان الشيء الآخر؟»

- «أي شيء آخر، يا عزيزي؟»

- «الشيء الآخر».

ليت المرء يؤمن بأن الموت ما هو إلا يقظة! بعض الناس يؤمنون بهذا. تفرس برونو في عباءته المعلقة على الباب. إنه لم يستخدمها الآن أبداً منذ أن لازم فراشه، وقد تصلبت في طيات أضحت هي نفسها في كل يوم. كم يعرف جيداً هذه الطيّات. يبدو أنها تتحول إلى شيء أطول، وأكبر، وأشد قتامة. حتى ضوء الشمس لم يعد يبدد الآن تلك القتامة. وقال برونو لنفسه: هذا أسوأ ما في الأمر. لقد كنت أجتاز هذا التوديع المغلّف بالدموع، فلم أر شيئاً واقعياً على الإطلاق. هذا هو الشيء الآخر. غير أن الأوان قد فات الآن، ولم أعرف حتى ماذا يكون. وتلفّت حواليه. كان ضوء الشمس يكشف الحجرة الصغيرة البشعة، ورق الحائط الباهت الملطّخ بالبقع برسوماته من اللبلاب الأخضر، ومقبض الباب الصدىء الذي فقد بريقه، واللحاف الهندي النحيل بزخارفه العنكبوتية التي كادت تنمحي، وصف زجاجات الشمبانيا التي علاها التراب في الركن. لم يعد يستطيع الآن أن يشرب الشمبانيا. والعباءة.

انسكبت الدموع من عيني برونو، وانحدرت فوق عظام وجهه، وتخللت لحيته.

- «ماذا في الأمر، أيها القلب العزيز؟ لا تسكب الدمع».

- «لا أستطيع أن أتذكر، لا أستطيع أن أتذكر».

قال لنفسه: إنه شيء بسيط حقاً. شيء يتصل بمورين وجاني والمسألة كلها. الآن يتبين المرء أن هذا كله كان خالياً من المعنى، كل الأشياء التي سعى الانسان وراءها، كل الأشياء التي ابتغاها. ولو كان هناك شيء يهم الآن في النهاية، لكان هو الشيء الوحيد الذي يهم حقاً. وإني لأود أن أعرفه حينذاك. يبدو وكأنه كان من اليسير أن يكون المرء عطوفاً طيباً ما دام قد أصبح من الجلي الآن أنه لا أهمية لشيء آخر على الاطلاق. غير أن الانسان كان حينذاك داخل الحلم.

قال برونو: «أينفع المرء أن يعود الزمان القهقرى؟ إنه لا يستطيع، أليس كذلك؟»

- «ماذا تعني، يا عزيزي؟»

كانت المرأة ممسكة بيده مرة أخرى، جالسة على كثب منه فوق الفراش غير أنه لم يعد يشعر بأية شهوة جنسية على الإطلاق. كان الخوف قد قتلها.

- «لو أنه كان يستطيع أن يسير القهقرى، ولكنه لا يستطيع».

بعض الناس يؤمن بهذا أيضاً، بأن الحياة يمكن أن تُسْتَرَدّ. غير أن ذلك محال، وهذا هو أبشع ما في الأمر. لم يكن قد أحب سوى أشخاص قلائل، وقد أحبهم على نحو غاية في السوء، وغاية في الأنانية. خَلَق من كل شيء أزمة. أيكون المثول في حضرة الموت وحده هو ما يجعل في استطاعة الانسان أن يرى بوضوح ما ينبغي أن يكون عليه الحب. لو أن المعرفة التي لديه الآن، هذا الايمان المطلق بأن شيئاً لم يعد له قيمة، يمكن أن يرتد على نحو ما إلى الوراء، ويقوم بتطهير تجارب الحب الأنانية الصغيرة، وبتسوية تلك الأزمات. ولكنه لا يستطيع.

هل علمت جاني بهذا في النهاية؟ لأول مرة أبصر برونو هذا بيقين

twitter @baghdad_library

مطلق. لا بد أن جاني عرفت هذا أيضاً. من المحال في هذه الحضرة ألا يعلم المرء. لم تكن تريد أن تصب عليه اللعنة، بل كانت تريد أن تصفح عنه، ولكنه لم يتح لها الفرصة.

همس برونو: «جاني، أنا آسف أشد الأسف». وانهمرت دموعه، غير أنه كان سعيداً لأنه عرف، أخيراً.

تحركت العباءة إلى الأمام نحوه، ووقفت عند قدم السرير.

* * *

قالت ديانا لنفسها: أعتقد أنه يحتضر. أواه، لماذا كُتب عليّ أن أعاني هذا؟

ظل برونو يهذي بضرب من الهراء أياماً متواليات دون أن يكف عن البكاء من حين إلى آخر. وكان نادراً ما يستطيع تناول طعامه، ويبدو أن كل قدرة على الحركة أخذت تفارق جسده. هذا الشكل الهزيل المنكمش رقد هامداً تحت اللحاف، ولعل في الرأس وحده، وفي العينين فحسب، كانت تحترق ـ بقوة عارمة عنيفة ـ تلك الشعلة التي سرعان ما تخبو.

ما برحت ديانا تتشبث بيده التي كانت تستجيب لضغطها بصورة ملحوظة. وكان يطرد الدموع من عينيه. ورفعت ديانا يدها الأخرى لتمسح وجنته. لم يعد يقوى الآن على رفع يده إلى وجهه. ما أعجب هذا: حين تكاد وظائف الجسم الأخرى أن تنهار وتتدهور في يد الطبيعة، لا تقوم العينان بتسليم قدرتها المستسرة على إفراز الدموع!

أحسَّت ديانا بأن الدموع تتصاعد إلى عينيها هي، وسحبت يدها الطليقة لتكفكفها. وامتزجت دموعها ودموع برونو على خدِّها. وتضاعف حبها لبرونو في هذا الوقت الرهيب.

لو رحل برونو الآن فإن دينبي سيأسف كثيراً على هذا الرحيل. وكان قد غاب هو وليزا هذه الليلة، إذ أقنعتهما ديانا بالانصراف. وعندئذ بدأ برونو فجأة في الانحدار

كان يبدو لديانا أن دينبي وأختها قد فقدا رشدهما. إذ كانا يبدوان وكأنهما سكرانان من النشوة. وكان التغيير الجثماني الذي طرأ على ليزا عظيماً بحيث كان من العسير على ديانا أن تتعرف فيها على شخصها القديم. لم تكن تبدو أصغر بسنوات عشر، بل بعشرين سنة، وكانت أجمل من أية فترة مضت من حياتها. وكانت تضحك طيلة الوقت ـ تقريباً ـ ضحكة جديدة لم تسمعها ديانا من قبل، أو لعلها مع مضي الأعوام قد نسيت رنة ضحكة ليزا. هل شاطرت دينبي الفراش؟ كان منظر ليزا لا يدع مجالاً للشك. وكانت محاولاتهما في منزل الموت هذا ـ لإخفاء هنائهما مؤثراً وفاشلاً في الوقت نفسه. فلم يكن في وسعهما سوى تقديم صورة للحياة في أشد عنفوانها المتفجر الزاخر بالأمل. لم يكن في وسعهما إلا أن يعرضا مشهداً للانتصار.

سخط مايلز هو الذي كان مسرفاً مضحكاً في آن معاً. وكان إدراكها للطابع الهزلي الذي بدا على مايلز في هذا الموقف واحداً من الأشياء التي أعانت ديانا نفسها على تحمله. ومضى وقت طويل قبل أن يصدق مايلز ما ألقته ديانا على مسامعه. كان ينظر إلى ما حدث على أنه مستحيل، وعلى أنه متناقض تناقضاً صريحاً. وكان يحملق في ديانا بعينين تلوح فيهما دهشة وحشية. لم يكن كل شيء سوى غلطة، سوف تجد أنها كانت مخطئة، وأنها فهمت الأمور على نحو خاطىء بكل تأكيد. أن تنجرف الطبيعة على هذا النحو المحال... وعندما نجحت ديانا آخر الأمر في إقناع مايلز بحقيقة ما قالته من أن ليزا لم تنذر حياتها للعمل في الهند، وإنما كان الناس يرونها وهي تطوف لندن في سيارة دينبي الرياضية وتتناول عشاءها بصحبة دينبي في

twitter @baghdad_library

المطاعم الواقعة على شاطىء النهر، وترتدي ثياباً جديدة غاية في الأناقة ـ حينذاك أسلم مايلز نفسه ليوم من الغضب والثورة. فأخذ يصب اللعنات على دينبي، وعلى ليزا. وقال إنه ليس من الممكن أن تدوم هذه العلاقة. ستأسف على ذلك، بحق الإله ـ ستأسف على ذلك! وأعلن صراحة أنه أصيب إصابة لا علاج لها. وفي اليوم التالي أخلد إلى الصمت والعبوس والتركيز، وأبى أن يجيب على أسئلة ديانا. وفي اليوم الثالث قال لديانا ملغزاً: «الآن انتهى كل شيء». وعاد إلى العمل في الخميلة الصيفية. وانقضى أسبوع آخر قبل أن تشاهد ديانا مرة أخرى ـ وكانت تتمشى في الحديقة ـ تلك الابتسامة الملائكية الغريبة التي كانت ترتسم على وجهه حين يكتب.

لم ترسل ليزا أية رسالة لمايلز، ولم تقدم لديانا أي تفسير. وإنما اكتشفتها ديانا بصحبة دينبي ذات صباح في «شارع الاستاد». وافترض كل منهما أنها ستفهم في الحال. ونظرا إليها بعيون بريئة في شيء من الاعتذار، والتملق كالأطفال. وبدا لديانا أنهما شرعا فوراً يعاملانها وكأنها أمهما. واستغرقت ديانا نفسها شيئاً من الوقت قبل أن ترى وتصدِّق ما كان موجوداً هناك أمام وجهها. كان كشفاً أشد ما يكون مرارة. إذ وجدت ديانا ـ عندما أخذت على عاتقها في البداية أن تزور برونو بانتظام ـ وجدت شيئاً من العذوبة في تجديد علاقتها بدينبي. وأحست بأنها لم تستطع نسيانه حقاً، ولم تكن ترى سبباً يدعوها إلى محاولة هذا النسيان. وتلقت جاذبيته الآن على نحو أكثر شمولاً ودعة بوصفها دفئاً مريحاً، وحضوراً جالباً للعزاء. وكان تعايشهما مع برونو شفاءً لها. وكانت تستطيع أن ترى أن دينبي لم يكن سعيداً، فاحترمت أحزانه وتطلعت إلى وقت تكون فيه قادرة بدورها على أن تحمل إليه العزاء. وكان شعورها مبهماً فيما يتعلق بهذه المسألة. لن تكون هناك أية تطرفات، غير أن شيئاً ما سيبقى بعد الحطام. وناجت نفسها قائلة: عندما

يموت برونو المسكين سأنظر في أمر دينبي، وسأرى ما أفعل. والواقع أنها كانت تفكر فيه كثيراً، لا سيما في الأمسيات حين تخلو إلى نفسها في حجرة الجلوس في «حدائق كمبسفورد»، فكانت صورته تجلب إليها شيئاً من السعادة

ولكن الآن. أخذت ليزا مايلز منها، وها هي الآن تأخذ دينبي أيضاً. وبينما كانت تنصت إلى صيحات مايلز الثائرة كانت تجاهد ألمها الخاص. كيف يمكن لحقدها أن يصل إلى نهاية أبداً؟ وأدركت الآن إلى أي حد كانت تُعَوِّل على دينبي. والحق أن هذا الجانب من المسألة لم يخطر لها على بال إلا حين أخبرها مايلز بأنها يحق لها أن تُسَرَّ بهذا الاستبعاد النهائي لغريمتها. ذلك أن دينبي كان نهائياً أكثر من الهند. ووجود ليزا في الهند سيجعل منها إلاهة. أما ليزا الجالسة في سيارة دينبي بذراع مبسوطة على ظهر المقعد، كما شاهدتها ديانا آخر مرة - فهذه ليزا الساقطة لا ريب. قال مايلز بنبرة مسمومة: «فليكن، لقد اختارت الدنيا والجسد. فلنأمل من أجلها ألا تجد أنها قد استحوذت على الشيطان أيضاً!» وبالطبع، لم يخطر لمايلز أن ديانا يمكن أن تشعر شعوراً مغايراً للسعادة. والواقع أنه لم يكن معنيّاً بمشاعر ديانا لاستغراقه في مشاعره الخاصة وكانت ديانا تقول لنفسها: سوف يدبر أمره، سوف يدبر أمره. لقد اجتمعنا أزواجاً أزواجاً. في نهاية الأمر. فاز مايلز بربة الشعر، ونالت ليزا دينبي، وكان برونو من نصيبي. من كان يظن أن الأمور ستسوَّى على هذا النحو؟

أحست ديانا بأنها خرجت أخيراً إلى فضاء واسع من الوحدة. بل إن دينبي وليزا برعايتهما الحنون لها، وبأدبهما الجم نحوها، قد فُقِدا بالنسبة إليها وكأنما طواهما الموت. وبدأت تدرك إلى أي حد من الضآلة كان مايلز يفكر فيها حقاً، وإلى أي مدى من الضعف كانت محاولته لتجسيد الوجود الحقيقي لزوجته في مخيلته. كانت هذه المخيلة متورطة في معارك أخرى

twitter @baghdad_library

أشد غرابةً. وقد بدا قريباً منها كل القرب عندما تحدث إليها عن بارڤاتي، ولكن يبدو لها الآن أنها استُغِلَّت ببساطة من أجل شيء آخر. فقد كان مايلز في حاجة إلى أزمة في علاقته بالماضي، كان يفتقر إلى محنة معينة، وقد ساعدته على تحقيقها، وعاد الآن إلى داخل نفسه أكثر اكتفاءً بذاته عن ذي قبل. وفكّرت أن تثيره إلى الانتباه إليها بأن تخبره بأنها بدورها واقعة في غرام دينبي. غير أن هذا لم يعد سوى إضافة اللامعقول إلى الألم.

وطاف بذهنها: والآن، لقد ارتكبت أحمق الأشياء جميعاً، حين أصبحت متعلقة بشخص يُحْتضر. أليس هذا هو أبعد صنوف الحب عن المعنى؟ إنه أشبه بحب الموت نفسه. في أول الأمر كانت رعايتها لبرونو مجرد نوع من الحتمية المنطوية على العزاء. كانت شيئاً إجبارياً، مهّمةً، واجباً، كما أنه أبعدها عن «حدائق كمبسفورد» حيث يجلس مايلز مبتسماً ابتسامته المنتشية الحميمة. وكذلك وضعتها في صلة طبيعية بدينبي. ثم أصبح القُرب من دينبي عذاباً فيما بعد. ولكنها انتهت في هذه الأثناء إلى حب برونو، إلى حبه حباً يخلو من الأمل والقلق، لأنه لا يستطيع أن يمنحها شيئاً نظير حبها سوى الألم. وبدا لها مع مضيّ الأيام أن برونو أضحى أضعف وأقل رشداً، وأنها إنما جاءت لتشاطره موته، وتخوض تجربته أيضاً.

وأحست ديانا بنفسها تكبر في العُمُر، وحين نظرت في المرآة ذات يوم، رأت أنها تشبه شخصاً ما. إنها تشبه ليزا كما اعتادت ليزا أن تكون. ثم بدأت تلاحظ أن كل شيء يبدو مختلفاً: المرارة اللاذعة قد ولّت. وحل مكانها ألم أشد فخامة وشناعة من أي ألم عرفته من قبل. وكلما جلست يوماً إثر يوم ممسكة بيد برونو النحيلة المليئة بالبقع بين يديها احتارت في الألم وماذا يكون، وأين يكون، أهو فيها أم في برونو؟ وشاهدت أوراق الشجر العاجية، ومقبض الباب المتغضّن، والشق الموجود في جيب عباءة برونو العتيقة ـ شاهدت هذا كله عن كثب وبوضوح لم يسبق لها أن عاينته أبداً.

وبدت لها الطرقات المألوفة بين «حدائق كمبسفورد» و«شارع الاستاد» كأنها دروب في مدينة مجهولة؛ كثيرة جداً تلك الأشياء الجديدة التي بدأت تلاحظها في هذه الطرقات: النباتات الموضوعة في الأصص أمام النوافذ، درجات السلالم غير المنتظمة فوق الجدران، الطحالب الخضراء الرطبة المطلة من أحجار الرصيف. حتى أكوام الغبار الصغيرة، والأوراق الملفوفة التي تتطاير إلى الأركان كانت تطالب بالانتباه وتستحقه. كما أن وجوه السابلة كانت تتوهج بوضوح غريب وكأن حاضرها المغرِّر قد استطال حتى يتيح لها التأمل في ظرف لحظة واحدة. وكانت ديانا تسائل نفسها عن معنى هذا، وهل كان برونو يعانيه أيضاً. كانت تود لو تسأله، غير أنه كان يبدو الآن نائياً، متلفعاً بحيرة وتأمل من صنعه، وهكذا جلسا معاً اليد في اليد وكل منهما يجوس خلال أفكاره الخاصة.

اشتد الألم حتى لم تعد ديانا تعرف إن كان لا يزال ألماً، وتساءلت إن كانت قد تغيّرت به تماماً، أم أنها ستعود إلى وجودها العادي وتنسى ما كان من شأنه في تلك الأيام الأخيرة مع برونو. وأحست أنها لو استطاعت أن تتذكره، فسوف يكون في ذلك تغييرها. ولكن، بأية طريقة؟ وماذا كان هناك لتتذكره؟ ماذا كان هناك حتى يبدو على تلك الأهمية، شيء تستطيع أن تفهمه الآن، وتخشى كثيراً أن تفقده؟ حينذاك لم يكن لها أن تتمنى لنفسها عذاباً كهذا الذي عانته خلال الفترة الباقية من حياتها.

حاولت أن تفكِّر في نفسها، ولكن يبدو أن لا شيء هناك. قالت لنفسها: لا يمكن للأشياء أن تكون على جانب كبير من الأهمية، لأن الانسان نفسه ليس شيئاً. ومع ذلك فالمرء يحب الناس، هذا هو المهم. وربما كان هذا الألم العظيم هو حبها الذي لا نفع فيه لبرونو. الإنسان لا شيء، ومع ذلك فإنه يحب الناس. كيف يمكن أن يكون ذلك؟ إن حقدها على مايلز، وعلى ليزا، وعلى دينبي قد ولَّى تماماً. سيزدهرون جميعاً،

twitter @baghdad_library

وستراقبينهم في حنان وكأنك تراقبين أطفالاً. من قال لها هذا؟ ربما لم يقل هذا أحد، اللهم سوى روح انبثت في أفكارها الخاصة. استرخي. دعيهم يطأونك. أحبيهم. دعي الحب ينتشر كقبة ضخمة مفتوحة فوق رأسك. إن عجز النسيج البشري في قبضة الموت كان شيئاً أحست به ديانا الآن في جسدها. لقد عاشت واقع الموت، وشعرت بأنه جعلها لا شيئاً، وجرّدها من الشهوة، ومع ذلك ما برح الحب موجوداً، الشيء الوحيد الموجود.

واسترخت اليد العجوز المليئة بالبقع التي كانت تتشبث بيدها، في آخر المطاف.

twitter @baghdad_library

كان يسائل نفسه: ماذا حدث له؟ وفيم كل هذا؟ وهل يحلم الآن بعد أن انتهى عملياً كل شيء؟ وقال لنفسه: لم يكن كل شيء إلاَّ حلماً، والانسان يعيش خلال الحياة في حلم، وما أصعب هذا كله! إن الموت يرفض الاستقراء وليس هناك «ما» بالنسبة إليه لكي يكون «هذا كله». لا وجود لشيء سوى الحلم، ونسيجه، وماهيته، وفي أمورنا الأخيرة لا نبقى إلاَّ في حلم شخص آخر، ظل داخل ظل، يتلاشى، ويتلاشى، ويتلاشى.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ ـ ١١ بيروت